



256

قصف العقول

الدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي

تأليف: د. فيليب تايلور

ترجمة: سامي خشبة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923 ـ 1990

256

قصف العقول

الدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي

تأليف: د. فيليب تايلور

ترجمة: سامي خشبة



المحتوى

المحتوى
المحتوى
المحتوى

المحتوى

المحتوى
المحتوى
المحتوى

المحتوى

مقدمه المترجم

على رغم أن عنوان هذا الكتاب ـ الذي يحدد موضوعه ـ هو: الدعاية للحرب، فإن مادة الكتاب ومنهج مؤلفه يجعلانه ـ في وقت واحد ــ كتابا في السياسة وفي الإدارة السياسية (النفسية والفكرية والمعلوماتية) للحرب، وفي الأسس الثقافية والاجتماعية للتعبئة العسكرية، ثم لشن الحرب ذاتها في النهاية، ويجعلانه أيضا كتابا في التاريخ السياسي الثقافي/الاجتماعي والتكنولوجي للحرب، وفي تطور الفكر الذي عبرت عنه عقائد من اختارهم المؤلف من أطراف الحروب عبر العصور، وعلاقة تلك العقائد بكل من شن الحرب أو الدعاية لها أو ضد خصوم أصحابها في كل منها. وعلى رغم أن الموضوع الذي يحدده العنوان للكتاب ـ وتخصص مؤلفه (التاريخ الدولي الحديث) ـ يضعان الكتاب في دائرة العلوم السياسية، فإن موضوع «الدعاية» ذاته يضع الكتاب بقوة في «خانة» العلوم الإعلامية الحديثة. ولكنه يوضع داخل هذه «الخانة» في مكان لابد أن يكون ـ من ناحية ـ قريبا أشد القرب من دائرة العلوم النفسية، وعلم النفس الاجتماعي وعلم نفس الحشود أو الجماهير بشكل خاص، وأن يكون قريبا ـ من ناحية أخرى ـ من دائرة العلوم العسكرية: علوم التعبئة الاجتماعية/النفسية للحرب، وعلوم أو فنون القيادة (قيادة الرجال، أصعب الفنون، بتعبير هوميروس الشهير في الإلياذة)، إضافة إلى علم تاريخ الجيوش شديد

الارتباط بالتاريخ السياسي الاجتماعي وتاريخ كل من الأسلحة والجندية، وهو بدوره علم شديد الارتباط بتاريخ التطور التكنولوجي والتعليم، وأخيرا، وليس آخرا، فإن الكتاب يعد ـ فوق كل ذلك ـ كتابا في علم تاريخ وسائل الاتصال ووسائل توظيفها واستخدام القائم منها في كل عصر، أو ابتكار أنواع جديدة في مجالها، أو ابتكار وظائف اتصالية لوسائط ـ أو لوسائل ـ لم يكن الاتصال بمعنى نقل المعلومات ونشر الأفكار، أو لم تكن «الدعاية» من وظائفها الأصلية بأي شكل.

هو إذن، على رغم عنوانه المحدد وموضوعه الذي يبدو موضوعا محدودا، كتاب يعتمد بالضرورة على المواد المعرفية التي توفرها مجموعة كبيرة من العلوم الاجتماعية ـ التقليدية والجديدة، وعلى مناهج البحث وأساليب التحليل المضموني التي تعتمد عليها تلك العلوم، ولعل ذلك يرجع ـ على رغم كل شيء ـ إلى طبيعة موضوع «الدعاية للحرب» في حد ذاتها: فالحرب ـ بتعبير مؤسس علم الجغرافيا الاستراتيجية كلوزفيتز ــ «امتداد للسياسة بوسائل مختلفة». وهذا التعبير يشير إلى فهم خاص للسياسة ـ وليس للحرب فقط ـ يقوم على أن للسياسة والحرب الهدف ذاته: أي تغليب إرادة جماعة أو مجتمع ما ـ ووجودهما ـ على إرادة ووجود جماعة أخرى أو مجتمع آخر. وبصرف النظر عن أصل هذا الفهم للسياسة بالذات فإنه بسبب هذا الارتباط الأصولي والمصيري بين الحرب والسياسة فلا مندوحة عن أن يكون الكلام عن الدعاية للحرب كلاما عن الدعاية السياسية في الوقت ذاته. وفيما يتعين أن تتناول «الدعاية للحرب» موضوعات الدعوة للجندية وتخويف الأعداء أو إرهابهم من ضراوة صاحب الدعاية وقوته أو وحشيته، و الاستهانة بكل من القتل والموت وإعلاء شأن أسلحة بعينها والتهوين من شأن أسلحة أخرى... إلخ، فإنه يتعين أيضا الدعوة إلى «قضية» بعينها و إعلاء شأنها والتهوين من شأن «قضية» أخرى والحط منها. وإذا كانت السياسة (الفكر السياسي والعمل السياسي معا) مطالبة دوما بأن تتبصر بالعناصر الرئيسية (الثقافية/الاقتصادية/التاريخية والبشرية/ الجغرافية الاقتصادية) التي يتكون منها البناء الاجتماعي المعين وأن تضع في حسبانها دوافع التفاعل بين تلك العناصر ونتائج ذلك التفاعل، فإنها

تفعل كل ذلك في ارتباط بالهدف الذي تسعى إليه الحرب «بوسائل أخرى».

غير أن «الدعاية» بوصفها أحد العلوم الإعلامية الحديثة نسبيا نجحت ـ على أيدي الأساتذة المتخصصين (الأكاديميين والممارسين) ـ في تطوير مجموعة خاصة بها من الأصول أو القواعد التي تستهدف «الإقناع» على أساس القول بأن الدعاية هي في النهاية: فن الإقناع، وهذا جزء رئيسي من «اقتناع» مؤلف الكتاب. ويمكن تلخيص تلك القواعد ـ أو الأصول ـ في ثلاثة هي: كسب مظهر الصدق، (لكسب ثقة الجمهور المتلقي المراد إقناعه)، ثم: البساطة والتكرار (للوصول إلى أذهان ومشاعر الناس بسرعة، والنفاذ إلى ذاكرتهم التي «لن» تتذكر إلا ما استوعبته بسهولة وبكثرة)، ثم: استخدام الرموز وضرب الأمثلة (فالذاكرة البشرية يسهل أن تختزن وأن تستدعي الصور ذات الدلالات المرتبطة بمخزون الذاكرة الموروث أو المكتسب).

غير أن هذه الصياغة البالغة التجريد لأصول الدعاية أو قواعدها تفقد الكثير من موضوعيتها في التطبيق العملي، حيث تتجلى الفروق الدقيقة (أو الكبيرة) بين «مظهر الصدق» و«الصدق» ذاته، أو بين البساطة والدهاء والرموز المثيرة لغرائز العدوان والرموز التي تستدعي نبيل المعاني أو رفيع القيم. فمن الذي يستطيع الآن أن يقبل انفعالية الدعاية النازية وسخونتها بشأن المطالبة بحقوق الأمة الألمانية في الوحدة والرخاء، على أساس أن ذلك الانفعال ينطلق من صدق البراءة ومن إحساس المظلوم بالقهر؟ ومن الذي يستطيع أن يسلم الآن بأن الدعاية الشيوعية عن تمثيل الحزب الشيوعي لضمير الأمم الخاضعة للإمبراطورية الروسية وللطبقات المقهورة هي «البساطة» بعينها؟ أو أن يسلم بأن رموز «الحرية والإخاء والمساواة» التي صاغها أوائل الثوار الفرنسيين ظلت ـ عبر حكومات الثورة من الإدارة إلى الأمن العام إلى القنصلية إلى الإمبراطورية البونابرتية ـ تحمل المعاني نفسها التي قصد إليها مونتسكيو؟ أو أن فولتير الداهية ـ المعجب بلويس الرابع عشر وفريدريك الأكبر والديموقراطية الإنجليزية والعقلانية الفرنسية في وقت واحد ـ كان يقصد المعاني ذاتها حينما استخدم الكلمات نفسها التي استخدمها روسو أو جون لوك في حديثه عن «الدولة» في أثناء دفاعه عن طغيان لويس الرابع عشر؟

ومع ذلك فإننا لا شك نتفق مع المؤلف في أن الدعاية ـ بوصفها أداة

للإقناع السياسي/ الأيديولوجي/ النفسي، وتعمل في إطار «ظروف» تاريخية/ اجتماعية وسياسية وثقافية محددة ـ لا يمكن أن تكون هدفا، في حد ذاتها، للهجوم. وأن المشكلة الأخلاقية أو الفكرية لا تثيرها «الأداة»، وإنما قد يثيرها مضمون الرسالة التي تحملها تلك الأداة، وهو المضمون الذي تحدده وتحكمه الظروف التاريخية المشار إليها. فالوسائل الدعائية التي استخدمتها الدول الديموقراطية هي ذاتها الوسائل التي استخدمها النازيون في الحرب العالمية الثانية. ووسائل التعبئة الجماهيرية التي استخدمها البلاشفة المثقفون والعمال والفقراء الروس في أثناء الثورة البلشفية، وفي أثناء حرب التدخل والحرب الأهلية، لكي يقيموا دولتهم الشيوعية، هي ذاتها الوسائل التي استخدمها الثوار الأمريكيون (ملاك الأراضي وسادة العبيد والتجار)، لكي يقيموا دولتهم الليبرالية الرأسمالية، وهي ذاتها الوسائل التي استخدمها الثوار الفرنسيون لكي يشعلوا أوروبا والعالم بدعاياتهم الثورية باسم شعارات مثالية رفيعة، لم تصمد قط لاختبار التنفيذ العملي ولا لبضعة شهور أو أيام.

غير أن الدعاية ـ حتى بوصفها أداة «موضوعية» ـ يصعب أن تدرس دراسة شافية ونافعة في عصرنا بعيدا عن محتواها، ولا بعيدا عن حقيقة «الوجه» أو القناع الذي ترتديه لكي «تدعو» إليه أو عن زيف هذا الوجه (القناع)، وهذا «مبدأ» لم يتجاهله المؤلف على رغم تأكيده كثيرا أنه يدرس أساليب الدعاية مجردة عن مضمونها، وأنه يصف ثم يحلل تلك الأساليب بصرف النظر عن الرسائل التي كانت تحملها. لم يتجاهل المؤلف مبدأ حتمية ارتباط الوسيلة بالرسالة، لأن الدعاية التي انطلقت لدعوة شعب للدفاع عن وطن يتعرض للعدوان والتدمير، أو للدفاع عن حريات الناس وحقوقهم المشروعة أو عن العدل والسلام ـ منذ دعاية الإغريق ضد العدوان الفارسي ـ تختلف في دلالتها، حين ندرسها نحن الآن، عن دعايات الصليبيين أو الفاشيين أو النازيين وأمثالهم.

وقد لا نعثر على دليل يؤكد ذلك أفضل مما يمكن أن نستخلصه من تحليل الجانب «المضموني» للكثير من الدعاية التي درسها وحللها الكتاب ذاته.

فلن يغيب عن فهم القارئ الفطن أن للمؤلف ذاته موقفه الخاص أو

مواقفه الخاصة التي تنطلق من انتماءاته المتفاعلة. فالمؤلف مؤرخ ومفكر وأستاذ جامعي «غربي، بريطاني، يؤمن بالليبرالية»... ومن الواضح أنه قريب في اختياراته السياسية من حزب المحافظين البريطاني. ولا شك أن هذه الانتماءات المتفاعلة هي التي تتحكم في اختياراته، وفي بناء وجهة نظره إزاء المضمون الذي تحمله السلسلة التاريخية للدعايات التي يدرسها، ولعل هذا هو السبب الذي دفعه إلى أن يتجنب الحديث عن الدعاية في أفريقيا وآسيا، وأن يتجنب الدعاية الغربية التي انتشرت في العصر الاستعماري (على رغم مروره على زمنها في المدة من أوائل القرن السابع عشر إلى منتصف القرن العشرين). ولعل هذا أيضا هو ما جعله يتجاهل تقريبا الدعاية النازية ضد اليهود؛ فربما فرض عليه هذا ـ لو تعرض لتلك الدعاية ـ أن يدرس الدعاية الصهيونية، الأمر الذي كان سيفرض عليه أن يناقش وجهة النظر الأخرى ـ المعادية للصهيونية وللنازية جميعا.

ولعل الانتماءات ذاتها أيضا هي ما دعته إلى تجنب الحديث عن «دعاية» المسلمين في أثناء الحروب الصليبية على رغم عرضه للدعاية الغربية في أثنائها، وهو الدفاع (الانتماء) ذاته الذي يدفعه إلى الإسهاب في الحديث عن الدعاية البريطانية في أثناء عصر الفتح النورماني لغرب أوروبا ـ وبريطانيا خاصة ـ ثم في أثناء حروب الثلاثين سنة، وتخصيص فصل مستقل للدعاية التي اقترنت بعصر أسرة تيودور البريطانية (وخاصة في عهد كل من هنري الثامن وابنته إليزابيث الأولى)، ثم تخصيص فصل مستقل آخر عن الدعاية في عصر كرومويل (الثورة البرلمانية وعصر البرلمان الطويل والجمهورية التي تحولت إلى ديكتاتورية اللورد الحامي Lord Protector)، وذلك قبل أن يتحول المؤلف إلى فصول الدعاية الثورية في كل من الولايات المتحدة وفرنسا.

وفي كل هذه الفصول ـ إلى جانب ما نتعلمه عن فنون الدعاية ـ فإن المؤلف يبدو «داعية» لتصور النظام الملكي البرلماني في بلاده (بريطانيا) موضحا ـ بذكاء لماح ـ تحول الدعاية من مجرد دعاية للحرب التي تشنها أمة ضد أمة أخرى، إلى دعاية لنظام سياسي أو لأكثر من نظام، أو لقائد عسكري أو سياسي مع تطور الطباعة ونشر التعليم وزيادة قوة الأسلحة النارية التي قضت على احتكار الفرسان النبلاء للحرب ـ خسائرها ومكاسبها

على السواء ـ وزيادة انشغال المدنيين من الطبقات الوسطى والعاملة بالسياسة وبالحرب بالتالي. يدعو المؤلف لنظام بلاده الملكي البرلماني (الليبرالي)، موضحا أيضا مساوئ «الرسالة» التي تحملها هذه الدعاية أو تلك ومحاسنها. فكروموبل يخفي ديكتاتوريته وراء قناع برلماني ضعيف قبل أن يسعى لتحويل ديكتاتوريته إلى ملكية يغصب فيها السلطة المطلقة دون وجه حق لنفسه ثم لابنه من بعده. والثوار الأمريكيون يتحولون بدعايتهم من المطالبة بحقوق التمثيل النيابي في إطار المملكة البريطانية (المتحدة)، إلى المطالبة بالاستقلال الكامل عنها (والمؤلف يحبذ الاتجاهين، فلا مجال الآن لا لانتقاد الثوار الأمريكيين ولا لامتداحهم على أي مما استهدفوه في مراحل ثورتهم التي أسفرت عن مولد الولايات المتحدة الأمريكية!). وبونابرت الديكتاتور العسكري ثم الإمبراطور يواصل الاعتماد على شعارات الثورة الفرنسية ذاتها، وثوارها الأوائل بعد أن غرقت في دماء أبنائها وأعدائها وأصدقائها على السواء، وبعد أن حول بونابرت حروب الثورة «الدفاعية» إلى حروب هجومية لحسابه الشخصي ولحساب طبقة المقاولين الفرنسيين الجدد، يسعى فيها إلى السيطرة على أوروبا وإلى بناء إمبراطورية استعمارية في «الشرق» ـ كالإسكندر الأكبر ـ لحسابه ولحساب طبقته الجديدة التي تخلت عنه في النهاية.

غير أنه ينبغي أن نتوقف عند النقطة المحورية (التاريخية والفكرية معا) التي تتحول عندها «الدعاية للحرب» إلى دعاية سياسية كاملة تستهدف الدعوة إلى فكر سياسي: وطني أو اجتماعي أو أيديولوجي ـ أو كل هذه المكونات معا ـ وإلى الدفاع عنه (بالحرب) أو إلى مهاجمة نقائضه والدعوة إلى خوض الحرب ضد تلك النقائض. إنها النقطة التي فقدت عندها الحرب علاقتها بكل من «فرسان» العالم الوسيط والطابع الشخصي للقتال بأسلحة العالم القديم، وتحولت إلى جهد شامل يبذله المجتمع كله (الدولة والشعب) من ناحية، وإلى خطر شامل يتعرض له الجميع من ناحية أخرى.

وتلك هي النقطة أيضا التي أصبحت الدعاية فيها توجه أساسا إلى كل من المجتمع الوطني كله (المدنيين و الجنود على السواء) وتوجه الدعاية المضادة فيها إلى مجتمع الأعداء كله (المدنيين أيضا والعسكريين على السواء).

يبدأ هذا التحول، و يتخذ صورته الناضجة، مع بدايات الحرب الحديثة ـ الشاملة تقريبا ـ منذ حروب الثورة الفرنسية والحروب البونابرتية، وفي فرنسا بصورة خاصة التي كانت هي أولى الدول احتشادا للحرب الشاملة (بسبب اندماج كتل الجماهير الشعبية في قضية الثورة ـ في البداية ـ واستمرار اندماجها في قضية الحروب التالية توهما من تلك الجماهير أنها ما تزال تقاتل في سبيل الثورة).

ولعل أخطر ما يطرحه المؤلف من الأفكار في هذا السياق، وعلى طول الفصول التالية، هو قضية العلاقة بين أجهزة «الإعلام» الوطنية ـ التي تتولى عمليا مسؤولية «الدعاية» لأهداف ومصالح الدولة الوطنية وشعبها في مراحل الإعداد للحرب، أو في أثناء الحرب نفسها ـ العلاقة بين هذه الأجهزة (من صحافة وإذاعة وتليفزيون وإصدارات ثقافية... إلخ) وبين أجهزة الرقابة المسؤولة عن حماية كل من أسرار الدولة (وقواتها المسلحة) ومصالحها القومية العليا.

وفي الدول الديموقراطية تتمتع هذه العلاقة بحساسية خاصة بسبب التناقض الأصولي بين مبدأ «حرية الرأي والتعبير» ومفهوم «الرقابة» ذاته. و يؤكد المؤلف على المبدأ الذي يكفل حل هذا التناقض (والذي كفل حله بالفعل على الأقل في بريطانيا خلال الحربين العالميتين وخلال حرب فوكلاند ـ على الأقل ـ في حدود اختيارات المؤلف ذاته) إنه مبدأ التزام الإعلام الوطني ـ بوعي وصرامة ـ بمصالح الدولة وقواتها المسلحة على أساس عدم القيام بنشر أي معلومات أو آراء تضر بالأمن القومي للدولة وللمجتمع، وعلى أساس ألا تمنع الأجهزة الرقابية الإعلام الوطني من حقوق المتابعة ونقل الحقائق إلى الرأي العام الذي يتحمل ـ في النهاية ـ أعباء وتبعات الحرب ويتمتع بمكاسبها المادية أو المعنوية.

غير أن الدعاية الموجهة إلى «الأعداء» في زمن الحرب، والتي أصبحت تعد جزءا رئيسيا من «المجهود الحربي» لأي دولة محاربة، هي الدعاية التي تتخذ صبغة «الحرب النفسية» فهي ـ كما يقول المؤلف ــ قذائف من الكلمات التي تختار بعناية وتصاغ بحساب دقيق مستهدفة تشكيك شعب دولة العدو وجنوده في قضيتهم، وهدم ثقتهم في قياداتهم وفي حكومتهم وفي قدرتهم على تحقيق النصر، فبقدر ما يسعى طرف إلى تأكيد عدالة

قضيته الخاصة والمحافظة على إيمان شعبه وجنوده بها وثقتهم في قياداتهم وحكومتهم وفي قدرتهم على تحقيق النصر، فإنه يسعى إلى النقيض تماما في دعايته الموجهة إلى «الأعداء». وفي النظم الشمولية والقائمة على القهر يعمد الحكام ـ عادة ـ إلى القيام بما يسمى «غسيل أدمغة» شعوبهم، عن طريق حملات دعائية دائمة كاسحة متكررة العناصر وثابتة الاتجاه لشحن عقول الشعب ـ وجنوده ـ بصورة «الزعيم» وأقواله وأفكاره، وكما نرى في تحليل المؤلف للدعاية الهتلرية والستالينية على السواء.

وقد يكون هذا موضوعا لدراسة سياسية مقارنة ممتعة ونافعة، تبحث الأسس التي تقوم عليها دعايات النظم الليبرالية والشيوعية والفاشية، والدعاية المضادة، أو الحروب النفسية لكل منها ـ كما تبحث الفوارق بينها ـ وخاصة فيما يتعلق بتكريس معاني الحرية والوطنية والعدل، وفيما يتعلق بمدى التركيز على الأشخاص وعلى المؤسسات وعلى الأوطان وعلى المبادئ. إن دراسة مقارنة بين دعايات بريطانيا أو الولايات المتحدة من ناحية، وألمانيا النازية وروسيا الشيوعية واليابان في أثناء الحرب العالمية الثانية من ناحية أخرى، يمكن أن تلقي الكثير من الأضواء على مسار تطور كل منها ومصير نظامها بعد الحرب واختياراتها في المرحلة التالية، أي مرحلة الحرب الباردة.

والمؤلف يدرس دعايات هذه الدول الخمس في أثناء تلك الحرب بالفعل دراسة وصفية، لا ينشغل فيها بـ «صدق» أو «كذب» دعاية هذه الدولة أو تلك، ولا يهتم فيها بتقييم أخلاقي أو سياسي لهذه الحملة الدعائية أو تلك... ولكنه يترك للقارئ الفطن مهمة طرح أسئلته واستكشاف إجاباتها من بين سطور كتابه، أسئلة من نوع: لماذا ظل الجيش الألماني يقاتل حتى النفس الأخير على رغم انهيار وتلاشي كل أمل في النصر، بل حتى في هدنة تحفظ ماء الوجه؟ هل كان الألمان يدافعون عن هتلر أم عن ألمانيا؟ ولماذا حارب الروس بكل هذه الضراوة حتى النصر؟ ولم يحارب الفرنسيون إطلاقا ـ في بداية الحرب؟ ولماذا كان الإيطاليون يلوذون بالفرار حتى وهم متفوقون، بينما كان الإنجليز يصمدون ويتماسكون حتى في حالة تفوق «الأعداء» الكاسح؟

هل كانت الدعاية بقوة تأثيرها أو ضعفه وراء كل من تلك المواقف

المتضاربة، أم أن للشعوب «خصائص» تتميز بها «شخصياتها القومية» بتكويناتها النفسية والثقافية؟ أم أن الدوافع الوطنية والإيمان التلقائي من جانب الشعوب بحقوقها في الحرية والاستقلال الوطني وباختيارها الحر لمصيرها هي التي تدفع الشعوب إلى تأييد الحرب (الدفاعية أو الهجومية)، وعدم الإحجام لا عن دعم الجهد المبذول فيها ولا عن خوضها؟ أم أن مزيج النزعات العدوانية ـ ودوافعها من طمع في الثورة أو نزوع إلى الترحال أو رغبة في إثبات الذات أو إحساس بالتفوق ـ ونزعات الحفاظ على الذات، هو المزيج الذي يسمح للدعاية بأن تنجح أو تفشل حسب قوة كل من المزيج الأصلي والدعاية نفسها؟

ولو عدنا إلى تاريخنا نحن شعوب العالم القديم والحضارات الأولى ـ في آسيا وأفريقيا ـ فاستقينا من ذلك التاريخ أسئلة محددة ـ مرتبطة بوقائع بعينها ـ ربما تمكنا من صياغة تصور آخر عن كل من أفضل وسائل الدعاية (السياسية وفي إطار الحرب على السواء) والأسباب الكامنة وراء كل من تأييد الحرب أو الإحجام عن تأييدها.

غير أننا بالعودة إلى موضوع كتابنا فلا شك أن البعض سوف يسأل سؤالا مهما، فحواه هو الشك في أن تكون للدعاية من القوة ما يجعلها قادرة على تغيير مسار التاريخ أو دفعه إلى مسار خاص ما كان ليتخذه لولا قوة تلك الدعاية.

فعلى سبيل المثال يرسم المؤلف صورة للحملة الدعائية البريطانية في الولايات المتحدة ـ فيما بين 1914 و 1917 ـ أي خلال السنوات الأولى للحرب العالمية الأولى توحي بأن الولايات المتحدة دخلت تلك الحرب إلى جانب الحلفاء الغربيين (بريطانيا وفرنسا وروسيا أساسا) بفضل أعمال دعائية عدة موفقة وبالغة التأثير، قامت بها أجهزة الدعاية (بمساعدة أساسية من أجهزة الاستخبارات) البريطانية. وفي موضوع آخر، يشير المؤلف إلى أن تأثير موقف الصحافة والتليفزيون الأمريكيين ـ ضد التورط الأمريكي في فيتنام ـ هو ما أدى إلى «خروج» الولايات المتحدة من تلك الحرب قبل أن تحقق الانتصار فيها. غير أن القراءة «النصية» لكلمات المؤلف في تلك السياقات وما يشبهها ليست هي القراءة الملائمة. فالدعاية في كل الأحوال ـ ومهما كان من كفاءة القائمين بها وذكاء خططها وقدرتها على الوصول

الواسع والتأثير النافذ ـ لم تكن في النهاية سوى عامل مساعد للعوامل الأصلية المكونة للحركة الفعلية للتاريخ. فالولايات المتحدة: الدولة الديموقراطية وذات الروابط الاقتصادية والثقافية والسياسية البالغة القوة بالديموقراطيات الأوروبية الغربية الكبرى (بريطانيا وفرنسا ودول اسكندنافيا أساسا) وذات المصالح القوية الارتباط بالكيانات «الإمبراطورية» للحلفاء في آسيا وأفريقيا وكندا والمحيط الباسيفيكي، هذه الدولة الكبرى بهذا التكوين وبهذه المصالح ما كان يمكن أن تظل بمنأى عن «الحروب الأوروبية» الكبرى بعد أن وصل تفاعل وتشابك المصالح إلى مستوى الكرة الأرضية كلها، ووصل تفاعل المكونات الثقافية والبشرية إلى مستوى «الوجود» أو كينونة المجتمعات المتحالفة والمتحاربة (بفضل سيادة مفاهيم القومية ودولها ومنطلقاتها)، فما كان للولايات المتحدة أن تنضم إلى غير «المعسكر» الذي انضمت إليه بالفعل (الحلفاء)... بصرف النظر عن ذكاء أو دهاء رجال الدعاية البريطانيين. ومع ذلك فلا شك في أن هؤلاء ساعدوا على الإسراع بانضمام الولايات المتحدة إلى الحرب في صف الديموقراطيات الأوروبية. بقدر ما ساعدوا على تماسك جبهة بلادهم الداخلية على رغم الصعوبات التي واجهت جيوشهم في المراحل المبكرة للحرب العالمية الأولى، والهزائم التي لحقت بهم في بداية الحرب العالمية الثانية.

ولا شك أيضا في تأثير موقف «الميديا» الأمريكية ـ ضد التورط الأمريكي في فيتنام ـ في معنويات الجيش وقيادته، وفي الرأي العام الأمريكي الذي يكاد يكون قد اجتمعت كل عناصره على رفض استمرار التورط في هذه الحرب، غير أنه سيكون من الظلم وعدم الموضوعية تجاهل صلابة وبسالة الشعب الفيتنامي في كفاحه الطويل من أجل الاستقلال الوطني والتقدم والعدل ضد سلسلة طويلة من المحتلين: فرنسا ثم اليابان ثم فرنسا ثانية ثم الأمريكيين (تقول المصادر الغربية إن القائد العسكري للمقاومة الفيتنامية، الجنرال جياب، هو القائد الوحيد الذي أنزل الهزيمة بجيوش ثلاث دول كبرى متعاقبة دون أن تلحق بقواته هزيمة كبيرة واحدة). فهل كانت «الدعاية» هي صانعة هذه الانتصارات المذهلة ـ حتى في عصرها الذي شهد الكثير من انتصارات ثورات الشعوب وحروبها التحريرية ـ أم كانت خصائص كامنة في ثقافة شعب تقوم على التقشف الشديد والزهد البالغ مع الانضباط

الصارم، وممارسة أنواع كثيرة من رياضات التحكم الذهني في الجسد مع تحمل ما لا يطاق من الآلام البدنية، والثقة المطلقة في النفس والرغبة في الابتعاد عن بقية الجماعات البشرية؟!

لا شك في أن الدعاية (بمعنى التربية، أو التعليم التربوي) لعبت دورا رئيسيا في «توعية» الشعب الفيتنامي بخصائص ثقافته (أي بخصائصه هو النفسية والسلوكية والفكرية والاجتماعية/السياسية). غير أن البنية الاجتماعية الموروثة القائمة على العائلة الممتدة وذات الأجيال والقرابات المترابطة ـ وهذه أيضا سمة ثقافية ـ لعبت دورا رئيسيا آخر في نجاح «التنظيم العسكري/ السياسي والاجتماعي غير النظامي» واستمرار تماسكه وفعاليته بشكل متزايد الامتداد... إن الدعاية في هذه الحالة لم تكن «مجرد استنفار» للمشاعر ولا مجرد إلهاب للعواطف ولا مجرد تضخيم للإحساس بالذات الوطنية أو الاجتماعية وإنما كانت عملا تربويا سياسيا من الدرجة الأولى يستطيع أن يغير اتجاه المجتمع كله (من الحرب إلى السلم ومن الشيوعية إلى نظام السوق الحر) بسهولة ودون مشاكل كثيرة مع الاحتفاظ بدرجة الكفاءة ذاتها ومستواها.

فإذا كان لنا أن نضيف شيئا إلى «فكر» المؤلف، فإن المعنى الأساسي الذي نود طرحه هو أن الدعاية الناجحة، لا تنجح إلا لأنها سارت في الاتجاه ذاته الذي يسير فيه التاريخ أو الحركة التاريخية التي هي في ذاتها حركة مركبة تشارك في تكوينها عناصر وعوامل نفسية ومعرفية (ثقافية) موروثة ومستحدثة، وعوامل وعناصر اقتصادية/ سياسية واجتماعية تتفاعل في بوتقة المجتمع الواحد المحدودة أو في بوتقة المنظومة (المجموعة) الدولية على اتساع تلك المنظومة أو على اتساع الكوكب كله بكل ما يحتويه من ثقافات ومستويات من التطور والتعقيد والتوجهات. فلو بحثنا على سبيل المثال أسباب نجاح الدعاية الثورية الأمريكية (دعاية الثوار الأمريكيين للاستقلال عن بريطانيا) إضافة إلى الأسباب «التكنيكية» التي ذكرها المؤلف، فلابد أن نتوقف عند نمو «ثقافة الفردية والاختيار السياسي الحر» في المستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية (والشاطئ الشرقي منها بالذات)، وعند نمو الثروة الاقتصادية المحلية وازدياد وعي المستوطنين (سكان المستعمرات) بمصالحهم وقدرتهم على الدفاع (بالسلاح) عن تلك

المصالح في وجه طبقة ملاك الأرض والتجار البريطانيين ونظامهم السياسي (الملكي الإمبراطوري/ البرلماني)... ولو بحثنا في أسباب نجاح الدعاية النازية إضافة إلى أسباب القدرة الفائقة على تنظيم المسيرات والمظاهرات وصياغة الرموز شبه الوثنية وتوظيف جهاز الراديو والصور السينمائية... إلى آخر هذه الأسباب «التكنيكية» لوجب أن نتوقف عند تضافر مشاعر المهانة لدى طبقة «اليونكرز» ـ نبلاء الريف البروسيين ـ الذين كونوا طبقة (أو فئة) فيلق ضباط الجيش البروسي بميراثه العسكري والعنصري التيوتوني الشهير... تضافر تلك المشاعر مع مشاعر الكبرياء العنصرية والنزعة العسكرية البروسية/التيوتونية، مع حالة الإحباط الاجتماعي العام التي ولدتها الأزمة الاقتصادية الكبرى، وضاعفت من آثارها «التعويضات» التي فرضها الحلفاء على ألمانيا في اتفاقية فرساي بعد الهزيمة في الحرب العالمية الأولى، إضافة إلى مضاعفة مشاعر المهانة «القومية» لدى شعب يكاد يكون هو الذي ابتكرت ثقافته الفكرة القومية، وهي المشاعر التي تضخمت بنزع أقاليم السار والإلزاس واللورين وشولزويج وهولشتاين من ألمانيا عقب الهزيمة مع حرمانها من التسلح... إلخ. فمع مثل ذلك الميراث، ومع شيوع مثل تلك المشاعر، ومع انعدام أي ميراث «ليبرالي» حقيقي متعمق في «العقلية» الألمانية السائدة كان من السهل أن تنجح الدعاية النازية التي ابتكرت وطورت أساليب دعائية متفوقة من الناحية التكنيكية.

بالمنهج ذاته يمكن أن نبحث في أسباب نجاح الدعاية البلشفية في أوائل القرن، وفي أسباب سقوط الدولة البلشفية نفسها ـ على رغم سيطرتها على كل وسائل الدعاية ـ من أجهزة الإعلام والتثقيف والتعليم والدعوة الحزبية والمنظمات الشعبية... إلخ، في نهاية القرن نفسه... مع وجوب التساؤل عما إذا كانت حملات الدعاية التي شنها راديو الحرية وراديو أوروبا الحرة هي التي أسقطت النظام البلشفي واتحاده وحكوماته وحلفه الدولي في شرق أوروبا كلها، بعد شهور من صدور الكتاب... أم أن الدعاية كانت عاملا مساعدا ساهم في «التعجيل» بحركة التاريخ في اتجاهها الأصيل الذي ترسمه العوامل التاريخية ذاتها؟

هنا لابد أن نتساءل أيضا: ألا ينبغي أن نعتبر الدعاية واحدا من تلك العوامل «التاريخية» باعتبارها إحدى مؤسسات صنع الوعي المحرك للفعل

الإنساني ـ في الحرب أو في زمن السلم على السواء ـ خاصة إذا كانت تسير في الاتجاه ذاته لحركة التاريخ، وخاصة إذا اتبعت أساليب فنية (تكنيكية) فعالة ومؤثرة؟

تبدو الإجابة بالإيجاب على هذا السؤال هي الإجابة الواقعية والصحيحة الوحيدة. فالدعاية، خاصة منذ عصر انتشار التعليم والمطبعة وما تلاها من وسائل الاتصال الجماهيرية الكبرى: الصحافة والسينما والإذاعة والتليفزيون، تكون دون شك ركنا أساسيا من أركان تكوين الوعي السياسي العام وتشكيله سواء كان الوعي السياسي مرتبطا بعملية الإعداد للحرب أو الخروج منها، أي سواء كانت «السياسة» المقصودة هي السابقة على الحرب التي ستكون امتدادا لها، أو هي التالية للحرب التي ستكون استثمارا لنتيجتها أو تبريرا لتلك النتيجة.

ولهذا السبب، فإن أحدا لا يملك ـ ولا يستطيع ـ أن يماحك في الدعوة النهائية التي «يدعو» إليها هذا الكتاب، الدعوة إلى المزيد من الدعاية من أجل السلام، وإلا كان البديل هو التشغيل الكثيف لدعاة الحرب وللدعاية من أجلها... خاصة وقد أصبح السلام هو الهدف الضروري والبديهي ـ في العصر النووي ـ لحركة التاريخ، مرتبطا بالعدل، وإلا لانعكست تلك الحركة انعكاسا لا يكون ثمة أمل في تصحيح مساره.

سامي خشبة

تمهيد

إن محاولة كتابة تاريخ أي موضوع منذ الأزمنة القديمة حتى العصر الحاضر قد تبدو عملا من أعمال الغباوة أو الجنون أو كليهما، في نظر المؤرخين المتخصصين. وإذ بذلت هنا محاولة من هذا النوع، فإنني لن أكون استثناء مستبعدا من هذه النظرة. فمن الواضح أنه مما يتجاوز مقدرة أي شخص واحد، أن يتعامل بتفهم ـ دع عنك التحكم الكامل ـ في الثروة الضخمة من المواد ـ المنشورة وغير المنشورة ـ التي تغطي مساحات التاريخ الإنساني الواسعة. ومع ذلك، فإن المهمة قد تبدو أكثر يسرا مع موضوع متخصص مثل الدعاية، ومثل الدعاية للحرب بشكل خاص. غير أن المعالجات المتخصصة في موضوعات بعينها، والتي تغطي مساحات واسعة من سجلات الأزمنة المتتالية، ليست معالجات شائعة. ومع ذلك، فإنني ـ وبعد أن صعدت بجدارة إلى سفينة الحمقى ـ قد عقدت عزمي على أن أبحر فيها. وعلى ذلك فقد اتخذت أوسع زاوية اقتراب ممكنة إلى موضوع الدعاية للحرب، وذلك بأن أعالجه باعتباره ـ بشكل جوهري ـ نشاطا إنسانيا يتضمن ذلك الجانب الأساسي من جوانب التفاعل الإنساني: تبادل الاتصال. فهذا الكتاب يدرس العلاقة بين تبادل الاتصال بالعنف ـ أي العمليات الحربية ـ وبين تبادل الاتصال بالدعاية، أي الإقناع في النقطة التي تلتقي، فتختلط عندها العمليتان.

ولا شك في أن المؤرخين المتخصصين سوف يماحكون ـ منتقدين ـ بشأن ما ورد في الكتاب أو لم يرد. غير أن هذا الكتاب قد وضع ـ بدرجة أكبر ـ من أجل القارئ العام وأيضا للشغوفين بالأمور العسكرية. ولم يكن باستطاعتي أن أدرس المناطق المهمة للدعاية للحرب في الصين والهند وأفريقيا. ولقد حاولت ـ حيثما كان ذلك ممكنا ـ أن أقيم تحليلي على مصادر بأكثر من إقامتها على أعمال تاريخية منشورة، وذلك على رغم أن الدين الذي تحملته لدارسين كثيرين قد لقي بعض الاعتراف من جانبي ـ وإن كان اعترافا واهنا ـ في مقال الختام الذي يتضمن قائمة بالمصادر. إنني لست من أتباع رأي الأستاذ درينكور Driancort القائل بأن: «كل شيء دعاية» على رغم أنه قد يكون للقارئ عذر إذا ظن أن هذا الأستاذ المتمكن يقود سفينة رحلتي. ومع ذلك فلا ينبغي للقارئ أن يفترض أن الأشخاص الكثيرين الذين أعانوني على إنجاز هذا الكتاب ـ بحثا وكتابة ـ كانوا ـ بأي شكل ـ شركاء لي في السفينة، وهذا على الرغم من أن بعضهم قد حاول بالفعل إنقاذها من الغرق. وهؤلاء الذين بذلوا محاولات من هذا النوع ترجع إليهم، وإليهم وحدهم، أخطاء الحكم. أما جميع الأخطاء الأخرى فترجع إليَّ وحدي.

المؤلف

مقدمه

الحرب والدعاية والحرب النفسية

الحرب في جوهرها تبادل منظم للعنف. والدعاية في جوهرها عملية إقناع منظمة. وبينما تهاجم الأولى الجسد، فإن الثانية تنقض على العقل، الأولى حسية، والثانية نفسية. وفي زمن الحرب تهاجم الدعاية والأعمال الحربية النفسية جزءا من الجسد لا تستطيع الأسلحة الأخرى أن تصل إليه، في محاولة للتأثير في طريقة أداء الأطراف المشاركة في ميدان القتال. إنهما تحاولان رفع معنويات أحد الجانبين وأن تنسفا إرادة القتال لدى الآخر. وعلى هذا النحو، وعلى رغم أنهما لا تستطيعان ـ وحدهما ـ كسب الحرب، فإنهما سلاحان لا يقلان أهمية عن السيوف أو البنادق أو القنابل. ومن المؤكد أن أسلحة العقل ومتفجراته هذه ـ مثلها مثل الأسلحة التقليدية ـ قد أصبحت معقدة بشكل متزايد مع ما تحقق من أنواع التقدم في التكنولوجيا وعلم النفس. غير أن الملحمة الشعرية أو الرسم في الماضي لا يزيدان ـ في الحقيقة ـ شيئا، عن الفيلم أو المذيع التليفزيوني الدعائيين الآن. وعلى الرغم من أن الدعاية للحرب

قد زادت ـ تعقيدا واتساعا ـ زيادة مثيرة في القرن الحالي، فإنها نشاط يرجع إلى الزمن الذي التقط فيه إنسان ما، للمرة الأولى، عصا غليظة في سورة الغضب.

وعلى الرغم من أن الحرب قد لقيت الاعتراف ـ على طول التاريخ الإنساني ـ باعتبارها نشاطا مقبولا، بل غالبا ما اعتبرت نشاطا طبيعيا ومجيدا، فإن الكثيرين ما يزالون يعتبرون الدعاية شيئا مختلفا تماما بوصفها عملية مرفوضة رفضا كليا، لأنها توضع لكي تنسف إرادة الاشتراك في فن الحرب المقبول. ولسوف يتحدى هذا الكتاب هذه الفرضية. فالدعاية ذاتها ليست عملا خبيثا ولا شريرا. إنها في الحقيقة ليست أكثر من تنظيم الوسائل التي تصمم لإقناع الناس بأن يفكروا ويسلكوا بطريقة معينة، وهذا يعني ـ في زمن الحرب ـ دفعهم إلى القتال أو إلى مساندة القتال وتأييده. ولست أعني بهذا ـ ضمنيا ـ أن دفع الناس إلى شن الحروب عمل صائب، وإنما أعني ـ فحسب ـ أن الدعاية تقوم بدور أساسي في إقناع الناس بأن يخاطروا بحياتهم مهما كانت الأسباب أو القضية، وأن تلك الأسباب والقضايا هي الأهداف أو الموضوعات المشروعة للتحليل الأخلاقي والنقدي، لا الدعاية نفسها. وأنه لمن المهم أن ندرك ـ من البداية ـ أنني أعني بالدعاية، المحاولة المتعمدة المدبرة لإقناع الناس بأن يفكروا ويسلكوا بالطريقة المطلوبة. وأعترف بأن الكثير من الدعاية يأتي بالمصادفة عرضا أو بعيدا عن الوعي. ولكنني أناقش هذا القرار العقلاني الواعي باستخدام وسائل للإقناع صممت لتحقيق أهداف محددة من أهداف الحرب. وأنا لا أصدر أحكاما أخلاقية تتعلق بما هو صواب أو ما هو خطأ في هذه العملية، ولكنني أهدف ـ فحسب ـ إلى إبعاد أي نقد أخلاقي عن الدعاية ذاتها، وتوجيه هذا النقد إلى نوايا أولئك الذين يديرون تلك الدعاية وأهدافها.

ومع ذلك تبقى الوصمة ولا تزول، إذ يحكم على الدعاية بأنها نشاط يرغم الناس ـ بشكل ما ـ على أن يفعلوا شيئا كان يمكن ألا يفعلوه لولا وجوده، حتى مع احتمال أن يكون من الضروري اللجوء إلى الحرب في ظروف معينة. وإذا كانت القضية «عادلة» فهل نضمن أن تكون الدعاية «مبررة»؟ وإذا كانت الحرب، ضرورية فهل تتأكد أيضا ضرورة الدعاية التي تفرضها؟ إن الأجوبة على مثل تلك الأسئلة تعتمد ـ كما هي الحال في

غالبية الأحكام التاريخية أو الأخلاقية ـ على الجانب الذي تنتمي إليه.

وعلى ذلك، فإن الدعاية تُعرَّف، هنا، بأنها المحاولة «العامدة» لإقناع الناس، بكل الوسائل المتاحة، بأن يفكروا ويسلكوا بأسلوب يرغبه المصدر، إنها وسيلة لغاية. وتتنوع الأساليب المستخدمة تبعا للتكنولوجيا المتاحة. ولا يهمنا إن كان السلوك المطلوب ينتج عن الجهد المبذول، فذلك هو الفرق بين الدعاية الناجحة والدعاية الفاشلة. فالنجاح ينبغي أن يحسب قياسا إلى النوايا، ولكننا لا ينبعي أن ننغمس هنا في مجادلات حول ما إذا كان الهدف يبرر الوسائل، فهذا الكتاب ـ ببساطة ـ يهتم بالوسائل، بطرق الدعاية، وليس بالغايات ـ أي ليس بالسؤال الأساسي عما إذا كانت الحرب صوابا أم خطأ. ولن يكون بوسعنا أبدا أن نعرف بشكل مؤكد ما إذا كان محتملا أن تكون لحرب ما نتيجة مختلفة لو أن أيا من طرفيها قد وجه المزيد أو الأقل من الدعاية المؤثرة. إننا نعرف بالفعل أن التاريخ يكتبه المنتصرون على الأرجح، وأن غنائم الحكم التاريخي يجمعها المنتصرون.

فهل يعني هذا ـ إذن ـ أن التاريخ دعاية؟ إنه كذلك إلى درجة معينة. فقد أثبتت دراسات حديثة عن الكتب المدرسية في ألمانيا واليابان أن كتب التاريخ في هذين البلدين تقول عن الزمن الذي كتبت فيه أكثر مما تقوله عن الماضي. ولن يساور الشك أحدا بشأن هذا فيما يتعلق بنظام كالنظام النازي الألماني أو النظام الستاليني الروسي. ولقد أصابت الدهشة الغرب أخيرا بسبب درجة الاختلاف في إعادة كتابة تاريخ روسيا الحديث ـ القريب ـ في عهد جورباتشوف. بَيْد أن النظم الديموقراطية الحديثة تظل على رعبها من فكرة التلاعب بالحقيقة التاريخية، حتى أن نظرة ـ على سبيل المثال ـ على كتب التاريخ الأمريكية التي تتناول فترة الخمسينيات، أو على الكتب المؤلفة في بريطانيا في ذروة عصر الإمبراطورية، سوف تؤكد صحة ما نرويه.

ومن المؤكد أن التاريخ مصدر يفوق التقدير للدعاية، ليس فقط بالنسبة للنظم الديكتاتورية. فأي فرق بين الدعاية والتعليم أو التربية في المجتمعات التي تعلي من قيمة مبادئ حرية التفكير والتعبير والعمل؟ ربما يكمن الفرق في فكرة أن الدعاية تعلم الناس «ما» يفكرون فيه بينما تعلم التربية الناس «كيف» يفكرون. ولا تستنكف الديكتاتوريات الحديثة كلمة «دعاية» مثلما

تستتكفها النظم الديموقراطية. وربما يرجع هذا إلى أن الديموقراطيات تقدس الوهم القائل بأنه ينبغي السماح للرأي بأن يتطور بشكل طبيعي، دون أي تدخل خارجي. أما أن هذا هو من قبيل الأوهام فهو أمر مؤكد. ففي عصر يشهد هجوما يوميا من الدعاية ـ يتزايد لكي يصل إلى مستوى غير مسبوق بفضل ثورة الاتصالات ـ فإن السلوك البناء أكثر من أي سلوك آخر هو، بالقطع، تعليم الناس كيف يفكرون لأنفسهم ومساعدتهم ـ بذلك ـ على أن يميزوا بين أساطير العصر الذي يعيشونه وحقيقة ذلك العصر. ربما كان هذا حلما مستحيلا. يقول ل. ب. هارتلي L. P. Hartley «إن الماضي بلد أجنبي غريب يتصرف فيه الناس بطريقة مختلفة». ومن المستحيل ـ ربما ـ أن نكون موضوعيين إزاء البلاد الأجنبية الغريبة بدافع من اختلافاتها الواضحة عنا. والوسائط التي نتلقى منها ما نعلمه عنهم، هي وسائط ـ بحكم طبيعتها ـ انتقائية ومتحيزة سواء كانت هذه الوسائط هي كتب التاريخ أو الجرائد أو التليفزيون أو الأفلام الوثائقية (التسجيلية). ولقد استغلت الدعاية مثل تلك الأوهام ـ تاريخيا ـ من أجل تغذية نيران الخوف والشك، سواء كان ذلك إزاء «البرابرة» في العصور الكلاسيكية القديمة، أو إزاء: «إمبراطورية الشر» في روسيا السوفييتية والتي استحضرها واستخدمها رونالد ريجان في زمان أحدث بكثير. غير أنه قد لا يكون إسرافا في الخيال أن نطرح احتمال إمكان استخدام الدعاية، بدلا من ذلك، في تدعيم قدر أكبر من التفاهم والتناغم، بشرط أن نلجأ إلى العقل لا إلى العواطف، وإلى السلام لا إلى الحرب. ويمكن أن يعتبر هذا الكتاب دليلا إلى كيفية تجنب هذا الاتجاه.

الدعاية ـ إذن ـ في زمن الحرب، هي عملية ترسم خططها لإقناع الناس بأن يخوضوا القتال. والحرب النفسية ـ من الجانب الآخر ـ هي الدعاية المخططة لإقناع الطرف المقابل ألا يخوض القتال. وهنا تظهر خاصية تدعو إلى العجب. إذ إن فكرة وصم محاولة إقناع الناس بأن يلقوا سلاحهم وبأن يكفوا عن القتال بدلا من أن يواصلوا المخاطرة بحياتهم ـ وصمها بأنها محاولة خبيثة أو شريرة ـ تظل عقبة في سبيل فهمنا لعملية الدعاية. فاليوم، وبينما نتعلم المزيد والمزيد عن أسس عمل العقل الإنساني ـ في عصر نووي يمكن بسهولة أن يدمر البشرية ـ فإن الدعاية والحرب النفسية

تصبحان بديلا فعليا وحقيقيا للحرب. وهذا هو كل ما تدور حوله «الحرب الباردة» بالفعل. ومع ذلك، فلا الدعاية ولا الحرب النفسية تعرضتا لجلاء ما تتضمنانه من ألغاز محيرة قبل عصر الانشطار النووي وعلماء النفس، أي قبل ظهور أمثال آينشتاين وأوبنهايمر وفرويد ويونج [1]. فقد كانت الحرب تعتبر وسيلة طبيعية ومقبولة لحل المنازعات، وامتدادا للسياسة بوسائل مختلفة. وكان ينظر بشك إلى أي شيء يمكن أن يعترض طريق هذا الشكل «الطبيعي» للتواصل البشري، على الأقل من جانب الطرف الذي كانت تمارس ضده. وكانت الحرب النفسية تبدو سلاحا ملتويا مخاتلا لإغواء أرواح وعقول الرجال الذين دفعهم نزوعهم العدواني الطبيعي، بصورة دورية، إلى ساحات القتال، حيث يحرز الأفراد وتحرز الدول أماكنهم في التاريخ. وعبادة الحرب أقدم عمرا من عبادة السلام بكثير. ولذلك فإن الدعاية الموجهة لدفع الناس إلى القتال في الحرب عملية أقدم عمرا بكثير من الشكل غير المتطور نسبيا للدعاية الموجهة لجعل الناس يقاتلون من أجل السلام.

ويدرس هذا الكتاب تاريخ الوسائل النفسية التي وضعت بغرض أن تدفع طرفا بعينه إلى القتال وأن تحمل الطرف الآخر على الإحجام. وهو يعالج موضوعه من كل الزوايا: فيغطي طبيعة المجتمع الذي أنتج الميول العسكرية، والصور الموجهة للاحتياج إلى الحرب أو لما فيها من المجد، والأساليب المستخدمة في تجنيد الرجال وحشدهم في ميدان القتال، وأهداف الأشخاص ـ كأفراد ـ ودورهم، واستخدام الدعاية التبريرية التالية للأحداث. ولا بد أن نتذكر أن الدعاية قد تجري في محادثة خاصة أو في مسيرة جماهيرية حاشدة، في كنيسة أو في دار للسينما مثلما تجري في ميدان للقتال. وهي قد تتخذ شكل تمثال أو مبنى أو قطعة من النقود أو رسم أو راية أو طابع بريد. فالدعاية ـ ببساطة ـ هي عملية يجري من خلالها توصيل فكرة أو رأي ما إلى شخص آخر من أجل غرض محدد. وليست هناك أهمية ـ في سبيل تعريف الدعاية ـ لماذا اتخذت شكل الخطاب أو المواعظ أو الأغاني أو الفنون ولماذا حملتها موجات الراديو أو صور التليفزيون؟ ولماذا كانت موجهة إلى شخص واحد أو إلى الملايين من الناس؟ وعلى رغم أن «الاتصال» أو التواصل يعد ضروريا لهذه العملية، فإنه لا

يمدنا ـ في حد ذاته ـ بنقطة انطلاق. فالاتصال ـ على كل حال ـ أمر جوهري بالدرجة نفسها في مجال التعليم أو الإعلان. وإن ما يميز الدعاية من عمليات الإقناع الأخرى، هي مسألة: «القصد». فالدعاية تستخدم الاتصال لنقل رسالة أو فكر أو أيديولوجيا وضعت لخدمة المصالح الذاتية للشخص ـ أو الأشخاص الذين يقومون بالاتصال. ومن المحتمل ـ إلى حد كبير ـ ألا يكون المتلقون راغبين في سماع الرسالة، ولكن من المحتمل بالقدر نفسه أن يكونوا راغبين. وعلى ذلك فإن الدعاية قد تخدم مصالح الطرفين، وخاصة حين تتوافق تلك المصالح، غير أن النقطة الأساسية هي أن الدعاية تخطط ـ في المحل الأول لخدمة مصالح مصدرها.

ولقد اعترف توماس مالتوس Thomas Malthus [2] بهذه الحقيقة في نهاية القرن الثامن عشر، حين كتب قائلا: «إن رقيب التجنيد يبتهل على الدوام من أجل أن يكون محصول الحصاد سيئا ولكي تحل الفاقة أو البطالة، أو بتعبير آخر لكي يكون هناك فائض من السكان». إن دفع الرجال إلى الحرب ـ حيث إن تاريخ شن الحروب هو إلى درجة كبيرة ـ تاريخ العدوان الذكري، كان مشكلة كبرى بالنسبة لنقباء التجنيد على مر التاريخ. فمع توافر المتطوعين، قد تبدو الحاجة قليلة إلى الدعاية، على رغم أن ضغوط المجتمع في زمن الحرب تجعل الانضمام إلى المقاتلين أسوأ من البقاء في البيت (ومن هنا جاءت في القرن العشرين حملة الدعاية التي اعتمدت على تساؤل تطرحه الطفلة على والدها: «ماذا فعلت في الحرب الأخيرة يا أبي؟») ولكن كان هناك على الدوام رجال انضموا إلى الجندية طواعية لأسباب شخصية عدة لا تحتاج إلى الكثير من اهتمام المعني بالدعاية: الإعجاب بنمط معين من الحياة، التدريب البدني، السفر، المغامرة، الأزياء الرسمية، المال، تقاليد الأسرة، الوطنية. وفي المجتمعات العسكرية، مثل إسبرطة القديمة أو بروسيا القرن الثامن عشر، تكفل الدور المحوري للجيش في المجتمع بتوفير فرص الثراء والمكانة المتميزة مما اجتذب الأطماع والطموحات. ولذلك فإنه لا يمكن إهمال الدعاية العسكرية التي تخللت كل جوانب الحياة في مثل تلك المجتمعات ـ باعتبارها عاملا منشطا لعملية التجنيد.

ولقد قال الكاتب الروماني ليفي (Livy): «لا تتوافق الأحداث مع توقعات

البشر في أي مكان كما تتوافق في الحرب». ومع ذلك فإنه حتى المتطوعين في القوات المحترفة يعانون من هبوط المعنويات ومن الذعر إذا كانت هناك فجوة أوسع من اللازم بين ما يتوقعونه من الحرب وبين الحقائق في ميدان القتال. فإن عوامل بعينها، مثل الطقس السيئ، أو الطعام الرديء، والرواتب المنخفضة يمكن أن تستنزف معنويات حتى أفضل الجيوش تدريبا، على رغم أن الانضباط والتدريب المخططين لدعم التماسك المتبادل يعدان عوامل جوهرية للحفاظ على الروح القتالية العالية. ولكن هذا يصبح أمرا صعبا مع القوات المجندة ـ بنظام التجنيد الإجباري ـ المحجمة عن القتال أو الخائفة من مصيرها. ومن هنا يأتي استخدام حوافز من نوع المال أو المكانة الاجتماعية، أو المجد الشخصي أو العائلي أو القومي أو الوعود الدينية بالخلود، فسوف يحوز الجندي الشجاع ـ الذي يصبح بطلا حربيا ـ كل هذه الأشياء، وسوف يحرم منها الجبان. وهكذا يستغل مخطط الدعاية كلا من الحوافز الإيجابية والسلبية من أجل أن يقنع الرجال بالتغلب على خوفهم، والمخاطرة بحياتهم في أكثر الظروف وحشية وإثارة للرعب.

ولكن ماذا، أولا، عن الأسباب التي تحمل جنديا على أن يكون هناك؟ لقد جرى التأكيد ـ بقوة متناهية وعلى طول التاريخ ـ على عدالة القضية التي يذهب الرجال إلى الحرب من أجلها. ومع ذلك فإن الأمر هو كما كتب اللورد ويفل Wavell العام 1939 قائلا: «لا يفر الرجل ـ من ميدان القتال ـ لأنه يحارب في سبيل قضية باطلة، ولا يهاجم لأن قضيته عادلة...» ويرى ويفل أن ما يحقق المعنويات المرتفعة هو درجة إحساس الجندي بأنه عضو في «وحدة جيدة» ودرجة إحساس الوحدة بتماثل الهوية بينها وبين المجتمع الذي تقاتل من أجله. ومن هنا تبرز الحاجة إلى تمجيد إنجازات الجيش وإذاعتها بين الجمهور العريض حتى يزيد الإحساس المتبادل بوحدة الهوية ـ فالجنود يقاتلون بشكل أفضل إذا عرفوا أن أسرهم وأصدقاءهم والمدنيين الذين يرقبون أفعالهم يساندون عملياتهم. وبهذا المعنى فإن الدعاية التي تحيط بـ «القضية العادلة» إنما يقصد بها المجتمع ككل أكثر مما تستهدف وحدات الجنود المقاتلة الذين رسمت خطط تدريبهم وانضباطهم لجعلهم يطيعون الأوامر لحظة تلقيها. إن تلك الدعاية تخطط لكي تبرر: «لماذا يقاتل الجنود» و «لماذا يتعين علينا نحن أن نساندهم؟».

وبناء على ذلك فإن هذا الكتاب يدرس موضوعات عدة يضمها مجال واسع، تتضمن استخدام الدعاية للحرب، بدءا من ترسيخ الروح القتالية حتى رفع روح المدنيين المعنوية. ولكن بحكم طبيعة الاستنتاجات المتعلقة بطرق عمل العقل الإنساني والعوامل التي تؤثر فيه ـ فإن هذه الاستنتاجات تظل من قبيل التكهنات. غير أن ثمة أمرا واحدا مؤكدا: أن الدعاية للحرب قديمة قدم الحرب ذاتها. إن الذخائر التي ينتجها العقل ـ والتي توجه إلى العقل ـ أسلحة أثبتت أنها لا تقل أهمية عن أي من الأسلحة التي ابتكرها الإنسان حتى الآن بهدف أن يمحو وجود إخوته في الإنسانية. إن التحدي الذي وضعه التاريخ أمام العصر النووي لواضح، إنه على حد تعبير ألبير كامي [3] فيما كتبه في زمن سابق من هذا القرن:

«على اتساع خمس قارات خلال السنوات المقبلة سوف ينشب صراع لا نهاية له بين العنف وبين الإقناع الودي... ومن هنا سيكون السبيل المشرف الوحيد هو رهن كل شيء في مقامرة حاسمة مؤداها أن الكلمات أقوى من الطلقات».

القسم الأول
الدعاية للحرب في العالم القديم

1 في البداية...

لاتزال معرفتنا بفجر البشرية قليلة للغاية، حتى ليستحيل أن نحدد بشكل دقيق متى بدأ إنسان العصر الحجري القديم في استخدام أدواته لأغراض الحرب. ولاشك في أن أيام الإنسان الباكرة كانت أياما عنيفة، وأن البيئة كانت أكبر أعدائه؛ ولقد أصبح نضاله للسيطرة على تلك الطبيعة أكثر سهولة بعد العام 8000 ق.م ،حينما بدأت صحاري العصر الجليدي الثلجية في التراجع. ولايزال الجدل ساخنا بين علماء الأناسة anthropologists، حول ما إذا كان الإنسان في بداياته مسالما أو ميالا للحرب. غير أنه من المحتمل أن يكون كفاحه للسيطرة على محيطه إضافة إلى تطور مهاراته في الصيد والزراعة، قد أتاحا له أن يحصل على شيء يريده آخرون لأنفسهم، أي أن يحصل على شيء ينشب من أجله القتال. غير أنه من المحتمل ألا نعرف أبدا السبب الذي دفعه إلى أن ينظم نفسه لخوض الحرب. ومع هذا، فإن البشر الأوائل، حتى قبل أن يتعلموا الكلام بلغة يمكن التعرف عليها، كانوا يقدرون الحاجة إلى التواصل سواء لأغراض سلمية أو حربية. والبحوث الأثرية والأناسية تلمح إلى أن جميع أنواع التواصل كانت مرئية قبل الكلام

(اللغة المنظمة). فلقد تواصل البشر البدائيون بوسائل غير لفظية، عن طريق التلويحات والإشارات؛ على رغم أن الأصوات ـ كالصرخات ودقات الطبول على سبيل المثال ـ كانت مهمة أيضا. وقد تمكن الإنسان القبلي من ابتكار أقنعة وصيحات الحرب وإشارات التهديد سواء لكي يخيف أعداءه، أو لكي يؤثر في أصدقائه.

إن مرجريت ميد (Margaret Mead) عالمة الأناسة المشهورة في سنوات مابين الحربين ـ والتي تلقي دراساتها (المنشورة في كتابيها): « سن البلوغ في صاموا» و«الوصول إلى سن النضج في غينيا الجديدة») تلقي الضوء على سلوك بعض الشعوب البدائية ـ تشير إلى أن الرموز المرئية كانت تستخدم لأغراض محددة للغاية. فعلى سبيل المثال، قد ترسل قرية رسالة إلى قرية أخرى على شكل كمية من أوراق الشجر والأسلحة مرتبة بطريقة معينة، تدل على وجود خطر من جانب قرية ثالثة وتقترح تكوين تحالف لمواجهة الخطر. وأيضا فإن «حذف بعض المجاملات، كان يعني ـ في أزمنة سابقة في صاموا ـ إشارة ممكنة لانفجار الأعمال الحربية بين قريتين».

ولاحظت ميد أيضا أنهم كانوا يستخدمون عصا بأن يصنعوا عليها «حزوزا» متتالية، لكي تشير إلى عدد بعينه من الأيام أو الحيوانات أو الرجال، وأن هذه العصا قد «تحفظ لكي تستخدم فيما بعد لتأكيد دعوى سياسة ما أو الدعوى المقابلة». غير أن المؤرخين لايملكون ـ بشكل جوهري ـ سوى القليل من الأدلة على عادات الإنسان الباكر الحربية. إننا نعرف أنه صنع بيديه أسلحة في شكل حراب أو هراوات، غير أننا ما نزال غير واثقين مما إذا كان يستخدم تلك الأسلحة ـ أساسا ـ لقتل بني جنسه أم لا. وتشير رسوم الكهوف التي خلفها إنسان كرومانيون [1] إلى الاحتفال بطقوس وعادات بدائية؛ غير أن هذه الرسوم تصور عادة ملامح البيئة المادية كالحيوانات أو مشاهد الصيد، وربما كان هدفها زخرفيا خالصا. أما إذا كانت ـ من ناحية أخرى ـ رسوما احتفالية ورسمت لكي تؤثر في أشخاص آخرين، سواء كانوا من القرية نفسها أو من قرية أخرى، فإنها يمكن أن ينظر إليها باعتبارها شكلا من أشكال الدعاية. ولن نرى ـ قبل رسوم كهوف العصر الحجري الحديث التي ترجع إلى نحو 7 آلاف ق.م رجالا يستخدمون أسلحة بعضهم ضد بعض، مما يجعل تلك الرسوم ـ ربما ـ

أقدم أشكال الدعاية للحرب. فالصورة ـ كما يقول مثل قديم ـ تفصح أكثر من ألف كلمة.

ولايبدأ المؤرخون السير على أرض أكثر صلابة إلا مع وصول «الحضارة». ويبدو أن تطوير منظومات اجتماعية منظمة، ومؤسسات وبنى طبقية وهندسية معمارية وتجارة ودين، قد وقع ـ أول ما وقع في الشرق الأوسط ـ في دلتا الفرات ـ حوالي 5 آلاف ق.م. كانت قد ظهرت أسلحة ثورية، كالمقلاع والقوس والسهم والخنجر. وتؤكد الآنية الفخارية والأختام قيام الملكية الفردية إضافة إلى مواقع المعابد الأولى في «دول المدن» البابلية الصغيرة مثل «أور» و«أوروك»، وهو مايمدنا بالدليل على هذا التطور. وتوحي الجدران، حول المدن، بوجود خطر تمثله قبائل أخرى ربما كانت أقل تنظيما. وقد وصل الجدار حول مدينة «أوروك» إلى مايقرب من ستة أميال مع أكثر من 900 برج، ويفترض أنه من إنشاء ملك «أوروك» الأسطوري جلجامش (الذي يصبح فيما بعد موضوعا لملحمة ذات مرونة فائقة وقدرة على التكيف، ألقت الضوء على النظرة الكونية لثقافات مابين النهرين). ومن المؤكد أن وجود مثل هذه الجدران يوحي بأن العمليات الحربية المنظمة ـ مهما بدا لنا الآن من بدائيتها ـ كانت قد تطورت إلى درجة لابأس بها مع بداية العصر الحجري الحديث. ولا نستطيع أن نبدأ الحديث الصائب عن العمليات الحربية وعن الدعاية للحرب إلا مع تنظيم العنف.

إن أقدم ما بقي من أدلة مكتوبة على الاتصال الاجتماعي تأتي ـ بالتأكيد ـ من منطقة مابين النهرين القديمة في الألف الثالثة والألف الثانية ق.م. فقد عثر على ألواح من الطين عليها شكل بدائي من الكتابة الصورية ـ يعرف بالكتابة المسمارية ـ وذلك في مدينة «سومر» القديمة، في الأرض الممتدة بين نهري دجلة والفرات، وترجع إلى نحو ثلاثة آلاف سنة ق.م. وتشير الأدلة الأثرية على بقايا المباني العامة والقصور والمعابد إلى وجود مجتمع جيد التنظيم أسس على بنية تصاعدية يقوم حاكم على رأسها. وكان من الضروري لهذا الحاكم وجود شكل ما من أشكال الاتصال لكي يحافظ على مركزه، ولكي يصدر المراسيم والقوانين، ولكي يقاتل المعارضة، إلى غير ذلك. غير أن محتويات الألواح المسمارية السومرية، هي أساسا قوائم من الحيوانات على سبيل المثال، ممثلة تمثيلا صوريا. غير أنه تظهر

على الألواح أيضا رموز تشير إلى مهن «الساعي» حامل الرسائل و«المنادي» المبلغ، مما قد يوحي بأن رأيا عاما من نوع أولي كان عاملا مهما في الحياة السياسية الباكرة.

أما نشوب الحروب بين الدول ـ المدن في بلاد مابين النهرين، فكان يشهر على الحجر وغيره من النصب. فقد كانت تقام على بوابات المدن أو على الحدود أعمدة مرتفعة، ذوات رؤوس مثلثة الشكل، عرفت باسم: النصب المنقوشة (Stela) تصور الملك مع إلهه، أو مع عدوه المهزوم، وغالبا ماتصحب الصورة نقوش مطولة. ومن الأمثلة الباكرة، النصب الضخم الذي أقامه إيناتوم ملك مدينة لجش (2500ق.م) وهو بلاطة مستطيلة مستديرة القمة من الحجر تصور «نين جورسو» إله لجش، وهو يأسر أعداءه أولا في شبكة ثم في عربة حربية. وعلى الوجه الآخر تصور الملك إيناتوم وهو يتقدم على رأس كتيبة جيدة التسليح من المشاة، يسحق أعداءه تحت قدميه بينما تمزق الأسود والنسور أجساد الموتى؛ وبينما يفر أمامه من تبقى من الأعداء، يسلم حكم الإعدام إلى ملك مدينة «أوما» المهزوم. إن مثل هذه التذكارات، بطبيعتها الاحتفالية، تشير إلى إدراك للدعاية بعد وقوع الحدث؛ أما الشعارات والدروع المزخرفة وما يشبهها فتظهر استخدام الدعاية في أثناء المعركة. وقد قام كل من سارجون الأول (2276 ـ 2221ق.م) الذي وحد قبائله السامية من «أكاد» مع الدول ـ المدن السومرية، جاعلا منهم إمبراطورية واحدة، وحفيده نارامسين (2196 ـ 2160ق.م) والذي أطلق عليه لقب «ملك أقطار العالم الأربعة»، قام كل منهما بوضع اسم نجم قبل اسمه لكي يرمز إلى شخصيته الإلهية. وفي خلال حملات سارجون العديدة، لم يكن بوسع جيشه الضخم المكون من أكثر من خمسين ألف رجل أن يعيش إلا على حساب الأرض التي يزحف عليها وينهبها. ولقد تحددت معنويات قواته ـ أساسا ـ وفق مقدرتهم على القيام بذلك. ويظهر النصب الذي أقامه نارامسين زيادة ملحوظة في استخدام الرموز المرئية، وهو النصب الذي نحت من الحجر على شكل مثلث، ويصور الغزاة المنتصرين في حالة هجوم وسقوط الأعداء المتهاوين. وكانت مثل هذه النصب تقام غالبا عند نقاط دخول الغزاة لردع الهجمات في المستقبل. ولكن مثل هذه الهجمات ما كانت إلا لتفشل إذا شنت بعد مدة وجيزة لأن الغزاة السابقين كانوا يتركون

الأرض مخربة جرداء. ولكن حالما استردت الأرض عافيتها، فإن النصب كان يقوم بتذكير الغزاة بقوة الجيش المدافع ووحشيته.

وفي منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد، حينما كان الأشوريون يتحدون البابليين على السيادة، فقد جلبوا معهم الترانيم والقصائد البطولية الحربية. وتمدنا الإمبراطورية الأشورية بمصدر أكثر ثراء بكثير ـ للدعاية للحرب ـ مما أمدتنا به الإمبراطورية البابلية. ومن أقدم القصائد الملحمية ـ على رغم أنه لم تبق منها سوى شذرات متفرقة ـ قصيدة كانت من تأليف الملك أداد نيراري الأول (1307ـ1275ق.م) في تمجيد حروبه مع الكاسيين. ثم ترجع إلى نحو نصف قرن بعد ذلك، الملحمة الأشورية ذات الـ 700 سطر من الشعر التي ألفت للملك توكولتي ـ نيتورتا الأول (1250ـ1210 ق.م) والتي تمجد منجزات الملك الحربية وشهامته إزاء الكاسيين. وقد يبدو أن الأحداث التي تصورها القصيدة مختلفة إلى حد كبير، وأنها وضعت للاستهلاك العام عن طريق إنشادها الشفاهي أمام حشود ضخمة من الأميين. ولقد كان هذا النوع من سرد الحكايات (ولايزال) وسيلة رئيسية للاتصال في أفريقيا.

وكانت مثل تلك الحكايات تترجم إلى شكل مرئي على جدران القصور، مثلما هي الحال في جداريات الملك توكولتي ـ نينورتا التي صورت الملك وسط جنوده في حملات وقعت بالفعل. إن القصائد الملحمية الملكية والحكايات التي كانت تؤلف بعد وقوع الأحداث، وغالبا بعدها بوقت طويل، يمكن أن تعتبر مثالا على الدعاية الاحتفالية للحرب، حيث إنها وضعت للثناء على منجزات حاكم بعينه وتمجيدها، أو لإحياء ذكراها.

ولكن ماذا عن «الدعاية» السابقة على المعارك؟ إن الحكايات المحذرة من أخطار مسار محتمل للقتال، كان يقف وراء تأليفها كهنة سومر القدماء الذين كانوا قد بدأوا منافسة الملوك على ولاء الجمهور. وكانت النذور والتنبؤات والكهانات ـ أيضا ـ أشكالا من الإقناع الاجتماعي، وكان الدين ـ مبدئيا ـ هو المصدر الذي استمدت منه الدعاية المتعلقة بالنتائج المتوقعة للحروب الوشيكة. وكان استحضار الآلهة وسيلة مثلى ـ بالطبع ـ للمحافظة على سلطة ومكانة الكهان في مجتمع تحكمه الخرافات، ولكنه أيضا وسيلة مناسبة لرفع المعنويات قبل القتال إذا ماكان الكهنة والملوك على رأي واحد.

ولكن الملوك كانوا هم من يشعلون الحرب ـ ويخوضونها ـ وكانت مشاركتهم للآلهة هي التي تضفي الشرعية على أعمالهم، وكانوا يشنون الحرب باسم الدين وليس من أجل الغنائم أو الأرض ـ في الظاهر على الأقل. فقد أعلن الأشوريون على سبيل المثال وعلى، الدوام، أنهم كانوا يشنون الحرب ضد أعداء الإله أشور لكي يظهروا عظمة معبودهم ومجده. ولقد فعلوا ذلك بوحشية حتى أن الكثيرين من الأعداء المحتملين استسلموا دون قتال. ومن الحق أن الحرب كانت تعتبر السبب الوحيد لوجود الملك، ولم يتوقف الأشوريون عن شنها.

ولذلك، فحينما حلت الألف الأولى قبل الميلاد، كان حكام الإمبراطورية الأشورية يتقنون استخدام الوثائق والنصب لكي يوحدوا السلوك المطلوب بين رعاياهم، ولكي يظهروا المساندة الإلهية لهم ولكي يدعموا مركزهم الملكي. ولقد عكست التحصينات والقصور جنبا إلى جنب زخارفها من التماثيل واللوحات الجدارية، قوة الملك ومكانته وكشفت عن انشغاله المستمر بالحرب. وعلى الرغم من أن الدين قد وفر للدعاية للحرب أول موضوع حقيقي لها ـ وهي علاقة ظلت وسيلة قوية لتبرير العدوان على طول التاريخ ـ فإن الأشوريين كانوا محبين للحرب أكثر منهم متدينين؛ فمثلا نرى على نصب الملك إينا توم الإله ممسكا الشبكة التي تأسر أعداء الملك، بينما نرى على نصب سارجون الملك نفسه ممسكا بهذا الرمز المتكرر. وقد أصبحت القصور ـ أكثر من المعابد ـ هي المصدر الأكبر لمثل هذه الدعاية الاحتفالية؛ وفي الاحتفالات التي كانت تقام فيها، تحولت إلى طقوس تلك العلاقة بين الحاكم والمحكومين، وبين أحد الملوك ونظيره. وأشارت النقوش الأشورية الملكية إلى الأنشطة الحربية خلال حملات بعينها في تقارير تكتب على شكل سجلات سنوية؛ وتصف تلك السجلات ـ المرة بعد المرة ـ زحف الملك وجيشه إلى الحرب، ثم المعركة والنصر المحتم والظفر وإنزال العقاب بالمهزومين، ثم التقرير الختامي الذي يقدمه الملك لإلهه. وبصرف النظر عن الحقيقة فإن الحرب كانت تصور باعتبارها إجراء دفاعيا أو عقابيا، وعملا مجيدا في ملكية كان انتصارها يحقق باسم معبود يتخذ بشكل متزايد طابعا شكليا أو رمزيا.

وقد وضعت أيضا سجلات مصورة داخل القصور لحملات الملوك

الأشوريين، سجلت على قوالب الطوب المغطاة بالسيراميك مرفوعة على الأعمدة الحجرية. وكان الغرض هو استعراض قوة السطوة الأشورية التي لاتقاوم بإظهارها في أثناء عملها في القتال. فالعربات الحربية المهاجمة والجيوش الزاحفة والمدن المحاصرة والأعداء المتقهقرون موضوعات متكررة في الفن والمعمار الأشوريين، بينما يظهر الإله أشور على الدوام مساندا للملك. والمثل الجيد لتلك السجلات المصورة هي « المسلة السوداء » التي أقامها شالمانصر الثالث (859 ـ 824ق.م) التي تشيد بذكرى اكتشاف الملك لمنبع نهر دجلة بعد حملة حربية، وتحمل المسلة نقشا يقول: «صنعت صورة عاتية لجلالتي، ومجد أشور إلهي وجلائل أعمالي، وكل ماحققته في الأرض، نقشته على هذا الحجر هنا في هذا المكان». لقد أظهرت قوة الملك وسطوته في الحرب وصورت بتفصيل عظيم ثم نصبت في ذلك المكان لكي يراها كل الناس. وكذلك كان الانتقام الملكي. فمن منتصف القرن السادس قبل الميلاد، يصف نقش على أحد جدران قصر الملك أشورناصيربال الثاني في نينوى كيف عاقب الملك الأشوري مدينة سورو المتمردة ثم ابتكر طريقة للتحذير من أي ثورات أخرى:

> لقد بنيت عمودا تجاه بوابة المدينة، وسلخت جلود كل رؤساء المتمردين وغطيت العمود بجلودهم، وعلقت بعض الجلود في العمود والبعض ألقيتها فوقه وعلى العصي والبعض علقت على الأسياخ من حوله؛ وسلخت الكثيرين داخل حدود أرضي، ونشرت جلودهم على الجدران، وقطعت أطراف الضباط والضباط الملكيين الذين تمردوا ضدي، أما أهيا بابا(قائد المتمردين) فقد أخذته إلى نينوى، وسلخته هناك وعلقت جلده على جدران نينوى.

ويعكس الفن الأشوري هذه الوحشية وحملها الفخار الأشوري إلى البلاد البعيدة. كانت تلك سياسة لنشر الرعب ممتزجة بسياسة للدعاية، استهدفت الإبقاء على الشعوب المهزومة الخاضعة ساكنة مستسلمة، وتخويف الأعداء المحتملين بتلك الصور المنحوتة الدعائية والوحشية النفسية.

أما التحول التدريجي من الحرب التي شنها أصحابها باسم الإله إلى الحرب التي تشن باسم الملك (مع النزول بالإله إلى مستوى المؤثر الرمزي

الدافع)، فربما يرجع جزئيا إلى تأثير الملوك المصريين الذين طوروا أشكال الدعاية الخاصة بهم، وخاصة الأبنية والنصب العامة مثل الأهرام وأبي الهول[2]. ولقد كان الفراعنة من أوائل من اعترفوا بقوة تأثير الأبنية المعمارية العامة على نطاق واسع لإثبات سمو مكانة الأسرة الحاكمة ومشروعيتها. ومع ذلك فلقد كانت دعايتهم الحربية، مثل تلك التي صدرت عن الأشوريين متذبذبة ومبعثرة، إذ لم يكن لها نمط متماسك ولانظام، واستخدم المكان الديني لتعميق الولاء ونشر الخوف بين المحكومين[3].

ولما كان الملوك الأقدمون يؤمنون هم أنفسهم بالخرافات، فقد حرصوا على أن يسندوا دعايتهم بالرعب، سواء كان ذلك في زمن السلام أو في زمن الحرب. وبتعبير آخر، إذا كان الدين قد أنتج أصول الدعاية للحرب فإن الرعب يمكن أن يعتبر منتج أصول الحرب النفسية. ولكن هذه مصطلحات حديثة ولاتصف بشكل دقيق الأنشطة الرامية إلى الإقناع التي قام بها الحكام القدامى؛ فهي مصطلحات تفترض وجود تنظيم وفلسفة لم يكونا قد وجدا بالفعل. وليس قبل ازدهار الحضارة الإغريقية سيمكننا أن نبدأ في رؤية مقدم كل من هذين العاملين.

2 اليونان القديمة

في اليونان، اعتبر جميع غير اليونانيين «برابرة». وكانت هذه الكلمة تعني الناس الذين لا يتكلمون اليونانية (كانت كلمة «باء ـ باء» هي الصوت الذي رددته لغاتهم في الآذان اليونانية). وفيما يتعلق بمرحلة ما قبل عصر البرونز (قبل 2000 ق.م)، تظل مصادرنا عن المجتمع اليوناني شحيحة في أقل ما يمكن أن توصف به تلك المصادر. ونحن نعرف أنه فيما بين نحو 1200 و800 ق.م دخلت اليونان عصرا مظلما إثر انهيار مجتمع عصر البرونز. وفي ملحمة الإلياذة، التي ربما تكون قد كتبت في القرن السابع قبل الميلاد، كتب هومير عن حرب نشبت بين بريام ملك طروادة وبين اتحاد من الدول الإغريقية (الأخائيين) تحت قيادة ملك ميسينيا، أجا ممنون. وروى كتاب آخرون بعد ذلك عن الطريقة التي أسفرت بها الحرب عن واحد من أقدم أمثلة الخداع في الحرب، أي حصان طروادة [1]. فبهذه الوسيلة تمكن الإغريق من خداع الطرواديين وجعلهم يعتقدون أنهم قد أنهوا حصارهم للمدينة، فهزموهم حينما تدفقت القوات ـ فيما زعموا ـ من جوف الحصان الخشبي بعد أن كان الطرواديون قد سحبوه إلى داخل المدينة.

وقد اعتقد «الأغارقة» من العصر الكلاسيكي ـ في مرحلة لاحقة ـ أن «الإلياذة» تقدم رواية حقيقية عن تاريخهم السابق. وفي القرن التاسع عشر استخدم الأثري الألماني الهاوي هاينريش شليمان، الإلياذة لكي يحدد الموقع الفعلي لمدينة طروادة، كما استعان بمسرحية: «أجا ممنون» التي كتبها الشاعر اليوناني أسخيلوس في القرن الخامس قبل الميلاد، والتي روت جريمة مقتل أجا ممنون على يدي زوجته وعشيقها لدى عودته من طروادة، استعان بهذه المسرحية لكي يجري حفرياته في ميسينيا. وتوصل شليمان إلى اكتشافات عدة مهمة في الموقعين، ولكن استنتاجاته لم تكن دقيقة على الدوام. وفضلا عن ذلك، فإن رواية هومير فقدت مصداقيتها بدرجة خطيرة بعد اكتشاف ألواح بيلوس بكتاباتها التصويرية الخطية: ب[2] وهي الألواح التي قدمت لنا دليلا موثقا أكثر بكثير من استنتاجات شليمان. وعلى رغم أنه ربما ترتب على ذلك أن أصبح الأسلم لنا أن ننظر إلى الروايات الملحمية ـ مثل الإلياذة ـ باعتبارها أعمالا من اختلاق الخيال، فإن حكايات من نوع حكاية «حصان طروادة» تتيح لنا أن نلقي نظرة متعمقة على مفاهيم الإغريق عن أساليب الدعاية للحرب.

فبدءاً من حوالي 750 ق.م برزت المدن ـ الدول باعتبارها الوحدة السياسية السائدة في اليونان، لكي تحل محل الممالك القبلية في المراحل السابقة. وفي انعكاس لهذا المجتمع الذي ازداد انتظامه الهيكلي، أصبح العمل الحربي بدوره أكثر تنظيما، مع ظهور وتطور كتائب المواطنين ثقيلة التسليح وتصاعد موجة الاستيطان. فماذا يمكن أن نستنتجه من هذا عن دعاية الحرب اليونانية؟ لم تكن المدن ـ الدول اليونانية موحدة إلا من خلال اللغة المشتركة والبحر. وكان لكل مدينة (بوليس Polis) أربابها، وكانت كل منها تمجد منجزاتها الخاصة (كانت لمدينة أثينا ربتها أثينا، ولأرجوس، هيرا، وهكذا) ولقد تشكلت التحالفات ولكن كثيرا ما حارب الإغريق الإغريق، ومع ذلك فإن الحرب كانت عملا موسميا مع مجيء الجنود المتطوعين أساسا من المزارع التي لم تكن تحتاج إلى من يرعاها خلال شهور الشتاء. ولم يكن هناك جيش محترف دائم، وكان جميع المواطنين ـ المزارعين بالتحديد ـ جنودا يؤدون خدمتهم العسكرية سنويا فيما بين موعدي البذار والحصاد. واستخدمت مختلف المدن ـ الدول أساليب مختلفة للتأثير في قواتها

والسيطرة عليها. ولم تكن ثمة وحدة تجمع بين المدن ـ الدول المستقلة، كل منها، تمام الاستقلال، إذ لم يكن هناك سوى الخصائص المشتركة.

ومع التوسع الكبير في التجارة، قام اليونانيون بتصدير منتجاتهم في آنية كبيرة مزخرفة. ونحن نعجب الآن بتلك الآنية باعتبارها أعمالا فنية، وقد يمكن الزعم بأن تلك الآنية استخدمت لكي تعرض على العالم ـ على اتساعه ـ المنجزات الفنية لصناعة الفخار اليونانية، وبالتالي الصور التي رسمتها لمجد اليونان. ولكن لم تكن تلك هي الحقيقة. فالقليل من الآنية المزخرفة هو الذي وصل إلى مجتمعات غير يونانية، ولم يكن الرسامون على الفخار يتمتعون بمرتبة عالية في اليونان القديمة، وقد كانت غالبيتهم من العبيد. وكانت الأواني الفخارية هي «العلبة الصفيح» لحفظ الأطعمة في ذلك العصر القديم وكانت المحتويات هي التي حازت اهتمام الإغريق (زيت الزيتون أو النبيذ أو الحبوب وما شابه ذلك) لا الحاويات.

ويمدنا فن النحت والمعمار بأدلة أكثر قوة على تعقيد متزايد في فن الإقناع، فقد أصبحت تماثيل الأرباب والبشر أكبر وأكثر واقعية بسبب سعي الأفراد من الساسة إلى استعراض أنفسهم ومنجزاتهم أمام السكان. غير أن المعمار هو الذي يقدم أوضح مظهر للدعاية في اليونان في العصر الكلاسيكي. وتمدنا أثينا بمثال بارز لاستخدام هذا الوسيط للترويج لمجد شخص بعينه أو مدينة محددة. ويصف بلوتارخ (3) في «حياة بيركليس» ما حدث في القرن الخامس ق.م حين قام الملك الأثيني بـ «التودد إلى الجماهير»، وكيف رفع من مكانته الخاصة بأن حول أموال الاتحاد الإغريقي التي صدرت للدفاع ضد الفرس لكي تنفق على بناء الأكروبوليس (4)، على رغم اعتراضات حلفائه الذين شعروا بأن بيركليس كان مشغولا بتمجيد ذاته تمجيدا مكشوفا.

وتحدث ديموثينيز (5) عن كل من البروبيليا (6) والبارثينون كرمزين للشرف الأثيني على حساب الحرب ضد الفرس. وقد وضع بعض خطبه لتكون تحذيرات من الأخطار التي يمثلها فيليب ملك مقدونيا. وقد أقيمت نصب نحتية ضخمة لإحياء ذكرى بعض الانتصارات، مثل تلك التي أقامها أتاللوس الأول ملك برجامام وايومينيز الثاني احتفالا بانتصارهما على الغاليِّين.

وكانت المنافسة العظمى لأثينا هي مدينة إسبرطة التي تفوقت في فن

الحرب كما هو معروف تماما. فإذا كان المحاربون الإسبرطيون يدربون على الحرب ـ منذ سن باكرة ـ بواسطة الدولة، فإنهم كانوا يصبحون ممتلئين عقديا بميزات الحرب وقيم الشجاعة في ميدان القتال حين يأتي أوان إرسالهم إلى المعركة. وخلال ما تسمى بالثورة الميسينية ضد الإسبرطيين، وهي الحرب الميسينية الثانية التي دامت نحو عشرين سنة بعد العام 640 ق.م، كانت الجيوش الإسبرطية تستمد الشجاعة من أشعار تيرنابوس الحربية (كانت هذه الثورة هي التي فرضت إيجاد جيش محترف دائم، واحتاج النظام العسكري الإسبرطي إلى أن يشدد قبضته على العبيد). وإذ بسط الإسبرطيون سيطرتهم على الجزء الجنوبي من «البليبونيز» في القرن السادس ق.م، وأصبحوا القوة العسكرية المسيطرة في أراضي اليونان الرئيسية بحلول سنة 500 ق.م، فإنهم أصبحوا مستعدين لتسوية خلافاتهم مع أثينا وللعمل معها في صد خلفاء الأشوريين، أي الفرس، تحت حكم داريوس[7] (Darius) حين اندفع هؤلاء نحو بلاد اليونان الرئيسية وفي داخلها، خلال الجيل التالي. وفي معركة ماراثون العام 460 ق.م حقق الأثينيون النصر ـ على العكس تماما مما كان متوقعا ـ دون عون من إسبرطة لأن الإسبرطيين تأخروا ـ وهذا أمر له مغزاه ـ لانشغالهم بأحد الأعياد الدينية.

ويعد هيرودوتس (Herodotus) [8] هو مصدرنا الرئيسي للحروب الفارسية (490 ـ 449 ق.م)، فيصف سلسلة من البشائر التي دعمت المعنويات الأثينية في معركة ماراثون. وعلى رغم الهزيمة التي لقيها الفرس في تلك المعركة فقد عادوا بعد عشر سنوات، يقودهم أجزركسيس خليفة داريوس. وكان السكان المحليون الآن قد أصبحوا أكثر صلابة في مواجهة عمليات النهب والسلب مما كانوا في عصر سارجون، وعرف أجزركسيس قيمة أن يحمل المؤن مع جيوشه وألا يتركها تعتمد فقط على الإمدادات المحلية، أما الجنود المزارعون الإغريق فقد قيل لهم أن يجلبوا معهم مؤونة ثلاثة أيام من الطعام. كانت العمليات الحربية تزداد امتدادا بالنسبة لكل من الزمن والمسافة. وجاءت البشائر هذه المرة أقل إيجابية بالنسبة للإغريق (الذين نصحتهم عرافة أبوللو في دلفي[9] بأن يلجأوا إلى البحر)، وذلك على الرغم من تكوين المدن ـ الدول لاتحاد كونفيدرالي فيما بينها. ودمر الفرس أثينا في

العام 480 ق.م على الرغم من البطولات التي أبداها الإسبرطيون في معركة ثيرموبيلي، ولم ينقذ اليونانيين سوى سلسلة من أعمال الخداع الذكية قام بها ثيميستوكليس قائد الأسطول الأثيني. فقد كان هناك الكثيرون من اليونانيين يقاتلون إلى جانب الفرس، الأمر الذي أوحى للقائد الأثيني بأن يستخدم سلاح المعلومات المغلوطة ضد الأعداء. وترك ثيميستوكليس لأجزركسيس ما جعله يعتقد بأن اليونانيين الملتحقين بالجيش الفارسي لا يوثق فيهم وأنهم على وشك التمرد. وبناء على ذلك اختار أجزركسيس ألا يوجه تلك القوات إلى الجبهة. وأرسل ثيميستوكليس ما أوحى إليه بأن أكثرية اليونانيين المرابطين في ميناء سالاميس على وشك الفرار، فأرسل الملك الفارسي نصف أسطوله لكي يوقع بهم، وإذ تمكن الإغريق بذلك من خفض حجم الجيش ثم الأسطول الفارسيين، فقد استطاعوا أن يغروا أجزركسيس بأن يهاجم في سالاميس وهم في أوضاع أفضل بكثير. وقام ثيميستوكليس بعمليات عدة تظاهر فيها بأنه يوشك أن يتخلى عن القضية اليونانية، وصدقه أجزركسيس. فلماذا؟ لقد كانت حقيقة الأمر البسيطة هي أن هذا النوع من الانشقاق كان شائعا في اليونان القديمة لدرجة أنه لم يكن لدى أجزركسيس ما يدعوه إلى عدم تصديق ثيميستوكليس.

وأدى تشكيل «عصبة ديلوس» تحت قيادة أثينا بعد ذلك إلى هزيمة الفرس في النهاية العام 449 ق.م، حيث وافقوا على ألا يخرجوا من آسيا الصغرى مرة أخرى. وانتصر اليونانيون على الفرس، على الرغم من الشواهد القوية التي كانت تنبئ بعكس ذلك. ولا يمكن تجاهل الدور الذي لعبته المعنويات المتفوقة عندهم والدافع القوي النابع من دفاعهم عن وطنهم ضد الغزاة البرابرة، ولا يمكن اعتبار هذه العوامل مجرد عوامل مساعدة. ولكن ثيميستوكليس أثبت ـ في معركة سالاميس ـ أنه أستاذ في فنون الدعاية والحرب النفسية.

لقد خاض اليونانيون حروبهم كما لو كانت مبارزات جماعية، فقد كانت الحملات قصيرة المدى، وعادة ما كانت المعارك حاسمة، وكان مدى تكتيكاتهم محدودا نسبيا، وقامت كل كتيبة بعملها على أساس اعتمادها الذاتي كجماعة واحدة على نفسها، عاكسة بذلك تطور نظام المدينة ـ الدولة. ولم يتح تشكيل القوات في صفوف متراصة متتالية من المشاة ثقيلي التسليح ـ وهم

يتصدون لخصومهم مواجهة كتلة واحدة ـ الفرصة للبطولات الفردية من النوع الذي أشادت به القصائد الملحمية. وباستثناء الإسبرطيين ذوي النزوع الحربي الذين ربما أدت تنشئتهم العسكرية، من سن مبكرة، إلى نزع فكرة الخوف من عقولهم (أو أنها على الأقل جعلت الخوف من الفرار أكبر بكثير من خوف المعركة) باستثناء هؤلاء، فإن الجيوش اليونانية كانت تحتاج إلى الكثير من جهود رفع المعنويات. كان القتال واجبا ينبغي أداؤه للدولة، ولكنه كان أيضا عملا مرعبا. ودائما ما خطب القادة اليونانيون في قواتهم قبل المعارك في محاولة لرفع الروح المعنوية. وكان الجنود اليونانيون يصرخون وهم يندفعون إلى القتال (ومرة أخرى باستثناء الإسبرطيين الذين كانوا يسيرون ببطء إلى المعركة على صوت الموسيقى). ولم يكن انتشار الذعر أمرا نادرا، وهو ما كان أحد أسباب استخدام المرتزقة المحترفين (غالبا ما كانوا من غير الإغريق) الذين كان الربح دافعهم لأداء الواجب. ولكن القاعدة، وخاصة حينما تشتبك الكتائب الواحدة ضد الأخرى، كان من الضروري مواجهة الخوف والإجهاد في القتال المتواصل المنتظم وجها لوجه، بواسطة مزيج من الانضباط الصارم ورفع المعنويات قبل اندلاع المعركة.

ومن هنا فقد أصبح للدين في الحروب اليونانية أهمية نفسية، فالبشائر والنذر والخوارق ـ التي ربما كانت ظواهر طبيعية كالعواصف الرعدية ذات البروق أو خسوف القمر ـ كانت تستخدم في الاستعدادات النفسية للمعارك بوصفها علامات من الأرباب. وأتاح العرافون والعرافات ـ وأشهرهن عرافة دلفي ـ وجود واسطة بين الإنسانية والآلهة، وبينما كانت القوات تتجمع من كل أنحاء العالم اليوناني في بداية أي حملة جالبين معهم العديد من مختلف الخرافات والآراء، كانت نبوءة العراف توفر لهم وجهة نظر واحدة يمكن أن يتحد حولها الجنود: كلمة من الأرباب إلى شعب اليونان. ويقال إن ملكي إسبرطة كان يصاحبهما ـ في سيرهما إلى المعركة ـ إلهان توأمان، وقد أرسل اليونانيون طبقا لما يقوله هيرودوتس سفينة لتعود بإله الحرب عندهم قبل معركة سالاميس (وربما كان هذا الإله تمثالا أو أيقونة). وتشير الحكايات المعاصرة للمعركة نفسها إلى ظهور بعض الأرباب ظهورا فعليا وسط القتال. ولربما أدت سخونة اللحظة: تدفق الأدرينالين في العروق ـ مع الدم ـ أثناء القتال، ممتزجا بالخلفية الدينية التي سيطرت على الحياة اليونانية ـ

لربما أدت إلى أن يعتقد المحاربون أنهم يقاتلون جنبا إلى جنب أبطالهم وأربابهم ـ أي باختصار ـ أدت إلى الهلوسة. بل إن الإسكندر الأكبر قد استغل هذه التجربة اليونانية الجماعية المشتركة حينما استخدم ـ قبل إحدى المعارك ـ ثعبانا مدربا مزودا برأس إنساني مصنوع من القماش ـ لكي يثبت لجنوده أن الإله أسكلبيوس (Asklpios) الذي كان يرسم عادة على شكل أفعى يقف إلى جانبهم. ولقد استخدمت خدع أخرى إضافة إلى تلك الخدعة. مثل كتابة كلمة: «النصر» بمواد صباغية على كبد حيوان مذبوح كأضحية، وإظهاره للجنود قبل المعركة كعلامة من الأرباب. ولقد سيطرت هواجس النذر الخرافية على الإسكندر حتى أصبح مضطربا من الناحية النفسية بسبب سلسلة النذر التي سبقت موته المبكر، مثل مشاهدته للقتال بين الغربان وسقوط بعضها ميتا عند قدميه.

لقد كان الخداع وتشويه المعلومات أو نقصها ـ مثلما رأينا ـ ملامح رئيسية عضوية في أعمال الحرب اليونانية. فإذا كان من الممكن تحقيق النصر بمساعدة ما نسميه نحن الآن: «الدعاية» فإنه غالبا ما كان يستدعي تقديم تضحيات للآلهة أكثر بكثير مما يمكن أن يستحق أي نصر عسكري حقيقي. غير أن الدين ظل هو الوسيط الرئيسي لمثل هذا النشاط وهذا هو المعنى نفسه الذي عبر عنه شيشرون Cicero [10] فيما بعد قائلا: «وأي ملك أو شعب هذا الذي لم يحدث أن استخدم الكهانة؟ لست أعني في زمن السلم وحده، وإنما أكثر في زمن الحرب حين يصبح الكفاح والنضال من أجل السلامة في أقوى صوره».

وكانت النذر السيئة تخفى فلا يعرف بها الجنود. أما تلك التي لم يكن من الممكن إخفاؤها ـ مثل سقوط نيزك أو حتى العطسة ـ فكان لا بد من شرحها شرحا إيجابيا من جانب القادة سريعي البديهة ومن معهم من المفسرين، لكي يقنعوا رجالهم بأن النذر ما تزال تقف في صفهم. فقد حدث طبقا لما يقوله بلوتارخ عند الفجر قبيل معركة سالاميس أن حطت بومة على شراع سفينة القائد الإغريقي، فارتفعت معنويات الأثينيين لأن البومة كانت هي رمز مدينتهم. وبعد ذلك بقرن ونصف من الزمان، وقبل نشوب المعركة بين الإغريق وبين القرطاجانيين، قام القائد الإغريقي أجاثوكليس (Agathokles) خفية بإطلاق بومات عدة وسط معسكره الحربي

لكي يرفع معنويات قواته.

وثمة أمثلة أخرى حيث أدت النذر السيئة ـ كالأحلام أو ظهور بعض الحيوانات ـ إلى تأجيل المعركة أو إلى التأثير في خطط القتال. فقد كتب أحد المؤرخين في زمن لا يبعد عن أكثر من 1901: «من المحتمل أن ما أولاه القائد الإغريقي من اهتمام بتقديم القرابين والأضاحي المبشرة، إنما كان بسبب تأثيرها على عقل الجندي العادي وشجاعته واعتماده على هذا التأثير بأكثر من ثقته ـ غير المؤكدة ـ في تلك القرابين بوصفها مؤشرا يحدد الخطة التي يتعين عليه اتباعها». ولقد شاع استخدام هذه الحيل النفسية في الحروب الإغريقية لرفع المعنويات حتى أن و.كندريك بريتشيت الذي ربما كان أول من درس هذا الموضوع ـ كتب يقول: «إن المشكلة... هي تفسير عدم استخدام الحيل وأنواع الخداع المختلفة حين كان يمكن لها أن تؤدي إلى تحقيق مكاسب أو مميزات حربية». ونحن نعرف أنه إثر هزيمة الفرس، بدأت الحضارة الأثينية في الازدهار، وبشكل خاص في عهد بيريكليس (495 ـ 429 ق.م) وخلال حرب البلوبونيز التي دامت عشرين عاما ضد إسبرطة (431 ـ 404 ق.م) وكان مؤرخ هذا الصراع وهو ثيوسيديديز (455 ـ 400 ق.م) أثينيا خاض القتال، وهو الذي تعد روايته للصراع مثالا نموذجيا للتأريخ الذي يبدو موضوعيا، ولكنه يقوم بوظيفة الدعاية. إنه يظل وفيا للقضية الأثينية ولكنه يستطيع أن ينتقد الأثينيين أيضا حيثما كان ذلك مناسبا ويقدم الحجج المضادة. وعلى رغم أنه أكثر اهتماما بتفاصيل الحرب ومعاركها وسياساتها، فإن ثيوسيديديز يقدم بالفعل ملاحظات ثمينة حول وسائل رفع المعنويات الإغريقية، فهو على سبيل المثال، يصف خطاب الملك الإسبرطي آرخيداموس في قواته قبل حملته على أثينا، حيث قال الملك:

> يا أهل البليبونيز وحلفاءهم، لقد اشتبك آباؤنا في حملات عدة داخل البليبونيز وخارجها، وكبار الرجال في جيشنا هذا ليسوا قليلي الخبرة في الحرب. ومع ذلك فإننا لم نزحف قط في عدد أكبر من عددنا الآن. ومثلما نتحرك نحن الآن في أعداد أكبر وبعزيمة أقوى مما كنا عليه في أي وقت مضى، فإن المدينة التي نزحف ضدها الآن تقف في

ذروة قوتها، ولذلك فإننا يجب ألا نكون أقل من آبائنا، وألا نكون أقل مما عرف عنا واشتهرنا به. وإن هيلاس كلها تراقب تحركنا بلهفة... فتذكروا إذن أنكم تزحفون ضد مدينة عظيمة، وفكروا أيضا في المجد أو ـ إذا انعكست الأمور ـ في العار، الذي سوف تجلبونه لأسلافكم ولأنفسكم، وإذ تذكرون كل هذا، اتبعوا قائدكم وانتبهوا أعظم انتباه إلى النظام والأمن، وأطيعوا من فوركم ما تتلقونه من أوامر. فإن أفضل وآمن الأمور يكون حين تنتظم قوة عظيمة حتى لتبدو وهي تتحرك مثل رجل واحد.

ومثلما تكشف هذه الخطبة، عرف الإغريق بالفعل الكثير من أساليب رفع المعنويات التي استخدمت في أزمنة لاحقة: التوجه إلى عصبية الأسرة والكبرياء القومي، والتذكرة بأن جميع السكان يرقبون أداء القوات، وضرورة النظام والتماسك، واحترام العدو ـ يضاف إلى هذا كله، دور القائد العسكري وما تمثله الأسلاب من حافز.

لقد كان أول من وصف استخدام الدعاية في خدمة الدولة هم المؤرخين والفلاسفة اليونانيين في القرن الرابع ق.م، الذين كانوا يبدأون في تفسير الكون من زاوية نظر المواطن الفرد وعلاقته بالدولة. وقد صحب نمو الديموقراطية الاتجاه إلى إضفاء الصفات الإنسانية على الآلهة والاتجاه بذلك إلى نسف دورهم الدعائي. ففي محاورات أفلاطون Plato (428 ـ 327 ق.م) مع أستاذه سقراط (Socrates) في زمن حرب البليبونيز، أراد أفلاطون أن يستعيد للآلهة وضعهم العلوي المقدس وأيد فرض الرقابة على القصائد الملحمية، وخاصة تلك التي رسمت صورة معتمة وجهمة للحياة الآخرة:

ولا نستطيع أن نسمح بحكايات الحروب والمؤامرات والمعارك بين الآلهة. إنها محض كذب، وإذا أردنا لمن نأمل في رعايتهم أن يصدقوا أن الميل إلى العراك هو واحد من أسوأ الشرور، فإننا لا ينبغي أن نتركهم يزخرفون عباداتهم بصور حكاية معركة العمالقة، أو أن تحكى لهم حكايات المشاجرات الكثيرة المختلفة بين الآلهة والأبطال وأصدقائهم وأقاربهم[11].

وعلى المنوال نفسه، يقرر أفلاطون في كتابه: «الجمهورية» قائلا: هنا سوف تتجدد الحاجة إلى إشرافنا فلا بد أن يخطر الشعراء بضرورة أن يتحدثوا حديثا طيبا عن الدار الآخرة. ولا بد من تحريم الأوصاف الكئيبة التي يصفون بها الآن تلك الدار، ليس فقط باعتبارها أوصافا غير صادقة، وإنما أيضا لأنها سيئة التأثير على محاربينا في المستقبل. ثم يمضي أفلاطون لكي يؤيد سياسة التزام الصدق أو على الأقل، التزام مظهر الصدق أو ما يبدو أنه كذلك. ومع هذا فإنه يقر بالحاجة إلى الرقابة وإلى أن يقوم الحكام ببعض الخداع بوصفهما جزءا أساسيا من العملية الديموقراطية.

وقد تابع أرسطو Aristotle ـ تلميذ أفلاطون ـ هذا الاتجاه في كتابه: الخطابة (Rhetoric) الذي وضع فيه أسس إرشادات الخطباء الذين يجب أن يقيموا حججهم على الحقيقة: «الحقيقة تهزم الزيف». فأرسى بهذا إحدى الدعائم الأساسية للدعاية الناجحة بالشكل الذي استخدمتها به النظم الديموقراطية الحديثة. غير أن إكسينوفون (Xenophon) تلميذ سقراط هو من يستطيع أن يدعي لنفسه وضع أول دراسة تفصيلية لدور المعنويات في الحرب. لقد كتب إكسينوفون ـ في بداية القرن الرابع ق.م في كتابه «الزحف» (Anabasis) قائلا: «إنني لعلى ثقة من أنه لا كثرة العدد ولا القوة هي ما يجلب النصر في الحرب، وإنما الجيش الذي يزحف إلى المعركة أمضى عزما وأقوى روحا فإن أعداءه ـ عموما ـ لا يستطيعون الصمود أمامه».

ولم تسفر حرب البليبونيز فقط عن هزيمة أثينا، وإنما أسفرت أيضا عن تدهورها بوصفها مركز الحضارة الذي فرض نفسه. وقضى على إسبرطة ـ التي خرجت منتصرة مؤقتا ـ أن تقتفي أثر أثينا خلال جيل واحد. فلقد أنهك الإغريق إنهاكا شديدا بسبب تجدد الحرب مع الفرس واستمرار الحروب «الأهلية» وهزيمة الإسبرطيين أمام جيش طيبة (Thebes) في معركة ليوكترا العام 371 ق.م. وكان من الضروري أن يظهر أجنبي هو فيليب المقدوني (382 ـ 336 ق.م) لكي يوحدهم، ولكن ليس قبل أن يصطدم بالأثينيين. فقد حاول الأثينيون مرتين أن يقاوموا فيليب تحت قيادة ديموثينيز (384 ـ 322 ق.م) المرة الأولى في العام 348 ق.م والثانية في العام 339 ق.م، غير أن الخطابة البليغة ـ مهما كان من حذقها ـ لم تكن كفئا لتطاول تفوق المقدونيين العسكري. وإثر هزيمة أثينا، كون فيليب «العصبة الكورنثية»

التي وحدت غالبية الدول الإغريقية (باستثناء إسبرطة) وأعلن الحرب على فارس في العام 337 ق.م لكي يثأر لتدمير المعابد الإغريقية على يدي أجزركسيس. وكانت الذريعة هنا ـ لو كانت هناك أي ذريعة ـ دينية الطابع، حيث كانت المعابد الإغريقية كنوزا ومكتبات إغريقية أيضا، ومن أجل أن يحقق أهدافه وأن يفرض الوحدة الإغريقية، وخاصة مع حقيقة أن المقدونيين لم يكونوا يعدون إغريقا وإنما برابرة، فقد فرض فيليب مستويات جديدة للتدريب والتجنيد في جيشه، وطور نظام الفيلق المقدوني الذي أثبت تفوقه على النظم الإغريقية، وثابر على إلقاء الخطب في قواته لكي يحثهم على أن يكونوا شجعانا، وأسس أول هيئة محترفة للمخابرات. وكان المقدونيون بالفعل مشهورين بخدعهم وجواسيسهم وقدرتهم على منع وصول المعلومات الثمينة إلى العدو، فلم تتساو مع منجزات فيليب في ميادين المعارك سوى قدرته بوصفه رجل دعاية في جهوده لتكوين الوحدة الإغريقية.

واغتيل فيليب في العام 336 ق.م فخلفه ابنه ذو العشرين ربيعا، الإسكندر الأكبر الذي حمل مواهب أبيه العسكرية والدعائية. ولا يمكن المماحكة في معدن الإسكندر كقائد عسكري، غير أن مهارته كرجل دعاية لا تنال القدر نفسه من التقدير. لقد أصبح الإسكندر شخصية أسطورية شبه معبودة ـ من فرط إعجاب الناس واهتمامهم به ـ واكتسب شهرة متزايدة بوصفه عبقرية حربية تقف جنبا إلى جنب ـ بل تفوق ـ هانيبال وقيصر ونابوليون الذين أعجبوا به جميعا. ويرجع الكثير مما نعرفه عن الإسكندر إلى تلك الشهرة الأسطورية، كما أنه لا توجد سوى مصادر قليلة للغاية معاصرة له للمعلومات عن حياته. ومع ذلك فإن ما بقي من المعلومات يكشف ـ دون شك ـ عن قائد ملهم للرجال وربما أول رجل دعاية ـ عسكري سياسي ـ حقيقي عظيم.

فبعد نجاحاته الأولى ضد الفرس، أذاع الإسكندر أنباء انتصاراته في اليونان بوصفها انتصارا للعصبة الكورنثية، على رغم أن الإغريق لم يشكلوا سوى جزء من التحالف الذي تولى قيادته، بل إن بعضهم حارب ضده إلى جانب الفرس. وفي محاولاته لتوحيد رجاله المقدونيين مع الفرس قام الإسكندر ـ في مدينة سوسة بعمل رمزي، حين تزوج هو نفسه بابنة ملك الفرس داريوس وتزوج ثمانون من ضباطه بنبيلات فارسيات، وتزوج عشرة

آلاف من جنوده بمحظياتهم الآسيويات. بل إن عملية تأليهه بوصفه ابنا لكبير الآلهة اليونانين زيوس (Zeus) يمكن أن تعتبر عملا من أعمال الدعاية السياسية، وتعكس هذا قطع النقود التي أصدرها. فقد سكت دار الضرب في الإسكندرية قطعا نقدية يحل فيها وجه الإسكندر محل وجه هرقل الابن «الحقيقي» لزيوس، وأطلقت على الكثير من المدن ـ بالطبع ـ من مصر حتى الهند أسماء مستمدة من اسمه مع مسيرة حملته الهائلة لغزو معظم آسيا ـ وليس فارس وحدها ـ وهو الغزو الذي أشار إليه ـ مقدما ـ ما قام به وأذيعت أنباؤه على أوسع نطاق في مدينة جورديوم، حينما قطع بسيفه: «العقدة الجوردية»، مقنعا الناس بذلك بأن الآلهة هي التي منحته ما قدر له من حكمه لآسيا.

ومثلما فعل والده، استخدم الإسكندر الفنانين والحرفيين الإغريق لكي يقيموا له لوحات وتماثيل من البرونز. غير أن أكثر ما بقي من رسوم له يعود إلى الفترة التالية مباشرة لموته في سن الثانية والثلاثين العام 323 ق.م. وتصور تلك الرسوم الإسكندر مؤلها في أسلوب إغريقي أو شرقي، وقد اقتبس القادة والأباطرة الرومان الذين أرادوا محاكاته أو تقمص شخصيته هذه الصورة النمطية الثابتة. ذلك أن أحد العناصر الأساسية لنجاحه كان اهتمامه الشديد بالتفاصيل المتعلقة بالمعنويات ـ ليس فقط وسط قواته ـ وإنما بين شعوبه أيضا. لقد تبين أن الدعاية تمثل بديلا ممتازا لحضوره الفعلي. وهو ما يفسر سبب الظهور المستمر والدائم لصورته ـ على قطع النقود والمباني وفي التماثيل وقطع الفخار والأعمال الفنية ـ في طول إمبراطوريته وعرضها. لقد تطلب الاتساع الهائل لفتوحه ـ في زمن كانت المواصلات فيه بطيئة تحفها الأخطار ـ استخدام الصور والرموز التي تشير إلى قوته، والتي تؤكد مكانته بوصفه سيدا للعالم، واستخدم الدين لتفسير نجاحاته، ولعب هنا أيضا على أوتار خرافات شعوبه. إن مجرد حقيقة أن الإسكندر يظل واحدا من أعظم شخصيات التاريخ لشهادة ليس فقط على نجاح دعايته أثناء حياته، وإنما نجاح تكريس الإعجاب به وتحويله إلى عبادة لشخصه تدور حول سجله الحربي بواسطة شخصيات تاريخية لاحقة له. فقد أتاح الإسكندر النموذج الذي اتبعه من جاؤوا بعده. وبصرف النظر عن الحقيقة، فإن «الصورة» هي التي سيطرت على

الخيال وتملكته.

لقد بلغت الدعاية للحرب سن الرشد عند الإغريق القدامى. وبدأت توجه منذ ذلك الحين بقدر متزايد من الإتقان والتدبير. لقد أقر الإغريق بالحاجة إلى الدعاية لتوحيد إرادة جنودهم المواطنين وإلهامهم، واستطاعوا أن يحددوا دورها في إطار مجتمع متحضر، وأعلوا من قدر أهمية الأعمال ـ والمباني ـ العامة بوصفها وسائل نفسية لتشجيع الإحساس بالكبرياء الوطنية والولاء الشعبي، وأدركوا الاحتياج إلى الرقابة وإلى حملات الدعاية من أجل توسيع التأييد الشعبي لحملات عسكرية بعينها. ولذلك، فإن الإغريق الذين يذكرون ـ أكثر ما يذكرون ـ لمساهماتهم الباقية في بناء الحضارة، قد اعترفوا بأن الدعاية عنصر أساسي من عناصر قيام ـ وبقاء ـ مجتمع منظم وفعال. أما الحضارات التالية فقد تجاهلت هذه الوصية، ودفعت لذلك ثمنا فادحا.

3 ما كان لروما من المجد (*)

كانت روما تفتقر إلى المصادر الأسطورية التي أتيحت لرجال الدعاية الإغريق، فقامت لذلك باختلاق أساطير خاصة بها حتى تتيح لمواطنيها الأمثلة التي يحاكونها. ومن المؤكد أن الرومان كانوا مبدعين لا نظير لهم للدعاية الأسطورية، وكثيرا ماتدلنا كتاباتهم على التوجهات الرومانية المعاصرة ـ لكتابها ـ بأكثر مما تدلنا على المصادر التاريخية الفعلية. وتقول إحدى الحكايات إن روما أنشئت على أيدي الناجين من طروادة [1]، وقد زعمت أفضل الأسرات الأرستقراطية قدرتها على العودة بأشجار نسبها حتى وصول أولئك الآباء المؤسسين. وتروي القصة الأخرى ـ الأكثر شهرة ـ أن مؤسسي روما كانا الشقيقين رومولوس وريموس، اللذين أنجبتهما عذراء قتلت غيلة فأصبحا يتيمين ورعتهما، وأرضعتهما ذئبة. وهذه قصة دعمت كبرياء الرومان

(*) «ما كان لروما من المجد» The Glory tht was Rome: يستفيد المؤلف من عنوان هذا الفصل: من عنوان كتاب: «The Glory tht was Greece» والذي ألفة المؤرخ البريطاني-جون ستوجارت، أستاذ الحضارة الكلاسيكية في أوكسفورد حتى منتصف الأربعينات، والذي أصدر أيضا: ما كان لروما من العظمة The Grandeur tht was Rome (العام 1912) عن دار سيدويك وجاكسون-لندن- ويعد الكتابان إلى الآن من المراجع الأساسية في مجالها.

بأصولهم المتواضعة، وكان هذا نافعا بشكل خاص في ذروة القـوة الرومانيـة، لتأكـيد مـدى الارتـفاع الذي حققوه. غير أن قصة صعودهم كانت قصة عنيفة، فلقد شيد «ما كان لروما من المجد» وبقي بواسطة العنف.

كانت الحرب جزءا أصيلا من الحياة الرومانية الباكرة، وكانت هي مفتاح التوسع الروماني، أولا ـ فيما وراء حدود المدينة إلى شبه الجزيرة الإيطالية، ثم إلى ما وراءها في أوروبا الأكثر اتساعا، لكي تمتد في أوقات متفاوتة من إسبانيا وبريطانيا وفرنسا في الغرب إلى مصر والخليج وبحر قزوين في الشرق. وكان أداء الخدمة العسكرية (فيما كان يمكن أن يصل إلى عشر حملات عسكرية سنويا) من المؤهلات الأساسية للحصول على منصب سياسي على مدى تاريخ الجمهورية الرومانية (بين 510 و57 ق.م). وفيما يخص أرستقراطيا شابا يملؤه الطموح السياسي كان الاختيار لمنصب الـ «تريبيون Tribune» العسكري (وكان هناك ستة منهم في كل فرقة) خطوة أساسية لحياته العملية بعد ذلك في مجلس الشيوخ، ومن أجل تعيينه في منصب القنصل (وكان هناك قنصلان يعينان كل سنة) وهو منصب كان يتطلب مهارات عسكرية وسياسية عدة. ولم يكن ثمة مكان لتلك التجربة التربوية التي تشكل مثل هؤلاء الرجال، سوى الجيش، وبتعبير آخر، كانت الحرب هي دماء الحياة القادرة على توفير الوجاهة السياسية والعسكرية لأي أرستقراطي روماني. وفي مثل هذا المناخ المفعم بالطموح، لم يكن ثمة نقص في دوافع الذهاب إلى الحرب. كان الأمر على حد تعبير «ساللوست Sallust»:

> بالنسبة لرجال من هذا النوع، لم تكن ثمة مشقة تعتبر غير عادية ولا أرض تبدو لهم وعرة أو شديدة الانحدار ولا عدو شاكي السلاح يبدو مخيفا. فقد كانت الشجاعة قد فرضت سيطرتها الكاملة. غير أن المنافسة الشديدة كانت دائرة فيما بينهم في سبيل المجد: فأسرع كل واحد منهم إلى ضرب عدو من الأعداء وهزيمته أو إلى أن يتسلق متراسا محصنا حتى تبصره العيون وهو يقوم بمثل هذا العمل».

ولكن كيف كان الجنود العاديون والمدنيون يدفعون إلى تأييد مثل تلك الأعمال الحربية؟

يبدو لنا جليا أنه لم يحدث في أي وقت أن عارض الشعب قرار مجلس الشيوخ بشن الحرب، فهل كان الشعب مشبعا بالعقلية الحربية ذاتها مثل الأرستقراطية؟ لقد لعب الدين دوره، مثلما أقر بذلك الكاتب الإغريقي بوليبيوس (Polybius) حينما كتب يقول إن الرومان كانوا من الحكمة بحيث «اتخذوا سبيل إثارة الشعور الديني لمصلحة عوام الناس» أو مثلما قال شيشرون نحو العام 45 ق.م: «وهكذا فإننا يجب أن نقنع مواطنينا بأن الآلهة هم سادة وحكام كل شيء... لأنه من المؤكد أن العقول المشبعة بمثل تلك الأفكار لن تعجز عن أن تشكل آراء صادقة ونافعة». ولا شك أن ثيوسيديديز وأفلاطون كانا سيؤيدان بترحيب تلك الكلمات. ولقد كان إله روما الرئيسي هو مارس (Mars) إله الحرب (بالطبع). وقد استخدم الدين، وبشكل يفوق كثيرا ما حدث في اليونان، استخداما نفعيا بوصفه أداة للسيطرة الاجتماعية. ولنعد مرة أخرى إلى كلمات من بوليبيوس «يتمتع الرومان بفاعلية بالغة في لحظات الأزمة، في استرضاء كل من الآلهة والبشر».

ويخبرنا بوليبيوس أنه قبيل معركة زاما في العام (202 ق.م) قال القائد الروماني سيبيو الأفريقي (Scipio Africanus) لقواته إنه إذا ما هزم هانيبال[2] «فإنهم سوف يحققون لأنفسهم ولبلادهم هيمنة وسلطة لا ينافسهم فيها أحد على بقية العالم». لقد أثير هنا الإحساس بكل من المجد والشرف بوصفهما مثالين واقعين ليس في سبيل مدينة روما فقط، وإنما في سبيل الجمهورية ككل التي كان مجلس الشيوخ يحكم باسمها (شيوخ وشعب الرومان)، كان سيبيو ـ قاهر هانيبال في النهاية، وهو عبقري عسكري وحربي في حد ذاته ـ مدركا تماما لقيمة الأسطورة والدعاية في دفع الرجال إلى القتال. كتب ليفي (Livy) يقول: «لقد اجتهد للتأثير في عقول الرجال منذ البداية»، فتعمد أن يروج لصورته باعتباره إنسانا أسمى (أو: سوبرمان) متدينا ملهما. وثمة قصة تشبه ما روي عن الإسكندر، تقول إن أمه حملت به بعد أن واقعها ثعبان «ولم يحدث أبدا أن رواها بنفسه... ولكنه ساعد على ترويجها ـ بالإحجام الماهر ـ عن كل من نفيها أو تأكيدها بوضوح». ولقد أعانت مثل هذه الحيل على تدعيم أسطورته بين قواته ومؤيديه وزيادة الثقة ـ من ثم ـ في رجل ربما كان شبابه قد أدى ـ على العكس ـ إلى إثارة الشكوك في قدراته بوصفه قائدا عسكريا.

وقد أشار مؤرخون كثيرون إلى محاولات روما المتكررة لتجنب ضم أراض تقع فيما وراء البحر، وإلى أن الحرب كانت تشن ـ على الأقل في تصور الرومان ـ لأسباب دفاعية. فإذا كان الأمر كذلك، فلا بد أن يكون أحد الأهداف المهمة للدعاية لتوسع روما الإمبراطوري، هو بالتحديد القول بأن الحق كان دائما إلى جانب روما. وفي المناسبات النادرة التي اختلف فيها مجلس الشيوخ مع الشعب أو لم يتفقا تماما على إعلان الحرب، كان المعتاد أن يتولى الشعب حث الشيوخ ـ بعدوانية شديدة ـ على خوض القتال. ونحن نعرف أنه طوال التاريخ كله، تكون الحرب شعبية ومحبوبة حين يكون الطرف الذي ننتمي إليه هو الطرف المنتصر، وحينما يعتقد السكان المدنيون ـ بصدق ـ أن الحق إلى جانبهم. وكان الرومان ينتصرون ـ في العادة، وقد برر النصر أن تكون القضية الرومانية هي الحق، كما ولد النصر شعورا هائلا بالكبرياء القومية، وإضافة إلى الوطنية كان ثمة شعور بالعدل الفطري والزهو بالإنجاز التاريخي، فماذا ـ غير هذا ـ جعل الروماني العادي يخوض القتال؟

في عهد الجمهورية الباكر، لم يكن أمام المواطن الروماني خيار سوى أن يخدم في الجيش. وكان من الضروري أن يكون المجند فلاحا مالكا للأرض ومواطنا رومانيا. وأن يكون مستعدا للخدمة العسكرية لمدة تتراوح بين خمسة عشر وعشرين عاما. ومن الواضح أنه تعين أن يكون ما يحصل عليه في نهاية خدمته العسكرية كافيا لتعويضه عن المخاطرة السنوية بالموت، وتكلفة غيابه عن المزرعة خلال موسم الحملات الحربية فيما بين شهري مارس وأكتوبر كل سنة. وربما كان المال ـ كما هو الوضع في فصائل قوات الجوركا [3] في الجيش البريطاني خلال القرن العشرين ـ هو الدافع، أي أن الخدمة العسكرية كانت وسيلة مهمة للتعويض عن دخل المزرعة بقدر ما كانت مصدرا لفخر الأسرة وزهوها. ولقد استخدمت روما التجنيد الإجباري في أوقات الأزمات، غير أن الجنود المتطوعين المحترفين كانوا يمثلون عماد الفيالق الرومانية، وهم الرجال الذين اعتبروا الخدمة في الجيش مهنة يحترفونها طوال حياتهم والذين يتمتعون بمعنويات عالية ودوافع قوية. وكان مثل هؤلاء الرجال موفوري العدد في روما حتى قرب منتصف القرن الثاني قبل الميلاد... وإذ كانت الحرب تنشب بانتظام، فقد كانوا يعرفون

أنهم سيشاركون في حملات عدة، وأنه لا بد من خوض كل معركة بشراسة وعنف، وأنهم إذا انتصروا فالمتوقع أن يتصرفوا بوحشية. وكانت المدن المقهورة تعامل بغلظة. وقد وصف بوليبيوس قتل المدنيين واغتصابهم ـ دون تمييز ـ في مدينة قرطاجة الجديدة في إسبانيا على أيدي قوات سيبيو الأفريقي خلال الحرب البونية الثانية[4] (219 ـ 202 ق.م) قائلا: «إن الهدف من هذه العادة فيما أرى هو بث الرعب في القلوب»... وهذا هو ما كان، فلقد شجع القادة الرومان وأيدوا ما اشتهرت به القوات الرومانية من شراسة ووحشية، بوصفها حيلة دعائية لإخافة الخصوم الآخرين، ولعل هذا هو ما جعل سيبيو إيميليانوس خلال الحرب البونية الثالثة (149 ـ 146 ق.م) يأمر بقطع أيدي 400 متمرد في إسبانيا (على رغم أنه يقال إن هذا الرجل نفسه قد بكى حينما رأى قرطاجة وقد دمرت تماما في نهاية الحرب).

ولم يحدث أبدا أن صور المؤرخون الرومان، روما في صورة المعتدي. عندهم قامت روما دائما بالدفاع عن مصالحها وقهرت الشعوب الأجنبية لكي تنقذها من أنفسها. وقبل أن يشن أي هجوم، كان المبعوثون يرسلون دائما في محاولة متباهية لحل النزاع في مصلحة روما بوسائل أخرى غير الحرب. ولا تعلن روما الحرب إلا إذا رفضت مثل تلك المحاولة فتعلنها بدافع «عادل»، وبعد أن تكون الوسائل البديلة قد جربت لـ «إنقاذ السلام». وأمثال تلك الذرائع (لأنها لم تكن سوى ذرائع في غالب الأحوال) هي ما أعانت روما على الدفاع عن سلامة قضيتها، ليس فقط أمام شعبها وإنما أمام حلفائها. ومع ذلك، فإذا كانت الحرب هي أكثر الوسائل فعالية في كسب الثروة والسلطة والمكانة فإنه سيكون من غير الطبيعي أن يتبع السياسيون الرومان وأتباعهم سياسات تستهدف تجنب الحرب، على رغم أن فتح العديد من جبهات القتال في وقت واحد كان بالطبع مخاطرة يمكن أن تؤدي إلى كارثة. ولكننا نحتاج إلى الحذر حينما نعتمد على المصادر الرومانية التي كانت تكتب غالبا لتأكيد وتغليب وجهات نظر سياسية خاصة بطرف واحد. لقد أكد الكتاب الرومان دائما، وخاصة ليڤي وبوليبيوس، أن روما كانت ضحية للعدوان، وخاصة في الحرب البونية ضد قرطاجة. بينما الحقيقة هي أن استيلاء روما على سردينيا ثم التدخل الروماني في إسبانيا

هو ما دفع قرطاجة إلى إعلان الحرب. وكانت روما تعرف أن مطالب سفرائها التي قدموها إلى قرطاجة العام 218 ق.م سوف تقابل بالرفض. وحتى بعد ذلك، فلقد أثنت المصادر الرومانية على هانيبال Hannibal (وهو ثناء صادق في الحقيقة) بهدف أن ترسم تلك المصادر صورة الانتصار الروماني النهائي باعتباره أعظم الانتصارات.

كانت مثل تلك الانتصارات هي المصدر الرئيسي للزخارف والزينات الاحتفالية في مدينة روما نفسها. فاللوحات المحفورة على النصب التي تقام وتخصص لتلك اللوحات، والرسوم المعروضة في المباني العامة، والأسلاب المأخوذة من بلدان الأعداء، كالأعمدة والأسلحة وتماثيل القادة في الميدان الرئيسي (الفورم Forum) بالمدينة لم تكن كلها بغرض أن تلفت الأنظار إلى مجد الأرستقراطية، وإنما كان المقصود منها ـ أيضا ـ أن تؤثر في الشعب وأن تغرس في قلوبه الثقة والولاء. كانت الأغاني التي تشيد بأعمال الأبطال العسكريين ومآثرهم تنشد في المآدب وغيرها من المناسبات، كما استخدم الكتاب الرومان الدراما والشعر لإذاعة شهرة «العظيمة الطيبة». بل إن مواكب الجنازات كانت تستخدم لاستعراض منجزات أسرة بعينها أمام «الشعب كله» على حد قول بوليبيوس. وحافظت أقنعة الموت، التي يرتديها أقارب الموتى، على ذكرى الأسلاف الأمجاد لكي يستلهمهم «الشباب» حتى «يتحملوا كل شيء في سبيل المصلحة العامة، ومن أجل تحقيق المجد الذي يلازم الأخيار».

ولقد تمتع التنظيم العسكري الروماني بشهرة أسطورية. غير أن الولاة العسكريين الذي أقاموا علاقة خاصة بينهم وبين قواتهم، قائمة على الولاء لهم بدلا من الولاء للدولة، تمكنوا في النهاية من تدمير الجمهورية الرومانية. وعلى رغم أن بلوتارخ ـ في ترجمته لحياة جايوس ماريوس (مات العام 86 ق.م) ـ قد أصر على أن الجنود كانوا أكثر إعجابا بالقادة الذين شاركوهم حياتهم، من إعجابهم بأولئك الذين لم يعتمدوا إلا على المال لكي يضمنوا ولاء جنودهم. إلا أن الرواتب الجيدة والأسلاب والمغانم ظلت سبيلا أساسيا لتجنب أعمال التمرد وضمان المعنويات العالية، كما أولى الاهتمام الشديد بتوزيع الغنائم بالتساوي لتجنب المنازعات الخطيرة. ولقد كان ماريوس ـ في نحو نهاية القرن الثاني قبل الميلاد ـ هو من أضفى صبغة الاحتراف

على الجيوش الرومانية عن طريق توسيع قاعدة التجنيد بضم غير الفلاحين، مستخدما رجالا عاشوا من أجل الجيش وحده، فلا يوجد ما يعرضهم لقلق الرغبة في العودة إلى مزارعهم في الشتاء. وكان ماريوس أيضا هو أول من تحمل مسؤولية أعباء حياة جنوده حين يتعرضون للإصابة أو إذا تقاعدوا. ولذلك فإنهم بدورهم توجهوا إليه ـ لا إلى الدولة ـ طلبا للتوجيه والتعويض المادي.

وكان ما أدت إليه إصلاحات ماريوس واضحا. فبعدها تكونت الفيالق الرومانية من جنود نظاميين محترفين يتجهون بالولاء ـ أولا وأخيرا ـ إلى الأفراد الذين يدفعون لهم رواتبهم، لا إلى الدولة. فإذا كان هذا القائد الفرد مخلصا للدولة، كان خيرا، فإذا لم يكن تعرضت روما للخطر من داخلها بأكثر مما يهددها من أخطار خارجية. وفي مرحلة لاحقة، خلال عصر الإمبراطورية الرومانية، كان على الأباطرة أن يضمنوا توجيه الدعاية بين قواتهم الخاصة بشكل فعال، لأنه لم يكن سهلا بالنسبة لهم دائما أن يذهبوا للحرب بأنفسهم (فقد كانت مغادرة روما المليئة بالمؤامرات أشد خطرا ـ في أحوال كثيرة ـ من ميدان القتال نفسه). وفرض يمين عسكري في العام 216 ق.م، ألزم الجنود بالدفاع عن الدولة بإطاعة قادتهم العسكريين، ولكن حينما استخدم «صوللا Sulla»[5] قواته في الزحف على روما العام 88 ق.م، أصبحت العلاقة قائمة أكثر على الولاء الشخصي، وكان هذا نذير شؤم بالحروب الأهلية التي نشبت في وقت لاحق من هذا القرن.

وتوضح المصادر الرومانية الأكثر حصافة أن مفتاح النجاح الحربي الروماني يكمن في تدريب الجيوش وتنظيمها. وكثيرا ما منحت هذه الحقيقة ـ بخاصة ـ للجيوش الرومانية ميزة نفسية على خصومها. إن شيئا لا ينجح مثل النجاح. فبعد أن رسخت روما شهرتها بأنها قوة لا تقهر ـ على رغم بعض النكسات كتلك التي أنزلها هانيبال بروما في معارك بحيرة تراسمين وكانا ـ أصبحت روما قادرة على أن تعتمد على شهرتها بقدرتها على أن تخسر بعض المعارك أحيانا وكسب الحرب على الدوام. وكان وجود شبكة المواصلات الرومانية من الطرق البرية والبحرية والاهتمام التفصيلي بوسائل النقل والمؤن اللازمة للقوات. كان هذا في حد ذاته سببا في ردع أشد المعتدين عزما. فالأمر هو كما أكده الكاتب الحربي الفرنسي من القرن

التاسع عشر آردان دي بيك في قوله: «لا يستحق جيش اسمه دون انضباط... والانضبـاط لا يمكن صنعـه ولا تثبيته في يوم واحد. إنه مؤسسة وتقليد من التراث».

كان الانضباط والمعنويات العالية عنصرين أساسيين فيما يتعلق بأسلوب شن الرومان للحرب. فعلى العكس من الكتيبة الإغريقية التي اتخذت أسلوب الاعتماد المتبادل وسيلة لحفظ وحدة الصفوف، قاتل الرومان في خطوط أقل كثافة، أو في موجات، مما جعل جميع الجنود يشتبكون في القتال. وكانت تلك وسيلة أكثر فعالية لنشر أكبر عدد ممكن من الجنود في الخط الأمامي، ولكنها تطلبت أيضا اهتماما أكبر بتفاصيل كيفية قتال الرجال، ولماذا يقاتلون. وكان الذعر إذا ثار لدى الإغريق يثور في مؤخرة الكتيبة الإغريقية، ولكن لم يكن ثمة مكان لذوي القلوب الواهنة في الفيلق الروماني، حيث كانت قوات الخط الأمامي تدعم باستمرار خلال مسار المعركة. وفضلا عن ذلك فقد كانت المعارك الإغريقية تحسم عادة في اشتباك واحد، بينما كانت المعارك الرومانية تتطلب عملية تعبئة (استراتيجية) أكثر تعقيدا وأطول أمدا تعتمد على تحرك القوات وقدرتها على المناورة، فقد كان من الضروري تنظيم حملة دعائية أكثر كثافة وأطول زمنا توجه إلى «روح الجنود» في القوات الرومانية. فعلى سبيل المثال: أولى القادة الرومان عناية كبيرة في معسكراتهم المحصنة لاسترخاء وراحة الجنود قبل المعركة، بهدف تقليل التوتر العصبي. وقد كانت تلك المعسكرات عنصرا مهما في الاستراتيجية الرومانية، كما كانت الوحدات الناجحة قتاليا تجمع معا بدلا من تشتيتها لدعم الوحدات الأضعف. ففي إحدى المعارك خلال الحرب الأهلية، حينما أنقذ مائتان من الجنود المخضرمين أنفسهم، بينما استسلم مائتان وعشرون من المجندين حديثا لكي يذبحوا بعد قليل، قال يوليوس قيصر معلقا: «هنا يمكننا أن نرى الأمن الذي يمكن أن يستمده الرجال من عزيمة ماضية». وقد ضمنت الأساليب التكتيكية للقوات الرومانية حتى في حالة هزيمتها أن تنزل بأعدائها خسائر فادحة، لأن الأعداء كانوا عادة أقل تنظيما وأقل انضباطا بصور متفاوتة. ويتحتم القول إنه ربما كان الانضباط هو سر فعالية الدعاية الحربية الرومانية بين قواتها. ولم يحدث أن تمكنت قوة معادية أقل تنظيما من عبور الحدود الرومانية بأقل قليل من النجاح، إلا

حينما تقاتلت قوات رومانية كوحدات من المرتزقة موالية لمن يدفعون لها في الصراعات الأهلية العديدة التي انتشرت كالأوبئة في التاريخ الروماني.

ولقد كان يوليوس قيصر ـ بالطبع ـ واحدا من أعظم القادة العسكريين في التاريخ، وكان، مثل القادة العظام، مدركا تماما الدور الذي تستطيع المعنويات أن تلعبه قبل المعركة وفي أثنائها وبعدها. ولقد ضرب بنفسه المثال وهو يتولى القيادة، مخاطبا قواته بعبارة: «زملائي الجنود» قبل المعارك تاركا ثقته الشخصية بنفسه تتخلل الصفوف. بل إنه تولى القيادة أحيانا من خط الجبهة في لحظة بداية القتال. وفي «تعليقاته» وصف قيصر اللحظة التالية لحدوث هجوم مفاجئ وكيف كان على القائد:

أن يقوم بكل شيء في لحظة واحدة: أن يأمر برفع الراية إشارة إلى النداء العام لحمل السلاح، وبأن تدق الطبول، وبدعوة القوات من الخنادق، وبإرسال رجال لإعادة من كانوا قد ابتعدوا بحثا عن مواد الإعاشة... وبأن يتشكل الصف، وبالقوات أن تهتف بصرخاتها الحماسية، وبإشارة القتال أن تعلن... ولم تكن الهتافات الحماسية سوى شحنة تذكر الجنود ببسالتهم المعهودة، وبأن يتحرروا من الخوف، وبأن يواجهوا هجوم العدو بشجاعة... وتحول القائد إلى الناحية الأخرى لكي يبدأ ـ من فوره ـ الهتاف لكي يضرب لهم المثال فوجدهم وقد انغمسوا بالفعل في القتال.

وقد كان قيصر مؤمنا متشددا بالانضباط، فعاقب ـ بقسوة ـ الهاربين من الخدمة والمتمردين، ولم ينس أبدا الدور الذي تلعبه الأموال والغنائم في دفع جنوده إلى القتال. وكان واحدا من أوائل القادة والمسؤولين الرومان الذين طبعوا صورهم على قطع النقود أثناء حياتهم، بدلا من طبعها بعد الموت، كما كان يحدث قبلا طبقا لمرسوم لمجلس الشيوخ صدر العام 44 ق.م، فكان دفع الرواتب بمثل تلك النقود لقواته كافيا لتذكرتهم باتجاه وموقع مصالحهم.

ولم يكتف قيصر بتوزيع الأراضي والأموال على قدامى الجنود، وإنما قام أيضا بتوزيع الأطعمة على الفقراء، وتحبب إلى الجماهير بإقامة الولائم وحفلات الاستقبال التي تكتمل بأنواع الترفيه. وتبين أيضا حب الشعب للاستعراضات، فأقيمت مواكب الانتصارات المتقنة لا لشيء إلا لرفع معنويات الشعب الذي وضع تأييده في اعتباره، وأقام معارك بحرية

«مسرحية» في بحيرات صناعية أقيمت خصيصا لهذا الغرض، ومباريات تضم مجالدين من مدرسته الخاصة للتدريب في مدينة كابوا بل كان هو من جاء بأول «فرس نهر» من أفريقيا إلى روما، فقط لكي يكسب رضا الجمهور ويحافظ عليه. أما بالنسبة لأعدائه فقد عرف قيمة الصفح والحلم والتساهل والملاينة في كسب الأصدقاء الجدد والموالين له. وجاء منح حق المواطنة الرومانية لغير الرومان وسيلة لكسب تأييدهم.

ومع ذلك، فقد كانت هذه الخصائص ذاتها هي سبب ما حل بقيصر وعجل بنهايته. فبسبب تملقه للجماهير، وكثيرا ما كان ذلك بمهاجمته لبعض النبلاء، وصل إلى إبعاد الأرستقراطية من المشاعر العامة وجعلها غريبة عنه، وأصبحت دعايته صارخة صاخبة تؤدي إلى عكس المستهدف منها. وكتب سوتونيوس المفعم قلبه بالعداء يقول:

> إنه لم يكتف بقبول مظاهر التكريم المسرفة... مثل تمثال ينصب بين تماثيل الملوك وعرش يوضع أمام مقاعد المتفرجين في المسرح، بل لقد سمح أيضا بإصدار مراسيم تضفي على ذاته أنواعا من التكريم تفوق ما يضفى على البشر، مثل وضع مقعد ذهبي له خصيصا في استراحة الشيوخ وعلى منصة التريبيون، وتخصيص عربة مبهرجة له في الاحتفالات ومحفة في مواكب السيرك، ومعابد ومذابح وصور إلى جوار صور الآلهة، وسرير بمتكأ مزخرف... وإطلاق اسمه على أحد الشهور.

ويعترف ديو الأكثر تعاطفا مع قيصر قائلا: «لقد اقترف قيصر بالفعل الخطأ أحيانا بقبوله بعض أنواع التكريم التي طلبت له، وبتصديقه أنه قد استحقها بالفعل. ولكن الأكثر منه خطأ فهم أولئك الذين بدأوا بتكريمه ـ بمثل ما استحق ـ ثم انقلبوا عليه ووجهوا إليه اللوم لقبوله ما طلبوه له»... أما المتآمرون والأرستقراطيون الذي اغتالوه في شهر مارس العام 44 ق.م فقد قدر لهم أيضا أن يعرفوا في السنوات المقبلة طبيعة الغوغاء المتقلبة، وعدم إمكان التنبؤ بما يمكن أن يتخذوه من المواقف. فما من شك أن بروتوس وزملاءه من المتآمرين اعتقدوا أنهم يفعلون ما فعلوه بدعم من العامة، ولكنهم في النهاية أصبحوا ضحايا الدعاية نفسها التي وجهوها

ضد سلطة قيصر شخصيا.

ولقد كان قيصر هو مؤرخ حروبه، ولكن كتاباته ـ مثلها مثل أكثر الذكريات ـ كانت أقل اهتماما بتقديم المعلومات الدقيقة الصحيحة، منها بتبرير أعماله لدى معاصريه. وبتعبير آخر كانت تلك الكتابات ذات طبيعة دعائية، ولكن هذا لا يؤدي إلى تجريد «تعليقات» قيصر ـ على سبيل المثال ـ من مصداقيتها ورفضها، وإنما يعني ببساطة أننا ينبغي أن نتعامل معها بحذر. لقد نشرت هذه التعليقات (Commentaries) في العام 51 ق.م وتعالج كتبها السبعة الحرب الغالية (58 ـ 52 ق.م)، وكثيرا ما تحكي لنا عن الأزمة السياسية التي واجهت قيصر في ذلك الوقت بقدر ما تحكي عن منجزاته الحربية، بل إن هذا يتبدى أكثر وضوحا من الكتابين اللذين كتبهما قيصر عن الحرب الأهلية، حيث يصور نفسه ـ حتى وهو يخطب في قواته قبل المعركة ـ في صورة المحب للسلام الذي أرغم بعد تردد على مقاتلة أعدائه الذين يعاملهم ـ على رغم ذلك ـ بشهامة وكرم حين ينتصر. وقد وصف شيشرون مغزى تلك الخطب فقال إن القادة العسكريين يسعون إلى حض جنودهم على القتال وإلهاب عزائمهم «على الرغم من معرفتهم باستعداد الجنود للقتال».

أما خليفة قيصر، ابن أخته، أوكتافيان الذي أصبح فيما بعد الإمبراطور أغسطس فقد كان رجل دعاية أكثر نجاحا من حيث تمكنه من البقاء إلى أن مات ميتة طبيعية. كتب الأستاذ سايم يقول: «لقد كرس خليفة قيصر نفسه، من فوره، للدعاية القيصرية» فمن خلال إشادته بقيصر وإحيائه لذكراه، كان أغسطس ـ ضمنيا ـ يذكر الناس بأنه ابن إله على رغم أنه كان حذرا من أن يكرر خطأ قيصر بادعائه لنفسه وضعا كوضع الآلهة في حياته، على الأقل في إيطاليا. أما الجزء الشرقي من الإمبراطورية فكان أمره مختلفا. فمثلما فعل الإسكندر الأكبر، عرف أغسطس قيمة اتخاذ الدعاية زوايا مختلفة مع الثقافات المختلفة. وعلى رغم أنه هو نفسه لم يكن قائدا عسكريا عظيما (فقد حقق نجاحاته العسكرية إلى حد كبير على أيدي مرؤوسيه) فإن المرء لا يستطيع أن يكتشف ذلك من خلال دعايته، بل إن المرء لا يستطيع ان يكتشف من تماثيله ولا من صوره على قطع النقود التي مثلته بشكل نموذجي أنه كان رجلا قبيح الشكل... وهو كثيرا ما يفصح عن طريق

ما يحذفه في روايته المختصرة لسيرة حياته «مآثر أغسطس»... (مثل حذفه لهزائمه العسكرية)، ولكنها تمدنا بصورة لما أراد أغسطس أن يذكر الناس به، فهو يستعير لنفسه شهرة قيصر بالتسامح، ويكتب قائلا: «لقد خضت العديد من الحروب، في الداخل والخارج، في البر والبحر على اتساع العالم كله، ولأنني المنتصر... على مثل تلك الشعوب الأجنبية وحيثما كان في الغفران السلامة، فقد فضلت أن أصون أرواح الناس على أن أبيدهم». ويمضي لكي يبرز كيف رفض العديد من مظاهر التكريم التي حاول الناس إضفاءها عليه جزاء لاستعادة السلام، بينما يعدد ما تقبله منها. وتعد «المآثر» التي نقشت على ضريحه عملية دعاية حقيقية، تماما مثلما كانت أكثرية المباني المدنية التي أقامها أغسطس، ولكنها لا تتوقف عند هذا الحد.

فخلال الحرب الأهلية التي أعقبت موت قيصر، استخدم جميع منافسيه على السلطة صورهم، فوضعوها مثلا على قطع النقود لكي يدفعوا بها رواتب قواتهم. وبعض رسوم بومبي الأكبر ومارك أنطوني تصورهما في صورة زيوس ثم في صورة الإسكندر الأكبر. وبعد هزيمته في معركة أكتيوم العام 31 ق.م وحد أغسطس روما، وسيطر بنشاط وقوة على استخدام صورته حتى يتجنب ذلك النوع من الدعاية الحربية وترويج الشائعات الذي سبق موت قيصر، وتجنب أيضا تجاوزات قيصر الصارخة (فقد حرم ـ على سبيل المثال ـ أن يحمل تمثاله في المواكب الدينية) ولم يسمح ببناء معابد ـ له ـ إلا في المناطق التي لن تنتهك فيها الحساسيات والمشاعر الشعبية. وعاد إلى تقليد منح الموتى ـ لا الأحياء ـ وضعا كوضع الآلهة، وذلك على رغم أن أغسطس تعلق في شجرة نسبه بقيصر المؤله، واحتفظ بعادة وضع صورة لوجهه على نقوده. وكان الهدف من هذا الاستخدام المحكوم لصورته هو تدعيم وضعه في كل من روما وإيطاليا وفي الأقاليم المقسمة، بوصفه «المواطن الأول» في الجمهورية المستعادة بأسلوب متواضع (بل إنه أمر بصهر ثمانين تمثالا فضيا لشخصه، ووهب الفضة لمعبد أبوللو في روما، لأن الفضة لم تكن تعد مادة مناسبة لتجسيد بني البشر الفانين).

ومن بين التماثيل العديدة الباقية لأغسطس يمثله الكثير منها في دور القائد العسكري. فلقد كان من الأمور الأساسية بالنسبة لأغسطس ـ

ولخلفائه ـ أن يتوحد مع قواته، وكان أول ما يتعين عمله لتحقيق ذلك هو تجميع صف طابور مؤثر من الألقاب وأنواع التكريم العسكرية. ومن أشهر تماثيل أغسطس ذلك الذي أقيم في «فيللا» زوجته ليفيا، في ضاحية بريما بورتا بالقرب من روما. وتصور درع الصدر النحاسية ما تحقق العام 20 ق.م من استعادة لمستويات القتال الرفيعة التي كانت قد سقطت أمام البارثيين في معركة كارهاي العام 53 ق.م[6]. غير أن ما يهمنا هنا هو الأسلوب المتسامي المثالي الذي يصور به التمثال صاحبه. فالنحت الذي يمثل كيوبيد (Cupid) ممتطيا دلفينا ويدعم ساق أغسطس اليمنى، يشير إلى فينوس المؤسسة المقدسة للأسرة اليولية (*). أما القدم فعارية ـ وهي حالة تتناسب مع إله إغريقي أكثر مما تتناسب مع قائد روماني. غير أن انتشار صورة أغسطس متقمصا أدواره العديدة ـ ولكن دون أن تظهره قط في صورة إله إلا بعد موته العام 14 ميلادية ـ كان أمرا ملحوظا. وربما كان أول واحد من البشر الفانين تنتشر صورته كل هذا الانتشار الذي لا يدانيه إلا انتشار صور أعضاء الأسرة المالكة، أو صور البابا في واجهات عرض الهدايا التذكارية في لندن أو في روما في عصرنا.

وقد أرسى أغسطس تقليدا إمبراطوريا قدر له أن يبقى قرونا عدة. وكان نجاح القوة الرومانية العسكرية في حد ذاته دعاية ممتازة، استخدمت لإخافة الخصوم المحتملين، مثلما كان يحدث حين يقوم المبعوثون الإمبراطوريون بزيارة بلاط ملوك «البرابرة»، مذكرين أو حاملين أنباء الانتصارات الأخيرة. كما جرى تثبيت ذلك النجاح العسكري وتخليده، بغرس الاعتقاد في القوة التي لا تقهر بالشكل الذي نراه في الأعمال الفنية والاحتفالات ومباريات الألعاب والعملات المعدنية (التي تحمل عبارات: «انتصار فلان...» أو: «النصر الأبدي»...) بل حملتها صيحات القتال التي كان الجنود الرومان يطلقونها على حد قول فيجيتيوس: «يستطيع القائد أن يشجع وأن ينشط قواته بالصرخات والصيحات المناسبة... ولا بد أن يستخدم كل حجة قادرة على إثارة الغضب والكراهية وغرس الشعور بالازدراء ـ في عقول جنوده ـ ضد خصمهم». وحالما كان يتحقق انتصار ما، فإن دوره في العقل الروماني سرعان ما يثبت ويشهر في شكل «مسيرة النصر» التي

(*) أسرة يوليوس قيصر-المترجم

تقطع شوارع روما.

وكانت النقود المعدنية وسيطا مهما من وسائط حمل الدعاية الرومانية، ووسيلة ثمينة لنشر صور مرئية للانتصارات الرومانية في كل أنحاء الإمبراطورية. فلقد استخدمت قطع العملة المعدنية ـ على سبيل المثال ـ لنشر بيان أغسطس عن: «السلام والانتصار» بعد الحروب الأهلية، ولكي يعلن إثر ذلك منجزاته العسكرية والديبلوماسية (مثل غزو واحتلال أرمينيا واستعادة الأعلام والألوية البارثية). ومع ذلك فعلى الرغم من التظاهر باستعادة الجمهورية، فإن أغسطس كان يؤسس في الحقيقة سلالة إمبراطورية، وهو ما عكسه بناء ضريحه في العام 28 ق.م. وجاء برنامجه للبناء والتشييد في روما (وجدت المدينة مبنية بالطوب وتركتها مشيدة بالرخام) الذي تضمن إنشاء ميدانه المكرس لإله الحرب مارس، كان برنامجا واسع الأبعاد لم يصمم لكي يعكس منجزاته فقط، وإنما لكي يربط بين ميراثه وبين مؤسس روما. ففي الميدان الأغسطسي استعرضت الأعلام والألوية البارثية المستعادة، كما زين النصب التذكاري كله بأسلحة المهزومين المسلوبة، وبتماثيل القادة والسياسيين الجمهوريين البارزين (الذين كان أغسطس في وسطهم يشعر بالطبع بأنه في مكانه الطبيعي)، وبالأعمال الفنية والمأخوذة من كل مكان في الإمبراطورية. وفي معبد مارس كانت تناقش الالتزامات والمعاهدات الحربية، ويستقبل رؤساء الدول الأجنبية. ولكن أغسطس احتفل بالجانب الآخر من إنجازه في «مذبح السلام» الذي اكتمل بناؤه العام 9 ق.م. فقد صمم هذا المذبح للاحتفال بعودة أغسطس بسلام من إسبانيا وبلاد الغال، ولكنه عكس، من زوايا عدة، رؤية الإمبراطور لروما على أنها نظام ملكي متخف يقوده رجل من البشر ولكن تباركه الآلهة والشيوخ والشعب. وكان مثله مثل أكثرية ما شيد في روما، مثل أقواس النصر (وقد أقيم في روما أكثر من خمسين من تلك الأقواس) وأعمدة تراجان[7] وماركوس أوريليوس[8]، كان الغرض منه هو عرض ضخامة الإنجاز الروماني لأكبر وأوسع جمهور ممكن.

وكانت ذروة أي حملة من حملات الدعاية الحربية الرومانية تأتي مع موكب النصر الذي يشق روما عقب كل نصر عسكري لهم. وعلى رغم أن إقامة مثل هذه المواكب لم يكن كثير التكرار ـ للمحافظة على مهابة المناسبة

وروعتها، وأيضا لكبح إمكان بروز الطموحين من القادة ـ فإن شعبية تلك المواكب وسط الجماهير كانت هائلة، وخاصة في عصر الجمهورية. ولقد أصبحت وظيفتها ـ التي كانت وثنية في الأصل ـ وظيفة سياسية من حيث إثباتها أهلية الإمبراطور للحكم، وهذا هو السبب في أنه لم يكن يسمح في عصر الإمبراطورية إلا لأعضاء السلالة الأغسطسية بإقامتها. وكان الموكب ـ بقواته ذات الأزياء والأسلحة الاحتفالية الزاهية، وبما كان يسير فيه من الأسرى والأسلاب والغنائم ـ يصمم بهدف شحن الجماهير الفقيرة بمعان محددة، وهي الجماهير التي تكون بالفعل في حالة فوران نفسي بالغ، حين تأتي لحظة ظهور الإمبراطور في عربة نصره الذهبية. كانت المغانم المستلبة من العدو تستعرض في الموكب مع الأسرى، وقد تستمر الاحتفالات أياما بل شهورا في بعض الأحيان (استغرقت الاحتفالات بالانتصار الثاني للإمبراطور تراجان العام 106 ميلادية 123 يوما). وكانت تقام مأدبة إفطار خاصة للقوات تليها خطبة للإمبراطور، ثم يسير الموكب. وربما ينفذ الإعدام علنا في قائد العدو. وقد عفا الإمبراطور كلوديوس Claudius عن الملك البريطاني كاركاتاكوس Caracatacus لكي يظهر الإمبراطور عظمته أمام الجميع. وعلى رغم أنه لم يتحقق سوى ثلاثة عشر انتصارا بين العامين 31 ق.م و235 ميلادية، فإنها كانت مناسبات لا تنسى ووسائل ثمينة لتوثيق الرابطة بين الإمبراطور وبين كل من الجيش والشعب. غير أن الانضباط ظل حقيقة أساسية لا تنفصل عن الحياة العسكرية الرومانية، وقد اعترف بذلك أغسطس طبقا لما قاله سيوثونيوس، بل إنه أمر بتسريح الفيلق العاشر وتشتيته مجللا بالعار لعصيانه الأوامر. وكانت الوحدات أو الأفراد الذين ينهارون في المعركة يصرفون من الخدمة ويسرحون، كما كان الهاربون يعدمون، وتوقع عقوبات قاسية على من يرتكب غير ذلك من المخالفات، وكان يطبق نظام الاختيار العشري على مثل تلك الوحدات، لكي يقتل واحد من كل عشرة جنود.

وعلى طول عصر الإمبراطورية الرومانية حافظ الأباطرة الرومان المتعاقبون على ادعاء مظهري متقن: الادعاء بأن روما ما يزال يحكمها شعبها ومجلس الشيوخ، بينما كانت تحكم في الحقيقة بأسلوب الملوك الذين أسسوا روما، أي بوصفها إمارة فحسب. وقد قرب أغسطس شعراء

وكتابا وأغدق عليهم ـ ومن بينهم فيرجيل [9] وهوراس [10] ـ لكي يساعدوه في مهمته. وقد امتدح بليني (Pliny) [11] الإمبراطور تراجان في العام 100 ميلادية لأنه لم يعجب بالدعاية الفجة المسرفة وكتب يقول: «يظهر الثناء الحقيقي عليك في القصائد الجادة وتخلد ذكراك أبد الدهر في سجلات التاريخ، وليس في الدعاية قصيرة العمر، ومن المؤكد أنه كلما ازداد الصمت بشأنك فوق المنصة ازداد إجماع الجمهور وهو ينهض كله لكي يعرب لك عن احترامه وتقديره»... وكانت مثل تلك المدائح ـ في حد ذاتها وسائل مثلى للدعاية الإمبراطورية، يتجلى من خلالها اعتراف بالمبدأ القائل بأن الأحسن دائما أن يقوم شخص آخر بالتغني بك وامتداحك، بدلا من أن تقوم بذلك بنفسك. فقد كان المداحون يشبهون الكتاب الدعائيين العاملين على ترسيخ الانبهار إلى حد التقديس بقادتهم الإمبراطوريين بسماع أقوالهم على نطاق واسع وترديدها، بل ونشرها حتى تصل إلى القادرين على القراءة. ولقد كان ذلك موضع التقدير لبعض الوقت وذلك كما يتضح في طلب شيشرون من أحد أصدقائه: «سوف يسعدني أن تتولى مسؤولية الاهتمام بكل مصالحي الأخرى وبأكثرها أهمية، سمعتي». ففي عصر بلغ فيه إطلاق الشائعات والقذف ـ في حق الناس ـ ذروته (وليست مصادفة أن يكون فن التهكم الهجائي Satire يعتبر واحدا من مساهمات روما الثقافية العظمى) فإن الممارسة الجيدة للعلاقات العامة كانت عاملا أساسيا من عوامل البقاء السياسي. وقد انطبق هذا بشكل خاص على الجيش الذي أصبح هو عماد سلطة الإمبراطور مع مجيء القرن الثالث، وأصبح الأمر بتعبير أحد المؤرخين: «لقد حكم الإمبراطور ـ في البداية من خلال الجيش... وفي القرن الثالث حكم الجيش من خلال الإمبراطور».

ومع ذلك فلم تكن الآلهة الوثنية التي استخدمها الرومان استخداما بالغ النفعية ـ لأغراضهم الدعائية ـ هي التي استولت على قلوب الأباطرة المتأخرين وعقولهم، وإنما كان المسيحيون هم الذين استولوا عليها. ففي البداية ساعد السلام الذي رسخه أغسطس تلاميذ المسيح على نشر تعاليمه، وساعدت أساليب الدعاية التي استخدموها ـ ما بدا في أوله كدين فردي ـ على الانتشار في الإمبراطورية كلها. وربما كان السبب الذي منح هذا الدين جاذبيته أنه كان دينا موجها إلى كل إنسان فرد بعينه.

وفي البداية تسامحت روما مع الديانة الجديدة ـ مثلما فعلت مع العشرات من الديانات الأخرى. ولكن إعلان المسيحية بأنها تعترف بسلطة واحدة سامية أعلى من الدولة جعلتها تبدو في عيون الرومان ديانة «هدامة» لأن المسيحيين رفضوا المشاركة في عبادة الإمبراطور. ومثلما كان لرفع السيد المسيح من تأثير، فكلما زاد عدد الشهداء الذين صنعتهم روما، ازداد تأثر الناس وإعجابهم بأسلوبهم في مواجهة الموت، وبتعبير آخر، ربما كانت روما قد اعتقدت أنها تدمر الديانة الجديدة في حربها ضد المسيحية بينما كانت في الحقيقة تساعد في المزيد من نشر رسالتها بسبب قسوة اضطهادها. فقد عرف المسيحيون الأوائل أن مآثرهم في ميدان «المعركة» مثل الأسلوب الذي واجهوا به عمليات الصلب وغيره من أنواع التعذيب ـ قد زاد من نفوذ الكلمات والرسالات التي أدت إلى موتهم وهم يتبعون المثل الذي ضربه لهم مخلصهم. وقد كتب ترتويان وهو من أوائل الكتاب المسيحيين، قائلا «إن دماء الشهداء هي بذرة الكنيسة».

وإذ أرغمت (المسيحية) على العمل السري، بسبب اضطهاد الدولة، فإن الحركة لم تستطع قبل القرن الرابع ـ حين أصبح الصليب هو الرمز المسيحي السائد ـ أن تبدأ بالافتخار بأن أتباعها صاروا أوسع من فئات العبيد والأجانب الغرباء، والمنبوذين اجتماعيا الذين اجتذبتهم المسيحية أول الأمر. ولقد أكد مؤرخون كثيرون أن المسيحية ساعدت على تدمير الإمبراطورية الرومانية، ولكن المسيحيين يؤكدون أن المسيحية قد أنقذتها. فقد اعترف قسطنطين الأكبر ـ أول إمبراطور روماني يتحول إلى المسيحية (312 ـ 303م) بالمسيحية باعتبارها الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية، ونقل عاصمتها إلى بيزنطة (التي صارت: القسطنطينية). وقد يعتبر قسطنطين وغدا شريرا أو بطلا ولكن الحقيقة هي أن القوط والفندال هم الذين دمروا الإمبراطورية الغربية في القرن الخامس (في العام 476م، حين تنازل آخر إمبراطور روماني عن العرش وعزل نفسه أمام أودوفاكار القوطي الجنوبي)، ثم الأتراك الذين دمروا الإمبراطورية الرومانية في الشرق حينما فتحوا القسطنطينية ونهبوها العام 1453م.

كان الجندي الروماني ـ قبل تحويل جيش روما إلى جيش محترف ـ يعود إلى أرضه بعد أن ينتهي موسم الحملات الحربية. ومع حلول القرن

الثالث قامت الجيوش الرومانية بتجنيد غير الرومان كما لو كانت جيوشا من المرتزقة. إن الجنود الذين يدفعهم الربح لا الوطنية يتخذون في أتون المعركة قرارات من نوع مختلف، ربما بشكل غير واع. ذلك أن عليهم أن يقرروا إن كان الأمر يستأهل المخاطرة بالموت. وبينما كان في «وسع روما» مرة واحدة أن تعتمد على التنظيم المتفوق لكي تحارب القوط، فإن تدهور النظام في القرن الخامس كان ملحوظا. فعقب هزيمة أدريانوبل في العام 378 (أسوأ هزائم الرومان منذ معركة كانا) وما تلاها من غزوات البرابرة ـ مثل مهاجمة القوط الجنوبيين لروما في العام 410 ـ كان واضحا أن الفيالق الرومانية لم تعد تملك ميزة تكتيكية بالنسبة لأعدائها. ومن ناحية كثيرا ما كانت هذه الفيالق شديدة الانشغال بمقاتلة بعضها البعض بأسماء المرشحين للعرش الإمبراطوري، بينما استفاد الغزاة الجرمانيون ـ من ناحية أخرى ـ من الحدود التي لا يحميها أحد. وعلى رغم الاستقرار النسبي الذي تميز به عهد الإمبراطور ديوكليسيان (285 ـ 305) فإن العفن كان قد ضرب بجذوره. ولقد كان ما يمكن تسميته بسقوط المعنويات ـ عاملا أساسيا في انهيار الإمبراطورية الرومانية. وحينما تحدث أتيلا (Atilla) ملك الهون في معركة شالون العام 451 فإنه كان يتحدث عن رومان يقاتلون مثلما قاتلوا طوال قرون، أي في تشكيلات من الصفوف المتراصة، ولكن ما كان ينقصهم هو الانضباط والنظام. لم يكن أتيلا يقاتل فيالق ماريوس أو بومبي أو قيصر، وإنما كان يقاتل ـ بنجاح ـ ضد برابرة مثله، لم يكن تنظيم العمليات الحربية قوي التأثير وسطهم مثلما كان وسط جيوش روما الجمهورية، ولكنهم الذين ربما كان قادتهم ـ نتيجة لتراكم تأثير التاريخ والتجربة والمسيحية و«الحضارة» ـ قد بدأوا يعرفون ميزات السلام أكثر مما يعرفون قيمة الحرب، أو على حد ما كتبه القديس جيروم St Jerome: «إن خطايانا هي التي تقوي البرابرة. إن رذائلنا هي التي تهزم الجيش الروماني». وتماما مثلما اختفت الوحدة واختفى التماسك من الجيش فقد تهاوت الدعاية الرومانية وتبعثرت ممزقة.

القسم الثاني

الدعاية للحرب في العصور الوسطى

4 العصور «المظلمة» حتى 1066

شهد الانهيار البطيء الشاق للإمبراطورية الرومانية في الغرب على أيدي الغزاة الجرمان اختفاء الفيلق الروماني بوصفه الأداة الرئيسية للعمليات الحربية، واختفى معه ذلك النوع من التنظيم والانضباط الذي كان، بأشكال مختلفة، بديلا لعملية رفع المعنويات، وامتد الإسلام ـ بفرسانه الخفاف ـ نحو الغرب من الجزيرة العربية حتى إسبانيا. ولم تتمكن أوروبا الغربية والمسيحية من شن هجوم مضاد ـ في صورة الحملات الصليبية ـ إلا بعد وقت طويل من تمكن الفرنجة (الفرانك Franks) من وقف الجيوش المعادية (*) في معركة بواتييه العام 732. وفي الوقت نفسه، حل أسلوب البرابرة في القتال محل فن الحرب الروماني، وكان أسلوبا متميزا بالسرعة والوحشية والارتجال، تدفعه طبيعة المجتمع البربري ذاتها.

(*) يستخدم المؤلف هنا كلمة «Heathen» لتي تعني: الكفار، الأميين، الجهلة، ويضعها بين قوسين، مما يعني تحفظه عليها، وأنه يستخدمها لتعبيرها عن وجهة النظر التقليدية التي سادت في الغرب إزاء المسلمين العرب إبان عصر الحروب الصليبية وما بعدها. هـ. م المترجم.

إن ما نملكه من معلومات عن الحرب والاتصال في العصور التي تسمى بالعصور المظلمة، أقل بالفعل مما نملكه من المعلومات عن المرحلة الرومانية بالنظر إلى ضآلة ما تبقى من الأعمال التي تقدم وصفا تفصيليا للمعارك. والمصادر الرومانية قد تدفعنا إلى الاعتقاد بأن الفوضى قد حلت محل النظام، وليست هناك شهادة تكفي لإمدادنا برأي بديل، ولكنه سيكون من الخطأ أن نزعم أن العمليات الحربية أصبحت أقل تطورا وأكثر فوضى بعد كارثة الهزيمة الرومانية على أيدي القوط في معركة أدريانوبل العام 378. فالكثيرون من المؤرخين العسكريين يعتبرون أدريانوبل نقطة تحول، النقطة التي أصبحت عندها قوات الخيالة الخفيفة أكثر أهمية من المشاة (على رغم أن الرومان كانوا قد استخدموا الخيالة طوال قرون سابقة). وساعد تطوير «الركاب» على هذا التحول (على رغم أن الركاب كان قد استخدم في الصين وفي الشرق لمدة من الزمن قبل ذلك) وهو ما أدى بدوره إلى تشجيع تطور وحدات الخيالة الثقيلة من الفرسان التي قدر لها أن تسيطر على العمليات الحربية في العالم المسيحي طوال ما بقي من العصور الوسطى. فقد أعان الركاب الفرسان ذوي التسليح الثقيل على أن يبقوا مستوين فوق سروجهم أثناء القتال. ويقول البروفيسور هوارد (Howard): «أصبح من الممكن تحويل السرعة إلى صدمة، ولم تعد هناك حاجة إلى قذف الحراب، وإنما أصبح من الممكن أن يقبض عليها كالرمح فتدفع حتى تنغرس في هدفها». وحينما حل القرن الثامن كانت الخيالة الثقيلة قد أصبحت «ملكة المعارك»، وكان معنى التكلفة الباهظة لتسليح الفرسان أن أصبحت الطبقة الثرية ـ مالكة الأرض ـ هي الأداة الرئيسية لكل من العمليات الحربية، وللمجتمع الإقطاعي ككل، مثلما سنرى. وعلى رغم خطورة التعميمات، فإن ما نقصده هو أن العمليات الحربية في العصور الوسطى لم تكن ـ بالضرورة ـ أكثر فوضوية مما كانت عليه في زمن الرومان، وإنما تضاءلت إمكانات التنبؤ بنتائج المعارك التي أصبحت أقل التزاما بقاعدة مقررة. ونادرا ما حسمت الحروب في معركة واحدة، غير أن العوامل الاجتماعية ـ مثلما كانت الحال في أزمنة الإغريق وروما ـ هي التي حددت طريقة خوضها وسلوك الجنود في ميادين القتال.

ولسوف يكون خطأ بالقدر نفسه أن نزعم أن الدعاية أيضا أصبحت

عاملا أقل أهمية، سواء في المجتمع أو في العمليات الحربية بعد سقوط روما. لقد ظلت الحرب تجربة مرعبة، وبالقدر نفسه ظل الإقناع مكونا رئيسيا في أعمال التجنيد، ورفع المعنويات والتحضيرللقتال، بل إن الدعاية أصبحت ـ من جوانب عدة ـ أداة أكثر أهمية لتحقيق السيطرة الاجتماعية، وفي المحافظة على النظام الاجتماعي والسياسي والديني السائد، وبدأ ظهور مبدأ «حكم القساوسة» heirocratic ـ على حد وصف أحد المؤرخين ـ مع بداية الكفاح للسيطرة ليس فقط على الكنيسة، بل أيضا على الدول التي خلفت روما. فقد وفرت الدعاية التماسك المطلوب، في شكل مجموعة من الإجابات، في عالم مضطرب ومحير.

لقد ضمن الاحتكار الثقافي للكنيسة أنه مهما كان نوع ما ينتشر من الأفكار فإنها تتوافق مع رغبات المؤسسة الدينية. فمنذ عصر البابا جريجوري الأول (590 ـ 604) بدأ خلفاء الحواري الأكبر، القديس بطرس، في تأسيس سيطرتهم الروحية على أوروبا الغربية مستخدمين وسائل متنوعة. وعلى حد ما كتب جريجوري: «إن عبادة صورة لخطأ، ولكن ما يستحق الثناء هو أن نعرف من خلال الصورة من ينبغي عبادته». كانت التماثيل عند جريجوري هي «كتب الأميين». وأقر البابوات بأن الحرب كثيراً ما تكون ضرورية «للدفاع عن السلام» بل إنهم أكدوا أن الحرب هي ثمن السلم، على حد ما قاله سان أوغسطين (354 ـ 430) وخاصة حينما يكون المعتدون الوثنيون قد فرضوها عليهم. ولقد كان هذا ـ في حد ذاته ـ وسيلة لترسيخ وضعهم المسيطر في مجتمع القرون الوسطى، وهي سيطرة يلفت النظر أنها قدر لها أن تدوم لأكثر من ألف سنة.

لقد تحقق انتشار المسيحية بفضل مساعدة قيمة من جانب الصور المرئية. فالاعتماد على القصص الشائقة الواردة في العهدين القديم والجديد، ساعد الرموز المرئية ـ ذات الجمال البسيط، والتي كان من السهل التعرف عليها على الفور (وكان الصليب هو أكثر أمثلتها وضوحا) ـ ساعد على توحيد أناس من مناطق مختلفة ومن خلفيات اجتماعية مختلفة في عقيدة واحدة. وكثيرا ما امتزجت الصور المسيحية بمعتقدات الماضي الوثنية. وأقدم صور المسيح ـ من القرن الثالث ـ تبين أنه رسم على غرار تماثيل أبوللو (Apollo) [1] الحليق الأمرد. ولكنه بعد قرن واحد رسم على

هيئة جوبيتر (jupiter) الملتحي. وعلى رغم أن المسيحية أصبحت ـ بشكل متزايد ـ ظاهرة عالمية فإنها توسلت بحرص العصور القديمة على الأرباب والعبادات المحلية بواسطة اصطناع القديسين (مثل القديس جورج والقديس كريستوفر) والشهداء المحليين، ودونت قصص حياة القديسين (على رغم أن ذلك كان يفرض إنشادها في الاجتماعات العامة) لتوفير الشخصيات النموذجية والدروس العقيدية التي يسمعها المؤمنون وغير المؤمنين على السواء. وهيأت الترانيم بؤرة أخرى، إضافة لأنواع التعبد الجماعية.

ولكي يضمن القساوسة والوعاظ سلامة العقيدة وأصوليتها فيحفظوا بذلك وحدة الكنيسة ومكانتها، عمدوا إلى إقامة «خدمات» ـ أو صلوات ـ منتظمة، ساعد فيها كل من السلوك الطقسي، والصور المرئية والشعائر على تدعيم الولاء وعلى هداية من لم يكن نور الهداية قد دخل قلوبهم بعد. كانت المسيحية عقيدة مركبة تعين أن تنقل رسالتها إلى الجهلاء والأميين بأبسط الطرق والأساليب الممكنة. وقد رجعت جاذبيتها بدرجة كبيرة إلى نجاح قادتها في تبسيط تلك الرسالات باستخدامهم للأساليب الدعائية. وقد وصف الشيخ المبجل بيد (Bede) فيما كتبه حوالي العام 700، كيف قام بينديكت بيسكوب ـ قبل ذلك بنحو خمس وعشرين سنة ـ ببناء كنيسة سانت بيتر على نهر وير في إنجلترا وكيف قام بتزيينها بالرموز الدينية:

> «حتى يستطيع كل من يدخلون الكنيسة، وإن لم يكونوا قادرين على القراءة، أن يجدوا أمامهم، حيثما تطلعت عيونهم، وجه المسيح المبارك وقديسيه، على رغم أنه لم يكن سوى صورة، فيتمكنوا من أن يتأملوا بعقول متبصرة حول فوائد تجسد الرب إلهنا. وإذ يجدون أمام عقولهم أخطار يوم الدينونة ومهالكه، فإنهم يستطيعون أن يفحصوا ضمائرهم في ضوئها...».

لقد كان دور الكنيسة المتزايد في المجتمع الأوروبي هو ما شجع بشكل طبيعي تطور الفن والعمارة، وما يمكن أن نسميه الآن الفنون الزخرفية. أصبحت الكاتدرائيات والكنائس مراكز للكبرياء والهوية الجماعية، فتجذب هبات الأغنياء وولاء الفقراء مقابل الوعد بالحياة الأبدية.

ومع ذلك، فقد كانت دعاية الكنيسة في الشرق مصدرا لإزعاج الإمبراطور

الروماني في القسطنطينية، ليو الثالث (717 ـ 802) الذي أصدر مرسوما ضد الصور الدينية، وهو المرسوم الذي أدى إلى الانشقاق ضد البابوية الذي عرف باسم حركة محطمي الأيقونات (أو الصور Iconoclastic) وأدى هذا الصدام إلى تمزق الرباط بين الكنيستين في روما وفي بيزنطة نهائيا. وقد يبدو أمرا يدعو إلى السخرية، أن تنتهي الإمبراطورية الرومانية القديمة ـ التي بذلت الكثير لكي تطور استخدام الصور الوثنية والمسيحية على السواء ـ إلى أن تنقسم على نفسها بسبب نزاع حول الدور الذي يمكن أن تلعبه مثل هذه الدعاية. ونتيجة لهذا الانشقاق راحت البابوية تنظر إلى الدول التي خلفت الإمبراطورية في الغرب بوصفها حلفاء لها. وحتى حينما بدأت هذه الدول في اكتساب قوة جديدة، فإن ملوكها تبينوا أن الكنيسة يمكن أن تكون حليفا قويا وسندا للإقرار بشرعية نظمهم.

وقد أثرت عمليات الانتقال ووسائلها في كل من الحرب والدعاية، ولكن هذا لم يعن أن أيهما قد انهار. تشهد بذلك قدرة القبائل المهاجرة على التحرك من الشرق إلى الغرب، ثم قدرة الجيوش الصليبية فيما بعد على الارتحال من أوروبا الغربية إلى الشرق الأوسط. وكانت الحرب مرضا متوطنا في أماكن عدة من أوروبا، حيث كانت فترات السلام التي تتخلل الحروب غير عادية للغاية، حتى أن تلك الفترات استولت على اهتمام خاص من جانب المعلقين، مما يجعل الفصل بين الدعاية للحرب وكل أشكال الدعاية الأخرى مستحيلا بالفعل. ومثلما كان الأمر في العصور القديمة، كانت الحروب قصيرة مقتصرة ـ إلى حد كبير ـ على موسم الحملات الصيفي. وظل المال مهما لدفع مرتبات القوات، ولكن الجيوش كانت قليلة العدد ـ بالمقارنة بأعدادها في الماضي ـ فكانت القوات التي يبلغ عددها عشرة آلاف رجل غير عادية. وربما كانت حملات النهب هي أكثر العمليات الحربية شيوعا في بدايات العصور المظلمة. وقد تبدو الجماعات الجرمانية التي انتزعت أوروبا الغربية من القبضة الرومانية «بربرية» إذا ما قورنت بروما «المتحضرة» (أي روما التي اصطبغت بالصبغة المسيحية، حيث اعتبر: «السلام على الأرض» فضيلة) ولاشك أن دعاية هذه القبائل كانت أقل تطورا بكثير، ولكنهم كانوا يقاتلون في تشكيلات من بطون القبائل، تضم كل من جاء مع المقاتلين. ولاشك أن هذا أدى إلى تقوية الروابط فيما بينهم

في أثناء المعركة، فلم يكن ضغط الخصوم في ميدان القتال ـ وحده ـ هو الذي يدفعهم إلى القتال بحماسة، ولكن الضغط الاجتماعي كان له تأثيره الكبير أيضا، وهم يقاتلون وسط أصدقائهم وأقاربهم. وقد كان قادتهم في السلم هم أنفسهم قادتهم في الحرب. ومثلما كتب «تاكيتوس» Tacitus، أفضل مصادرنا عن الشعوب الجرمانية في القرن الأول:

> «في ميدان المعركة، يعد عارا على رئيس القبيلة أن يتفوق عليه زملاؤه في البسالة، وعارا على زملائه ألا يبلغوا ما بلغه الرئيس. أما إذا غادرت المعركة حيا بعد أن يكون الرئيس قد سقط فلا معنى لذلك إلا العار والخزي مدى الحياة. والمعنى الحقيقي للإخلاص هو الدفاع عن رئيس القبيلة وحمايته وإرجاع كل عمل بطولي يقوم به المرء إليه، فالرؤساء يحاربون في سبيل النصر، والزملاء يحاربون في سبيل رؤسائهم».

ولا يمكن تجاهل الميزة النفسية التي يوفرها خوض القتال إلى جانب أناس عرفتهم طوال حياتك، بدلا من أن يكونوا غرباء نسبيا، وذلك على الرغم من الروابط التي يمكن أن يخلقها التدريس المشترك بين الجنود. ومن الراجح أن يكون هذا العامل قد زود قبائل القوط والفندال بالكثير من تماسكهم النفسي وبقدر أكبر مما ينتجه لهم تدريبهم وانضباطهم. وقد أصبح هذا العامل هو أكبر ما ساهموا به في العصور الوسطى.

وقد كان من أسباب هذا أن «البرابرة» الجرمان الذين اجتاحوا أوروبا الغربية في موجة من هجرات الغزو في القرون الخامس والسادس والسابع لم يعتبروا الحرب هي السبب الوحيد للوجود... وحتى قبائل اللومبارد الذين كانت الحرب عندهم سنة عظيمة باعتبارها امتدادا لطقوس النزال الفردي وتقديم القرابين قد أدركوا مفهوم السلام وفضائله أو ـ على الأقل ـ مفهوم اللاعدوان وفضائله. وإذ نقول ذلك، فإننا نضيف أن سجلهم ـ كمحاربين ـ سجل يثير الإعجاب. فلقد كانت الخدمة العسكرية إلزامية بين تلك الشعوب المولعة بالقتال، وكان التدريب العسكري يبدأ في سن مبكرة، وكان على المتخلف عن الانضمام إلى الجيش ـ في سن البلوغ أو في أثناء الحملات الحربية ـ أن يتحمل «غرامة» ثقيلة، وكان على الجنود أن يوفروا

أسلحتهم لأنفسهم (يأتي الأغنياء بالدروع والأسلحة ويأتي الفقراء بالأقواس والسهام). وإذ تلهمهم الأرباب الذين تقدم إليهم القرابين قبل المعركة، فإن حافز الجنود البرابرة كان يجمع بين سنن حياتهم، والضغط العائلي، والغنائم. فإذا لم تف الأرباب بوعدها بتحقيق النصر، فقد كان يمكن التخلي عنها بسهولة كاملة، مثلما فعل كلوفيس (481 ـ 511) مؤسس مملكة الفرنجة (Franks) لقبائل الغال الميروفينجيين بعد معركة تولبياك حين أصبح أول ملك من البرابرة يتحول إلى المسيحية. وبذلك فإن الأرباب كانوا يقومون بوظيفة دعائية، كما كانت الحال على الدوام.

وقد وصف جريجوري التوري (538 ـ 598)، وهو مصدرنا الرئيسي عن الفرنجة في تلك الفترة، وصف ـ بشكل أساسي ـ حروبا أهلية ومنازلات الملوك. فقد كانت الدائرة الملكية، أو «العاهل المتجول» التي حاولت أن تحفظ تماسك الجماعات القبائلية الفرنجية المختلفة كانت مدركة لأهمية التجمعات الاحتفالية ولقاءات المنافسات شبه الرياضية التي كانت تنتهي بعقد جمعية سنوية للملوك والأرستقراطيين تعرف بـ «جمعية الميدان»، وفي بعض الأحيان كان القادة العسكريون ـ أو الأبطال الذين يمثلونهم ـ يحسمون خلافاتهم مباشرة في مبارزات شخصية بينهم، بدلا من حشد قواتهم. وفي المعارك الأكثر تقليدية، كانت الوحشية ضد المهزومين شائعة، مثلما حدث العام 539 حين ألقى ملك الفرنجة نساء القوط الشرقيين وأطفالهم في مياه نهر البو. وكان البعض يسترقون فيصبحون عبيدا، وكثيرا ما كانت تطلب الفدية لإطلاق سراح البعض ولزيادة حجم الغنائم التي يدفع منها للقوات المنتصرة. وكانت شهرة قبائل القوط والفندال والفرنجة واللومبارد بوحشيتهم غير المحدودة هي العنصر النفسي الرئيسي الذي استخدموه. وكانت أصولهم القبائلية وتقاليدهم الموروثة هي العناصر الأساسية لدعايتهم الحربية ـ على الأقل ـ إلى أن شرعوا يستقرون في بلاد يهددهم بدء هجرات قبائل الهون القادمة من الغرب ـ تحت قيادة أتيلا (433 ـ 453) حين بدأوا يفقدون، إلى حد ما، تقاليدهم وعاداتهم المتعلقة بالقتال والحرب. وربما كانت روما قد اصطبغت ـ إلى درجة معينة ـ بالصبغة البربرية ، ولكن الجرمان بدورهم كانوا قد اصطبغوا ـ جزئيا ـ بالصبغة الرومانية.

كان خصومهم المسيحيون ـ تحت قيادة البابا ـ مدفوعين بدوافع «أكثر سموا»، أي أنها كانت دوافع أكثر تعقيدا، وبشكل خاص الدافع إلى تحويل الكفار إلى المسيحية بدلا من استرقاقهم. وإذ استلهمت الكنيسة تعاليم القديس أوغسطين الذي آمن بأن السلام على الأرض مستحيل، وأن الحرب باسم العقيدة الصحيحة هي ـ في وقت واحد ـ نتيجة للخطيئة وعلاج لها، فإن هذه الكنيسة راحت تستخدم تقاليد البرابرة المهزومين المتحولين إلى المسيحية المولعين بالحرب لنشر الدين. على الرغم من أنه كان من المتعين اتباع بعض «قواعد» الحرب التزاما بنظرية الرحمة الإلهية. فإذا ما انتهكت تلك القواعد، وارتكبت ـ مثلا ـ بعض الأعمال الوحشية (مثلما كان يحدث كثيرا) فقد كان طلب المغفرة ضروريا من خلال نظام خاص للتوبة والغفران.

فإذا قبلنا دون نقاش المصادر الدينية، لتعين علينا أن نصدق أن نتائج المعارك كانت تحددها المعجزات أو تدخل الرب أو هذا القديس أو ذاك. ولكن قد يكون الأكثر دقة أن نقول إن الأمر الأكثر احتمالا هو أن هذه الظواهر كانت هي التي دفعت الجنود إلى ميادين القتال في المحل الأول، أما ما كان يحدث بعد ذلك فإنما يرجع إلى الخطط التعبوية والميدانية، وإلى الشجاعة والحظ. وعلى ذلك فقد كان من الأمور الأساسية بالنسبة للكنيسة أن توجد العقلية القادرة على حفز الناس إلى القتال ـ إذا تحتم ذلك ـ في سبيلها، وكانت الحياة الأبدية هي الجائزة، واللعنة الأبدية هي العقاب. وفيما بين القرنين الرابع والثامن، اندفع جانبا الإمبراطورية الرومانية متباعدين، إذ انقسمت بين روما في الغرب والقسطنطينية في الشرق، ليس فقط على المستوى السياسي (إذ رسخ الفرنجة أقدامهم في فرنسا والقوط الجنوبيون في إسبانيا والفندال في شمال أفريقيا والقوط الشرقيون ثم اللومبارد والنورمان في إيطاليا، واللومبارد والسكسون في شمال وشمال غربي أوروبا)، وإنما راح القسمان يتباعدان أيضا على المستوى الديني بين الكنيسة اللاتينية (الكاثوليكية) ومقرها روما، والكنيسة اليونانية (الأرثوذكسية) في بيزنطة. وفي الشرق جاء التهديد الحربي الرئيسي من الإسلام الذي بعث به محمد(*). ومفهوم الجهاد (الحرب المقدسة) والذي انتشر تدريجيا في المناطق التي فتحها من قبل الإسكندر الأكبر ـ من

(*) رسول الله- صلى الله عليه وسلم (570-632م) - المترجم

سواحل أفريقيا الشمالية إلى فارس والهند ـ وكانت القسطنطينية هي المدافع الرئيسي أمام هذا التهديد، إلى أن سقطت في النهاية. أمام الأتراك العثمانيين في العام 1453. وكانت القسطنطينية قد أصبحت «روما الجديدة» في الشرق، وبشكل خاص تحت حكم الإمبراطور جستنيان ـ Justinian (527 ـ 565) حيث حفظت التقاليد الإمبراطورية، وحيث ظل المجد الإمبراطوري متجليا للعيان ـ بالصورة التي جسدته بها كنيسة سانت صوفيا. وفي العام 626 تمكنت القسطنطينية من الصمود أمام هجوم ثلاثي مشترك شنته شعوب السلاف والآفار والفرس حينما تم أخيرا استئصال التهديد الفارسي الذي دام قرونا عدة. غير أنه لا يمكن القول إن الإمبراطورية الرومانية الشرقية كانت ناجحة بشكل كامل، لأنه خلال جيل واحد، ملأت الإمبراطورية العربية البازغة الفراغ الذي أوجدته هزيمة الفرس، وحتى بعد إيقاف الموجة الأولى من التوسع العربي (630 ـ 730) أمام المقاومة الناجحة من جانب بيزنطة (717 ـ 718) فقدت الإمبراطورية البيزنطية الكثير من أراضيها في مصر وسورية.

وفي الوقت نفسه في الغرب، كانت السلالة الملكية الميروفينجية التي أسسها كلوفيس في حالة تدهور، تحت حكم سلسلة من الملوك «غير الفاعلين». فقد بلغ الصراع الأهلي ـ الذي وصف جريجوري التوري مراحله الأولى ـ ذروته تحت حكم الملك بيبين القصير (715 ـ 768) الذي توج ملكا للفرنسيين العام 751، وأسس الأسرة المالكة الكارولينجية. وإذ أصاب الانزعاج البابا بسبب انشقاق محطمي الصور والأيقونات مع الكنيسة الأرثوذكسية، فتحول باهتمامه إلى الغرب ليحتضن الكارولينجيين، فقد كان والد بيبين شارل مارتل (المطرقة) (685 ـ 741) على كل حال هو من أنقذ أوروبا الغربية من الإسلام [2] بانتصاره على المسلمين الذين كانوا قد هاجموا أراضيه من إسبانيا ـ في معركة بواتييه العام 733. وكان شارل مارتل قد حقق هذا بواسطة الجنود المشاة ضد الفرسان، ولكنه ـ لعجزه عن مطاردة أعدائه في هروبهم فقد قرر أن ينشئ سلاحه الخاص من الفرسان الذي دفع تكلفته من الأموال المصادرة من الكنيسة، وهو ما أدى إلى دفع المسلمين إلى الوراء نحو إسبانيا. ولكن ربما كان الأكثر أهمية هو أن بيبين كان قد غزا إيطاليا، وأوقع الهزيمة باللومبارد، وأعاد للبابا أراضيه المسلوبة، فأقام بذلك أساس

الدولة البابوية. وفي ظل بيبين أقامت الكنيسة والدولة تحالفا لتبادل المنافع. ولأول مرة، تكرست مشروعية حكم غربي علماني بواسطة «نائب المسيح»، ولم تكن سلطة البابا التي خولته القيام بهذا التكريس ـ في الحقيقة ـ سوى سلطة منتحلة وشكلية، ولكنه أدى لنفسه هذا الحق مستخدما وثيقة مزورة هي «منحة قسطنطين» سيئة السمعة.

وفي العام 768، توج شارلس، ابن بيبين ملكا على الفرنجة باسم شارل الأكبر (شارلمان) وأصبح الإمبراطور الروماني المقدس في روما نفسها. وتمكن شارلمان من تثبيت النظام الكارولينجي، ومن توسيع حدود الإمبراطورية الميروفينجية القديمة بالتحرك بعيدا صوب الشرق في ألمانيا، ونحو الجنوب في إيطاليا وإسبانيا. كان قائدا للرجال ملهما، مما يوحي بأنه أدرك أهمية الدعاية في الحرب، ولكننا لا نستطيع أن نقول أكثر من ذلك. إننا نعرف أنه كان متحمسا حماسة جنونية لرياضة الصيد، وأنه كان يشن الحرب بالقدر نفسه من الحماسة. ونعرف أيضا أن جيوشه كانت تعد لخوض المعارك بأداء الصلاة. غير أن أعظم منجزاته الحربية كانت تمثل في النظام والانضباط اللذين فرضهما على جيوشه، وهي عناصر كانت غائبة منذ عصر روما الذهبي. وكان من التقاليد أن يأتي إليه ولاته ونوابه من الأقاليم في مواسم الحملات الحربية جاهزين بأسلحتهم وقواتهم بما يتناسب مع الظروف الاقتصادية لكل منهم. فإذا لم يقدم أحدهم، أدى هذا إلى فرض غرامة ثقيلة كثيرا ما كانت تعد عقوبة فادحة: «كل رجل يستدعى إلى الجيش ولا يصل إلى المكان المحدد في الموعد المقرر، يحرم من اللحم والنبيذ عددا من الأيام يماثل عدد أيام تغيبه». ولكن بما أن هؤلاء الفلاحين كانوا يعتمدون على سادتهم لحمايتهم في وقت السلم، فقد كان من المستحسن، والمقبول اجتماعيا ـ في السياق الإقطاعي ـ أن يلبوا الاستدعاء، خاصة أنهم ـ من المحتمل ـ كانوا قد أقسموا يمين الولاء، أما الهاربون من الخدمة (وقد كان هناك الكثيرون منهم بالنظر إلى نفاد صبر الفلاحين حتى يعودوا إلى بيوتهم في وقت الحصاد) فقد كانوا يعدمون، على رغم أن شارلمان سمح ببعض الاستثناءات قرب نهاية حكمه. وعلى رغم أن جيوش شارلمان ضمت نسبة عالية من الرجال الأحرار، فإنها تكونت إلى حد كبير من الجنود المحترفين وعلى رأسهم أتباع الملك الذين كانوا يحصلون على

مقابل مجز.

كانت الحملات الحربية تعد بعناية ويخطط لها فتنظم قوافل الإمدادات، ويمنع النهب إلى أن تصل القوات إلى أراضي الأعداء، وكانت الأسلاب والغنائم هي الجائزة الرئيسية، وبالتالي فقد احتفل بالانتصارات الكبرى بالأشعار والغناء. ولكننا باستثناء هذه الدعاية الاحتفالية لا نعرف إلا القليل للغاية عن جهود شارلمان من أجل رفع المعنويات بين قواته. ومن المؤكد أن هذه الجهود تضمنت أقوالا تعليمية ـ تقرأ كالخطب أو تنشد كالأغاني ـ تحث الرجال على أن يسلكوا سلوكا مسيحيا. وعلى رغم أن هذه الأقوال كانت موجهة أساسا إلى الفرسان الأرستقراطيين، فقد كان ممكنا أيضا أن تتلى على الجنود الفلاحين الأميين. كانت تلك «المرايا»، كما كانت تدعى، تشيد بفضائل العدل والشجاعة والكرم والقتال في سبيل الرب. وتحذر من الرذائل التي يمكن أن تقود المرء إلى اللعنة الأبدية. ومن المحتمل أنه كانت لهذه «المرايا» أهمية عظمى في تهدئة مخاوف الرجال حين يكونون على وشك السير وراء شارلمان إلى حروبه التي لا تنتهي.

في البداية قام شارل بغزو إيطاليا العامين (773 ـ 774)، وأعلن نفسه ملكا على اللومبارد، وبدأ بعد ذلك حملته الطويلة لإخضاع السكسون في الشمال الشرقي، وهو ما فعله بوحشية تميزت بالمذابح والإرغام على اعتناق المسيحية والتهجير الجماعي للقبائل. وقد جنح إينهارد ـ كاتب سيرة «حياة» شارلمان بتعاطف واضح ـ إلى إغفال تلك التجاوزات وتجاهلها. وحينما أصبح شارلمان مستعدا لمهاجمة الجرمان الآفار (الهون) العام 791، جعل جنوده يصومون ويصلون لثلاثة أيام قبل التحرك، وفرض على كل قسيس أن ينشد قداسا، وعلى الشمامسة أن ينشدوا خمسين مزمورا كل يوم وهم حفاة الأقدام. فرض شارلمان الصيام والصلوات، وبتعبير آخر، هيأ الرجال للقتال بينما كانت الصلبان والرايات تسير بين أيديهم وفي مقدمتهم وهم في الطريق إلى المعركة. وإلى الجنوب خاض شارلمان حربا دفاعية إلى حد كبير ضد المسلمين في إسبانيا، وكانت هذه الحملات هي ما وصفت في (الملحمة) التي ظهرت فيما بعد، أي «أنشودة رولان» التي كتبت نحو العام 1100، ولهذه الأغاني ـ أو الأناشيد الشعرية ـ تراث طويل يظهر الحاجة الدائمة إلى الاحتفال بالنصر. وهو نفسه ما تؤديه اللوحات الجدارية

الضخمة المعاصرة وغيرها من الأعمال الزخرفية التذكارية.

وحينما جاء العام 800 لم يكن هناك ملك ـ منذ عصر الإمبراطورية الرومانية ـ تمكن من حكم مساحة شاسعة بهذا الاتساع. ويصف المؤلف نوتكر المتلعثم ـ في كتابه «حياة شارلمان» ـ يصف ظهور الإمبراطور في ظاهر مدينة بافيا العام 774: لم يكن ظهور شارلمان ـ مرتديا وحاملا دروعه وأسلحته الثقيلة كاملة بكل بهاء مجده العسكري ـ كافيا لإنزال الخوف في قلوب أهل المدينة الذين رفضوا السماح له بدخولها. ولكن شارلمان كسبهم إلى صفه بأن شيد كنيسة. ويقول نوتكر إن ذلك تم في يوم واحد ـ خارج أسوار المدينة ـ فأظهر بهذا نواياه المسيحية. ولكن ليس لدينا ـ من هذه المصادر ـ إلا القليل عن جهود شارلمان الدعائية. ونحن نعرف أنه لم يصطنع أسطورة إمبراطورية ـ مثلما كان يفعل الأباطرة الرومان ـ ولم يطبع صورته على عملاته النقدية. وقد عرف شارلمان خلال حياته ـ وخاصة في سنواته الأخيرة ـ بتشجيعه للفنون، وللأدب بشكل خاص، ومن الملامح الرئيسية لما يسمى بالنهضة الكارولينجية، كان نسخ المخطوطات لمساعدة الكهنة على رفع مستوى تعليمهم.

ومع ذلك فلقد أصبح عهد شارلمان موضوعا لقدر كبير من الدعاية بعد موته في العام 814. ففي خلال ثلاثين سنة كانت إمبراطوريته الهائلة قد قسمت على أيدي أحفاده وأصبح في وسع الجمهور الجديد ـ الراغب في الأدب الذي فعل شارلمان الكثير لكي يبعثه ـ أن يقرأ عن منجزاته، عن قيصر الجديد المسيحي. وحينما حلت أسرة كابيه محل الكارولينجيين في حكم فرنسا العام 987، أصروا على أنهم لا يفعلون سوى مواصلة عمل شارلمان. وتزوج الكثيرون منهم بأفراد من الكارولينجيين لكي يكسبوا بارتباطهم بالماضي الشرعية المطلوبة. لقد كتب إينهارد كتابه «حياة شارلمان» في العام 850، لكي يزود القراء بأنموذج يصور كيف ينبغي أن تعمل المملكة، في الوقت الذي كان حكم لويس التقي قد بدأ يتخبط فيه. وفي الحقيقة اقترن تفكيك مركزية الحكومة بتفكيك مركزية العمليات الحربية، مع قيام السادة الإقطاعيين بإعاشة جيوشهم الخاصة من غلة أراضيهم، وهو ما أدى إلى أن أصبحت الجيوش أصغر حجما، ولكن الأرستقراطيين الذين أنشأوا تلك الجيوش أصبحوا أكثر قوة في إطار مجتمعاتهم.

وأدت الفوضى السياسية التي تبعت موت شارلمان إلى فتح أبواب أوروبا أمام التهديد بغزو جديد من جانب الفايكينج. وإذ كان هؤلاء ـ أصلا ـ نهابين لا يميزون في نهبهم بين خصم وآخر، فإنه يمكن وصفهم بأنهم آخر المحاربين البرابرة الأوروبيين الذين كان هدفهم هو «الارتحال والإغارة». وكانت بريطانيا ـ بعد رحيل الرومان العام 436، قد تعرضت ـ على التوالي ـ لغزوات الجوت والإنجلز والسكسون، ثم بدءا من العام 784، الفايكينج، وعلى رغم ما أحرزه الفريد ملك ويسيكس من نجاحات ضد الغزاة النورديين (الشماليين) فقد أُسست مملكة اسكندنافية في إنجلترا العام 1016. ومع ذلك فقد أثبت ألفريد أنه رجل دعاية قدير من خلال تأسيسه ودعمه الأمة الإنجليزية، بالشكر الذي احتفت به «السجلات التاريخية السكسونية» ومن خلال تنظيمه للدفاعات القومية ضد الفايكينج الغزاة.

وفي الوقت نفسه، وإثر انهيار الكارولينجيين وغيابهم، بدأت أعداد كبيرة من النهابين النورديين في الإغارة على مدن غرب أوروبا وشمالها، وهو ما بدأ بشكل جدي وخطير في العام 834 فتغلغلوا في مناطق أنهار الراين والسين واللوار. ومن الناحيتين العسكرية والنفسية كان أعظم ما يملكونه هو المفاجأة، إذ كانوا يظهرون دون إنذار في قواربهم الطويلة السريعة لكي ينهبوا المدن والأديرة ويسلبوها قبل أن يدبروا هاربين إلى قواعدهم في اسكندنافيا. وإذ كانت الإمبراطورية الكارولينجية معرضة أيضا لغارات المسلمين في الجنوب (في إسبانيا وإيطاليا وفرنسا) فقد أدى مجيء الفايكينج إلى أن واجه خلفاء شارلمان حرب عصابات على جبهتين، امتدت إلى جبهة ثالثة حينما عبر المجريون نهر الدانوب في نهاية القرن التاسع. ولم يبطئ الفايكينج في الاستفادة من التفكك الداخلي الذي أصاب الإمبراطورية الكارولينجية. وفيما بين العامين 840 و865 رد الفرنجة بشكل غير فعال، ولكن أمكن تنظيم مقاومة أكثر فعالية فغير الفايكينج من أساليبهم. فبدلا من غارات الكر والفر السريعة بدأوا في تأسيس معسكرات محصنة استخدموها كقواعد لهم، شنوا منها ـ على الخيول ـ غاراتهم التي تغلغلت إلى أعماق أبعد في داخل الريف. ومن مثل هذه المواقع ـ ذلك الذي أقيم في شمال إنجلترا (الـ: دينلو) ـ أسست مستوطنات أكثر دواما. وفي العام 911، منحوا أرضا حول مدينة، وإن أصبحت فيما بعد أساس دوقية

نورماندي.

وفي هذه الأرض بدأ الفايكينج في تمثل النظم الإقطاعية والمسيحية وقاموا بغزو إنجلترا العام 1066، واندفعوا جنوبا داخل فرنسا وجنوبي إيطاليا. وإذ تسلحوا بفأسهم الفريد، ذي النصل المزدوج، وبما سرقوه من أسلحة أعدائهم نشر الفايكينج الوثنيون الرعب ـ عسكريا ونفسيا ـ في أوروبا. ولكن نجاحهم كان قصير العمر مثلما كانت نجاحات سابقيهم. كذلك كان مصير الأنظمة التي اعتمدت بشدة على الرعب لإقامة سلطتها على حساب تنظيم حملة طويلة وعميقة من الدعاية تصاحبها.

5 الغزو النورماني

لدينا الآن بالفعل، فيما يتعلق بالغزو النورماني لإنجلترا في العام 1066، على الأقل تسجيل قيم لدور الدعاية في العمليات الحربية في العصور الوسطى خلفه ويليام من بواتييه William of Poitiers. كان ويليام الفاتح William the Conqueror قد صور غزوه في صورة حرب مقدسة تحت راية بابوية. ويقول بواتييه إن ويليام الفاتح كان قد أبلغ البابا بنواياه، ثم يصف كيف: «تسلم من قداسته راية خاصة علامة على موافقة القديس بطرس تقدم خلفها آمنا مطمئنا ممتلئا بالثقة ضد عدوه». ولكن الحقيقة هي أن ويليام دوق نورماندي لم يكن يملك سوى ادعاء تحيطه الشكوك في حقه في عرش إنجلترا بعد موت إدوارد المعترف Edward the Confessor (1024 ـ 66) ثم عزز ملك النرويج هارالد هاردارا Harald Hardarda ادعاءه للحق نفسه، بغزو إنجلترا عن طريق مصب نهر همبر فزحف هارولد Harold(*) شمالا لكي ينزل به الهزيمة في معركة جسر ستامفورد بالقرب من يورك. وبينما كان الشاطئ الجنوبي دون حماية، عزز دوق نورماندي ادعاءه للعرش بقيامه بالغزو. ويقول كاتب سيرة

(*) ملك إنجلترا ـ المترجم.

حياته إنه: «لم يكن له في كل بلاد الغال ند أو قرين حين يضع دروعه ويمتطي جواده»، ويقول ويليام من بواتييه، مرة أخرى:

كان مشهدا مبهجا ومرعبا في وقت واحد حين تنظر إليه وهو يقود جواده، وسيفه في حزامه، ودرعه تلمع، كما يلمع رمحه وخوذته أيضا. وكم كان يبدو رائعا في مظهره الملكي أو مظهر صانع السلام، كذلك كان جديرا بالروعة نفسها وهو في عدة حربه.

من الواضح أن الصورة كانت مهمة عند ويليام؛ وقد تطلب الأمر أن تكون موجودة في معركة هاستنجس المقبلة.

وشن ويليام حملة غزوه الباهرة عبر القنال [*1] مستخدما نحو سبعة آلاف من المرتزقة والمتطوعين (دفعتهم توقعات الغنائم والأسلاب). ولم يشكل الفلاحون - من أراضي ويليام - سوى نحو نصف قوة الغزو، ولابد أن الحفاظ على تماسك هذه القوة المتنوعة كان أمرا صعبا. وقد أجاب ويليام على من ينتقصون من مشروعه: «إن الحرب تربحها الشجاعة لا عدد الجنود» وقد أوضح ويليام من بواتييه الحيل النفسية التي استخدمها ويليام الفاتح خلال الغزو قائلا:

بواسطة الصلوات والنذور والهدايا ربط الدوق نفسه - في ثقة مطلقة - بإرادة السماء، وهو الأمير الذي لم يكن لروحه أن يحطمها التأخير أو الرياح المعاكسة أو مخاوف البحار المظلمة أو الفرار الجبان من جانب أولئك الذين تعهدوا بأنفسهم بالخدمة تحت إمرته. بل إنه واجه الخطوب المعاكسة بالحكمة الثاقبة، مواريا خسارته لمن أغرقتهم المياه بأقصى ما استطاع بأن أمر بدفنهم سرا. ثم بأن يزيد أنصبة الجند من المؤونة كل يوم حتى يخفي عنهم ندرة تلك المؤن.

وهكذا فإنه، بالتشجيع من كل نوع أصبح قادرا على إثارة نخوة من تملكهم الخوف واستعادة إقبال من ملأهم الامتعاض، وعمد إلى الصلاة حتى تأتيه رياح مواتية بدلا من المعاكسة، وأخرج من الكنيسة - وسط موكب مهيب -

---

(*1) بحر المانش - المترجم.

جسد القديس فاليري، كاهن الاعتراف الذي أحبه الرب،
فسار به في مظاهرة من التذلل والتواضع انضم إليها كل
أولئك الذين كان مقررا أن يرحلوا في الحملة معه.

وحالما تغير الطقس: «أعلن الشكر للسماء بالأصوات والأيدي، واشتدت الجلبة حين صاح كل واحد يشجع الآخر». وكان ويليام هو أول من أبحر نحو إنجلترا فتناول بشهية: «إفطارا دسما أعقبه بالنبيذ المعطر كما لو كان جالسا في صحن بيته» فيما تبدو كأنها إشارة إضافية لزيادة الثقة والاطمئنان في قلوب قواته.

وبعد أن تمكنت قوات الملك هارولد من هزيمة ملك النرويج هارالد هاردردا، عادت تلك القوات إلى الجنوب لكي تواجه ويليام عند هاستنجس حيث دخلت معنويات النورمان اختبارا صعبا جديدا. ومن المحتمل أن يكون الملك هارولد قد استقبل راهبا مبعوثا من قائد الغزو ليعلنه بحق ويليام في عرش إنجلترا؛ ويقال إن هارولد أجابه حينذاك قائلا: «فليحكم الرب اليوم بالحق بين ويليام وبيني». وعلى الرغم من الظهور المشؤوم لـ : «النجم طويل الشعر» أي مذنب هالي باعتباره نذيرا بالكارثة؛ فإن الفاتح لم يترك شيئا للمصادفات: «لقد حضر بنفسه وفي انغماس كامل طقس القربان المقدس السري للقداس، ثم قام بتحصين جسده وروحه بأن تناول من جسد الرب ودمائه. وفي تواضع متذلل علق حول عنقه الآثار المقدسة التي زاد هارولد من حمايتها لويليام بنكثه بالقسم المقدس الذي كان قد أقسمه أمام تلك الآثار ذاتها... وأم الكهنة الصلوات قبل المعركة»، بل إن ويليام ضحك ساخرا مما قيل له إنه فأل سيئ حين وضع عباءته مقلوبة حول كتفيه. وعلى الرغم مما أبداه ويليام من بواتيـيه من إعجاب بالمدافعين الإنجليز، فإن النورمان بـ «شجاعتهم المستبسلة» هاجموا صاعدين التل ـ ضد ما كان يرجح كفة خصومهم لكي يجعلوا انتصارهم أكثر إبهارا ـ وأكثر «عدلا». وقد تعرض النورمان لأكبر الأخطار حين انتشرت إشاعة خلال المعركة تقول بأن ويليام قد قتل، ولكن يبدو أن عودة ويليام على جواده أمام صفوف جنوده وقد أزاح خوذته عن وجهه ـ حتى يبصروه ـ صائحا:

انظروا إليَّ. إنني حي، وإنني بعون الله سوف أنتصر.
فأي جنون يدفعكم إلى الفرار؟ أين تظنون أنكم تستطيعون

> الذهاب؟ إنكم تتخلون عن النصر وعن شرف باق على طول الزمن؛ إنكم تهربون إلى الدمار والعار الذي لا يمحى. وبالفرار لن ينجو أحدكم من الموت.

ويواصل ويليام من بواتييه قائلا: «حينئذ استعادوا معنوياتهم». ولكنه لم يوضح كيف أمكن لهم سماع كلمات قائدهم العسكري وسط ضجيج المعركة. ولكن ليست هذه سوى نقطة واحدة يجب عندها أن نشك في صدق مصدرنا. وفي المرحلة التالية من المعركة، حاق بقوات ويليام خطر الإبادة على أيدي الإنجليز. وهنا يروي الكتاب النورمان الذين وصفوا المعركة كيف أن ويليام أمر قواته بالتظاهر بالفرار لكي يجتذبوا الإنجليز وراءهم فيخرجوا من خطوطهم؛ ويؤكد هؤلاء الكتاب أن هذه الخدمة منحت الانتصار للنورمان؛ ويقولون إن الإنجليز: «تذكروا كيف كان الفرار ـ قبل هنيهة قصيرة ـ هو فرصتهم للنجاح».

> انتشى البرابرة بأمل النصر؛ وإذ أثاروا حماس بعضهم البعض، راحوا يصبون كلمات الازدراء المهينة على رجالنا، وتفاخروا بأنهم سيهلكون جميعا في أماكنهم في اللحظة ذاتها. ومثلما حدث من قبل امتلك بضعة آلاف منهم الشجاعة الكافية، فانقضوا بأنفسهم ـ فيما يشبه الأجنحة لمطاردة أولئك الذين تخيلوهم يفرون. وإذ أدار النورمان أعناق جيادهم فجأة، فقد حاصروا المهاجمين، وأعملوا فيهم القتل من كل جانب، فلم يتركوا أحدهم حيا.

ولقد ظل الغزو النورماندي موضوعا للخلاف والجدل طوال العصور الوسطى؛ ومن ذلك فقد تشكك المؤرخون المحدثون في الشهادة عن خدعة الفرار الكاذب؛ فلم تتفكك صفوف الإنجليز وتتشتت في أنحاء الريف إلا حينما أصيب هارولد بسهم وسقطت رايته، فاستولى ويليام على كانتربري ووينشستر، وأسس جيشا للاحتلال العسكري.

وإلى جانب رواية ويليام من بواتييه الثمينة ـ وإن كانت متحيزة ـ فإننا نملك بالطبع تسجيلا مرئيا فريدا للمعركة هو: لوحة بايو النسجية Bayeux tapestry، وهو عمل (من أعمال التطريز في الحقيقة) طلبه الأسقف أودو Odo لكاتدرائيته الجديدة في مدينة بايو خلال أو حوالي العام 1077؛ وبذلك

يمكن اعتباره تسجيلا معاصرا تقريبا ألهمه ـ لصناعه ـ شخص كان حاضرا بالفعل في معركة هاستنجس. فالرواية المرئية إذ تروى من وجهة النظر النورمانية، وبخاصة من وجهة نظر أودو (وهو أخو الفاتح غير الشقيق) صُممت لكي تعرض على الجمهور فتصور هارولد المهزوم بشكل محترم، على رغم أن الغرض منها كان إثبات شرعية مطالبة ويليام بعرش إنجلترا أمام الشعوب التي أصبحت شعوبا محتلة (وذلك إلى جانب استهداف الرواية نفسها الاحتفال بواحد من أكثر المنجزات الحربية تأثيرا في العالم الوسيط، وهذه حقيقة أولاها المعاصرون تقديرهم كاملا، كما أصبحت مصدرا كبيرا لصنع الأساطير فيما بعد). وفي أثناء الإعداد للغزو، وحتى في أثناء معركة هاستنجس ذاتها، فإن دور أودو يوصف باعتباره دورا يكاد يعادل دور الفاتح نفسه، الأمر الذي يكشف مقدار ما حظي به مشروع الغزو من تأييد ـ من جانب الكنيسة والعائلة معا.

ولكن لماذا صنعت هذه اللوحة النسجية؟ أكانت احتفالية؟ ربما كان مثل رسوم الكهوف المبكرة أو مثل أعمدة الانتصار الرومانية، ربما كان هناك عنصر قوي من هذا الغرض الاحتفالي على رغم أننا لا نعرف إلا القليل عن الترتيبات التي وضعت لعرضها في إنجلترا أو في نورماندي. حقا إنه قد يظهر أنها صنعت في إنجلترا وعرضت في مختلف المدن الإنجليزية؛ فهل يمكن اعتبار هذه اللوحة النسجية نوعا من القصيدة الملحمية المرئية. إنها بالطبع عمل فني بكل ما في الكلمة من معنى. ولكن مضمونها يقبل التفسير بعدد من المستويات المختلفة، وأحد هذه المستويات هو الترفيه (أو وسيط فعال للدعاية). أم أنها ربما تكون قد صممت لكي تظهر شرعية الغزو والفتح على جانبي القنال الإنجليزي كليهما. ولقد أشار المؤرخ هـ. إي. جي كوردي إلى أنه في الجزء الأول من اللوحة تبدو الحيوانات والحكايات المرسومة في جانبي القمة والقاع من هذا القسم، كما لو كان مقابلا رمزيا للخط الحكائي المركزي في اللوحة: «إنها تؤدي إلى أن يثور التساؤل ـ أو الشك ـ بشأن هارولد، محور القصة الرئيسية. إن الأشياء ليست كما تبدو. ثمة شيء غامض يذكرنا بأن مظهر هارولد اللطيف يخفي وراءه رجلا آخر معيبا وزائفا»... وقد يكون لهذا مغزى بالنظر إلى بقاء شهرة هارولد وسمعته الطيبة في إنجلترا بعد موته، وربما كانت اللوحة قد

صممت بتدبير حاذق لكي تنسف تلك الصورة خلال الاحتلال النورماني.

أما القسم الأخير من اللوحة فيمدنا بتصوير حي لأساليب القتال في العصور الوسطى ويشير أيضا، في الإطار السفلي أساسا كيف كان دور الرماة النورمان حاسما في المعركة التي كانت ـ على رغم كل شيء ـ قتالا متلاحما إلى حد كبير. إن الفارس النورماني الذي يمزق جسد هارولد بعد أن أسقطه السهم صريعا لم يكن يسلك سلوكا فروسيا بالتأكيد. ولذلك فقد لا يكون معقولا توهم أن الغرض من اللوحة كان استخدامها كوسيلة دعائية لنظام احتلال يحاول أن يرسخ مشروعيته في بلد كان تعاونه أمرا أساسيا إذا كان للنورمان أن يحكموه بنجاح (مثلما يبين ذلك كتاب يوم الحساب Doomesday Book) [1]. لقد كانت اللوحة وسيلة لرفع معنويات أمة مهزومة، ولكنها ذات كبرياء. ولتشجيع الولاء في المجتمع الأنجلو ـ نورماني الجديد. وعلى رغم أن هارولد يصور في صورة مغتصب عرش وليام، فإنه ـ ورجاله ـ يحظون بما يستحقونه من تقدير لشجاعتهم ومهارتهم الحربية ضد عدو كانت قضيته «عادلة» ولكن سلوكه كان ـ أيضا ـ قابلا للانتقاد الذاتي والندم وباختصار كانت اللوحة وسيلة لكسب قلوب الإنجليز وعقولهم؛ ويشهد بنجاحها الدائم والمستمر الاعتزاز الذي لاتزال تحظى به في إنجلترا حتى اليوم.

6 قانون الفروسية

«الدين» و«الحرب» و«الفروسية» كلمات ثلاث لا يمكن فهم عقل العصور الوسطى المتأخرة من دونها. وربما كانت الفروسية، بعد الدين ـ بكلمات المؤرخ الهولندي العظيم يوهان هويزينجا ـ «هي الأقوى بين جميع المفاهيم الأخلاقية التي سيطرت على عقل وقلب» إنسان العصور الوسطى المتأخرة. فمنذ القرن الحادي عشر وحتى الخامس عشر كان «قانون» الفروسية هو ما يحدد أسلوب قتال النبلاء الغربيين وسلوكهم في ميادين المعارك. لقد كان مثلا أعلى، أو مفهوما ينبغي أن يطمح الرجال إليه، على رغم أن قدرتهم على أن يعيشوا طبقا له بالفعل كانت أمرا آخر.

ومع ذلك فلقد خلق القانون (أو مجموعة المبادئ Code) إطارا/ ذهنيا للمهنة العسكرية، أو خلق عقلية لم تتحكم في السلوك في ميدان القتال فحسب، وإنما بررت الوضع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الجديد للفرسان في نظام الأشياء الذي ساد العصور الوسطى. لقد كان الفرسان ـ وهم في خدمة الملك ـ أداة لا تقدر بثمن لامتلاك السلطة. ولقد وجد الفرسان أنهم يستطيعون في بعض الظروف أن يمارسوا عملهم الوحشي ببركة

من الرب خاصة بعد عهد البابا جريجوري السابع (1073 ــ 1085)، الذي حدد إصلاحه الجريجوري أسلوب الموافقة الدينية على شن الحرب وخوض القتال.

وقد اعتمد القادة في العصور الوسطى ـ للحصول على قواتهم ـ على أتباعهم الذين كان دور كل منهم العسكري ورتبته يتحددان تبعا لظروفهم الاقتصادية، وبناء على قدرتهم على المجيء معهم بأسلحة بعينها. وكانت العلاقة ــ بين القادة والأتباع ــ علاقة إقطاعية Feudal. وطبقا لما قاله أحد المؤرخين، فإنه عندما يكونون في ميدان القتال «فإن المعركة مجموعة من الالتحامات الفردية حيث يشارك قائد الجيش كمقاتل منفرد»، فما الذي كان يدفع هؤلاء الرجال إلى القتال؟ إنه كان دائما عاملا سلبيا «العار» الذي يجلل من لا يقاتل، وصمة الجبن التي لم تكن لتلحق بالفرد وحده، وإنما بعائلته بأسرها، وخاصة إذا ما تناول القصة أحد الشعراء أو مسجلو الحكايات والأحداث. لقد كانت فكرة «إن من يحيَ ويهربْ ناجيا فإنما يحيا لكي يقاتل في يوم آخر» فكرة غريبة عن العقل الأرستقراطي في العصور الوسطى.

غير أنه كان من الضروري أن يقوم المرء بأكثر من مجرد الخروج إلى القتال، لقد كان عليه أن يظهر البسالة والشجاعة في الالتحام. كانت هذه واحدة من طرق قليلة لحيازة الشرف والمجد في المجتمع، ولكسب المكافآت المالية والترقي الاجتماعي. كان الفرسان، بوصفهم جنودا محترفين، يقاتلون ليكسبوا عيشهم. وكان ذلك هو سبيلهم لكي يصبح الواحد منهم ملكا أو دوقا أو بارونا. وعلى رغم ذلك، فقد كانت فؤوس القتال والسيوف مزدوجة الشفرة تؤدي إلى تركيز العقل بشكل يثير الإعجاب، وكان من الضروري الحصول على بعض التأمين في شكل الدروع، وبالقتال في صفوف متراصة متقاربة. وقد اكتشف فرسان الحملات الصليبية أن دروعهم لم تحقق لهم فقط الحماية في المعركة، وإنما أمدتهم هذه الحماية بقدر هائل من التفوق النفسي، وأصبحت فرصهم للقتل أكثر بكثير من احتمالات أن يقتلوا. وقد تبين عدوهم ذلك أيضا، فبعد هزيمته في معركة أرسوف العام 1191، خلال الحملة الصليبية الثالثة، رفض صلاح الدين أن يشتبك مع «الرجال الحديديين» تحت قيادة ريتشارد الأول مرة ثانية. وفي البداية لم يكن ثمة

ترحيب بالثياب المزركشة الزاهية، وذلك على رغم أن كاتبا متأخرا للتواريخ سجل أنه «حينما يسيرون خارجين للقتال كان لمن يريد أن يضع الذهب والفضة، حتى تسطع الشمس وتلمع على رؤوسهم فيذيب الخوف شجاعة الوثنيين». أما الجنود الفقراء المشاة الذين لم يكن باستطاعتهم أن يتحملوا تكلفة مثل هذا الترف، فقد كان على الجماعة الدينية التي يعيشون فيها أن تمدهم بنظرة ذهنية إلى الحرب بوصفها واجبا اجتماعيا واقتصاديا وروحيا لا يمكن تجنب القيام به إلا لقاء ثمن لا يمكن تحمله. وكان أعضاء حاشية سيد (لورد) ما يحصلون على معاشهم من ذلك السيد وترتبط حظوظهم بحظوظه ارتباطا لا ينفصم. وكانت الدروع التي تزين بشعار السيد، والرايات المزخرفة بالصليب والأزياء الموحدة (إلى درجة ما) تساعد كلها في غرس إحساس بهوية مشتركة.

من كل هذه الظروف نشأت وتطورت مجموعة مبادئ الفروسية، على رغم أن هذه المبادئ كانت أكثر ارتباطا ـ في العادة ـ بالأثرياء من الفرسان. ويكتب أحد كتاب التواريخ عن معركة برمبول العام 1119 بين أقل من ألف فارس أن «اثنين فحسب قتلا في المعركة».

> كانوا جميعا متسربلين بالدروع والزرد وراحوا من الجانبين يتحاشون بعضهم البعض، بدافع الخوف من الرب وإخوتهم في السلاح، وكانوا أكثر حرصا على أن يأخذوا أسرى من أن يقتلوا الهاربين. وبوصفهم جنودا مسيحيين فإنهم لم يكونوا متعطشين إلى دماء إخوتهم، وإنما اكتفوا بالابتهاج بنصر منحهم الرب إياه من أجل الكنيسة المقدسة المباركة والسلام للمؤمنين.

فإذا كان الفارس يعلم أنه إذا وقع في الأسر فسوف يُبقي على حياته بدلا من أن يُقتل (سواء كان ذلك بدافع من الفروسية أو طمعا في الفدية) فسوف يكون الأقل احتمالا أن يقاتل بشراسة حتى الموت. أما حينما كان المسيحيون يقاتلون كفارا فإن الموقف كان يختلف تماما (وذلك على رغم أن المرتزقة الذين استخدمهم كونتات الفلاندرز فيما بين العامين 1297 و1302 كانوا هدفا لانتقاد كتاب التواريخ لافتقادهم الرحمة تجاه المحاربين المسيحيين الذين «ما كانوا يعاملون ـ إذا أُسروا ـ بأفضل مما تعامل به الكلاب». وفي

أثناء الحروب الصليبية حين كان الجنود يقاتلون بعيدا عن أوطانهم فإن الفرار لم يكن أقل خطورة من القتال. وتشهد بعض المصادر تأييدا للرأي القائل بأنه كان الأفضل للمرء أن يموت وهو يدافع عن نفسه من أن يحاول الهرب في بلد معاد... ولقد كان الذعر الجماعي نادرا غير شائع تماما كما كان الأمر في العصور القديمة.

إن الحرب، بتعبير فيليب كونتامين «ظاهرة ثقافية». وتتحدد الطريقة التي تخاض بها الحرب ـ تحديدا دقيقا ـ من خلال مجموعة المعايير الخلقية والمعنوية السائدة التي تؤثر في الأفراد المشاركين في الحرب. وفي خلال العصور الوسطى، ومنذ أصبح الفرسان ذوو التسليح الثقيل هم السلاح السائد في الحرب، تحول التدريب العسكري للفرسان إلى فن رفيع وأصبح على حد وصف أحد كتاب التواريخ لتدريب أبناء هنري الثاني:

> ليس من رجل رياضي يستطيع أن يقاتل بعناء وثبات دون أن يكون قد تلقى أي ضربات... وكلما زادت مرات سقوطه، زاد إصراره على ضرورة أن يقفز واقفا على قدميه من جديد. وكل من استطاع أن يفعل ذلك يستطيع أن يشتبك في القتال بثقة. إن القوة المكتسبة بالتدريب لا تقدر بمال. وثمن العرق يدفع غاليا حيث يقوم معبد الظفر والانتصار.

ولا يقتصر الأمر على تحقيق المجد... فالحرب كانت سبيلا جيدا لكسب المال. فلقد صاح فارس فقير قبل شن الحملة قائلا: «سينشب قتال هنا ! فالآن سأكون غنيا !» وقبيل معركة خدريليوم العام 1097 راح الفرسان يتبادلون التشجيع بكلمات من نوع: «لتكونوا قلبا واحدا في إيمانكم بالمسيح وبانتصار الصليب المقدس لأنكم سوف تكونون أثرياء اليوم، إذا شاء الرب!». ومن المهم أن نتذكر أيضا أن طبقة الفرسان كانت ضئيلة العدد إذا قورنت بكتلة السكان الأوروبيين. ولذلك فقد كان سهلا ـ نسبيا ـ أن تنتشر القيم والأفكار المتعلقة بأسلوب السلوك في المعارك أو في المباريات السلمية بين طبقة متعلمة حاكمة قليلة العدد من النبلاء الذين كانوا يتحدثون جميعا لغة واحدة.

وفي هذا الصدد لعب الأدب دورا مهما في تحديد العقلية الفروسية وصياغتها بين أعضاء طبقة النبلاء الأرستقراطية. وقد نصح أحد النبلاء

ابنه بأن يقرأ النصوص الكلاسيكية لكي يكتشف معنى الشرف، وذلك على رغم أنه «لأسباب أكثر قوة، يتعين علينا نحن ـ الذين ندين بالمسيحية ـ أن نسعى إلى القيام بأعمال أكثر شرفا وفضيلة، وأن نصون أنفسنا من النقائص بأكثر مما كان يفعله أولئك الرومان الذين آمنوا بأن النفوس تموت مع الأجساد». غير أن القراءة عن الحرب، وخوض الحرب بالقتال فعلا هما أمران مختلفان كل الاختلاف. ومن منجزات الرومان التي تعلم منها فارس العصور الوسطى فضيلة النظام والانضباط، ولهذا الغرض أنشئت الأنظمة والجماعات العسكرية الدينية. ففي العام 1118 أنشئت جماعة فرسان المعبد (أو الهيكل ـ Templars) لكي تحرس طرق الحج بين القدس ويافا. أما جماعة الأسبتارية Hospital فرسان القديس يوحنا الخيرية في القدس ـ التي تلقت التصريح البابوي بقيامها العام 1113 ـ فقد أصبحت ذات نزعة حربية أكثر تشددا العام 1130. ثم تشكلت بعد ذلك جماعات علمانية عدة من الفرسان ـ من خارج رجال الكنيسة ـ مثل جماعة وسام ربطة الساق Garter، التي أسسها الملك البريطاني إدوارد الثالث في العام 1348.

وقد جاء تطوير المباريات ودورات الألعاب من جانب بهدف التدريب، ومن جانب آخر: «فإن دورات المباريات التي اتخذت ـ تماما ـ شكل الحروب الفعلية أدت إلى تدعيم كبرياء كل إقليم وزادت من التضامن المعنوي بين الوحدات العسكرية» (كما جاء عند فيربروجين، وهو باحث هولندي حديث). وهيأت مثل تلك الدورات بديلا للحروب من دون قتل ـ نظريا. ويقول مالكولم ڤال: «لقد كانت قتالا مقنعا، صورة لمعركة، ولكنها كانت صورة شديدة الشبه بالحرب الحقيقية». ولم يكن ممكنا تجنب سقوط ضحايا، ولقد حاول الملوك والبابوات منع تلك الدورات كثيرا خاصة حين كانت تستخدم كشكل من أشكال تصفية النزاعات ـ أو الخصومات ـ في إطار طقسي. وفي وقت متأخر فرضت قواعد أكثر صرامة واستحدثت أسلحة مثلومة أو ذات أغطية قوية على نصالها لخفض عدد الضحايا. غير أن عددا من المراقبين رأوا أن السبب في هذا كان تزايد انحلال مستوى الفرسان وتدهور قانون الفروسية.

وكانت دورات المباريات أيضا وسيلة ثمينة للصعود الاجتماعي. لقد بدأ ويليام الماريشال حياته كأرستقراطي صغير بلا أرض يملكها وفي فقر

نسبي، ولكنه صعد إلى مرتبة دوق بيمبروك ووصي عرش إنجلترا، بفضل مهاراته وقوته القتالية التي أظهرها في المباريات. غير أن دورات المباريات كانت أيضا ميدانا نافعا للتدريب وهيأت المثاقفات الزوجية فرصة جيدة للتمرين على استخدام السيف والرمح فيما يشبه صور القتال الفردي التي كانت تحدث ـ تحت راية ما ـ في ميدان القتال. وأصبح الخصوم «المأسورون» أو «المهزومون» ـ وأتباعهم ـ في المباريات «إخوة في السلاح»، وأصبحت جماعات الإخوة التي تشكلت على هذا النحو وحدات عسكرية في ميادين المعارك يضع أفرادها الشعار نفسه ويشتركون في معسكرات أو قلاع واحدة، بينما كانت أسماؤهم ورموزهم تسجل في قوائم حتى يرجع إليها الناس. وعند نهايات العصور الوسطى أصبح تصميم الشعارات والرموز فنا مزدهرا وتجارة رائجة، استلهمت أصولها من «شجرة المعارك Tree of Battles» التي تحولت من مجرد علامة للتعريف والإشهار إلى رمز لسلالة أرستقراطية ما ولإنجازاتها.

ولقد مزقت الحروب القرنين الحادي عشر والثاني عشر اللذين زودهما بنيران الحرب قانون الفروسية الذي كثيرا ما أدى إلى الولع بالحرب للحرب في ذاتها، وإلى نوع من التمجيد الرومانتيكي لمهارات القتال، حتى أن معجبا ـ زائد الحماس ـ لذلك القانون كتب في وقت متأخر يقول:

> يا للحرب من شيء بهيج. أعتقد أن الرب يفضل أولئك الذين يخاطرون بحياتهم من خلال استعدادهم لشن الحرب حتى يخضعوا للعدالة كل الأشرار والطغاة والغزاة والمتكبرين وكل من ينكرون المساواة الحقة. إنك تحب رفيقك في الحرب كل الحب وتفيض عيناك بالدموع حين تشعر بأن خصومتك عادلة وأن دماءك تثور كما ينبغي أن تثور، ويمتلئ قلبك بشعور عظيم الحلاوة عندما تبصر صديقك وهو يعرض جسمه بكل بسالة لكي ينجز وينفذ أمر بارئنا، فتكون عندئذ مستعدا لأن تنطلق لتموت أو تحيا معه، لئلا تتخلى عنه في سبيل الحب، فتنبثق بهجة طاغية لا يستطيع من لا يجربها أن يكون قادرا على وصف أي نوع من البهجة هي. فهل تظن أن رجلا فعل هذا يهاب الموت؟ أبدا، لأنه يشعر بازدياد

قوتـه وتساميه حتى أنه لا يعرف أين هو حقا. إنه لا يهاب أي شيء؟

(لوچوفينال ـ Le Jouvenal ـ كتب هذا النص في العام 1466).

وربما كانت هذه النظرة المصطبغة بالانفعال الوجداني إلى مفهوم العصور الوسطى للشجاعة، ربما نصفها وصفا أكثر دقة، لو قلنا إنها تتحدث عن «التهيج» الذي تثيره المعركة في النفوس، ولكنها تمدنا بمعرفة نافذة إلى المثل الأعلى الذي حدد به الرجال قانونهم للسلوك. ولقد كان على القادة الحربيين في الحقيقة أن يضمنوا ألا يستولي الخوف والذعر على جنودهم بينما يحاولون أن ينشروا الفوضى وسط جنود العدو، أما الهدف الأول فقد كان يمكن تحقيقه بواسطة التدريب والانضباط والعدد الأكثر والسلاح المتفوق. وهي الوسائل التي كانت تؤدي إلى تدعيم المعنويات وزيادة الثقة بالنفس، بينما قد يتحقق الهدف الثاني ـ بشكل طبيعي ـ بتحقيق الأول.

وتمدنا أغاني الفروسية بنوع ممتاز من التبصر بما كان يدفع رجال العصور الوسطى إلى القتال. ولقد لعب الدين ـ كما تجلى لنا من قبل ـ دورا مهما في هذا السبيل. كانت الصلوات العامة (القداس) تقام قبل كل معركة حيث يتعين على الجنود أن يمارسوا شعائر التناول والاعتراف (وربما يحددون وصاياهم أيضا)، وكانت الأغنيات نفسها تنشد لكي تسري عنهم وتقوي عزائمهم في مسيراتهم الطويلة بكلمات تذكرهم بواجباتهم الدينية وبأسلافهم الأمجاد. كانت تلك الأغنيات عاملا مهما من عوامل رفع المعنويات ـ ذلك أن أكثر وسائل الدعاية تأثيرا هو ذلك النوع الذي يرفه ويعلم ويثير المشاعر ويحضها في آن معا. ولكن الأغنيات نفسها تنبهنا أيضا إلى جوانب بعينها من قانون الفروسية. ففي «أنشودة رولان» ترتسم أمامنا صورة فارس مثالي. فلقد قيل إن رولان اشتبك في قتال وسط ظروف غلابة قاهرة غير مواتية، فاختار أن يقاتل بدلا من الفرار تماشيا مع قانون الفروسية، فمات في سبيل قضيته. والحقيقة، أنه رفض طلب النجدة إلى أن فاتت الفرصة، بسبب الكبرياء إلى حد كبير. ومع ذلك فقد ساعدت تلك الأغنيات على الإبقاء على الميزات التي كانت موضع التقدير والاعتزاز في ذروة العصور الوسطى، فكانت بذلك مقطوعات ملهمة، أو ـ بتعبير آخر «نماذج للأفعال».

7 الحروب الصليبية

مع الحروب الصليبية ـ بشكل خاص ـ تحصل دراسة الدعاية للحرب على أكثر الأدلة خصوبة حتى زمن بداية تلك الحروب. ولم تكن لدى فرسان الحملة الصليبية الأولى (الشعبية) التي دعا إليها البابا أوربان الثاني في موعظة له بمدينة كليرمون العام 1095، لم تكن لديهم من معرفة عن خصومهم المسلمين سوى أنهم «كفار». وكانت الحرب الصليبية حربا مقدسة أفتى بها البابا باسم المسيح، وبذلك فقد كانت عنفا مشروعا أو مبررا. وتم بناء الدعاية للقسوة الوحشية حول هذه النقطة المخلة في تبسيطها، على رغم أن أحداثا بعينها ـ مثل احتراق كنيسة القبر المقدس قبل ذلك بنحو تسعين سنة ـ قد أثيرت ذكرياتها بهدف إلهاب مشاعر الناس. ولكن لم يمكن العثور على أي عمل وحشي أحدث عهدا من ذلك لتبرير الحملة، أو لتبرير نداء البابا أوربان إلى «هبة قلب عظيمة» ضد الكفرة. حقا لقد كان الأتراك يهددون بيزنطة بتقدمهم المتزايد في آسيا الصغرى، وقال أوربان في موعظة له: «لقد اجتاح البرابرة في نوبات هوسهم كنائس الرب في الأقاليم الشرقية وخربوها، بل لقد استولوا على مدينة المسيح المقدسة التي تزهو بما شهدته

من آلام المسيح وقيامته، وإنه لمن التجديف أن نقول إنهم قد باعوها وباعوا كنائسها في سوق الرقيق المقيت». ويقدم لنا روبرت الراهب، الذي كان يكتب بعد تلك الأحداث ببضع سنوات، نسخة من دعوة أوربان إلى حمل السلاح، الدعوة التي تحتوي على نوع صارخ من دعاية الاتهام بالقسوة الوحشية. يقول أوربان، إن المسلمين العرب:

> قد ختنوا النصارى، فإما ينثرون دم المختونين على مذابح الكنائس وإما يصبونه في أحواض (أجران) المعمودية. ولقد شقوا بطون من شاءوا أن يعذبوهم حتى يموتوا أبشع ميتة، وهم يمزقون أبدانهم ويقطعون أعضاءهم الحيوية، بعد أن يوثقوهم في الأعمدة أو يسحلوهم على الأرض، ويسوطوهم بالسياط، قبل أن يقتلوهم وهم مطروحون على الأرض وقد برزت أحشاؤهم. وقد أوثقوا البعض إلى الأعمدة وصوبوا عليهم السهام! وأمروا آخرين بأن يمدوا أعناقهم عارية لكي يضربوها بالسيوف لكي يروا إن كان يمكن الإطاحة برؤوسهم بضربة سيف واحدة. ثم ماذا أقول عن انتهاك النساء المفزع الذي يبدو الكلام عليه أكثر شرا من السكوت عنه؟

ولا تحتوي أي رواية أخرى لموعظة أوربان على مثل هذه الدعاية التصويرية الحية، ولكن جميع الروايات تؤكد الأهمية النفسية للقدس في العالم المسيحي. ومع هذا فلا شيء من كل ما تضمنته الموعظة يفسر توقيت الدعوة إلى الحرب أو يوضحه. ولقد زعم جويبرت من نوجنت أنه: «لم تكن بأي من رجال الكنيسة حاجة إلى أن يستنفر الناس من فوق المنبر لكي يتوجهوا إلى القتال في وقت كان كل رجل فيه يدعو جاره ـ ليس بالكلمات فقط وإنما بالأفعال التي تقدم المثال العملي ـ إلى الوفاء بنذر القيام بتلك الرحلة. فلقد كان الجميع يتحرقون شوقا إليها». ويفسر هذا المصدر المعاصر تلك الموجة من الحماسة العامة للحملة الصليبية الشعبية، أو حملة الفلاحين، يفسرها بأن الله قد قام ـ بشكل مباشر ـ بتعبئة وحشد القلب النصراني العالمي.

أما في الواقع الحقيقي، فربما لعب الطمع والجشع دورا أكثر أهمية.

فلقد كان الكثيرون ممن اشتركوا في تلك الحملة، بعد أن أثارهم الدعاة الخطباء الشعبيون، من الفلاحين والفرسان المعدمين ـ الذين لا يمتلكون أي أراض ـ والمجموعة المعروفة المتنافرة من المغامرين تحت قيادة والتر المفلس Walter the penniles وبطرس الناسك Peter the Hesmit والذين افتقدوا كلا من النظام والانضباط. ولم يكن من الممكن ـ لكل ذلك ـ تجنب القسوة والكارثة. تلك هي العوامل التي توضح سبب تصرف الصليبيين الأوائل بالوحشية التي عرفت عنهم. كانت رؤوس الأعداء تقطع وترمى داخل أسوار المدن المحاصرة، أوترفع على رؤس الرماح لإخافة الأعداء الآخرين. فهل كان ذلك مجرد قسوة أم وعيا جادا بدور الحرب النفسية؟ لربما كان الأمر مزيجا من الاثنين معا...

ولا بد من تقسيم الحملة الصليبية الأولى ـ التي بدأت بعد سنة واحدة من الحملة الشعبية التي انتهت بمذبحة على أيدي الأتراك في معركة كيفا Civetot في آسيا الصغرى ـ لا بد من تفسير تلك الحملة الأولى تفسيرا بعيدا عن فكرة الانتقام أو مبادئ الفروسية. وقد حدد المؤرخون المحدثون أسباب الحملة الصليبية الأولى بأنها: تزايد السكان في الغرب، وجهود الكنيسة لمنع الحروب المحلية بين الشعوب المسيحية، إضافة إلى الأسباب الاقتصادية. ومن المؤكد أن الكنيسة كانت حريصة على إقناع طبقة الفرسان بتحويل طاقاتها العدوانية وتوجيهها ضد غير المسيحيين. ويتفق هذا مع ما أعلنه (البابا) أوربان في إحدى خطبه: «ليتحول أولئك الذين كانوا لصوصا في يوم ما إلى جنود من جنود المسيح، وليحصل على جائزة الخلود الأبدي أولئك الذين كانوا جنودا مرتزقة لقاء قروش زهيدة». وإذ تكفلت الحكايات الواقعية عما ارتكبه الأتراك من الأعمال الوحشية في موقعة كيفا بشحن الفرسان الذين توجهوا إلى الأراضي المقدسة العام 1096، فربما كان دافعهم الحقيقي للرحيل هو ما شرعته الكنيسة، إذ اعتبرت مهنتهم مهنة أرستقراطية، فعززت وضعهم الاجتماعي. فقد كانوا قد اكتسبوا مكانتهم هذه من خلال الحرب، وأصبح عليهم أن يحافظوا عليها بالحرب أيضا. كان شن الحرب الصليبية عملا مربحا، وكانت الأرض هي ينبوع القوة والسلطة. وتزامنت كل تلك العوامل وامتزجت لكي تهيئ حقلا خصبا، حيث تستطيع كلمات (البابا) أوربان أن تزدهر. ومن خلال نظام «غفران الخطايا»

أصبح بوسع الجنود أن يؤدوا مهام مهنتهم ضد «الكفار» بما يشاؤون من وحشية عارفين أنهم لا يرتكبون بذلك أيا من الخطايا المميتة.

ومن المؤكد أنه بفضل إصلاحات البابا جريجوري [1] كانت الحرب ضد «الكفار» طريقة متاحة للفرسان لإحراز الخلاص، ومقبولة أكثر مما كان متاحا من قبل من خيارات، مثل دخول دير أو الانضمام إلى ركب للحجيج. وعلى هذا فإنه يمكن النظر إلى الحملات الصليبية جزئيا ـ باعتبارها حجا مسلحا. وفيما بعد وحد الرهبان والفرسان صفوفهم معا في جماعة «فرسان المعبد Templers» وامتدح القديس برنارد الحرب قائلا: «تقدموا، أيها الفرسان، واثقين، واطردوا بجسارة أعداء صليب المسيح، وكونوا على ثقة من أنه لا الموت ولا الحياة بقادرين على إبعادكم عن محبة الرب». وعلى ذلك فإنه لا يمكن المماحكة بشأن دور الرعاية الدينية في شن «الحج المسلح» إلى القدس.

وفي حصار أنطاكية 1097 ـ 1099 الذي يعد المعركة الحاسمة للحملة الصليبية الأولى ـ اشتد عزم الصليبين بسبب ما كان يشاع عن الرؤى التي تراود البعض ـ وهي لم تكن حادثا قليل الوقوع أثناء الحروب الصليبية كلها، وبسبب ما كان يشاع أيضا عن اكتشاف «الرمح المقدس» الذي كان قد اخترق جنب المسيح، وبسبب ما كان يقال عن تدخل الرب بنفسه. وكثيرا ما كان إغراء مدينة القدس ـ المقدسة ـ يدفع الجنود إلى الهجوم على العكس من أوامر قادتهم. وإذ سقطت انطاكية في أيديهم العام 1099، نظم الصليبيون موكبا دينيا دار حول مدينة القدس المحاصرة وصفه أحد المصادر بالكلمات التالية:

> «وحينما رأى المسلمون العرب هذا، تقدموا في موكب مشابه سار فوق جدران المدينة حاملين صورة محمد، مغطاة بقطعة من القماش، ومرفوعة على قائم رمح. وحينما بلغ المسيحيون كنيسة القديس ستيفن أقاموا لأنفسهم قاعدة هناك مثلما هي العادة في مواكبنا توقف المسلمون العرب على الجدران وصرخوا تجاه الآخرين، ثم راحوا يضربون طبولهم التي تعالت منها ضجة هائلة وأخذوا يسخرون من المسيحيين بكل ما استطاعوا ابتكاره من أنواع الاستهزاء

والسخرية. غير أن أسوأ ما فعلوه وعلى مرأى من جميع المسيحيين هو أنهم راحوا يضربون أكثر الصلبان قداسة، ذلك الذي افتدى فوقه المسيح الرحيم الجنس البشري كله بأن أراق دمه عليه، بقطعة من الخشب، ولكي يزيدوا من حزن المسيحيين أكثر وأكثر، خبطوا هذا الصليب بالجدار فتناثر حطاما مبعثرا»[2].

ولم يكن مثل هذا الاستفزاز نادر الحدوث في أثناء أعمال الحصار، وهو ربما ساعد على تفسير قسوة الصليبيين ووحشيتهم مع أسراهم، على النقيض مما تأمر به عقيدة الرحمة والغفران المسيحية. وسقطت القدس في أيدي الغزاة العام 1099 وذبِحَ المدافعون عن بكرة أبيهم.

ومع امتلاء قلوب الصليبيين بالحماسة الدينية فقد عرفوا أيضا المكاسب المالية للقتال في الشرق الأوسط الثري... وإنما نجد في «أغنية أنطاكية» الكلمات التالية: «هنالك على الأرض المعشبة إما أن نفقد رؤوسنا وإما أن نصبح أثرياء بالفضة والذهب البراق، حتى أننا لن نكون بحاجة إلى الاستجداء من رفاقنا». ولكن قانون الفروسية كان يفرض أيضا الالتزام ببعض القواعد، وخاصة حينما يقاتل مسيحي مسيحيا آخر مثله. وسرعان ما اتضحت مزايا محاربة الكفرة على أرض بلادهم الغنية.

وحاولت الحملة الصليبية الثانية التي أعلنها ودعا إليها البابا أيوجينيوس الثالث العام 1146 أن تستغل نجاح الحملة الأولى. وقد توافر المبرر لشن تلك الحملة بإعادة احتلال الكفار لبعض الأراضي التي كان قد تم غزوها، وخاصة مدينة الرها Edessa، غير أن الأسباب الحقيقية تتطابق مع تلك التي دفعت الحملة السابقة وحركتها. ومع ذلك ففي هذه المرة وجه النداء إلى أبناء الصليبيين الأوائل لكي يحرزوا ما حازه آباؤهم من شرف وخلاص: «وحتى تزداد كرامة اسم المسيح في زماننا وحتى تظل شهرة قوتكم ـ التي أثنى عليها العالم كله ـ فوق كل شبهة لا يلوثها شيء». ومد القديس برنارد، الداعي الرسمي إلى الحملة الصليبية الثانية، نداءه لمقاتلة المسلمين ليس في الأراضي المقدسة فقط، وإنما في إسبانيا أيضا، وإلى مهاجمة قبائل الوثنيين السلاف في شرق وجنوب شرق أوروبا. وفي فرنسا أقام برنارد والملك لويس السابع احتفالا بذلا فيه غاية جهدهما ـ في العام 1147 ـ

وصف بالكلمات التالية:

> ولما لم يكن ثمة مكان في الحصن يسمح باحتواء مثل هذا الحشد الغفير ـ الذي تجمع ـ فقد أقيمت منصة خشبية في حقل يقع خارج بلدة فيزلاي Vezlay حتى يستطيع الراهب الأكبر أن يتحدث من فوق مكان مرتفع إلى الجمهور الواقف من حوله. وصعد برنارد إلى المنصة يصحبه الملك الذي ارتدى (ثيابا رسم عليها) الصليب. وحين شرع (القديس) وهو الأداة الربانية ـ كما هي عادته ـ في إطلاق فيضان رحيق الكلمات المقدسة. شرع الناس من جانب في الصياح مطالبين بالصلبان. وحينما نثر ـ بدلا من أن يناول ـ الصلبان التي كانت معدة من قبل ـ تعين عليه بعد قليل أن يمزق ثيابه على شكل صلبان وأن ينثرها بدورها على الناس.

وراح برنارد يجند الرجال في أوروبا بأسرها للحرب مستخدما مثل تلك الحيل الدعائية، غير أن جهوده لم يكن مقدرا لها أن تسفر عن النصر. فلقد أمكن استعادة لشبونة، ولكن الحرب ضد السلافيين كانت أقل نجاحا. وفي الأراضي المقدسة أرغم الصليبيون على التراجع أمام دمشق، وتحول المشروع كله إلى ورطة وراح يتعثر، وتم تبرير الفشل على أيدي المدافعين عن المشروع بحجة أن القوات لم تكن تستحق أن تكون منفذة لمشيئة الله.

وبعد أن أوقع صلاح الدين الهزيمة بالصليبيين في موقعة حطين العام 1187 وأعاد فتح القدس، شنت الحملة الصليبية الثالثة 1189 ـ 1192 لاستعادة الأراضي المقدسة. ودعا البابا جريجوري الثامن العالم المسيحي للثأر لضحايا «البرابرة المتوحشين» وتعين أن تصبح الحجج الدينية أكثر عنفا وقوة. وبدلا من «الخلاص الأبدي» راحت الكنيسة تعرض حمايتها للأراضي والممتلكات والسلع التجارية. وبدأ تبرير العنف بالرجوع إلى العهد القديم وإلى كتابات القديس أوغسطين. ومن هنا جاء التبرير القائل: «إننا لا نبغي السلام لكي نشن الحرب ولكننا نشن الحرب لكي نحصل على السلام». غير أن الأفكار الفروسية واصلت المساهمة في تحريك الفرسان في ساحة القتال. ففي خلال الحملة الثالثة رفض «الأستاذ الأكبر» لفرسان المعبد أن يفر في معركة عكا فلقي مصرعه على أيدي المدافعين عن المدينة، غير أنه «مات

بشرف على الأقل» فلو أنه ولى الأدبار هاربا قبل أن تسقط رايات جيشه لكان قد جلب العار، ليس فقط على شخصه وإنما على جماعته كلها من فرسان المعبد، ولا داعي لذكر ما كان سيجلبه لعائلته من خزي. وعلى ذلك فإن الجماعات الرهبانية القتالية، مثل جماعة فرسان المعبد، كانت ـ من جوانب عدة ـ تطورا للقبائل الغالية القديمة، حيث كان الأفراد يقاتلون إلى جانب الجماعات من الناس كما لو كانوا أعضاء في العائلة ذاتها، تطبيقا لمبدأ «الواحد للكل والكل للواحد».

وقد أدى تعرض الصليبيين للقدرات القتالية التي تمتع بها المسلمون العرب، أدى بهم في النهاية وبشكل حتمي إلى احترام أعدائهم وإلى الإعجاب بهم. ويحدث هذا في غالبية الحروب حينما يتبين الجنود أن صورة أعدائهم، التي رسمها لهم رجال الدعاية، نادرا ما تتفق مع الحقيقة. ويعجب المقاتلون بالمقاتلين إذا ما أظهروا في ميدان المعركة الصفات والميزات التي يستطيعون أن يحترموها وأن يدركوا قيمتها بفضل تدريبهم وتجربتهم. وقد شهد أحد المصادر في كلامه عن معركة ضوروليوم العام 1097 بأنه لو أن الأتراك قد آمنوا بالروح القدس «لكان من المستحيل أن نجد من هم أكثر منهم قوة أو أكثر شجاعة أو أكثر مهارة في فن الحرب». وبتعبير آخر كان الرب المسيحي هو الذي يحدد الفارق في القيمة وفي المعنويات بين الجانبين. وكان دافعهم إلى مقاتلة عدو يحترمونه ـ وهو ما يعني عادة عدوا يخافونه ويخشون بأسه ـ مستمدا من حماس الصليبيين الديني ومن الاعتقاد بأنهم يضمنون لأنفسهم الفداء الإلهي لأنهم يسعون إلى تدمير عدو المسيح. وفي أواخر القرن الثاني عشر استخدم الروح الصليبي لتبرير شن الحرب في مناطق أخرى غير الأراضي المقدسة ـ في منطقة بحر البلطيق على سبيل المثال، أو في داخل نطاق العالم المسيحي نفسه وذلك في الحملات ضد الهراطقة. فكان كل من يهدد الكنيسة يجد نفسه هدفا لدعوة إلى حملة صليبية.

وفي العمليات الحربية في أواخر العصور الوسطى وفي الحروب الصليبية بشكل خاص ظهر عامل نفسي مهم في حالات كانت مألوفة حينما يتفوق المسلمون العرب ـ عدديا ـ على الفرسان الصليبيين، وهو العامل الذي يتمثل في التجمع في تشكيلات متراصة بإحكام من الفرسان ذوي التدريع الثقيل. ويصف أحد المؤرخين ـ خلال الحملة الصليبية الثالثة

العام 1190 كيف ارتعب الصليبيون حين نظروا إلى معسكر قوات صلاح الدين التي بدت لهم بالغة القوة ولكنهم بدأوا يتقاربون لكي يلتصق كل منهم بمن إلى جواره بالطريقة التي كانوا قد دربوا عليها، واكتشف العدو استحالة اختراق هذا التشكيل وتم صده، الأمر الذي أدى إلى فك الحصار عن حصن ضاروم. وقد أدت مثل هذه التكتيكات إلى مساعدة الرجال على التغلب على خوفهم فيشعرون بالأمان نسبيا إذ يعرفون أن رفاقهم ودروعهم سوف تحمي حياتهم، فإذا ما انكسر التشكيل كان على الرجال أن يحاولوا التجمع ثانية ليعودوا وحدة متماسكة حول العلم أو الراية، وبذلك لم يكن العلم مجرد وسيلة لإعطاء إشارة إلى القوات كي تتقدم في ساحة المعركة، وإنما كان العلم أيضا رمزا للمقاومة حين ينعكس مسار الأحداث، وكانت قواعد فرسان المعبد تنص صراحة على أنه «إذا فقدت القوات علمها فإنها ستصاب بصدمة، ويمكن لهذا أن يؤدي إلى هزيمة مروعة».

وتظهر الحملات الصليبية أيضا الأهمية النفسية لوجود قائد عسكري قدير. ويصف أحد المصادر ما حدث في أثناء الحملة الصليبية الثانية في غمار الكارثة التي وقعت تجاه دمشق، حينما تمكن الإمبراطور الروماني المقدس من توجيه ضربة واحدة إلى فارس مسلم مدرع ففصل جنبه كله تقريبا عن جسده «ولدى وقوع هذا سقطت قلوب المواطنين ـ الذين رأوا ما وقع بأنفسهم أو سمعوا به من الآخرين ـ في الخوف حتى أنهم يئسوا من المقاومة، بل من الحياة نفسها». ويعد ريتشارد الأول ملك إنجلترا (قلب الأسد) مثالا ممتازا آخر. فلقد كان رجلا مؤمنا بالنظام والانضباط إلى حد الصرامة، ولذلك فلقد حرص على أن يدفع رجاله إلى السير أكثر من اللازم ولأبعد من اللازم، وحرص على أن يضمن أنهم مزودون بما يكفي من المؤن ويشرف بنفسه على تنفيذ أوامره. وقد كون حرس ريتشارد الخاص إحدى كتائب القتال الرئيسية في معركة «أرسوف». وهؤلاء هم الرجال الذين كان الملك نفسه هو الذي يتولى تسليحهم وإمدادهم، وهم الذين كان بوسعه أن يعتمد على ولائهم له. ولكنه لم يكن محصنا من اللجوء إلى الوحشية، إذ أصدر أوامره بضرب أعناق 2700 من الأسرى الأتراك في عكا حينما تأخر صلاح الدين في إعادة الصليب المقدس. أما تانكريد أحد قادة

الحملة الأولى، وطبقا لما يرويه كاتب سيرة حياته، فكان يقوم دائما بواجب الحراسة في دوره المحدد، وكثيرا ما حل بنفسه محل أحد الجرحى أو المجهدين. وحينما لم تكن إحدى الحملات تسير تحت قيادة أحد الملوك الأوروبيين فإن القائد العسكري كان يختار بالانتخاب بواسطة زملائه القادة. أو يختاره البابا بنفسه. وقد جاءت ذروة الدعاية الصليبية في العام 1213 حين أطلق البابا إنوسنت الثالث الصيحة داعيا إلى الحملة الخامسة. ووزع خطاب البابا ـ محتويا نداءه ـ على اتساع العالم المسيحي كله، وتم نسخ الخطاب على نطاق واسع، وهو الخطاب الذي قدم مجموعة من الإرشادات الموجهة التي تضمن وصول الدعوة لهذه الحملة الأخيرة إلى جميع أبناء العالم المسيحي بصرف النظر عن الطبقة أو الوضع الاجتماعي، فيقول:

كيف يمكن وصف رجل بأنه يحب جاره حبه لنفسه، إطاعة لوصية الرب حينما لا يقوم بأي عمل من أجل تحرير إخوته المسيحيين ـ عقيدة واسما ـ الواقعين في أيدي المسلمين الغادرين والذين ألقوا في السجون الموحشة خافضين رؤوسهم تحت نير أثقل أنواع العبودية فيكون (إذا لم يعمل شيئا لتحريرهم) عاصيا لأمر ذلك القانون الطبيعي الذي سنه الرب في الإنجيل. هل تقدم للآخرين ما تود أن يقدموه لك؟... أو لربما كنت لا تعرف أن ألوفا كثيرين من المسيحيين أسرى العبودية والسجن في أيديهم تمزقهم عذابات لا حصر لها.

ثم أشار البابا ـ ربما لتوقعه الانتقاد من جانب جمهور أجهدته الحرب ـ إلى أن الأراضي المقدسة كانت في أيدي المسيحيين قبل أن «يستولي» عليها المسلمون.

ولذلك فلتنهضوا يا أبنائي الأحباء، ولتحولوا مشاجراتكم ومنافساتكم، حيث يواجه الأخ أخاه، إلى جمعيات متحدة للسلام والمحبة، ولتندفعوا إلى خدمة المصلوب، ولا تترددوا في التضحية بممتلكاتكم وبأنفسكم من أجله هو الذي قدم حياته وأراق دمه من أجلكم، ولتكونوا واثقين ومتأكدين من أنكم إذا تمتعتم بالورع الحقيقي فلسوف تحصلون على الراحة الأبدية ربحا حلالا مقابل هذا الجهد الدنيوي العارض.

وحتى أولئك الذين لم ينضموا للحملة، وإنما اكتفوا بالمساهمة في دفع تكاليفها وعدوا بأن تغفر لهم خطاياهم، أما كل من أعاقوها

(وقد ضرب المثل باليهود والقراصنة) فقد تعين طردهم(*) وبيعهم في سوق الرقيق. ويضيف: «ولقد أمرنا بأن نقرأ العبارات التي من هذا النوع علنا وبصوت عال في أيام الآحاد وأيام الأعياد في جميع المدن البحرية» كما تعين إقامة مواكب شهرية للصلاة مع الالتزام بما تقتضيه الحكمة، وهو إعلان ما يؤكده الصليب للناس ـ في أثناء سير الموكب ـ من ضمان الخلاص وذلك بطريقة لطيفة مشجعة، وتعين من خلال القداس اليومي أن يطرح كل الحاضرين ـ رجالا ونساء على السواء ـ أنفسهم أرضا في تواضع، وأن ينشد الكهنة بصوت مرتفع المزمور: «ربنا إن الكفار يقتحمون ميراثك» وتعين على كل كنيسة أن تضع صندوقا حتى يتاح للجميع أن يضعوا صدقاتهم للحملة، كما تعين على القساوسة أن يكرسوا أنفسهم بإخلاص وتبتل للصلاة والدعاء، حتى يعلموا الصليبيين بكل من الكلمة والمثال. وكان على رجال الكنيسة أن يهبوا جزءا يساوي واحدا على عشرين من دخل كل منهم لمدة ثلاث سنوات، وأصدر البابا أمره أيضا بأن يتوقف الاقتتال الأهلي داخل العالم المسيحي لمدة أربع سنوات.

وقد كان من شمول وعمق حملة الدعاية ـ التي تم تنظيمها للحملة الصليبية الخامسة ـ أن قام البابا أيضا بتعيين مسؤولين يختصون بالتنبيه، بعناية كبيرة وانتباه إلى التفاصيل، إلى ما تضمنته التوجيهات من معان ينبغي أن تصل إلى المتلقي (عليكم أن تروجوا لقضية المسيح بحماسة وانتباه إلى أنكم سوف تشاركون في الفوائد العديدة والعظيمة التي نعتقد أنها سوف تنتج عنها).

ومع ذلك فقد جرت أحداث الحملة الخامسة وسط تغيرات ضخمة لحقت بالعمليات الحربية في القرون الوسطى. فقد أدت التحسينات التي لحقت بإدارة الدول والمركزية المتزايدة إلى مساعدة الملوك على تنظيم جيوشهم وفق أسس أكثر نظامية، وإلى تعبئة الجيوش الدائمة والمحترفة التي كان تجنيد أفرادها وتحديد أجورهم يتم على أساس التعاقد المكتوب. ثم بدأ التمييز بين «الحرب الخاصة» التي يخوضها أفراد ـ بعضهم ضد البعض ـ دون أن تلحق سوى أقل ما يمكن من الخسائر بالمجتمع المحيط وبين «الحرب العامة» حيث كان من الممكن أخذ أسرى واحتجازهم حتى

(*) من إطار المجتمع أو من رحمة الكنيسة ـ المترجم.

تدفع فديتهم، وحيث كان يمكن أيضا انتزاع ممتلكات العدو بوصفها غنائم وأخذ تعويضات من السكان المحليين. وبدأت الدول القومية الناشئة في أوروبا الغربية في استخدام الفلاحين ـ بشكل أكثر كفاءة ـ الذين أصبح بالإمكان الإتيان بهم إلى ساحات القتال بتكلفة منخفضة، وذلك بفضل ابتكار النشاب Cross Bow والقوس الطويل على الرغم من احتقار الفرسان الأرستقراطيين ـ في البداية ـ لهذا التطور الذي أدى إلى زيادة الاعتماد على القتال الجماعي بدلا من الاقتتال الفردي. غير أن المسلمين والنورمان أثبتوا على السواء قيمة الرماة وقيمة الدفاع ضد الهجوم. وقد فرضت القلاع الحجرية والمدن المحصنة التي شيدها النورمان عبر أوروبا كلها في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، فرضت تطوير الفنون الحربية والتقنيات الخاصة بأعمال الحصار، كما أن ظهور البارود في أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر أدى إلى بدء عصر جديد لكل من الأعمال الحربية والدعاية، وهو العصر الذي أصبح يرمز إليه بعبارة «الحرب المهلكة Guerre Mortelle» حيث تصبح ممتلكات المهزومين وحياتهم تحت رحمة المنتصر.

8 حرب المائة عام

كانت حرب المائة عام التي دامت، في الحقيقة وبشكل متقطع، فيما بين العامين 1337 و1453، كانت صراعا بين الملوك الإنجليز والفرنسيين. ولم تكن سوى واحد من صراعات عدة اجتاحت أوروبا في القرون: الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، مثل تقدم الأتراك العثمانيين وحروب الهوسيين في ألمانيا[1] والحملات التي شنها كل من فيليب الطيب[2] وشارل الجسور[3] والحروب التي نشبت في إيطاليا، غير أنها (حرب المائة عام) صراع يصور، بشكل جيد، الكثير من التغيرات التي لحقت بالفنون الحربية، وهي التغيرات ذات المغزى بالنسبة لدراستنا هذه. فلقد شهدت عودة ظهور الجيوش المكونة من الرجالة أو الجنود الراجلين المشاة من النوع الذي انتصر على الفرسان المعتلين صهوات خيولهم في معارك كورتراي العام 1302 وبانوكبيرن العام 1314 ومورجارتن العام 1315 وكريسي العام 1346. وقد كان قتال القوات الراجلة ـ فيما سبق ـ نوعا من الفنون الحربية يتطلب تدريبا أقل منذ أواخر العصر الروماني (أو أنه ربما كان نوعا من القتال أقل بريقا لم يجتذب ما يكفي من انتباه المؤرخين). وكان السويسريون هم من نبهوا أوروبا

إلى قيمة المشاة. غير أن الإنجليز استخدموهم بكفاءة أيضا، وخاصة بعد إدخال إدوارد الأول القوس الطويل إلى أسلحة الجيش، وبعد استخدام حاملي الحراب الطويلة. بل إنه حينما ترجل الفرسان من فوق خيولهم لكي يقاتلوا على أقدامهم، مثلما حدث في معركة بواتييه العام 1356[4] أو في معركة آجينكورت العام 1415، فإنهم لم يغنوا شيئا ولم يكن ترجلهم كافيا. وعلى رغم هذا فقد شهدت حرب المائة عام حكاما ينتمون إلى القرون الوسطى يتمسكون باستخدام الفرسان ثقيلي التدريع الذين كانوا قد تجاوزهم الزمن. فالعادات القديمة لا تموت بسهولة بين جماعات النخب الأرستقراطية المحافظة، فيما قامت تقاليد الفروسية الموروثة بوظيفة التذكير بمبادئ النزال الفردي القديمة، فصمد الرأي القائل بأن مائة فارس يساوون ألف راجل من المقاتلين...

ومع ذلك فقد واصل الفرسان القيام بدور حربي لا يقدر على صهوات جيادهم. وكان الأمر مثلما كتب مالكولم فال يقول:

> طوال التاريخ الطويل لانتشار الفارس ثقيل التدريع في أوروبا، كانت وظيفته وظيفة نفسية بقدر ما كانت وظيفة عادية، ولقد كان هذا الجانب (النفسي) لدوره هو ما تم تدعيمه أساسا طوال القرن الخامس عشر... فإذا كان الفرسان الثقال يواجهون المقاتلين الرجالة، فإن هجوم الأولين كان يعتمد إلى حد كبير في تحقيق أثره على مبدأ «الصدمة».

يؤكد جون كيجان هذا قائلا إن تأثير هجوم الفرسان في معنويات العدو كان أعظم من تأثيره المادى. كان الهدف هو نشر الخوف والذعر ثم الفرار، فكان الأمر يحتاج إلى انضباط حديدي حتى لا يحدث الانهيار، وخاصة بعد أن تكون المعنويات قد خفضت بالفعل بفضل سهام رماة الأقواس، ومن هنا تأتي أهمية تطوير الدروع الكاسية الكاملة التي حلت محل درع سلاسل المسامير في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، فهيأت شيئا من الحماية ضد السهام مما ساعد على دعم المعنويات واحتفظ الفرسان بوظيفة أساسية لهم عقب المعركة مباشرة بقدرتهم على مطاردة العدو في فراره.

يجب أن نتذكر أن النورمان الذين غزوا إنجلترا العام 1066، احتفظوا

بأراضي عائلاتهم في فرنسا، وبعد جلوس هنري بلانتاجنيت Henry Plantagnet على عرش إنجلترا في العام 1154 حكم الإنجليز ثلث مساحة فرنسا باحتلالهم - عمليا - الجانب الغربي من البلاد بأجمعه، ولكنهم فقدوا الكثير من هذه الممتلكات في السنوات الباكرة من القرن الثالث عشر. وانفجرت النزاعات السياسية بين ملوك فرنسا وإنجلترا/نورماندي التي كانت تدور حول رغباتهم في توسيع أراضيهم، انفجرت ملتهبة في حرب صريحة في العام 1294، ثم في العام 1324، غير أن سبب اشتعال الصراع الذي استمر طويلا كان موت آخر ملوك أسرة كابيه شارل الرابع العام 1328.

وبعد الهزيمة الفرنسية الكبيرة في معركة بواتييه العام 1356، شعر الرأي العام الفرنسي بأن الكثيرين جدا من الفرسان قد لاذوا بالفرار في المعركة فجلبوا بذلك العار على فرنسا وعلى طبقة النبلاء - ككل - بأسرها، ووجهت إليهم تهمة الخيانة. ونصح الناصحون الملك بتعبئة الفلاحين، قائلين: «إن الفلاحين لن يفروا لكي ينجوا بحياتهم مثلما فعل الفرسان». وكان الفلاحون الذين شكلوا جيوش الرجالة الجديدة قد عانوا وتحملوا طوال قرون غارات الفرسان وغزوات نهبهم، وحان الآن دورهم لكي «يستمتعوا» بفوائد الفنون الحربية في القرون الوسطى. ومع ذلك فلقد قدر لظهور البارود في نهاية القرن الرابع عشر أن يغير وجه المعارك تغييرا عميقا. إن دون كيشوت بطل سرفانتس الشهير[5] يتذكر الأيام الخالية الجميلة قبل ظهور المدفعية، قائلا:

> مباركة هي تلك العصور السعيدة التي لم تكن تعرف ضراوة أدوات المدفعية الشيطانية التي أنا واثق من أن مخترعها يثوي الآن في الجحيم لكي يتلقى جزاء اختراعه الملعون الذي يعد سببا في أن يتمكن عامل جبان وضيع من القضاء على حياة أشجع النبلاء، وسببا في أن يحدث، وسط ذلك العنفوان والعزم الشديد الذي يلهب قلوب الجسورين ويدفعهم، يحدث أن تأتي طلقة طائشة (ربما يكون قد أطلقها شخص هارب أخافه لسان اللهب الذي يخرج من سلاحه المزعج المؤذي لحظة إطلاقه) فلا يعرف أحد من أين تجيء

> أو إلى أين، وفي لحظة تقضي على كل ما يكون الشجاع قد رتب له، أو على حياة شخص كان يستحق أن يبقى على قيد الحياة لسنوات عدة.

وبكلمات أخرى، فإن ظهور البارود جعل الحرب باردة وغير شخصية، النقيض الكامل للمثل الفروسية التي كانت قد سيطرت على فنون الحرب والأعمال الحربية الأوروبية طوال ما لا يقل عن أربعمائة عام... وقد صنعت المدفعية في البداية كجزء من سباق التسلح الإنجليزي ـ الفرنسي خلال حرب المائة عام، لتحسين فنون الحصار والإسراع بعمليات الاقتحام (التي ظلت جامدة في جوهرها منذ العصور القديمة) ولكن المدفعية، ثم الأسلحة الشخصية ازدادت شيوعا بالتدريج في العمليات الحربية منذ أواخر القرن الرابع عشر.

وربما أدى البارود في البداية إلى تثوير إدارة الحروب وليس نتيجتها. وحيث كانت المدافع الأولى بطيئة الإطلاق، قليلة المفعول وغير دقيقة فربما كان هدفها الرئيسي نفسيا أو رمزيا مثلما نعرض أسماء تدليلها «مرجريت المجنونة» و«ميج المونزية»[6]. ففي معركة كريسي العام 1346 استخدم الإنجليز المدافع ـ على حد ما أكدته مصادر عدة ـ «لكي يخيفوا أعداءهم». ولكن لم يحدث أن كان للبارود تأثيره الحاسم على نتيجة المعارك حتى حلول منتصف القرن الخامس عشر، وحينئذ أصبحت المبادرة للهجوم بدلا من الدفاع لأول مرة منذ قرون. ومع ذلك فقد اعتبر المدفع أداة من أدوات الشيطان التي تم استيرادها من الكفار الشرقيين مثل الأتراك والصينيين، ثم قام السحرة بتطويرها، ونظر إليه باعتباره سلاحا «جبانا» يقتل من بعد. ولكن هذا لم يمنع جيوش الفرسان من استخدامه. وكان من الممكن تبرير استخدامه باعتباره صورة حديثة للنشاب الذي وضع في أيدي أبناء الطبقات الدنيا الذين ما كان لهم أبدا أن يعرفوا معنى النزال الفروسي. ويبدو هذا النوع من التفسير الطبقي المتكبر واضحا في المصادر المعاصرة، ومن أبرزهم فيليب دي كومينز الذي يشهد على ما أحدثه جيش يحاصر إحدى المدن من الذعر حينما أطلقت المدافع. كان المدفع قد جاء ليبقى، بل لقد منح قديسته الحامية: القديسة باربارا.

إن النقطة الأساسية التي ينبغي وضعها في الاعتبار، من وجهة النظر

النفسية فيما يتعلق بالمدفع، هي أنه قد زاد من المسافة بين الجندي وبين عدوه، وبقدر أكبر مما كانت السهام قد حققته من قبل. ونتيجة لهذا فقد قلل من الحاجة إلى رفع معنويات الجنود الذين لم يكونوا قبل هذا يتوقعون إلا أن يشتبكوا في قتال شخصي مباشر، والذين كانت شجاعتهم ـ البدنية والنفسية ـ تقرر مصير المعركة... وعلى رغم أن إمكان نشوب قتال شخصي مباشر ظل احتمالا قائما ـ حتى أن الحراب أو السناكي (على البنادق) ما تزال موجودة إلى اليوم ـ فإن النيران المؤثرة للمدفعية قللت إلى حد بعيد من احتمال نشوبه. ومن جانب آخر ازداد الاحتياج ـ بالمقابل ـ إلى رفع معنويات الجنود الذين يحتمل أن يكونوا على الطرف المتلقي لنيران المدفعية خاصة. وقد أصبح الآن بوسع الموت أن يضرب ـ كالصاعقة ـ هابطا من السماء، وحتى القادة الحربيون، أمراء كانوا أو ملوكا لم يعودوا بمنجى من هذا الخطر الجديد. ولذلك فمع وصول المدفع أصبح الحصول عليه من الأساسيات الضرورية لكل من الجانبين المتقاتلين، وأدى هذا إلى سباق تكنولوجي لصنع أسلحة أفضل وأكثر كفاءة، وهو ما أدى بدوره إلى ازدياد تكرار استخدامه.

وربما كان أشهر انتصار إنجليزي (في حرب المائة عام) هو الانتصار في معركة آجينكورت (1415) الذي خلدته ـ لقرون تالية مسرحية شكسبير «هنري الخامس». وكان الهدف من غزو الملك الإنجليزي لفرنسا هو استعادة الأراضي التي كانت قد فقدت في خلال الأعوام الخمسين السابقة. وتصور المعركة بقاء الموضوعات المتعددة للدعاية الحربية في القرون الوسطى، فقد ظل كل من الدين، والخرافة والبشائر والنذر كلها عوامل نفسية مهمة. فقبل المعركة، أخذ كل جندي إنجليزي قبضة من التربة التي يقف عليها فقربها إلى فمه و«جثوا على ركبهم فقبلوا الأرض مرات ثلاثا» ونصب أمامهم صليب. وبذلك تمت مباركة ساحة المعركة (وهو ما ينفع أولئك الذين كانوا على وشك الموت، والذين يطلبون ـ على الأقل ـ أن يدفنوا في أرض مطهرة مكرسة). وخلال المعركة لم يكف القساوسة عن تلاوة الصلوات بينما راح الجنود يضخون «الأدرنالين» في عروقهم بإطلاق صيحات القتال. ويبرز استحضار جون كيجان وتصويره الحي للمعركة، أن فترات الانتظار الطويلة في أثناء المراحل المختلفة للمعركة كانت تمثل لحظات حرجة من

الناحية المعنوية. فمن المرجح أن كلا من أفراد الجانبين كانوا يحتسون الخمر لكي يمدوا أنفسهم بنوع «زائف» من الشجاعة، ومن المرجح أن الإنجليز كانوا أكثر تحصنا بفضل الوجود المادي للملك في وسطهم. «فعلى رغم أن الولاء المباشر للجندي في العصور الوسطى كان موجها إلى قائده الشخصي، فلا شك أن حضور ملكه وملك قائده الشرعي في ميدان القتال، باديا للعيان مباهيا بمخاطرته بحياته في أتون المعركة قد شد من عزيمته إلى درجة عظيمة».

ويواصل كيجان قائلا إنه فضلا عن الدين والخمر. فإن: «الأكثر أهمية بالنسبة للجندي العادي مما هو بالنسبة للمحارب المدرع، هو توقع الثراء المتاح»: «إنها شهوة الذهب، وحمى الذهب التي تحدد طبيعة معارك العصور الوسطى، والتي ينبغي أن نضعها في مقدمة اعتباراتنا ونحن نسعى إلى فهم معارك العصور الوسطى، والتي ينبغي أن نضعها في مقدمة اعتباراتنا ونحن نسعى إلى فهم تلك المعارك». وإلى جانب عنصر الالتزام ـ كما أنه لم يكن أمام الجندي الإنجليزي مهرب يلجأ إليه ـ فإن عقلية العصور الوسطى التي لم تقبل الحرب بوصفها «طبيعة» فقط وإنما أيضا بوصفها «عادلة» في نظر الرب ومجيدة في نظر المجتمع الفروسي. ولذلك، فإن رجال الدعاية للحرب في العصور الوسطى قد عرفوا تماما كيف يدفعون الرجال إلى القتال.

القسم الثالث

الدعاية للحرب في عصر البارود والطباعة

9 سديم جوتنبرج

لا يحب أي مؤرخ التقسيمات الزمنية المتتابعة الجامدة التي تفصل بين فترات التاريخ كأنها البوابات الحديدية الثابتة. فالتاريخ الإنساني يشبه عملية النشوء والارتقاء: نمو وتطوير وتكيف. وتلك كلمات لا تتضمن معاني التغير الجانح أو المفاجئ، ولقد رأينا حتى الآن بالفعل كيف أن العالم القديم لم ينته فجأة بانهيار روما، وكيف بقيت ملامح بعينها من العصور القديمة فظلت حية في المرحلة الوسيطة. وإذ يكتب المؤرخون بهدف الوضوح والملاءمة فإنهم قد يضغطون على بعض التواريخ الأساسية في التاريخ الإنساني بوصفها نقاطا للانطلاق أو للانتهاء، غير أن التاريخ لا يمكن تجزئته أو تبسيطه بهذه السهولة. فالعصور الوسطى لم «تتوقف» فجأة لكي تفسح الطريق للعالم الحديث، أي الخصائص الجديدة كليا والمتمايزة تماما. إلى جانب ذلك فإن المؤرخين الأوروبيين يرفضون ما يعتبر في بريطانيا التاريخ الأكثر ملاءمة أي العام 1485 (معركة بوزوورث Bosworth)[1] واعتلاء التيودور Tudor عرش إنجلترا، بينما يفضل هؤلاء المؤرخون العام 1494 والغزو الفرنسي[2] لإيطاليا باعتباره: «نقطة التحول». أما بالنسبة لما

نرمي إليه هنا فإن ابتكار المطبعة في أواسط القرن الخامس عشر (على رغم أنها ظهرت في الصين قبل هذا بزمن) سيكون خطا فاصلا أكثر مناسبة. وليس أضعف الأسباب أن القراءة والكتابة أصبحتا ـ في ذلك الحين ـ وسيلة مهمة يستطيع الرجل بواسطتها أن يشق طريقه في العالم وأن يصعد درجات المجتمع ـ بدلا من وسيلة إجادة فنون الحرب التي طالما لقيت الإكبار والتوقير. ويكتب الأستاذ أيزينشتاين قائلا إن التحول من الكتابة إلى الطباعة قد أدى أيضا إلى تكثيف الحروب الدعائية: «فتزيد من حدة الاحتكاك التقليدي بين التاج (الملك) والمقاطعات، وبين البلاط والريف، وبين الكنيسة والدولة، الأمر الذي وضع الأساس لتشكيل الأحزاب السياسية المتمايزة عن مجرد «التكتلات» التي كانت موجودة في عصر سابق».

ومع نمو الجامعات باعتبارها مراكز للتعليم معترفا بها في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، إضافة إلى ما قد يكون أكثر أهمية، وهو إنتاج الورق الرخيص الذي سيحل محل ورق الرق النفيس Porchment، في النصف الأول من القرن الخامس عشر، فقد أصبح الطريق مفتوحا نحو الاعتماد على الطباعة باعتبارها وسيلة لتوفير ما يحتاج إليه سكان أوروبا الذين يتزايد تعليمهم من خدمات. ومع حلول العام 1500 كانت المطابع قد أنشئت في أكثر من 250 موقعا. غير أن اختراع يوهان جوتنبرج للمطبعة قبل نحو خمسين عاما فتح البوابات أيضا أمام فيضان النمو الهائل لكل أنواع الإقناع المكتوبة، التي لم تكن الدعاية للحرب أقلها أهمية. وبذلك فإن الظاهرة المألوفة لنا الآن تبدأ في الرسوخ خلال عصر النهضة والإصلاح الديني. وإنه ليصعب حقا أن نبالغ في أهمية الطباعة بوصفها أداة للتغيير. فعلى سبيل المثال يعود إلى الكتب الفضل في أن أصبحت «حقائق» الحرب ـ أو غير ذلك من أشكال التعبير المكتوب عن تلك الحقائق أو تجسيدها ـ أقرب منالا للناس الذين لم يكونوا قد ألفوا الحرب كحقيقة فعلية. فقد انتشرت الصور المكتوبة للحرب وللعمليات الحربية بين جموع عريضة من القراء، لكي تؤثر في الخيال الجمعي بدرجة لم يكن أبدا في مقدرة النصب التذكارية أو الرسوم الجامدة الساكنة في الزمان والمكان أن تحققها، فضلا عن أنه أصبح بالإمكان الآن إعادة إنتاج الصور المرئية بهدف نقل الأفكار إلى

جمهور أوسع بكثير من أي زمن سابق. وقد أدى طبع الخرائط وما تحقق من تقدم في علم رسمها (ولا يمكن إغفال ما بعد «اكتشاف» كولومبس لأمريكا العام 1492) إلى المزيد من اتساع آفاق خيال الحكام والمحكومين معا مما ساعد على جعل الأماكن البعيدة في متناولهم.

10 الفنون الحربية في عصر النهضة

تزامن ظهور المطبعة مع تطورات مهمة أخرى في النشاط البشري، وخاصة في مجال إدارة العمليات الحربية. لقد لاحظنا من قبل وصول البارود في أواخر العصور الوسطى على رغم أن تأثيره كان تأثيرا نفسيا أكثر منه تأثيرا حربيا أو عسكريا. ولكن استخدامه الحربي، في أواخر القرن الخامس عشر كان قد تم إحكامه في شكل المدفع والأسلحة التي تحمل باليد. وأدت هذه بدورها ـ مثلما رأينا ـ إلى نفي الطابع الشخصي عن القتال، وزادت من البعد المادي بين القوات المتحاربة فقللت بذلك من الحاجة إلى رفع شجاعة الرجال لكي يندفعوا إلى منازلة بعضهم البعض في الاقتتال المباشر الذي تميزت به المراحل السابقة. وازداد حجم الجيوش وظهرت تكتيكات جديدة لعمليات خوض المعارك وعمليات الحصار (مثل ابتكار المعاقل الثقيلة التحصين لمقاومة نيران المدفعية بفاعلية أكبر)، حيث ضاقت المسافة الفاصلة بين الجنود والمدنيين. وقد كتب أحد الكتاب الإنجليز، في العام 1598 قائلا: «إننا نادرا ما نرى في أيامنا تبادل

الرجال للضربات مثلما كانوا يفعلون في الأيام الخالية».

وقد أدت عمليات الحصار الحربية التي ميزت المراحل الأخيرة من حرب المائة عام إلى توريط السكان المدنيين، إلى درجة غير مسبوقة، في بشاعات المعارك، إذ أصبح من الضروري الانتباه إلى معنويات أهالي المدن المحاصرة التي تدكها نيران المدفعية تماما مثل سكان المناطق الذين وجدوا أنفسهم خاضعين لجيوش الاحتلال الأجنبية. وقد ظل سكان مدن النهضة في إيطاليا ـ بسبب وعيهم الذاتي بتطورهم الثقافي في مجالات الفنون والفلسفة ـ قابلين للتأثر العميق بالأفكار العسكرية، ففي فلورنسا على سبيل المثال، أقام الحكام من أسرة الميديتشي Medici [1] معارك وأعمال حصار تمثيلية، بل حاكوا مواكب الانتصارات الرومانية لكي يرفهوا عن رعاياهم ـ ولكي يذكروهم بالطبع ـ بمن هو المسؤول الحاكم. إن أفضل ما يذكر الإنسانية بالدول المدن الإيطالية التي ازدهرت فيها النهضة في القرن الخامس عشر هو منجزاتها الفنية. غير أن نظرة سريعة إلى الفن سوف تؤدي إلى تذكيرنا بأن فكرة الحرب والعنف كانت ما تزال حية وفي خير حال، فقد كان الغرض من الصور في الفن، كما في الكتابة، هو التسرية والإقناع. وكانت القابلية للتصديق والمعقولية ضرورية للنجاح كعهدها على الدوام، ومن هنا يأتي انشغال عصر النهضة بالأسلوب (مثل المنظور) والمشروعية التاريخية (التي هيأت للعقل آراء وصورا للماضي أقل واقعية ولكنها أكثر مصداقية). وكان فن الخطابة والكتابة النثرية قد بلغ حد الكمال، وفي بعض المدن، مثل روما البابوية، نفذت مشروعات ضخمة لتشييد الأبنية الكبيرة لتمجيد إنجاز الإنسان عبر الحرب، وخاصة بعد توقيع اتفاقية لودي للسلام في العام 1454 التي جاءت لإيطاليا بفترة من الهدوء دامت نحو نصف قرن. واقتداء بالتقاليد الخاصة بالصور الدينية التعبدية، والمزارات، والذخائر المقدسة، فقد استخدمت السلطات المدنية أجساد القديسين وأبطال العصور القديمة لخدمة أغراضها الخاصة (ومن الأمثلة المشهورة تمثال داوود لميكل أنجلو في فلورنسا)، لحماية المدن ولإبعاد الأعداء والشرور مما يهيئ نقطة تجمع نفسية في أوقات الأزمات. واستخدمت إعادة كتابة التاريخ لاستثمار عملية محاكاة أمجاد الماضي الروماني، ودفعت الأموال للنحاتين كي ينحتوا تماثيل للقادة وهم على صهوات

الخيول مثل قيصر، بينما بدأ جنود المشاة، الأقل بريقا، في الظهور في الأعمال الفنية، وبخاصة في أعمال نحات الخشب الألماني ألبريخت دورر[2].

وفي العام 1471، كتب محارب قديم من جنود حرب المائة عام يقول:

> أصبحت الحرب مختلفة جدا. ففي تلك الأيام، حينما كان يتوافر لك ثمانية أو عشرة آلاف رجل كنت تعتقد أنهم جيش ضخم للغاية، أما اليوم فالأمر مختلف تماما. فالمرء لم ير أبدا جيشا أكثر عددا من جيش مولاي لورد بورجوندي ولا في كثرة ما لديه من كل من المدفعية والذخائر من كل الأنواع، فلست معتادا أن أرى كل هذا العدد الضخم من الجنود معا، فكيف تستطيع أن تمنع الفوضى والارتباك بين مثل هذه الكتلة الضخمة؟

وكان الفرنسيون هم الذين استثاروا الاندفاع إلى زيادة أحجام الجيوش بالمثال الذي ضربوه، حين أسسوا أول جيش عامل دائم في أوروبا فيما بين العامين 1445 و1448 يتيح كيانا دائما ومحترفا يتبع الملك مباشرة، حيث لم تعد المكانة الاجتماعية هي التي تهيئ المرء بشكل آلي لتولي القيادة. واتبعت بورجوندي هذا المثال فيما بين العامين 1465 و1466. ومرة أخرى أدى هذا التطور إلى نسف الأفكار الفروسية كما أدى إلى المزيد من التخصص في الجيوش الجديدة غير الأرستقراطية، وساعد على هذا بشكل أكبر ازدياد استخدام المرتزقة، وخاصة من السويسريين والألمان الذين جلبوا معهم أسلحة ومهارات قتالية متخصصة مثل القربينة[*] والرمح المستعرض المزود بمخلب جانبي.

وحينما قام الملك الفرنسي تشارلس الثامن بغزو إيطاليا في العام 1494، فبدأ بذلك الحروب الإيطالية التي انتشرت عبر أوروبا كلها بسبب المنافسة بين أسرتي هابسبرج (النمساوية) وفالوا (الفرنسية)، واستمرت حتى العام 1599، فإن جيشه لم يكن يتكون من الفرنسيين فقط وإنما كان يضم أيضا مرتزقة من سويسرا وإسكتلندا، بل ومن إيطاليا نفسها. وقد جاءت أفضل قوات المرتزقة من بلدان كانت قد تمزقت وتجزأت بسبب الفوضى الداخلية،

(*) بندقية طويلة المدى ذات ماسورة منتفخة النهاية، تساعد على استيعاب شحنة بارود ورصاص كبيرة ـ المترجم.

فكانوا رجالا لا يملكون شعورا بكبرياء «وطنية»، وإنما كانوا قد اعتادوا على العنف، فكانوا لذلك مستعدين لأن يبيعوا مهاراتهم لمن يعرض أعلى سعر. كان المال هو المحرك الأكبر لدى مثل هؤلاء الرجال، فوجه مستخدموهم دعاياتهم فيهم نحو الوعد بالجوائز المالية. ولكن هذا لم يكن يفعل مفعوله على الدوام. فحينما كانت المخاطر تفوق الجوائز كان المرتزقة يظهرون هشاشة ولائهم وضعفه ـ مثلما حدث في العام 1525، حينما هجر السويسريون صفوف الفرنسيين قبيل معركة بافيا، لأنهم لم يكونوا قد حصلوا على رواتبهم. وكان من الأفضل الاعتماد على من يمكن الوثوق بهم من رجال تم تجنيدهم من الدول القومية البازغة، رجال يتمتعون باليسير على الأقل مما ندعوه الآن بالنزعة القومية أو الوطنية. ومع ذلك وعلى الرغم من دعوة ماكيافيللي إلى إنشاء ميليشيا المواطنين، فلقد ظل الفارق والتمييز واضحين بين الجندي الذي يعد القتال هو وظيفته، وبين المدني الذي يكون واجبه أن يمول الجندي وأن يؤازره.

أما بالنسبة لسؤال محاربنا القديم، فإن طرقا عدة قد استخدمت لمنع «الفوضى والارتباك»، أو بتعبير آخر، بهدف المحافظة على المعنويات. لقد حددت شارات ورايات معينة لقادة الوحدات المحترفين الجدد وتعين أن تقاتل حولها الوحدات الأصغر من الرجال. وعلى حد قول المقال عن الفنون القتالية بعنوان: «أصول الحرب» فإنه: «لا شيء أنفع لتحقيق النصر من إطاعة أوامر الراية». وتكفل ضباط الإمدادات بوجود المؤن بشكل أفضل على رغم أن وجودهم في حد ذاته يشير إلى أن المعنويات كانت مشكلة كبيرة، وخاصة حين يتعلق الأمر بمسألة الإيواء والتسكين، وفرض ارتداء الأزياء الرسمية الموحدة لزيادة الإحساس بالهوية الجماعية، ولكي تمنح الجنود الثقة بأنهم لن يهاجموا من الخلف أو يقتلوا بأيدي زملائهم في حمى المعركة (على رغم أن الأزياء الرسمية الموحدة استهدفت تعريف الجنود للأعداء أيضا). وتطلب وجود هذا العدد الكبير من الرجال في الميدان ابتكار طرق جديدة لإصدار الأوامر والتعليمات، ولذلك حل الشفاهي محل المرئي (خاصة مع ما لحق الرؤية الآن من تعتيم بسبب دخان البارود)، وذلك بزيادة استخدام قارعي الطبول ونافخي الأبواق أو المزامير. وهو ما يبدو أنه كان ابتكارا للمرتزقة السويسريين والألمان، وعلى حد ما كتبه أحد

المصادر في القرن السادس عشر:

> إن الضجة التي تصنعها جميع الآلات كانت تهدف إلى إطلاق الإشارة والتنبيه للجنود لكي يضربوا أحد المعسكرات، أو أن يتقدموا أو ينسحبوا، وكانت تهدف أيضا إلى ملء قلوبهم بالشجاعة والجسارة لكي يهاجموا العدو لدى إبصارهم له، وأن يدافعوا عن أنفسهم برجولة وقوة؛ ذلك أن الجنود يمكن أن يسيروا في اضطراب وفوضى حتى يصبحوا معرضين لخطر الاجتياح والهزيمة.

وهكذا أصبح عازفو الموسيقى العسكرية جزءا عضويا من المعنويات القتالية، تماما مثلما كانوا في بعض الجيوش القديمة. وعلى حد ما أثبته الأستاذ هيل Hale، فإن هذه الموسيقى العسكرية ـ على رغم انتقادها آنذاك لأنها: «بالغة التأثير في إثارة الشهوة إلى الدماء» ـ قد كونت جزءا من عملية الإعداد الموجه، ومن البيئة اللتين كانتا على المستوى ذاته من الأهمية الذي كان للأزياء الرسمية، وأبهة المواكب برموزها أو التدريب، وذلك في مجال دفع الجنود إلى القتال.

ومن الأساليب الأخرى لرفع المعنويات المأخوذة من العصور القديمة، يبرز أسلوب الخطب الحماسية السابقة على نشوب المعارك. وقد التفت ماكيافيللي[3] ـ مثل الكثيرين غيره من معاصريه ـ إلى الوراء، نحو بلاد الإغريق وروما بحثا عن الأمثلة، فكتب يقول:

> قد تؤكد أشياء كثيرة دمار جيش من الجيوش إذا لم يَعْمد القائد إلى تحميس رجاله بالخطب الرنانة كل حين، لأنه بذلك قد يطرد خوفهم من قلوبهم، ويلهب شجاعتهم، ويثبت من عزائمهم ويبرز لهم ما وُضع في طريقهم من فخاخ، ويعدهم بالجوائز، ويعلمهم بالمخاطر وطرق الهروب منها، ويوجه اللوم، ويستعطف ويهدد ويوبخ ويشجع.

ولا يوضح لنا أحد كيف كان ذلك يتم مع قوات جيوش أكبر حجما ومتعددة القومية، غير أن دروس قيصر لم تكن ـ بوضوح ـ قد ضاعت من ذهن أحد القادة الذي صاح في العام 1544:

> زملائي الجنود، فلنقاتل الآن بشجاعة، فإذا كسبنا

> المعركة فلسوف نربح مجدا وشهرة أكثر مما حقق أي واحد من رجالنا من قبل. إن التاريخ يسجل أنه حتى الآن، وفي كل مرة قاتل فيها الفرنسيون الألمان قتالا مباشرا فاز الألمان بالنصر. ولكي نثبت أننا رجال أفضل من أسلافنا فلا بد لنا أن نقاتل بشجاعة مزدوجة لكي نقهرهم أو نموت، ولكي نجعلهم يعرفون أي نوع ـ نحن ـ من الرجال.

ثم، في حالة إذا لم يتعرف العدو عليهم من أزيائهم، قام القائد المحنك بإعطائهم درسا سريعا في كيفية الإمساك بالرمح السويسري قبل دفع الأعداء أمامهم: ـ «وسوف ترون كيف سيهربون متعثرين». ونادرا ما تبدي المصادر المعاصرة شكوكها في نجاح مثل تلك الخطب. ويشهد كلود دي سيسيل ـ بفعاليتها، فيكتب قائلا إنها قد غرست: «شجاعة كبيرة في قلوب جيش بأكمله، إلى درجة جعلهم شجعانا كالأسود فيما كانوا حتى تلك اللحظة يصيبهم الخوف كالأغنام». ومهما كان تأثير تلك الاستفسارات، فإنها قد أصبحت وسيطا أساسيا لتوصيل الدعاية إذا كان للرجال أن يخاطروا بحياتهم في سبيل طموحات الملوك المتوارثة. فلم يعد بمقدور مفهوم «الحرب العادلة» القديم أن يحظى بالاحترام خاصة حين قاتل المسيحيون ضد مسيحيين. وقد حاول شارلس الثامن أن يبرر غزوه لإيطاليا بأنه سيكون مقدمة لحملة صليبية جديدة ضد الأتراك عقب انهيار القسطنطينية العام 1452، ولكن هذا لم يكن سوى دعاية فحسب: فلقد كان الفتح هو هدفه الحقيقي مغلفا مستترا تحت قناع ادعائه المتوارث عن أسرته بأحقيته في إمارة نابولي.

غير أن فكرة «الحرب العادلة» ظلت صامدة، وكذلك الأفكار الفروسية عن القتال. فلقد ورث خلفاء تشارلس الثامن، أي لويس الثاني عشر وفرانسيس الأول (1515 ـ 1547) ادعاءاته ومطالبه... وقد وقع فرانسيس الأول بالفعل في أسر الإمبراطور تشارلس الخامس (1519 ـ 1556) في معركة بافيا العام 1525، ودفع فديته حتى أطلق عدوه الأكبر سراحه بعد ذلك بعام. وحتى 1535 كان تشارلس الخامس ما يزال يتحدى غريمه للقتال الفردي. غير أن مثل هذه الأعمال كانت في طريقها إلى الزوال، تماما مثلما كانت «المعركة الفاصلة» التي اختفت ـ عمليا ـ من أوروبا طوال ما

يقرب من القرن. ومع ذلك فقد بقيت الصور كما هي مثلما نرى في اللوحة المشهورة التي رسمها تيسيان[4] لتشارلس الخامس في العام 1547، على رغم أن الإمبراطور كان قد أصبح ـ حينذاك ـ سمينا إلى الدرجة التي تمنعه من الجلوس على صهوة جواده. فقد رسمه تيسيان جالسا على جواده في صورة فارس فاتح مدرع من العصور الوسطى.

وقبل ذلك الحين، وعلى الرغم من تأثير الفلاسفة الإنسيين Humanists[5] الذين مجدوا كرامة الإنسان ومنجزاته الأقل عنفا، فقد ظلت الحرب وسيلة مقبولة لحل المنازعات ومصدرا لا ينفد للانبهار حتى بالنسبة للإنسيين أنفسهم. فلقد كانت الحرب، بالنسبة للبعض، وسيلة نافعة لصرف اتجاه القلق الداخلي نحو النشاط «الصحي أكثر» المتمثل في المغامرة في الأراضي الأجنبية، ولتدعيم النسيج المعنوي للسكان. وشعر آخرون بالاشتياق إلى وسائل بديلة لتسوية المنازعات الدولية، وأصبح المثال الأعلى، في صورة الميثاق الأوروبي الشامل، والسلام العالمي أداة استخدمها الملوك للوصول إلى أغراضهم الخاصة، مع ما صاحب ذلك من نمو الدبلوماسية. وأدى هذا بدوره إلى ظهور الرأي القائل بأن الحروب الدفاعية هي وحدها المشروعة، على رغم أن ما يجعل عملا ما، عملا «دفاعيا» أصبح موضوعا للجدل ومصدرا للكثير من الدعاية التبريرية على حد ما كتبه أحد الكتاب الإنجليز في العام 1539:

> إنني أعرف تمام المعرفة أن واجب كل الأخيار ودورهم هو الرغبة في السلام والوفاق والوئام المخلص بين الأمة والأمة، ومع ذلك فإذا هاجمنا عدو ما فسوف يكون من الجنون المطبق، بل سنكون أكثر من المجانين إن لم نجتهد لكي نتجنب أن نذبح، أجل، على رغم أن هذا قد يكون بذبح الكثيرين من الآخرين. إن الرب لم يمنح الملوك السيف فقط لكي يعاقبوا رعاياهم حين ينحرفون، وإنما لكي يدافعوا عنهم ضد قوة أعدائهم العنيفة، ولحمايتهم من السلب والنهب والعسف والقوى الأجنبية.

غير أن مثل هذه الحجج كما هي العادة، تعد سلاحا ذا حدّين. ومن المؤكد أن الطباعة قد جعلت تمجيد الحرب يمتد ويتطاول دون

حدود، وذلك كما أشار الأستاذ هيل Hale:

> بدلا من المخطوطات التي تنساب قطرة قطرة، أصبحت الكتابات التي تتناول الحرب فيضانا من المطبوعات... وأصبحت الحرب موضوعا للدراسة والمناقشة عبر الغرب كله، كلمة بكلمة، وكتلة من حروف الطباعة وراء كتلة، وصورة أو لوحة وراء مثيلتها، ومن دُمَى مباريات الرماية إلى التشكيلات الكاملة من تماثيل الجنود المصنوعة من الرصاص.

غير أن ما انطلق من أعمال وحشية خلال الحروب الإيطالية، خاصة ما انصب منها على السكان المدنيين هيأ أسبابا عدة للقلق. فعلى سبيل المثال وصف توماس مور نهب روما الوحشي في العام 1527 بالعبارات التصويرية التالية:

> أما أشراف الرجال القدامى، أولئك الهراطقة الذين لم تنصب تماثيلهم لكي تعلق من أعضائها الشخصية المستورة (أجزائها الخاصة) فقد جذبوا(*) الكثير منها فخلعوها ورموها في الطرقات، وأخرجوا البعض (من أهل روما) عراة، وقد قيدت أيديهم خلف ظهورهم، والتف حبل متين ضاغط حول أعضائهم الشخصية، وقد أوقفوا لهم في طريقهم عددا من طغاتهم حاملي الحراب المراكشية... فيجذبون هؤلاء المساكين من أعضائهم نحو تلك الحراب، ثم يكون لهوهم القاسي وضحكهم إما لرؤية الرجال العراة المبهوتين يتلوون من وخز الحراب التي راحت تمزق أعضاءهم، أو مما يسبق الجذب العنيف من ألم إلى أن تدفع أجسادهم العارية لتنغرس فيها الحراب.

لقد أدت الروايات عن الأعمال الوحشية ـ مثل هذه ـ إلى تغذية المشاعر المعادية للحرب بين الكثيرين من المثقفين. فقد أدان إرازمورس، على سبيل المثال، استخدام التبرير الديني للحرب: «لأنه لا يوجد في الحرب شيء خير ولا شيء جميل». واعترف بحماقة استخدام فكرة الحرب الدينية

(*) واو الجماعة هنا تشير إلى الغزاة ـ المترجم.

العادلة في عصر تتزايد فيه القوى العلمانية، ولأنه: «من الذي لا يعتقد أن قضيته الخاصة هي قضية عادلة؟». أما ماكيافيللي الأكثر عملية ونفعية فقد آمن بأن: «الحرب تكون عادلة حين تكون ضرورية»، ولا شك أننا نرى تحول مفهوم: «الحرب العادلة» مع ما تحمله من تضمينات دينية، إلى مفهوم: «القضية العادلة» بتبريراته العلمانية، وذلك على رغم أن الموضوع برمته قد اختلطت جوانبه واضطربت خلال الحروب الدينية التي أشعلها الإصلاح الديني.

فالهجمات التي استهدفت مشروعية الحرب وجلالها أو نبالتها قد قوبلت برد فعل قوي ومنسق اتخذ شكل «عودة متعمدة إلى تضخيم الفضائل العسكرية وأنواع أبَّهتها وصلت إلى حد نشوء عبادة إيجابية للحرب». ولا يتجلى هذا في الأدبيات المطبوعة فحسب ـ التي تضمنت كتب الإرشادات العسكرية الأولية والمقالات أو البحوث ـ وإنما يتجلى أيضا في الأعمال الفنية وفي زخرفة المنازل الثرية، وعلى المقابر وفي التماثيل. وقد رأى القرن السادس عشر أيضا تأسيس أولى الأكاديميات الحربية، وتجدد الاهتمام بالجماعات والتنظيمات الفروسية، والعروض الشعبية الجماهيرية لمسرحيات مثل مسرحية شكسبير: «هنري الخامس» [6].

بيد أن هناك اختلافا كبيرا بين النظرية والتطبيق. فالفجوة التي تفصل بين المفكرين النظريين في الحرب والممارسين العمليين للعمل العسكري، هي ما يمثلها الاختلاف بين من يقرأ عن الشجاعة، ومن يجرب الذعر والفوضى وتتجلى شجاعته في ميدان القتال. ولقد تبين القادة العسكريون المحنكون أن مفتاح المعنويات في ساحة المعركة هو الانضباط والتدريب. ولم يكن هذا بالأمر السهل مع جيوش تنتمي إلى خلفيات متباينة إلى هذا الحد. ولم تكن المشكلات ناشئة عن مجرد (التعدد) اللغوي بين المرتزقة ذوي القوميات العديدة، فأولئك الذين جُندوا من البلد نفسه لم يكن من المحتمل أن يبعثوا في قادتهم الثقة في معنوياتهم. وقد اشتهر جنود القرن السادس عشر بصعوبة تدريبهم، لأنهم غالبا ما كانوا يجندون في التجمعات الريفية الفقيرة والأمية والمثقلة بميراث العنف، فكان الهروب والفوضى من الأمور الشائعة. واحتوت كتيبات التعليمات المطبوعة في أربعينيات القرن السادس عشر على تنبيهات للجنود، بأنهم سيتعرضون لدفع غرامات عقابا

على لعب القمار وللشنق عقابا على الفرار، وللسجن إذا لم يدفنوا برازهم في التراب. أما أولئك الذين لم يكونوا يستطيعون القراءة (وربما كانوا هم الأغلبية) فكانت هذه القواعد تتلى عليهم بصوت مرتفع. ومن الواضح أن المعنويات كانت تتأثر بمستوى الإمدادات، والمسيرات الطويلة، والأمراض وعدم دفع المرتبات. وغير صحيح أن مواقف قادتهم لم تكن تؤثر في معنوياتهم؛ إذ يزعم البعض أن تشارلس الخامس ـ على سبيل المثال ـ حين اكتشف أنه لا يوجد أحد من نبلائه بين الموتى الذين راحوا ضحية المرض أثناء حصار ميتز العام 1552، يزعم البعض أنه قال: «لا يهم» إن مات رجاله بما أنهم ليسوا سوى «ديدان الأشجار وجراد الحشائش التي تأكل من نبات الأرض».

وهكذا، يتعين علينا مرة أخرى أن نطرح السؤال: ما الذي دفع الرجال إلى القتال في هذه الفترة؟ إن الأستاذ هيل، الذي يطرح الفكرة القائلة بأن جيوش القرن السادس عشر شكلت مجتمعات عسكرية تميزت على ما كان حولها من المجتمعات، وامتازت عنها بفضل قواعدها وسلوكها وتوجيهاتها، يكتب قائلا:

> جاءت الخدمة في الجيش بعد انفصال عن المجتمع المدني تولد عنه نوع من التحدي مليء بالمخاطرة. وانطلاقا من هذا الافتراض وحده يمكننا أن نفهم لماذا امتلكت أعداد كبيرة من الرجال ـ وليس فقط الأفراد ذوو الجرأة البالغة ـ المعنويات التي أعانتهم على خوض القتال ثم خوضه مرة ثانية.

ولو واصلنا اعتبار الحرب «ظاهرة ثقافية» فإن فهم الأمر سيصبح أكثر سهولة. لقد كان هناك دائما متطوعون. وهم رجال يرغبون في القتال بصرف النظر عما يقال عن بشاعات الحرب أو عما يثبط الهمم عن خوضها. وهؤلاء لا يشغلوننا هنا كما لا يشغلنا أولئك الذين أرغموا على أداء الخدمة العسكرية بسبب بقايا الالتزامات الإقطاعية، أو بسبب ما تفرضه الدول على رعاياها. فللمجندين، مع ذلك دوافع مختلفة، وتحثهم عوامل متباينة، منها إتاحة الفرصة للسفر والارتحال ووجود قضية أيديولوجية أو دينية، أو الوطنية، أو البطالة، وهؤلاء جميعا ـ وربما كانوا هم الأغلبية ـ هم من كانوا

قابلين للتأثر بالدعاية للجندية وللتقدم للتجنيد. هؤلاء هم الناس «من لم تغسلهم مياه البحر أبدا»، الذين كانوا قد حرموا حتى من التعليم الأساسي الذي كان يمكن أن يعلمهم كيف يفكرون لأنفسهم، فأصبحوا الأكثر قابلية لأن يتأثروا بالقيم الاجتماعية والثقافية السائدة، سواء من خلال الخرافة أو من خلال السلطة، وهم بهذا الشكل هيأوا تربة خصبة لرجال الدعاية.

11 حركة الإصلاح وحروب الأفكار الدينية

كتب فرانسيس بيكون[1] يقول إن الطباعة والبارود والبوصلة «قد غيرت صورة العالم كله وحالته». فمن المؤكد أن المطبعة قد وفرت للمدفعية ما ساعد على حشد الصفوف وتخطيطها في حرب دينية بين الأفكار، لم يكن لها مثيل من قبل. ويكتب أحد المؤرخين قائلا: «كان الإصلاح الديني أول حركة دينية تحظى بمساعدة المطبعة»، وحينما قام مارتين لوثر [2] بتثبيت أطروحاته الخمس والتسعين بالمسامير على باب كنيسة القلعة في مدينة ڤيتمبرج العام 1517، داعيا إلى إصلاح الكنيسة الكاثوليكية، فإنما كان يتصرف مثل أي مخالف عادي في الرأي من العصور الوسطى يجادل عن رأيه. غير أن فعلته هذه قدر لها أن تكون بداية حرب شملت قلوب وعقول أوروبا ـ وما وراءها ـ واستخدمت كل ما كان متاحا من وسائط الإقناع. وكان الأمر على حد ما كتبه الأستاذ أ.ج ديكنز A.G: Dickens.

فيما بين العامين 1517 و1520
بيعت من مطبوعات لوثر الثلاثين
ما يزيد كثيرا على 300 ألف نسخة...

وبالإضافة إلى علاقة هذا بانتشار الأفكار الدينية، فإنه يبدو من الصعب أن نبالغ في أهمية المطبعة، والتي من دونها ما كان لثورة بهذه الضخامة أن تتحقق وتكتمل. ذلك أنه لأول مرة في التاريخ الإنساني حكم جمهور قارئ واسع بصحة أفكار ثورية من خلال وسيط جماهيري استخدم اللغات المنطوقة (العامية) جنبا إلى جنب فنون الصحافي ورسام الصورة الساخرة.

حقا إنه لمن الصعب المبالغة في تقدير أهمية المطبعة بوصفها وسيطا لتوصيل دعاية حركة الإ صلاح. وقد اعتبر لوثر اختراع جوتنبرج «أسمى عطايا الرب المباركة، حيث يدفع إلى الأمام الدعوة إلى الإنجيل». ولا يعني هذا الإيحاء أن الوسيط الرئيسي للدعاية في العصور الوسطى ـ أي المنبر ـ قد بدأت مكانته تتدهور. فالحقيقة هي أن العكس تماما هو ما وقع. وخلال القرن السادس عشر انتعشت الدعاية من فوق المنبر مع الاهتمام بالمواعظ والخطب من جانب كل من الدعاة الكاثوليك والبروتستانت على السواء.

وجاء الاختلاف من خلال ما أصبح متاحا لرجال الدين من أعمال مطبوعة استخدموها كالأدلة المرشدة لرسالاتهم الأيديولوجية. وكانت الخطابات البابوية، فيما سبق، تنسخ بدقة ودأب بواسطة مجموعة منتقاة من الرهبان، وكانت تقوم بوظيفة «الأدلة» الأيديولوجية المرشدة. غير أنه بفضل الطباعة أصبحت السيطرة على الرسائل، من المنبع، ممكنة ثم توزع على جمهور أوسع بكثير. وينبغي أن نتذكر أن المواعظ لم تكن تستهدف هدفا دينيا فحسب، وإنما كانت وسيلة مهمة لنقل الأخبار المحلية والقومية والدولية إلى السكان، ولإعلان القوانين والمراسيم ولتبرير الضرائب ولإعلان نشوب الحروب... وما إلى ذلك. وكانت أوائل ما طبع من الكتب مزودة بالكثير من الرسوم لتوفير الدعم البصري/المرئي للنص المكتوب فتوسع من جمهور متلقيها بتجاوزها القادرين على القراءة. وقد ساهمت هذه أيضا في تناقل الأفكار عبر الحدود اللغوية وفي تجاوز لها، بينما كانت الحاجة إلى استخدام اللغة اللاتينية تتضاءل أهميتها مع ارتياد رجال الإصلاح البروتستانت لاستخدام الطباعة، وخاصة طباعة الكتاب المقدس ـ باللغات

المحلية ـ وعلى رغم أن الطباعة كانت معرضة للكثير من إساءة استخدامها ـ مثلما كانت الحال في نشر الكتابات والصور الفاضحة المكشوفة ـ فإنه لا يمكن التقليل من قيمتها في تزويد الوعاظ ورجال الدين بمجموعة من الأحكام والأفكار، الأمر الذي ساعدهم في نشر الرسالة الموحدة إلى «شعوبهم» المنتشرة من بيرو إلى بادوا مما يؤكد أن هذا الصراع قد صار صراعا عالميا، وليس مجرد سلسلة من المعارك المحلية. غير أن هذا ـ مرة أخرى ـ يعد سلاحا ذا حدين، وما يستطيع أحدهما أن يفعله فإن الحد الآخر بوسعه أن يعمل على مضاهاته، ويكتب الأستاذ آيزنشتاين مرة أخرى، عن حركة الإصلاح قائلا إنها:

> كانت أول حركة من أي نوع، دينية أو علمانية تستخدم المطابع الجديدة في الدعاية المكشوفة والإثارة ضد مؤسسة مستقرة. وبإصدار المنشورات والنشرات التي تهدف إلى استنهاض التأييد الشعبي، والموجهة إلى قراء لم يكونوا يتقنون اللغة اللاتينية، فإن رجال الإصلاح كانوا ـ دون أن يقصدوا ـ رواد الثوريين ومهيجي الشغب.

بل إن لوثر نفسه، الذي أدهشه في البداية المدى الواسع لانتشار الاهتمام بالأطروحات الأكاديمية التي كان قد أعدها لكي تطرح في المناقشات الكنسية الداخلية، قد عاد فنظر إلى الطباعة باعتبارها الوسيط الذي اختاره الرب ـ من خلال جوتنبرج ـ لتحرير الشعب الألماني من فساد روما. ولقد أمسك البروتستانت بالقلم باعتباره السلاح الذي كان مقررا له أن يتحدى سطوة السيف وقوته.

وفيما بين العامين 1517 و1520 كان لوثر قد أصدر ثلاثين كتيبا كبيرا، أصبحت مع ترجمته للكتاب المقدس ـ أكثر الكتب مبيعا. وقد أدت هجماته على الفساد البابوي وعلى ثراء الأديرة وما تتمتع به من رخاء وتساهلها، وعلى خرافة تحريم الزواج على القساوسة، وبيع المناصب الدينية وشرائها، أدت هجماته على كل هذا إلى إطلاق شرارة رد فعل عنيف قيض له أن ينتشر بسرعة لافتة للنظر في المجتمع الأوروبي بأكمله. ولقد تركزت معتقدات لوثر حول رأيه القائل بأن الله قد تحدث إلى الإنسان مباشرة، وليس من خلال قساوسة محترفين، وقال إن الناس جميعا قساوسة ولا

ينبغي أن تفرض طقوسهم الدينية عليهم بواسطة بابوية أصابها الفساد. وبذلك فقد انكشف أمر الكنيسة الكاثوليكية باعتبارها طاغية، وأداة للسيطرة الاجتماعية أنكرت على الإنسان حقه في التوجه مباشرة إلى خالقه. وعلى رغم أن لوثر كان في البداية ثوريا، دون أن يقصد إلى ذلك، فإنه قد لقي قبولا من جانب عصر من التغير كان الأفراد قد بدأوا يعيدون فيه التفكير في علاقتهم المادية والروحية بالعالم من حولهم.

وسرعان ما كشف لوثر عن مهاراته بوصفة داعية من الطراز الأول، وخاصة بعد أن صدر الحكم بحرمانه من الكنيسة في العام 1520، فقام لوثر رجل الدعاية ـ بشكل علني وفيما يشبه الاحتفال العام ـ بإحراق وثيقة حرمانه جنبا إلى جنب القوانين البابوية وكتابات معارضيه في العام 1520. وبدت السرعة التي تباع بها إصداراته كأنها تؤكد رأيه الذي يقول فيه إن الرب نفسه يؤيد تعاليمه. أما أولئك الأمراء والملوك ـ وخاصة في ألمانيا ـ الذين بدأوا يتحولون إلى البروتستانتية فقد رأوا في كتابات لوثر وسيلة يستطيعون أن ينتزعوا السيطرة على رعاياهم بواسطتها من بابا أجنبي.

وبعد اجتماع «الدايت» في وورمز العام 1520 الذي أدان الهرطقة اللوثرية، التزم كل من البابا والإمبراطور بمحاربة البروتستانتية بكل الوسائل المتاحة، بما في ذلك الاضطهاد والعنف. أما السبب الذي منع الإمبراطور تشارلس الخامس من أن يمنح الهرطقة انتباهه ـ الموزع بشكل دائم ـ فيرجع إلى مجرد الاتساع الجغرافي لإمبراطوريته وللمتاعب التي واجهها على جبهات عدة من فرنسا في الغرب حتى الإمبراطورية العثمانية في الشرق. هذا بينما التجأ لوثر إلى الكلمة فكان الأمر، مثلما كتب البروفيسور إيلتون يقول:

> إن كان هناك خيط واحد يجري عبر حكاية حركة الإصلاح بأسرها، فإنه التأثير المتفجر والمجدد، وكثيرا ما يكون التأثير المفكك، للكتاب المقدس، إذ يوضع في أيدي الجميع من العاديين من الناس، فلا يعود تفسيره مقصورا على تفسير المتعلمين المحكومين بشكل جيد، وإنما يرجع تفسيره إلى إيمان وأوهام جميع أنواع البشر وإلى إحساسهم السليم العام وهرائهم الفريد.

وبتعبير آخر فإن حركة الإصلاح الديني خرجت من سيطرة لوثر، بينما راح آخرون ــ ممن كانوا أقل ترددا منه في رفع السيف مثل الأمراء الألمان، والإصلاحيين المتطرفين ــ يتحدون البابا والإمبراطور، فلم يعد تجنب إراقة الدماء ممكنا، من ثورة الفلاحين في العام 1525 إلى إفراط محاكم التفتيش وتجاوزاتها في إسبانيا وما قام به الملك الفرنسي من أعمال اضطهاد بلا شفقة في فرنسا.

وقد كتب أحد المعلقين ـ من باريس ـ في العام 1520، عن إصدارات لوثر يقول: «لا توجد كتب يتلهف الناس عليها مثل هذه... وقد باعت إحدى المكتبات 1400 نسخة... ويتحدث الناس ببالغ الثناء على لوثر في كل مكان... غير أن سلسلة الرهبان طويلة». وعلى رغم الإجراءات الرامية إلى كبح التيار، حتى في هذه البلاد الأكثر إخلاصا للكاثوليكية من أي بلد آخر استمر تهريب أعمال لوثر، على رغم أنه لم يكن في وسع البروتستانت أن يسيطروا باستمرار على معركة الكتب المتصاعدة. وفي العام 1534، ظهر، مثبتا على جدران كل مكان في باريس بما في ذلك باب غرفة نوم الملك، منشور مضاد للكاثوليكية، كتبه أحد القساوسة المتمردين يدعو إلى قراءة «المقالات الصادقة عما يحتويه القداس البابوي من انتهاكات شريرة وخطيرة ولا تغتفر تم ابتداعها في تناقض مباشر مع العشاء الأخير لربنا وشفيعنا الوحيد ومخلصنا يسوع المسيح». وثار غضب الملك فرانسيس الأول، وأدت «مسألة الملصقات هذه» إلى إطلاق رد فعل عنيف، فأحرق الهراطقة على أعمدة المحارق وحظرت جميع أعمال الطباعة مؤقتا. ومثلما كان الأمر بين روما والمسيحيين الأوائل. فلم يؤد رد الفعل الكاثوليكي إلا إلى صنع «شهداء» بروتستانت استثار ورعُهم وشجاعتهم في وجه التعذيب المفزع إعجابَ الناس واحترامهم، إضافة إلى كوكبة كبيرة من الإصدارات التي تشيد بشجاعتهم وتمجدهم، بل إن الكاثوليك أنفسهم أعجبوا بشجاعتهم وخاصة حينما واصل الكثيرون منهم إطلاق مواعظهم ودعواتهم بينما كانت ألسنة النيران تلتهمهم، ويقول أحد الشهود:

> لقد بكينا في تجمعاتنا لدى عودتنا من إعدامه واستأنفنا بحث قضيته بعد موته، لاعنين قضاته الظالمين الذين برروا ـ بالعدل ـ إدانته. ولقد أنزلت موعظته (التي

ألقاها) من فوق عربة نقل السجناء، ثم من فوق المحرقة من الأضرار أكثر مما يستطيعه مائة من القساوسة».

وقد أدى مثل هذا الاضطهاد الذي بلغ ذروته سيئة السمعة في محاكم التفتيش، أدى إلى إرغام الكثيرين من البروتستانت على التخفي، وساعدتهم الكتب (أولئك القساوسة الصامتين العاملين من أجل المحرومين من المواعظ) على المحافظة على عقيدتهم في السر. واخترقت هذه الأعمال ـ التي يسهل إخفاؤها ـ كل طبقات المجتمع، منتشرة وسطها، تساعدها الطبيعة التبشيرية للبروتستانت غير الهيابين الذين لحنوا المزامير وألقوا مواعظهم حيثما أتيحت لهم الفرصة لذلك. وقد كتب أحدهم عن ناشر كتب من جنيف كان ينقل كتبه إلى فرنسا حيث يبيعها، كتب يقول:

> لقد روى كثير من المؤمنين، عنه، كيف كان يمضي عبر الريف، وكيف كان كثيرا ما ينتظر حتى اللحظة التي يشرع فيها الناس في الحقول في تناول وجبتهم، جالسين تحت شجرة أو في ظل سياج ــ كما هي عادتهم ــ وهناك ينتهز الفرصة، بعد أن يتظاهر بأنه يستريح إلى جوارهم، مستخدما وسائل بسيطة ومتدرجة لكي يعلمهم أن يخافوا الرب وأن يصلوا له قبل تناول وجباتهم وبعدها، ويتلو ذلك بأن يسأل الفلاحين المساكين إن كانوا يودون أن يصلي للرب من أجلهم، وكان البعض يشعر بالراحة العظيمة والنشوة لذلك، وكان البعض يدهشون لسماعهم هذا الكلام غير المألوف. وأهانه البعض وطردوه، لأنه أظهر لهم أنهم يسيرون في طريق الهلاك إن لم يؤمنوا بالإنجيل.

ولقد ساعدت مثل هذه الأنشطة على نشر «الوباء اللوثري» من مراكز مثل: ليونز وباريس عبر فرنسا كلها، الأمر الذي تجلى في تحطيم التماثيل الدينية وتدمير أيقونات الكنائس، وأخيرا في حروب فرنسا الدينية (1559 ـ 1598).

أما رد الفعل الكاثوليكي، والذي كان بعض الدعاة يمثلون رؤوس رماحه مثل جون إيك John Eck وفريدريك نوسي Fredrick Nausee، فقد دعمه قدر من الإصلاح أصبح في النهاية «الإصلاح الديني المضاد». غير أن البابوية

لم تكن قانعة بألا تعتمد إلا على وسائل الدعاية الإيجابية. وإنما أقرت بقيمة الرقابة وأهميتها. فقد أدينت كتب عدة بعينها، وفي العام 1527 أصدر البابا «كليمنت السابع» مرسوما يهاجم فيه أعمال الهراطقة وقراءها. وصدرت أول قائمة من عناوين الكتب المحرمة في إنجلترا العام 1529، وبعد عام تلا ذلك إقرار نظام الترخيص بطبع الكتب (وحينما كان هنري الثامن ما يزال كاثوليكيا قام بإحراق كتب لوثر في العام 1531). وفي العام 1559 أصدرت البابوية «الفهرس الخاص بالكتب المحرمة» وكتب جون فوكس قائلا: «إما أنه يتعين على البابا أن يمحو الطباعة وإما أن تستأصله الطباعة ـ على المدى البعيد ـ من جذوره». غير أن التحريم والقمع فشلا في كبح جماح المد البروتستانتي، ولا شك في أن للأعمال صوتا أعلى من صوت الكلمات (بشرط إمكان إعلانها عنها بالقدر الكافي)، ولذلك فالإصلاحات التي وقع أسسها «مجلس ترنت» فيما بين 1545 و1563 وحدها هي التي ساعدت الكنيسة الكاثوليكية على إرساء القواعد اللازمة لمحاولة استعادة سيادتها المتفوقة.

12 دعاية التيودور

في إنجلترا، حيث كانت قوانين الإصلاح الديني التي أصدرها هنري الثامن في ثلاثينيات القرن السادس عشر قد استأصلت الكنيسة الكاثوليكية واجتثتها من جذورها، يقال إن توماس كرومويل وزير هنري الثامن قد شن أول حملة على الإطلاق تطلقها حكومة في أي دولة في أوروبا لكي تستغل إمكانات المطبعة الدعائية. وكان هنري السابع مؤسس أسرة التيودور(*) مدركا إدراكا قويا ـ على الدوام ـ لأهمية الدعاية بوصفها وسيلة لتدعيم سلطته. وكان هنري مصمما على إضفاء المشروعية على أسرته أمام الرب وأوروبا، ولا داعي لذكر الشعب الإنجليزي. وقد فعل هذا مستعينا بزيجة اتسم اختياره فيها بالذكاء، وبالاحتفالات الشعبية، وبالدعاية... وقام بإهداء رايات انتصاره في معركة بوزوورث إلى كاتدرائية القديس بولس (سانت بول) وأمر بتوحيد وردتي أسرتي لانكاستر ويورك البيضاء والحمراء في وردة واحدة، وطبع الاعتراف البابوي بأسرته بالاستعانة بالمطبعة التي جاء بها إلى إنجلترا ويليام كالستون في العام 1476 (وقام هنري بتعيين مسؤول عن المطبعة الملكية العام 1504)

(*) الأسرة الملكية الحاكمة في بريطانيا ـ المترجم.

ثم خرج في موكب «طوّاف» بمختلف المدن الإنجليزية بما فيها مدينة يورك. وكان «الطواف» وسيلة معتمدة للدعاية وهو السلف للـ «مسيرة» الملكية المعروفة في عصرنا. وحينما جلس ابنه «هنري الثامن» على العرش في العام 1506، كان أنموذج دعاية التيودور الملكية قد تمت صياغته واستقر بالفعل.

وكان هنري الثامن مصمما على أن يثير إعجاب نظرائه في القارة الأوروبية. وربما كان مصدر إلهامه في هذا دعاية الإمبراطور الروماني المقدس الرائعة، فساهمت الاحتفالات الأنيقة، وحياة البلاط المترفة السخيفة، والعملات حاملة شعارات أسرة التيودور، التي تم سكها، والمعارك التمثيلية، ومباريات الفروسية والمنازلات التي برز فيها الملك الرياضي الشاب نفسه، ساهمت هذه كلها في توليد انطباع عن هنري يجعله يبدو ملكا محاربا طبقا للأنموذج الفروسي الحقيقي. ويبدو أن هذا الخط الدعائي قد أثمر نتائجه المرجوة إن كان لنا أن نتوقف عند شهادة زائر إيطالي لإنجلترا في العام 1517 الذي كتب يقول:

> «توجد ثروة العالم وحضارته هنا. ويبدو لي أن البرابرة هم الذين يدعون الإنجليز برابرة. إنني لأرى هنا أنواع ومستويات السلوك البالغة الأناقة والذوق واللياقة والأدب الجم. ومن بين أشياء أخرى، يوجد هنا أكثر الملوك قوة، فلا يمكن قهره، والذي تتعدد ميزاته ومهاراته وتمتاز، حتى إنني أراه متفوقا على جميع من وضعوا تيجانا على رؤوسهم منذ الأزل».

وعلى الرغم من الإخفاق الكامل الذي أصاب الحرب الفرنسية في الأعوام 1512 ـ 1514، فإن جهود هنري الدعائية سعت إلى توليد انطباع عن إنجلترا يجعلها قوة أوروبية أكبر بكثير مما كانت بالفعل. وربما جاءت ذروة منجزاته الدعائية في الفترة بين العامين 1518 و1520 بتوقيع معاهدة السلام الشامل وانعقاد اللقاء الباهر مع الملك الفرنسي، «فرانسيس الأول» في ساحة النسيج الذهبي The Field of Cloth of Gold ‏(1520).

ولقد كانت معاهدة السلام الشامل (1518) التي وقعتها بالفعل جميع دول أوروبا المسيحية أقرب إلى بيان للنوايا ـ على طريقة ميثاق كيللوج ـ

بريان kellog - Briand في القرن العشرين لتحريم الحرب[1] ـ من أن تكون محاولة فعالة لتخليص أوروبا من ويلات الحرب. ومع ذلك فإن هذه اللحظة القصيرة من الوحدة الأوروبية في مواجهة التهديد التركي (أو أنها صورت بهذا الشكل) أفسحت في المجال لتقارب إنجليزي ـ فرنسي، ولعقد لقاء في ساحة بالقرب من مدينة كاليه، وصفها أحد المعاصرين بأنها أعجوبة العالم الثامنة. وقد استغرق التخطيط لهذا التعبير النادر عن الحب الفرنسي/ الإنجليزي الأخوي شهورا عدة، كما أنه استهلك ثروة كبيرة لتنفيذه. وقد كتب «سيدني أنجلو Sydney Anglo» قائلا:

> «تبدو بهرجة العام 1520 ودعايتها، وسط المكائد السياسية للدول العظمى، كما لو كانت مباراة هائلة للمفارقات المتناقضة، قرر جميع العواهل والوزراء وجميع أعضاء حاشيتهم وأتباعهم أن يلعبوها... فإن الأمر كله بقصوره وأبهائه الخيالية (التي أقيمت خصيصا لهذه المناسبة) ودورات النزال والمبارزات المكلفة والمآدب الباذخة تبدو كأنها ازدهار متأخر لأكثر صور فروسية العصور الوسطى إسرافا... غير أن الحقيقة كانت بعيدة عن هذا بعدا سحيقا... فإن أوروبا كانت قد دفعت مخدوعة إلى مظاهرة من المحبة التمثيلية التي لم تستطع أن تخفي العداء القائم بين ملكي إنجلترا وفرنسا».

وكانت إحدى هذه الحقائق حركة الإصلاح التي شنها لوثر والتي كانت تنتشر بالفعل بسرعة عبر أوروبا. وبينما راح وولزي Wolsey يحرق كتبه (كتب لوثر) وسط مظاهرات صاخبة، والمواعظ الرسمية يلقيها أناس من نوع جون فيشر John Fisher وأسقف روشستر، فقد كتب هنري مقالا يدين تعاليم لوثر فمنحه البابا ـ إثر ذلك ـ لقب «المدافع عن العقيدة»، وهو اللقب الذي ما يزال عاهل بريطانيا يحمله إلى اليوم. ومع ذلك، وحتى بينما كان فرانسيس الأول وتشارلس الخامس ينفثان عن خصومتهما القديمة باقتتالهما في معركة بافيا العام 1525، فإن سحبا لعاصفة مشؤومة كانت تتجمع مع فشل زوجة هنري كاثرين، أميرة آراجون، في أن تمنحه وريثا للأسرة المالكة التي كان والد هنري قد حارب بعنف لكي يؤسسها والتي كان

هو نفسه قد بذل الكثير لكي يثبت أركانها.

ولقد مهدت جهود هنري الدعائية في وطنه - وهي الجهود التي ساندها الكاردينال وولزي - الطريق لتقبل الجمهور للانفصال الوشيك عن روما. فمع وجود فرانسيس أسيرا لدى تشارلس، حاول وولزي أن يلهب مشاعر التأييد الشعبي للحرب ضد فرنسا. وأخبره أحد موظفيه في مقاطعة نورويتش أنه قام «بتكليف من يشعل النيران في كل بلدة بالإقليم ليلة الأحد، وبتكليف عملاء سريين في كل بلدة بأن يعلنوا الناس بأنباء الإطاحة الهائلة بالملك الفرنسي، وبأن يدعوا الناس لكي يبذلوا كل ما في وسعهم لتشجيع القيام بالغزو في هذا الصيف».

ولكن الحرب لم تنشب، كما لم يأت ابن لهنري، وأصبح من المتعين على خليفة وولزي، أي توماس كرومويل، أن يتابع عملية الانفصال عن روما التي عجل بها طلاق الملك من كاثرين وزواجه من آن بولين. وكان الملك، خلال فترة استعداده للطلاق قد بدأ جدالا، دار عن طريق المنشورات، لكي يطرح فيه أسانيده وما يبرهن على صحة قضيته، وذلك على الرغم من أن الأعمال التي أصدرها داعية الإصلاح الديني ويليام تينديل[2] كانت قد مهدت الطريق لما كان الملك يسعى إليه - في تناقض مع الجهود المضادة التي كان يبذلها السير توماس مور[3].

ولقد أدى صدور قانون السياسة 1534، الذي وضع الملك هنري على رأس كنيسة إنجلترا، إلى تكثيف هائل للحرب الدعائية. وكانت المهمة التي كلف بها هنري توماس كرومويل، مهمة ضخمة: «تغيير اتجاه التفكير الإنجليزي الذي دام ألف سنة»... بل إن هذه المهمة ستبدو أكثر ضخامة بكثير إذا تذكرنا عمق جذور ما كانت الكنيسة تستمتع به من تأثير على العقلية السائدة في العصور الوسطى، ومساعدتها للناس في إدراك علاقتهم ببيئتهم. وربما أصبحت تلك المهمة ممكنة بصعوبة بفضل ظهور المطبعة. وكان لوثر قد أثبت أخيرا - على كل حال - إمكان تحدي نفوذ الكنيسة وتأثيرها على المجتمع الأوروبي - بقدر من النجاح. وكان المعاصرون قد اعتبروا الطباعة أداة كبرى للتغيير. ولذلك فحينما ثار احتمال الصدام بين اهتمام هنري المؤكد بتدعيم حكم أسرته المالكة وبين سلطة البابا، فقد أصبح لا مفر له من أن يلجأ إلى الدعاية كوسيلة لإقناع رعاياه بإمكان طي

صفحة ألف سنة من التاريخ، وبأنه هو المصيب وأن البابا هو المخطئ.

ولقد أثبت كرومويل أنه أكثر من كفء لهذه المهمة. ويصفه فوكس Foxe قائلا إن: «هذا الجندي الباسل وبطل المسيح... الذي بفضل دأبه وجهوده الأصلية أنتج العديد من الكتب والقصص الشعرية الممتازة المتنوعة وأرسلت إلى الخارج، والتي تتعلق بما يمارسه البابا من القمع وبكل الأراجيف البابوية». وحينما أدت اعتراضات سير توماس مور على طلاق الملك إلى جعل الموضوع علنيا، فقد استقر عزم كرومويل على الترويج لـ «الرواية الصحيحة للأحداث» في «الثورة الهنرية»، ونشرها في كل من داخل البلاد وخارجها. ولقد نفذ كرومويل ما اعتزمه مستخدما وسائل إيجابية وسلبية معا. وإذ تجنب الوقوع في الخطأ الذي وقع فيه البابا عندما نشر قائمة بالكتب المحظورة - خوفا من أن يؤدي ذلك إلى لفت الأنظار إليها فحسب - فقد سعى كرومويل إلى أن يفرض حظرا رقابيا على الأعمال المخالفة، وأن يسيطر على تدفق الدعاية الرسمية من مطبعة الملك التي يشرف عليها توماس برتيليت. وفي العام 1536، صدر إعلان يتضمن أمرا بتسليم أي مطبوع نشر ووزع خارج البلاد «منتقصا أو مبخسا من شرف جلال منزلته وسلطاته الملكية وتاجه الإمبراطوري». ومع ذلك فقد ثبتت استحالة المنع الكامل لانتشار الأعمال الهرطيقية، فبدأت - بالتالي - حملة للتشكيك في حق البابا في انتهاك قانون المخطوطات في إنجلترا.

وبدأ الجدل بطريقة أكاديمية إلى حد ما، بنشر كتاب يحمل عنوان «تصميم أشهر وأفضل جامعات إيطاليا وفرنسا على أنه لا يحق للرجل أن يتزوج زوجة شقيقه، وأنه لا يحق للبابا أن يحلل ذلك» العام 1531. واستثار هذا الكتيب استجابة من المعارضة ففرض قانون «إقرار الحقيقة Invicta Veritas»، وشددت الرقابة وانتشرت المناقشة بين جمهور أوسع. وكان الكتيب «كأس الحقيقة» الذي نشر العام 1532 والذي كان من تأليف الملك نفسه - جزئيا - كان مقالا قصيرا سهل القراءة، مليئا بالحيوية، دافع عن القضية في شكل مناقشة بين متخصص في اللاهوت محام متخصص في القانون. وأدى التأكيد القوي على الحاجة إلى وريث ذكر ينقذ النظام الملكي من كارثة، أدى إلى تحويل القضية إلى قضية قومية وإلى تحويل المناقشة في اتجاه نقل السلطة من روما إلى العرش. ثم صدر الكتيب المعروف تحت

عنوان «المواد التسع التي سنها مجلس مستشاري الملك الموقر بإجماع أعضائه» ليكون كتيبا رسميا بشكل صريح لم يهدف إلى تحذير الناس أو حضهم فحسب «بل لكي يبلغ الملك رعاياه المحبوبين بالحقيقة». وفي هذا الكتيب أصبح البابا مجرد «أسقف روما». غير أن الجدل حول القضايا المطروحة كان قليلا، وبدلا منه جاءت عبارات تقرر الحقائق، والإرشادات التي يتعين اتباعها وقد نشرت بالإنجليزية، وكان القصد منها هو استئصال الشقاق الداخلي.

وبينما راح إدوارد فوكس وريتشارد ساميسون يدافعان عن قضية الملك في نصوص لاهوتية أكاديمية كتبت باللغة اللاتينية، أدرك كرومويل ضرورة إصدار مادة تقرأها الجماهير وتستوعبها، «فعلى الرغم من أنهم يخشون من الكلام بحرية ـ خوفا من العقاب ـ فإنهم يتهامسون معا بشكل سري». وتشير بعض المصادر إلى انتشار موقف يتميز بالبرود واللامبالاة بين الناس في أثناء مشاهدتهم موكب زواج الملك على الرغم من أنه تم ترتيب الاحتفال بشكل يضمن إضفاء المشروعية على الزواج. وأُصدر كتيب صغير بعنوان «بحث صغير ضد ما يغمغم به بعض البابويين في الأركان»، لكي يكون مرشدا للقساوسة في معالجتهم للمشكلة من فوق منبر الكنيسة. غير أن الكثيرين من القساوسة أنفسهم ظلوا بعيدين عن التأثير. ولذلك بدأ أحد كتاب كرومويل الأساسيين ـ وهو ريتشارد موريسون ـ حملة دعائية ضد البابا أكثر كثافة في العام 1536. وفي كتيب بعنوان «محاولة لإقناع الملك بضرورة أن تكتب قوانين النظام باللاتينية» دعا موريسون إلى إقامة احتفال سنوي، تشعل فيه النيران وتقام المآدب وتسير المواكب لكي يكون تذكارا دائما للعاديين من الناس بانعتاقهم من نير روما على يدي الملك. وكان من رأي موريسون، أنه بالنسبة للناس العاديين «فإن الأشياء تنفذ إلى العقل من خلال العيون بأسرع جدا من نفاذها من خلال الآذان». وهذا هو السبب الذي دفعه إلى التأكيد كثيرا على الاستعراضات المرئية ـ مثل المسرحيات والمواكب ـ كوسيلة لمواجهة مواعظ رجال الدين المعادين.

ولكن على الرغم من برنامج موريسون فقد استمر كرومويل على إيمانه بالدعاية المطبوعة واعتماده عليها. وقد حقق كتاب ستيفن جاردنر[4] Devera Obedientia الذي طبعه بيرثيليث العام 1535 شهرة واسعة لأن مؤلفه كان في

البداية معارضا للملك، ولكنه «أبصر النور» فاهتدى بعد ذلك، وكانت المواعظ الرسمية تطبع على نفقة التاج وتوزع على رجال الدين، ولكن حينما انفجر السخط الشعبي متحولا إلى تمرد علني في الشمال في العام 1536 أصبح من الضروري أن تنشر أعمال تربط بين الخيانة الداخلية وبين التهديد بغزو خارجي. وهذه حيلة دعائية تقليدية وضعت لتسليط الأضواء على الأعداء الداخليين، وبذلك أصبح البابويون جزءا من مؤامرة تستهدف الإطاحة بالملك ـ تدار من خارج البلاد ـ وخاصة حينما هدد الكاردينال بول بغزو إنجلترا عند نهاية العقد. وكتب موريسون كتابه «دعوة لحض جميع الإنجليز للدفاع عن بلادهم»، حيث أكد ضرورة تأييد الملك في جهوده لهزيمة الأعداء الخارجيين والداخليين، ووزعت في كل أنحاء البلاد نشرات مطبوعة، فعرضت في الأماكن العامة وربما كان تأثيرها أضعف من تأثير ما كان يصدر إلى رجال الدين من تعليمات، غير أنه حتى في هذا المجال ظل خطر ظهور الآراء القديمة قائما. ولذلك فقد قام كرومويل بتعيين وعاظ رسميين عملوا بجد لكي يحلوا محل خصوم الحكومة على منابر الكنائس، كما حاول ضمان التأييد الشعبي عن طريق حلف الجموع لقسم الولاء. ولقد كان رفض توماس مور لأن يحلف يمين خلافة الملك «دون أن أعرض روحي للعنة الخارجية» هو ما أدى إلى سقوطه السياسي ثم إعدامه.

واختفت كل إشارة إلى البابا من كتب الكنيسة الرسمية، بينما ظهر لقب الملك الجديد بوصفه الرئيس الأعلى للكنيسة في كل مكان. وصدرت التعليمات للمعلمين في المدارس بأن ينهجوا النهج ذاته، وفرضت إجراءات صارمة ضد من يعاودون انتهاك القواعد الجديدة. وسرعان ما تبين كرومويل ضرورة تدعيم الدعاية بالعقوبات، وكلف القضاة بمهمة مراقبة الأساقفة، وصدرت إليهم الأوامر بتوجيه الاتهام إلى المنشقين ومساءلتهم عن سبب انتهاكهم لقوانين البلد. وبذلك أصبحت منصات القضاء منابر للدعاية للملك هنري، ووصل الأمر إلى ما وصفه الأستاذ إلتون في قوله:

«تغييرات في العقيدة وتغييرات في الاحتفالات
وهجمات على الأديرة وعلى الصوامع وعلى الخرافات،
والترويج للكتاب المقدس الإنجليزي، واتخاذ خطوات إيجابية
نحو تعليم أفضل للعلمانيين ورجال الدين على السواء،

> وتأسيس سجلات الدوائر المدنية، كل هذه الإجراءات وغيرها من مظاهر الإصلاح التي حققها كرومويل دون كلل، نشرت بين الناس ـ بشكل عام ـ قلقا حقيقيا. وإذ لم يقنع كرومويل أبدا بمجرد إصدار المراسيم، وإذ يعنى دائما بضرورة التطبيق وتحويل المراسيم إلى حقائق، فقد واصل قصف البلاد بأنواع الحث والتحريض على الفعل».

ولا يمكننا أن نحدد مدى ما حققه كل هذا من نجاح، إلا أنه من الواضح أن سياسة ودعاية ثورة آل تيودور في ثلاثينيات القرن السادس عشر قد غرستا تغيرات هائلة في سلوك الإنجليز وفكرهم. وعلى الرغم من إعدام كرومويل في العام 1540، فإن هنري الثامن قد بدأ ثورة في قلوب رعاياه وعقولهم، وهي الثورة التي سيكون على ابنته إليزابيث أن تستكملها حين تعتلي العرش في العام 1558.

ولم تستمر قوة الحملة الدعائية التي شنها كرومويل ضد البابوية بعد وفاته. أما أسرة تيودور فقد بقيت بعده ـ على الأقل ـ لمدة خمسة وأربعين عاما أخرى. ويرجع هذا، بدرجة غير قليلة، إلى الدور الذي واصلت أسرة تيودور إيلاءه للدعاية كوسيلة لتنمية وعي قومي إنجليزي. لقد أصبح على الشخص الإنجليزي أن يؤدي واجبه نحو مليكه الذي هو رأس كل من الكنيسة والدولة. وبذلك فإن التاج الملكي كان مصدر المؤثرين الرئيسيين اللذين شكلا كلا من الفكر والسلوك. ولقد عكست مواكب عصر إليزابيث ومهرجاناته واحتفالاته هذا الوعي الوطني الجديد. ولقد استخدمت أسرة تيودور التهديدات الخارجية وخاصة من جانب الدول الكاثوليكية، مثل إسبانيا وفرنسا لتدعيم مركزهم، وتبرير تصرفاتهم. وقد أعانت الدعاية التمجيدية الباذخة في العصر الإليزابيثي في جعل العاهلة البروتستانتية سيدة لبيتها بشكل لم يكن لينافسها فيه سوى الأمراء الألمان. ومن الناحية العسكرية فقد ظلت إنجلترا قوة ضاربة غير مهمة نسبيا، وخاصة بعد أن خسرت ميناء كاليه الفرنسي العام 1558. غير أن التمايز القومي الذي جلبته ثورة أسرة تيودور استند إلى تنمية التقاليد البحرية التي تلاءمت بشكل كامل مع وضع إنجلترا الجغرافي. ومع ذلك فإن صور الملكة التي تم توجيهها والسيطرة عليها بعناية تامة، مثلما هي الحال في رسمها ـ بالريشة

وبالقلم ـ في صورة الملكة الحورية Fairy Queen خلقت وهما بالوحدة. وكان هذا هو انتصار الدعاية الدائم الباقي الذي حققته أسرة تيودور.

13 حرب الثلاثين سنة
(1618ـ1648)

منذ عقد معاهدة كاتو ـ كابريسيس العام 1559، التي وضعت نهاية لصراع عائلتي هابسبرج وفالوا بين إسبانيا وفرنسا، غرقت فرنسا في الحروب الدينية التي لم تُسَوَّ جزئيا إلا بواسطة مرسوم نانت العام 1598. وكان على إسبانيا أن تعالج ثورة الأراضي المنخفضة، إضافة إلى تجدد التهديد التركي في البحر الأبيض المتوسط الذي لم يوقفه حتى ذلك الانتصار البحري المدوي في ليبانتو العام 1571. وعلى رغم أن التهديد التركي قد هيأ لأوروبا صرخة داعية إلى الوحدة منذ الحروب الصليبية، فإنه لم يعد يؤدي إلى هذا الغرض إلا على سبيل الدعاية. ولقد دفعت كل هذه الأحداث في إطار من حركة الإصلاح الديني ـ التي كان الداعية كالفين Calvin(1) هو ملهمها في هذه المرحلة ـ وحركة الإصلاح المضادة(2) التي ساندها الملك فيليب الثاني ملك إسبانيا، والتي كانت قد أصبحت حركة كاسحة عقب انعقاد مجلس ترنت العام 1563، أما في إنجلترا فقد أدى موت إليزابيث الأولى العام 1603 إلى اعتلاء أسرة ستيوارت العرش بدءا من جيمس الأول (الذي حكم فيما بين 1603 و 1625) ونهاية

الصراع مع إسبانيا الذي دام عشرين سنة، غير أن افتضاح مؤامرة البارود العام 1605 أكد أن إنجلترا سوف تواصل اضطهاد الكاثوليك، وتعين على كل إنجليزي تجاوز الثامنة عشرة من عمره أن يقسم على أنه «يبغض من أعماق قلبه ويرفض ويستنكر هذا الاعتقاد والموقف الملعون بوصفه تحريفا وزندقة»، وإلا تعرض لعقوبة السجن. كانت الكاثوليكية، بعبارة أخرى خيانة. وكان ولاء الشخص الإنجليزي مكرسا لملكه وليس للبابا. ومع ذلك فقد احتج رجال الدعاية، من نوع روبرت كوتون، ضد عمليات الإعدام الدينية على أساس أنها لا تخلق سوى شهداء يستولون على تعاطف الرأي العام (فالجيوش المادية قد تكون علاجا لبعض الوقت، ولكن السيف الروحي دائم التأثير في فعاليته)، وقد تميز النصف الثاني من عهد جيمس الأول بدرجة أكبر من التسامح.

ولذلك، ففي بداية القرن السابع عشر كانت غالبية صراعات القرن السابق ماتزال على أشدها، ومع هذا فقد كانت أوروبا على عتبة ثورة في المجال العسكري. فقد كانت مفاهيم العصور الوسطى عن العمليات الحربية قد اختفت مع مجيء البارود وتزايد دور رجال المدفعية ورماة البنادق. وبالإضافة إلى هذا كان تضاؤل نشوب المعارك الحاسمة والتزايد المقابل لحروب الاستنزاف وتصاعد القوة البحرية لكل من هولندا وإنجلترا، والإصلاحات العسكرية التي ابتكرت مفاهيم وأساليب تكنيكية جديدة... كل هذا، صحبه تزايد ملحوظ في القدرة التدميرية للأعمال الحربية. وكانت تجرى عملية إضفاء الصبغة «الاحترافية» على الجيوش، مع تحسن أساليب التجنيد والتدريب والتعليم ودفع المرتبات (على رغم أن هذه التطورات تأخرت في الاستقرار في إنجلترا). وقد تكفلت الثروات المأخوذة من العالم الجديد بتكاليف تنفيذ هذه العمليات إلى حد ما. وعلى الرغم من أن الهولنديين كانوا قد أثبتوا في حربهم التي استمرت ثمانين عاما (1567 ـ 1648) مع سادتهم الإمبراطوريين الإسبان، أن القوات الجيدة التنظيم والمكونة من رجال تدفعهم الروح الوطنية وعلى درجة عالية من الانضباط يستطيعون أن يقاوموا أقوى الخصوم. فإن لقب «والد الحرب الحديثة» ـ على الأقل على اليابسة ـ ينبغي أن يذهب إلى ملك السويد، جوستافوس أدولفوس.

فحينما انتخب فرديناند الثاني إمبراطورا رومانيا مقدسا العام 1619،

وحاول أن يدعم سلطة آل هابسبرج في بوهيميا، أدى رد الفعل البروتستانتي إلى إشعال سلسلة من الصراعات الدينية اجتذبت تدخل عدد من الدول الأجنبية مثل الدنمارك وإسبانيا والسويد، فعصفت بأوروبا طوال الثلاثين عاما التالية. وبذلك تحولت حرب أهلية ألمانية إلى صراع ضار بين الدول الكبرى. ولكن حرب الثلاثين عاما (1618 ـ 1648) كانت من بعض وجهات النظر المختلفة، سلسلة من الحروب المنفصلة بقدر ما كانت صراعا أوروبيا واسعا، بدافع من الولاءات الدينية والدنيوية كما بأي دافع آخر. ولا يمكن المبالغة في تقدير دور هذه الحرب في نمو النزعة القومية وظهور الدولة القومية، كما لا يمكن التقليل، من تأثيرها التدميري في أوروبا مع مصرع ما يقدر بربع سكان أوروبا في المعارك أو بسبب المجاعات أو الأوبئة، وقد لاحظ المعاصرون كيف كانت الجيوش تبدو أكثر استعدادا لمهاجمة الفلاحين في المناطق المحتلة بأكثر من استعدادها لمواجهة أعدائها في ميادين المعارك، فامتلأ الفضاء الأوروبي ــ المادي والمعنوي ــ بآثار الخراب وعلامات القنوط واليأس. وعلى أساس من هذه الخلفية يتحتم أن نبصر عملية إضفاء الصبغة الاحترافية على الأساليب الفنية للدعاية وبشكل خاص، في استخدام المطبعة.

بل لقد أعطت هذه الفترة للعالم كلمة: الدعاية propaganda. وفي غمار حركة الإصلاح المضاد، أثبتت جمعية يسوع (اليسوعيون ـ الجزويت ـ Jesuits) التي أسسها إجناتيوس لويولا العام 1534، أثبتت أنها أداة فعالة في مكافحة النزعتين اللوثرية والكالفينية باستعادة الكاثوليكية إلى النمسا، وتحويل أكثرية بولندا إلى الكاثوليكية، وبسط رسالتها حتى أمريكا اللاتينية والصين. وقد تبين اليسوعيون تماما أهمية كل من النظام وتعليم أتباعهم من سن مبكرة. ولقد نصب لويولا قديسا في العام 1622.

وفي هذا العام أيضا قرر البابا جريجوري الخامس عشر أن يمد من نطاق أساليب اليسوعيين، بأن ينشئ إدارة جديدة تابعة للبابا وهي إدارة «اللجنة المقدسة للترويج والدعاية للعقيدة «Sacra Congregation de Propaganda Fide»، وكُلفت هذه اللجنة مهمة إحياء الكاثوليكية في أوروبا التي سادتها النزعة الإصلاحية وتدعيم الكاثوليكية في العالم الجديد. وبعد خمسة أعوام أنشأ البابا أوربان الثامن «كلية التهذيب Collegium Urbanum»، لكي

تكون مركزا لتدريب جيل جديد من الدعاة الكاثوليك، فلقنوا قدرا كبيرا من التوجيهات الخاصة بالأساليب التي يتعين اتباعها في بلاد الكفرة. وفي سياق حرب الثلاثين عاما تضمنت هذه الأساليب عادة السرية التي ينبغي الالتزام بها، سواء في إنتاج المواد أو في توزيعها، فأدى هذا إلى إسدال ستارة من الشك على كلمة «دعاية» منذ ذلك الحين، وخاصة في بلدان أوروبا الشمالية البروتستانتية. وعلى ورغم هذا «التحديث» للدعاية، فإن الكثير من الأساليب القديمة كان لا يزال مستخدما على رغم ما لحقها من تحسين تبعا لما تحقق من مكتشفات علمية ومبتكرات تكنولوجية. فقد منح علم التنجيم ـ على سبيل المثال ـ المزيد من القبول والتصديق لدى جمهور مؤمن بالخرافات، بسبب كتابات علماء محترمين مثل يوهان كبلر (1571 ـ 1630) وجاليليو (1564 ـ 1642)، الذين كلفوا وضع طوالع عدد من القادة لمعرفة حظوظهم: فإن كانت الطوالع إيجابية تشير إلى السعد والحظ الحسن نشرت على سبيل الدعاية لكي تشير إلى ما قدر لهم من نجاح. وكان ظهور نجم مذنب في العام 1618 مع بداية اشتعال حرب الثلاثين عاما، موضوعا لأنواع مختلفة من التفسيرات الدعائية، تماما مثلما حدث لمذنب هالي لدى ظهوره في العام 1066. وبالشكل ذاته كان من السهل أن يوصم الهراطقة وغير المرغوب فيهم بوصمة ممارسة السحر، فطبعت كتيبات عدة حول موضوعات الشياطين والعفاريت، لكي تصف بالتفاصيل البارزة «الأعراض» و «الأدلة» التي تم استخلاصها من المتهمين ـ تحت التعذيب ـ مع التعليمات المناسبة الواضحة. أما كتاب «خبائث الأشرار «Malle's Male Ficarum»، وهو الدليل الكاثوليكي الذي يحدد الصفات الصحيحة التي تؤهل من يتصف بها لأن يحرق حيا، والذي كان قد طبع لأول مرة في العام 1486، فقد أعيد طبعه أكثر من ثلاثين مرة قبل العام 1669. وكان مجرد التهديد بأن يحرق الشخص حيا، على عامود المحرقة، عونا لا يقدر لأي محاولة تبذل لإعادة الأرواح الضالة إلى طريق الإيمان الصحيح، وذلك على رغم أن الكثيرين من اليسوعيين عارضوا أسلوب حملات الرعب هذه لحساب أسلوبهم المفضل، القائم على التعليم وتعبئة عقول الناس بالأقوال العقائدية المبسطة. وعلى رغم هذا فإن أعمال الإعدام حرقا وصلت إلى أبعاد وبائية في ألمانيا في عشرينيات القرن السابع عشر.

وتجلت مظاهر البؤس أيضا في أزياء الجنود. وقد ذكر يوهان فالهوزن في كتابه «فن الحرب الراجلة»، في العام 1615، جميع المؤهلات المطلوبة في الجندي الجيد، بما في ذلك الانضباط، وأن «يحمل الله في قلبه». وكانت وحشية الجيوش الأوروبية، وهي «تتجول جيئة وذهابا» عبر الريف، واحدة من الخصائص المميزة الرئيسية لحرب الثلاثين عاما. وكان من الصعب أن يحتج الجنود بأن أحدا لم يحذرهم من الظروف البائسة التي واجهوها، وقد قالت إحدى القصائد التي ذاعت ـ مطبوعة ـ أيامها:

عليك أن تتقدم للرب والوطن
بالحماية والشرف
فانبطح دائما، وتنكب حملك وازحف
ولا تنم إلا قليلا وتمدد بلا راحة
وتحمل دائما، الجوع والعطش والعرق ورعشة البرد
والذهاب إلى أي مكان متأهبا للقاء مصيرك أو حظك!

وكانت قوات المرتزقة، مثلما رأينا، مشهورة بعدم انضباطها وعدم إمكان الاعتماد عليها، على الرغم من محاولات إلزامهم بعقود الحرب وإيمان الولاء لكبح جماحهم، فكانوا غالبا ما يفضلون أن ينفقوا مقدمات رواتبهم ونفقات سفرهم على الخمر والنساء والأغاني بدلا من أن ينفقوها على أزيائهم وأسلحتهم. وما لم يكن احتمال الحصول على الأسلاب والغنائم جذابا بما يكفي لإبقائهم في ميدان القتال، فإن التمرد والفرار كانا ينتشران. ومع ذلك فقد بذلت محاولات متزايدة لتعليمهم وتدريبهم، حتى يتحولوا إلى نوع ما من أنواع الوحدات المقاتلة المتماسكة. وأبرز من بذلوا هذه المحاولة كان جوستافوس أدولفوس ملك السويد، فقد عمد إلى تنظيم عمليتي دفع المرتبات والتدريب، وتولى الملك بنفسه قيادة رجاله إلى المعركة، وسط صفوف زاهية الألوان من الرايات والأعلام، وارتفعت المعنويات تبعا لذلك حتى قيل إن القوات السويدية كانت: «تفضل الموت بشجاعة الفرسان بدلا من الفرار». وحينما دخل الجيش السويدي الحرب العام 1630، ظهر تفوق نظامه وانضباطه ومعنوياته وأساليبه القتالية في انتصارات بريتنفيلد، ورين ولوتزين (العامين 1631 ـ 1632). ولم يفت خصومه أن يستفيدوا من درس استخدام قوات من أهالي البلاد الأصليين بدلا من المرتزقة. ومع

ذلك فمع استمرار استهلاك القوة البشرية الإسكندنافية، إضافة إلى موت جوستافوس أدولفوس نفسه في معركة لوتزين العام 1632، بدأت حتى قوات السويد الوطنية في اكتساب خصائص عدم الولاء التي ميزت الجيوش الأوروبية الأخرى.

ولكن لا ينبغي أن نرسم صورة ذات جانب واحد بشكل مبالغ فيه. فقد أمكن المحافظة على نوع ما من الانضباط ومن المعنويات، بفضل أساليب طال اختبارها عبر الزمان، مثل الموسيقى والرايات المرفرفة التي استخدمت للمحافظة على تماسك خط القتال ولإصدار الأوامر. وكانت الطبول والأبواق مفيدة أيضا في إغراق صيحات الخوف في المعركة وسط أصواتها الصاخبة، وساهمت الأناشيد والأغنيات في تهدئة الرجال قبل المعارك، بينما ألهمتهم القصائد الحماسية وألهبت مشاعرهم. وقد كتب هربرت لانجر قائلا:

> كان الخوف من الكائنات الخرافية، ومن القوى الغامضة ومن العقوبات البربرية التي استخدمها الضباط، ومن الموت في أي لحظة. وكان الطمع في الأسلاب المتوقعة، والحصول السهل على أطايب الأشياء من أي نوع، هي أقوى العوامل ـ بشكل واضح ـ التي ضمنت درجة معينة من الكفاءة القتالية من جانب المرتزقة. وساعد التدريب العسكري والتقاليد أيضا في المحافظة على الانضباط وعلى العزيمة في وسط القتال، على الرغم من الميل إلى التفكك الذي أثر في الكثير من تشكيلات المرتزقة.

وقد دفعت الجيوش الناهبة، التي كانت تعيش على خيرات الأرض، دفعت الفلاحين المرعوبين إلى الهرب إلى المدن المحصنة، وولدت أدبا وافرا حول وحشية البربرية العسكرية وفظائعها. وأصبح الجنود الذين يتحدثون بلغات أجنبية مجهولة، ويرتدون ملابس غير مألوفة، يجسدون الشيطان متنكرا. وفي بعض المناطق نظم الفلاحون أنفسهم، لكي يتخلصوا من هذه القوات الطفيلية، مثلما حدث في بافاريا، أو في «حرب الفلاحين» التي نشبت في النمسا العليا. وتبعا لذلك وجد القادة المدافعون عن بلادهم أنفسهم يحصلون على مساعدة السكان المحليين. وكانت وحدات الفلاحين نافعة بشكل خاص في حرب العصابات والمناوشات الخفيفة وفي الكمائن.

على ضوء هذه الخلفية ينبغي أن ننظر إلى الدعاية الحربية في حرب الثلاثين عاما. فإذا كانت أهداف الحرب قد طرحت وراء القناع القديم للدين، فلابد أن يذهب الكثير من «الفضل» في ذلك إلى الشعراء وكتاب الأغاني ومؤلفي الكتيبات والرسامين، الذين وصلت أعمالهم إلى كل طبقة من طبقات المجتمع تقريبا. ولقد لقي هذا مساعدة عظيمة ـ على سبيل المثال ـ من تطوير اللوح النحاسي الذي ساعد على طباعة اللافتات، بشكل أكثر كفاءة بكثير مما كان عليه الأمر باستخدام الحفر على الخشب، فأصبح الأمر، كما كتب الأستاذ كامين: «لقد أصبحت الكراسات ذات الكتابات القصيرة، وذات الجمل القوية الصياغة والحجة الواضحة، واللغة البسيطة هي أنجح وسائل الصراع الأيديولوجي... (و) أصبحت أقرب ما يكون لتوافر نوع من الدعاية للجماهير». وبذلك ظهر رجال الدعاية المحترفون، وأنتج مصورون ـ مثل فان دايك ـ صورا للجنرالات، وتخصص فرانكس في رسم مناظر المعارك، وأسبغ فيلاسكويز هالات المجد على الملوك الإسبان. غير أن الرسوم المحفورة على ألواح النحاس هي التي حققت التوزيع الجماهيري، وتتضح أهميتها الدعائية حين يضع المرء في اعتباره أن وجهة النظر التي حملتها تلك الرسوم المطبوعة، إنما كانت هي وجهة نظر من دفع تكاليفها ـ أي النخبة الحاكمة.

غير أن الانتفاع بالتقنية الجديدة لم يقتصر على الكتب المصورة واللافتات. فأوراق الأخبار التي كانت توزع محليا في القرن السادس عشر، حققت الآن توزيعا أوسع بكثير. ولقد تطلبت الأحداث المتسارعة تدفقا سريعا للأخبار والمعلومات، فأمكن أن توزع نشرات الأخبار الأسبوعية المطبوعة ـ من الألواح النحاسية ـ وأن تنتشر بإيقاع أكثر سرعة من خلال نظام بريدي كان قد جرى تحسينه، وإن ظل بدائيا إلى حد ما. ويشير مؤرخو الصحف بشكل عام إلى الدورية الشهرية التي صدرت لأول مرة العام 1609م في مدينة أسبورج باسم «ريليشن Relation» باعتبارها أول «صحيفة» حقيقية. وربما كانت أول دورية أسبوعية هي «فرانكفورتر تسايتونج» التي صدرت العام 1615. وظهرت أول صحيفة إنجليزية في العام 1620 على رغم أنها تصدر في مدينة أمستردام (الهولندية)، لكي تنشر أنباء حرب الثلاثين عاما. وإذا كانت هذه الصحف الأولى تظهر مرة

أو مرتين كل أسبوع فإنها كانت تصدر بلغات عدة متنوعة. وفيما بين العامين 1636 و 1646 كانت صحف أسبوعية قد أُسست في ست مدن إيطالية. وظهرت أول صحيفة يومية في مدينة لايبزيج الألمانية العام 1660، وهو ما يشير إلى درجة تحسن تناقل الأنباء واتصالاتها خلال النصف الأول من القرن السابع عشر.

أما فيما يتعلق بالحرب نفسها، فقد كان الوسيط الرئيسي للدعاية هو المطبوعات صغيرة الحجم: اللافتات، والنشرات الإخبارية ذات الصفحة الواحدة، والكتيب الصغير. وقد عكست «حروب الأقلام» درجة عمق انغماس الناس العاديين في شؤون الحرب وانشغالهم بها. وقد وصف لانجر Langer شعبية هذه المطبوعات بالعبارات التالية:

> فإلى جانب المواد التوراتية والمسائل الدينية، والتحذيرات الأخلاقية، والتنبؤات والنصائح الداعية إلى التوبة والعودة إلى حياة التواضع التي يتقبلها الرب، فإن (هذه المطبوعات) عالجت موضوعات تتعلق أصولها بعالم التجربة الحسية: الموت والخراب، العنف والسلطة والشر والرذيلة، وتزييف النقود والغش في الموازين واللدد في الخصام، والجرائم والمعجزات، وميل النساء إلى الشجار والمشاكسة، ومتاعب الأمومة، والظلم الاجتماعي، والثراء والفقر، والحظ والنحس، وآخر الصرعات وتدهور مستوى اللغة والأخلاق، وأحداث الدولة ـ وبخاصة ما يجري للأشخاص والأحزاب وأحداث تقلبات الحرب، مثل من هم المذنبون ومن هم الضحايا، ومن يفترض أن يكونوا مسؤولين حقا؟ وأنباء مسارح الحرب، والمفاوضات والمعاهدات.

ووجهت الرسوم الساخرة (الكاريكاتور) ـ وهي وسيلة فعالة لتوصيل الأفكار الموجهة إلى الأميين ـ نحو القادة العاملين لحساب الأنظمة الأجنبية. فعزفت هذه الرسوم على أوتار التجارب المباشرة لشعوب كانت تحتاج إلى تفسير ما للبؤس الذي اكتسحها. وكانت محاولات فرض الرقابة متناثرة وعشوائية، ولكنها عجزت عن وقف تيار الرغبة المتصاعدة في الإدانة والتشهير الذي اجتاح جميع الأجنحة المتقاتلة، وخاصة حين كانت وثائق

أحد تلك الأجنحة تقع في أيدي هذا الجانب أو ذلك. وقد وقعت أشهر حادثة من هذا النوع بعد معركة الجبل الأبيض العام 1620، حينما انهزم فريدريك الخامس ملك بوهيميا أمام قوات العصبة الكاثوليكية وقوات الإمبراطور وإسبانيا. فقد عثر مؤيدو فريدريك على خطابات كتبها الإمبراطور إلى إسبانيا تتعلق بنقل ملكية بعض الأراضي البروتستانتية، فتم نشر هذه الأوراق ووزعت لكي تثبت المؤامرة الكاثوليكية بين الإمبراطور وإسبانيا.

وكان تدخل السويد إلى جانب القوات البروتستانتية في العام 1630 مناسبة لشن حملة دعائية جديدة، وقد وزع على نطاق واسع «بيان الحرب» الذي أصدره جوستافوس أدولفوس، لكي يبرر تدخله أمام الشعب الألماني بوصفه سعيا إلى التحرير الديني، وأضيف إلى هذا البيان كثير غيره من اللافتات، ولعبت الدعاية السويدية على الكلمات فاستخدمت كلمة «سويد Swed» معكوسة لكي تصبح «ديوسDeus»، وذلك بهدف تصوير الملك جوستافوس في صورة بطل أسطوري من أبطال الملاحم الهومرية(*). ولكن التأييد الذي لقيه «المحرر» السويدي في البداية، تلاشى حينما شن خصومه موجة من الإرهاب صحبتها حملة دعائية تركزت حول فكرة «أين كان محرركم حين اشتدت حاجتكم إليه؟». وبعد موت جوستافوس أدولفوس خبا الحماس الجرماني، فيما كان «المحررون» يقتربون بشكل متزايد من صورة «الغزاة». فلم يؤد تدخلهم إلا إلى المزيد من تدهور ظروف حياة الريفيين. ومع ذلك سوف يكون وصف رجال الدعاية بالتماسك المنطقي شيئا بعيدا عن الدقة، فحتى البروتستانت شنوا حروبا ورقية - كلامية - ضد بعضهم البعض، الأمر الذي أبهج الكنيسة الكاثوليكية، حتى أن معقل اللوثريين في سكسونيا شن حربا نفسية ضد القوات الكالفينية في بالاتينيت. وتطلب تغير الأوضاع الحربية لأطراف الصراع تغيير ما تقدمه الدعاية من تبريرات وتفسيرات، وقد قال أحد الكتاب: «لا يستطيع القلم والسيف أن يحققا أعمالا جليلة، ويستطيع كل منهما أن يشن الحرب أو أن يقر السلام مرة أخرى. وصحيح أن القلم يسبق السيف. غير أن التقدم قد يتحقق - أحيانا - بشكل أسرع

(*) ربما كان المتصور هو البطل الإغريقي «ديوميديوس»، قاهر «مارس» إله الحرب نفسه في ملحمة الإلياذة - المترجم.

بواسطة السيف»، ومع ذلك فبعد ثلاثين عاما من الصراع، كون القلم والسيف تحالفا قويا اعترف فيه كل منهما بأن النجاح مستحيل أن يتحقق لأيهما دون الآخر. وعلى الرغم من أنه لم يكن ثمة جديد في هذا المزج بين الأعمال القتالية والدعاية، فإن ما ميز هذه المرحلة هو مدى العمق الذي وصله هذا التحالف، ومدى الاتساع الذي حققه توزيع المواد الدعائية إلى درجة جعلت تلك المرحلة نقطة تحول مهمة في تاريخ الدعاية لحرب. ويقول الأستاذ كامين مختتما دراسة له في هذا الصدد: «كان القرن السابع عشر قرنا من التجديد والابتكار بسبب حجم الدعاية الضخم فيه». ولقد كانت حرب الثلاثين عاما خطا فاصلا في التاريخ بسبب ما شهدته من تهويل الدعاية».

14 الحرب الأهلية الإنجليزية
(1642ـ1646)

لقد أدى تزايد انغماس جمهور العامة في كل من السياسة والأعمال الحربية منذ الإصلاح الديني إلى تزايد نمو الدعاية، إضافة إلى أنه يعكس نموها من جانب آخر. وفي أربعينيات القرن السابع عشر انفجر الموقف في إنجلترا في صورة حرب أهلية شاملة أو «التمرد الكبير»، كما عرف أيامها. ومرة أخرى يقول الأستاذ كامين:

> أصبحت مواجهة الموقف أمرا ضروريا: فالدعاية الثورية كانت أكثر من مجرد تمرين في الإقناع، إذ إنها كثيرا ما كانت تعكس مواقف شعبية حقيقية، ولم تكن ملتزمة بتأييد الأحزاب المستقرة، وإنما بوضع كل أنواع السلطة موضع المساءلة والشك. وحالما فتحت أبواب الرقابة المتحكمة حتى انطلقت مشاعر كل فئات الشعب وأقسامه في فيضانها.

وقد أعانت المطبعة الناس على الانغماس في السياسة لدرجة غير مسبوقة. وصار الوضع، كما

وصفه أحد الكتاب في العام 1641، «سوف ينشر فن الطباعة المعرفة، حتى أنه لن يمكن حكمُ العاديين من الناس بالقهر بعد أن عرفوا حقوقهم وحرياتهم».

ولذلك فحينما شن خصوم تشارلس الأول (الذي حكم فيما بين 1625 و 1649) هجوما دعائيا مكثفا ضد الملك، الذي اعتقدوا أنه كان يحاول أن يدمر وضعهم الدستوري، فإنهم لم يكونوا يدافعون فقط عن حقوقهم بوصفهم «مواطنين إنجليزيين ولدوا أحرارا»، وإنما كانوا أيضا يطورون الدعاية بوصفها قوة تحرير جديدة. فمنذ حركة الإصلاح الديني والثورة الهولندية،(ضد إسبانيا)، هيأت الطباعة وسيلة يستطيع المقهورون أن يهاجموا بها قاهريهم، وأداة للتحرير والثورة بلغت من القوة درجة أنها فرضت ـ بشكل حتمي ـ الاستجابة المزدوجة، المكونة من كل من الدعاية المضادة وفرض الرقابة من جانب السلطات الحاكمة.

وعلى الرغم من أن جيمس الأول، وتشارلس الأول من بعده قد حاولا الإبقاء على نظام الرقابة الذي فرضته إليزابيث، فإنهما لم يستطيعا كبح النفوذ المتزايد لطائفة التطهريين Puritans، وهم حركة كالفينية منشقة داخل كنيسة إنجلترا الرسمية، ولا النفوذ المتزايد للنقد الموجه لسياستهما داخل البرلمان. وفي أواخر عشرينيات القرن، كان الخصوم السياسيون والدينيون لأسرة ستيوارت قد كونوا تحالفا بهدف منع إسراف الملك في الإنفاق والوقوف في وجه ابتكارات كنيسته السامية. وخلال الثلاثينيات حل تشارلس الأول البرلمان وحكم البلاد من دونه، ثم حصل من «قاعة النجوم» [1] على مرسوم بحظر استيراد الكتب من الخارج، إلا إذا قدمت قائمة بعناوينها إليه أو إلى أسقف لندن قبل استيرادها.

ومع ذلك فدون وجود جيش دائم، لم يكن بوسع تشارلس أن يقمع الثورة الاسكتلندية التي نشبت العام 1638. وحينما قام الإسكتلنديون بغزو إنجلترا لم يكن أمام تشارلس من خيار سوى أن يستدعي البرلمان للاجتماع. وخلال وجود هذا «البرلمان الطويل» الذي دامت عضويته من 1640 حتى 1653، طرحت جميع القضايا الأيديولوجية (التجار في مواجهة الاستبداد الملكي). ومع ذلك فقد نجح البرلمان في البداية في حل حكومة الملك الشخصية التي سيطرت خلال العقد السابق (بما في ذلك إلغاء قاعة النجوم، وحل

أدوات الاستبداد الملكي الأخرى). وسرعان ما انقسم البرلمان الطويل إلى جناحين: ملكي وبرلماني، وحين حاول الملك القيام بانقلاب عسكري ضد الجناح الأخير، أرغم ضغط حشود العامة والرعاع تشارلس على مغادرة لندن وشرع كل من الطرفين المتنازعين في جمع قواته.

وخلال الحرب الأهلية التي أعقبت ذلك من العام 1642 حتى 1646، أدى انهيار نظام الرقابة والترخيص الذي أسسته أسرة تيودور، ثم أسرة ستيوارت، إلى تدفق كميات هائلة من الدعاية المعتمدة على النشرات المطبوعة للأنباء. وأصدر كل من الملكيين (أو :الفرسان) والبرلمانيين (أو: ذوي الرؤوس المستديرة) الصحف الخاصة بكل منهما، فكانت صحيفة الملكيين الرئيسية هي «ميركوريوس أوليكوس Mercurius Aulicus». وكانت الصحيفة الرئيسية للبرلمانيين هي «ميركوريوس بريتانيكوس Mercurius Britanicus». وبفضل الحماسة التطهرية، والميزة التي وفرتها السيطرة على لندن ومنطقة الجنوب الشرقي، بما توافر فيها من مطابع كثيرة، فقد أصبح في وسع ذوي الرؤوس المستديرة أيضا أن يحققوا التفوق العسكري على قوات الملك المتمركزة في الشمال، وسيرت المظاهرات الحاشدة للمحافظة على روح الناس المعنوية العالية بينما انهمر طوفان النشرات الهائل من مطابع كل من التطهريين والبرلمانيين. وتمكن بائع للكتب يدعى جورج توماس من جمع 15 ألف كتيب فيما بين العامين 1640 و 1663، وتحتوي مجموعته، في المكتبة البريطانية، على 2000 كتيب للعام 1642 وحده. وتزايدت أعداد الصحف بالوتيرة ذاتها، فلا تحتوي مجموعة توماس إلا على أربعة فقط للعام 1641، ولكنها تضم 167 صحيفة للعام 1642، وتصل إلى رقم 722 ـ وهو عدد مذهل ـ للعام 1645. غير أن البرلمان الطويل بدأ ينزعج من عنف التعارض بين الآراء المختلفة، فعاد إلى فرض الرقابة والترخيص في العام 1643.

وكان دعاة المساواة وحرية العبادة والحكم الجمهوري Levellers من أكثر الدعاة نجاحا، فتمكنوا من تخطي حواجز الرقابة وقوانين الترخيص المتجددة بمهارة ملحوظة، فاستفادوا استفادة واسعة من المطبعة، وتمكنوا من تهريب مطبوعات خاصة بهم من مركز الطباعة في القارة، أي مدينة أمستردام. وفي العام 1647 أعلن جون

ليلبورن[*] أنه «عازم على دعوة المملكة كلها والجيش بأسره» للوقوف في وجه (طائفة) المشيخيين Presbyterians[2]، وقد فعل ذلك بالفعل بفضل جريدة «المعتدل ـ موديريت Moderate». ولكن المخاطر كانت كبيرة مع التهديد بعقوبات قاسية لجريمة التحريض على العصيان وإثارة الفتن، من بينها عقوبة نزع أعضاء جسم المذنب وتمزيقه. غير أن حرية الكلام، في حدود دواعي الأمن القومي، كانت واحدة من الحقوق التي أبدى «الإنجليز المولودون أحرارا» استعدادهم للقتال من أجلها. وكتب جون جودوين، أحد زعماء التطهريين، يقول إن الرقابة منعت الروح القدس من الظهور بفضل الصحافة، أما الشاعر التطهري جون ميلتون[3] فقد ردد هذا المطلب في مقالته المشهورة «المرافعة: أريو باجيتيكا Areo Pagitica» المنشورة العام 1644. غير أن أسبابا سياسية هي التي كانت وراء احتجاج دعاة المساواة ضد إعادة فرض الرقابة، وذلك على حد ما طالب به أحد قادتهم في العام 1644، قائلا إن الصحافة يجب: «أن تكون حرة، وفي متناول أي شخص لا يكتب شيئا يخدش الحياء بشدة، أو لا يمثل خطرا على الدولة». وقالوا إن شركة أدوات الكتابة والطباعة قد امتلكت ما يكفي من القدرات لكي «تقمع كل ما يؤدي إلى إقرار الحقوق والحريات العادلة لأحرار الأمة»، بينما هي في الوقت ذاته تستطيع أن «تطبع وأن تفشي وتنشر كل ما تشاء من الكتب والكتيبات والمطاعن البذيئة، على رغم أنها تكون مليئة بالأكاذيب وتميل إلى تسميم المملكة بمبادئ الظلم والاستبداد. «غير أن الأمر الذي أثار أعنف المجادلات كان أيامها ـ كما هو الآن ـ تعريف: ما يشكل خطرا على الدولة. بل إن ميلتون نفسه لم يسلم نهائيا بالحقيقة المؤكدة فيعترف، في «المرافعة: الأريو باجيتيكا» بضرورة فرض السيطرة على «كل شر أو عقوق يتنافى بشكل مطلق مع الإيمان أو مع القيم». ومع ذلك فلقد نشأت وتطورت المطالبة بحرية التعبير السياسي من قلب المطالبين بحرية الضمير والتعبير الدينيين.

وكان القادة الأكبر سنا في صفوف ذوي الرؤوس المستديرة مترددين في مقاتلة ملكهم الشرعي. ففي الحرب الأهلية يكون تحديد العدو ورسم صورته مهمة بالغة الصعوبة بالنسبة لرجل الدعاية، وخاصة في حرب

(*) أحد زعماء دعاة المساواة التطهريين المترجم.

بدأت دون إصرار شديد وفي تردد قوي، كما حدث في إنجلترا. غير أن أوليفر كرومويل[4] لم تراوده مثل هذه الهواجس، وهو الذي كانت فرقته من المقاتلين المعروفة باسم «الأشداء، ذوي الجنوب الحديدية Ironside» تتميز بدرجة عالية من الحماسة الدينية والتعصب، يدفعها اقتناع قوي بأنها على الحق وبأن قضيتها هي الصواب. وإذ كسب جيش كرومويل الأنموذجي الجديد كل معركة خاضها، فقد أنزل الهزيمة النهائية بالملكيين في معركة ناسبي العام 1645. وكتب كرومويل عن أعدائه قائلا: «لقد جعلهم الله حصادا هشيما لسيوفنا». وهكذا أسرت قوات كرومويل الملك العام 1646 وسجنته لمدة عامين، بفضل الانضباط الصارم والمعنويات العالية (فقد كانوا ينشدون الأغاني الدينية وهم متجهون إلى المعركة). وإذ انتهت الحرب، فقد بدأت مختلف الأجنحة السياسية تتعارك من أجل السلطة، ولكن الملك رفض أن يمتثل لمطالب التطهريين. وحالما منع المشيخيون والفرسان من خصوم أتباع كرومويل المستقلين من دخول البرلمان بالقوة المسلحة العام 1648، فقد قرر البرلمان «العاجز» أن يعدم الملك في العام 1649 وأصبحت إنجلترا جمهورية تطهرية، فتحقق كل من قمع إيرلندا الوحشي على يد كرومويل وغزوه لإسكتلندا وحروبه مع الهولنديين والإسبان، اعتمادا على مؤسسة الديكتاتورية الفردية في الوطن والتي أصبح كرومويل بواسطتها «اللورد الحامي Lord Protector».

لقد أدت الحروب الخارجية، وتأسيس نظام جديد تعين عليه أن يدعم وضعه، بالضرورة إلى أن تستخدم حملات الدعاية وسائل إيجابية ووسائل سلبية على حد سواء. ولا يبدو أن أحد النوعين كان أكثر تأثيرا من قرينه بشكل خاص، على الرغم من الأعمال التبريرية التي كتبها كل من ميلتون وأندرو مارفيل[5]. وفي العام 1651 نشر كرومويل كتابه «الدفاع الأول عن شعب إنجلترا»، من أجل الترويج لفكرة الكومنولث، وفي «الدفاع الثاني»، الذي نشره العام 1654 ارتسم في صورة شخص توراتي (من العهد القديم) يأتي لكي يعيد الحرية لإنجلترا. غير أن هذه العناوين تكشف عن نقطة ضعف رئيسية: فقد كان كرومويل قد أصبح بالتأكيد في موقف الدفاع عن نفسه، وتعمق هذا مع أواخر الخمسينيات حينما بدأ يصدر عملات معدنية وينشر لافتات عريضة تحمل رسما له وهو يضع إكليل الغار الإمبراطوري،

بل وهو يضع تاجا على رأسه. ومع قيام وضعه في البلاد على دعم جيش دائم يتكون من خمسين ألف رجل، فإن الرأي العام لم يبدأ فقط في ازدراء ديكتاتوريته العسكرية وسياسته الخارجية العدوانية والمكلفة، وإنما بدأ يزدري مجموعة من السلطات لا شك في أن الملك الراحل تشارلس كان جديرا بأن يحسده عليها. وعلى الرغم من أن الصور ذات التوجه الخيالي، والتي فرضتها الرقابة، كانت قادرة على المحافظة على قوة الدفع الهجومية للنظام (حرفيا بالنظر إلى النشرات المصورة الساخرة التي وجهت إلى كرومويل «ذي الأنف النحاسي»)، وذلك بإصدارات من نوع «اكتشاف قيود جديدة لإنجلترا». ولكن الأزمة السياسية التي أعقبت موت كرومويل العام 1658، أثبتت أن قرونا من الدعاية الملكية لم يكن من الممكن استئصالها من النفس الإنجليزية من خلال تجربة جمهورية دامت عشر سنوات فحسب. فقد كان التيودور قد قاموا بعملهم بصورة جيدة، وكانت إنجلترا تريد ملكا شرعيا فتوج ابن تشارلس الأول، باسم تشارلس الثاني العام 1660. وعلى رغم أن الأزمة لم تكن قد انتهت بأي شكل فإن العاهل الإنجليزي كان قد تبين أن حكومته (أو حكومتها) يجب أن يعتمد وضعها في المستقبل، على تأييد الرأي العام الجماهيري، بدلا من اعتمادها على الحق الإلهي. ومع ظهور السياسات الحزبية أصبح من المقرر لمحاولات التوجه إلى هذه الجماهير أن تزيد [6].

15 لويس الرابع عشر
(1661ـ1715)

إذا كانت حالة إنجلترا في منتصف القرن السابع عشر تمدنا بمثال عن كيفية فشل كرومويل ـ على رغم استخدامه للدعاية ـ في جعل نظامه مقبولا بشكل عام، فإن حالة فرنسا تعد مثالا أكثر وضوحا لأخطار انتشار ظل دون جسم ملموس يكون أصلا له. وتكشف فرنسا تحت حكم البوربون أيضا أخطار حرمان الرأي العام من منافذ التعبير الدستورية. ولقد كان مفهوم الصحافة بوصفها قوة تحرير يستطيع الرأي العام بواسطتها أن يحدث التغيير السياسي وأن يؤثر فيه، كان هذا المفهوم مضادا لمفهوم الملكية الاستبدادية المطلقة. ومع ذلك فإن الخيلاء الملكية المزهوة بنفسها التي ميزت النصف الأول من حكم لويس الرابع عشر، قد تكشفت عما لا يزيد على نوع من الدعاية حينما افتضحت في النهاية خلال النصف الثاني من التحدي الذي مثلته حرب أصابت النظام بالشلل.

وكان لويس الثالث عشر(حكم فيما بين 1610 و 1643) وكبير وزرائه الكاردينال ريشيليو قد زجا بنفسيهما في حرب الثلاثين عاما إلى جانب البروتستانت الهولنديين والسويديين، بهدف تحطيم

حصار أسرة الهابسبرج الكاثوليكية ـ حكام إسبانيا ـ لفرنسا .وطبقا لما يقوله المؤرخ الفرنسي جان بيير سيجوين، فإن ملوك فرنسا في القرن السادس عشر كانوا قد أسسوا بالفعل نظاما للدعاية تم تشكيله بهدف «كسب الحرب النفسية التي مهدت لعملياتهم الحربية وصاحبتها ». وقد مات ريشيليو في العام 1642، وتبعه لويس الثالث عشر بعد عام واحد، لكي يحل محله لويس الرابع عشر ذو الأعوام الخمسة من العمر (حكم فيما بين 1643 و 1715). ولكن حينما تم توقيع معاهدة وستفاليا التي أنهت حرب الثلاثين عاما في 1648، كانت إدارة فرنسا قد أصبحت في قبضة الكاردينال مازاران. وقد هددت «الأزمة العامة» التي اجتاحت جميع المجتمعات الأوروبية وانفجرت في إنجلترا في صورة حرب أهلية... هددت بنسف الملكية الفرنسية خلال الفترة التي شهدت قوة جماعة الفروند Fronde (1648 ـ 1653)[1].

وكان ريشيليو قد أوصى بتأسيس جريدة رسمية، وهي تلك التي أسسها ثيوفراست رينودو والمسماة «لاجازيت دي فرانس» في العام 1631. وقد تم التخطيط لهذه الجريدة بحيث تصدر أسبوعيا، في أربع صفحات «من أجل الملوك والسلطات القائمة» للإعلان عن سياساتهم وآرائهم، ونشرت أيضا أنباء ذات طبيعة عامة أكثر من ذلك من أجل «ألا يذهب التاجر بعد ذلك بتجارته إلى بلدة محاصرة ومخربة، ولا يبحث الجندي عن عمل في بلد لاتوجد فيه حروب. ولاداعي للحديث عن الارتياح الذي سيلقاه من يكتبون لأصدقائهم والذين كانوا يضطرون ـ في السابق ـ لأن يبعثوا بأشياء كاذبة أو قائمة على الهرطقة والتجديف».

وسرعان ماتبعت الحكومات الأوروبية الأخرى هذا الأنموذج ـ حيث كانت تعاني من التوسع الهائل في الدعاية السياسية المطبوعة. وخلال فترة ازدهار جماعة الفروند التي بدأت في شكل احتجاج أرستقراطي ضد تآكل الامتيازات الطبقية، والتي سرعان ماضمت غوغاء باريس وجنود الجيش الفرنسي الذي تم تسريحه أخيرا... خلال هذه الفترة، نشر ما يربو على خمسة آلاف كتيب ونشرة أنباء تهاجم الكاردينال مازاران. وقد عرفت هذه الكتيبات ـ التي كانت تكتب بأسلوب بسيط وتباع بسعر زهيد ـ باسم: «المازارينيات Mazarinade» نسبة إلى عنوان أشهر هجوم تعرض له وزير الملك «المازاريناد La Mazarinade» الذي نشر في مارس العام 1651. ونحن

نعرف عدد هذه المطبوعات من خلال قائمة جمعها شخص يدعى مورو Moreau، على رغم أنه يبدو محتملا للغاية أن تكون حرب الكتيبات قد أنتجت إصدارات أكثر بكثير من تلك التي تضمنتها القائمة المذكورة، وهو عدد يثير الانتباه تماما بالنظر إلى قيود الرقابة العنيفة. وقد استخدمت جريدة «لاجازيت دي فرانس» بوصفها الناطق الرسمي باسم الحكومة، فأصبح من الممكن، على حد ماكتبه أحد المصادر بأن يشارك:

> من العظيم إلى المتواضع، أو الجميع دون استثناء في مناقشة مايجري من خلال الجازيت وحدها. ويشتري من يستطيع نسخة لنفسه ويجمع النسخ كل يوم. ويكتفي آخرون بأن يدفعوا شيئا لكي يستعيروا نسخة ويقرأوها ويعيدوها، أو تشترك جماعة منهم حتى يتمكنوا من شراء نسخة واحدة.

علينا أن نتذكر أننا مانزال نتحدث عن عدد محدود نسبيا من المتعلمين في أوروبا المسيحية، الذين قبلوا رأيا تقليديا عن طبيعة الإنسان في علاقته بالله. غير أن قوى التغيير تطلبت ـ مثلما سنرى بعد قليل ـ منافذ للتعبير أكثر من تلك التي أتاحتها الجازيت. وتماما مثلما أصبح من واجب الكنيسة أن توجه رأيها في سبيل حماية الإنسان وإرشاده، فقد بدأت الدولة في تحمل مسؤولية نشر «الحقيقة». وقد ساعدت الطباعة في قيام المتعلمين بهذه العملية، حيث أصبحوا مسؤولين عن تلاوة«الحقيقة» بالصوت المرتفع للأميين. وكان ذلك معيارا لولائهم. غير أن الدولة سرعان ما كانت ستكتشف أن رأيا محكوما أكثر من اللازم عن «الحقيقة» سوف ينتج أثرا مناقضا تماما للمطلوب.

ولم يكن هناك أي قدر أو نوع من الرقابة قادر على منع «الأكاذيب» من أن تطبع سرا، أو أن تهرب من خارج البلاد. وقد حاول ريشيليو ومازاران أن يستخدما الرقابة كأداة للتحكم في الرأي العام (وقد جعل قانون ميشو الصادر في العام 1629، كتاب الأعمال غير المشروعة عرضة للاعتقال والمحاكمة). غير أنهما لم يكونا قادرين أبدا على منع الإصدارات غير المشروعة من دخول فرنسا، وخاصة الدوريات المطبوعة باللغة الفرنسية التي كانت تصدرها طائفة «الهوجونوت» [2] المهاجرة إلى هولندا عقب إحياء قانون نانت العام 1685. وبدلا من ذلك فقد اعتمدا بشدة على وسائل

إقناع إيجابية؛ فكان الأمر، مثلما كتب أحد الوزراء الفرنسيين قائلا: الملك أصبح بحاجة إلى أن يوظف «أقلاما ماهرة، فيجعلهم يكتبون نشرات سرية وبيانات ودفاعات وتصريحات، وذلك من أجل قيادة (شعبه) من أنفه»... أو أصبح الأمر مثلما كتب أحد «الأقلام الماهرة» التي وظفها ريشيليو قائلا: «إن الأسلحة هي ما ترفع عاليا قضية الأمراء وتنصرها، غير أن الكتب الجيدة الطباعة هي التي تذيع عدالتهم، وتوحد مشاعر العامة حتى ينظروا إليهم بوصفهم آيات للإنصاف والعدل».

ولقد تأثر الملك الصبي الصغير تأثرا عميقا بتجربته مع جماعة الفروند، حينما اقتحم المتمردون المتظاهرون غرفة نومه داخل القصر في العام 1651. ولذلك فإنه حينما مات مازاران في العام 1661، وتسلم لويس الرابع عشر ـ في الثانية والعشرين من عمره ـ مسؤولية فرنسا شخصيا، قرر أن ينقل بلاطه من باريس ومن وسط رعاعها إلى فرساي. وكان المقصود من القصر الجديد أن يرمز إلى عظمة لويس الرابع عشر ومجد حكمه لفرنسا التي كانت (في ذلك الوقت) القوة الكبرى في أوروبا. وإذ كان الملك يكرس نصف يوم عمله للحياة في البلاط كوسيلة للحفاظ على ولاء هذا البلاط المتواصل، ووحدته الأرستقراطية من خلال توزيع الامتيازات وأنواع التكريم (مع إقامة كبار النبلاء في القصر حيث يستطيع لويس أن يراقبهم) فقد سمح الملك لوزرائه ـ مثل كولبير ولوتيير ـ بإدارة شؤون حكمه المطلق، وأن ينشئوا أفضل جيش في أوروبا. وكانت «الهيبة» عند لويس هي جوهر سلطاته. ولم يكن قصره في فرساي مصمما بهدف التأثير ـ ببساطة ـ في الأصدقاء والأعداء على حد سواء؛ وإنما كان هو التعبير المحدد الصادق عن سلطته المطلقة. وقد كتب جوزيف كليتس، بوصفه مؤرخ دعايته يقول:

> كان على الرجل الذي وضع التاج على رأسه أن يقوم بدور نصف الإله، وقد قام لويس الرابع عشر بهذا الدور ببراعة خير قيام. وبوصفه «مؤديا» بارعا ـ كأبرع الممثلين ـ في المسرحية التي يقدمها في العرض المسرحي المدقق لعصر الباروك، فقد قام أيضا بتأليف النص وبناء الديكور وتصميم الملابس وإخراج العرض. وبواسطة المطابقة الكاملة بين ذاته ودورالعاهل، فقد أسبغ لويس حياة ديناميكية على أيديولوجيا

الحكم المطلق».

أما صور رسوم الشخصيات ـ التي لايمكن تقدير قيمتها في تمكيننا من استبصار طموحات الحكام ومثلهم العليا وادعاءاتهم وتصورهم عن أنفسهم ـ فقد استخدمت منذ العصور القديمة كوسائل لتدعيم السلطة، ولم يكن لويس الرابع عشر استثناء من تلك القاعدة. فيصور موضوع الحاكم بوصفه قائدا حربيا عظيما في قاعة المرايا بقصر فرساي، وهي القاعة التي تزينها ـ كاملة ـ رسوم تصور انتصارات لويس في الحرب الهولندية (1672 ـ 1678). ويقدم الرسامون لويس في صورة أكثر الملوك «مسيحية» و«الملك الشمس» الذي وضعت الحروف الأولى من اسمه على المباني وعلى المنسوجات ـ على السواء ـ والذي احتفل الناس بمجده في احتفالات لاحصر لها. وأضاف المؤرخ جونت ستوي قائلا:

ولقد قابلت الطبقات المتعلمة في فرنسا هذا السلوك باتجاه متزايد إلى أن تشير إلى الملك في لغة لاتعبر فقط عن الخضوع؛ فقد تحولت صياغاتهم للمداهنة إلى حالة عقلية ثابتة. وربما يكون هذا الاتجاه قد كبحته الهزائم العسكرية الفعلية في سبعينيات القرن السابع عشر، غير أن انتصار العام 1678 (على الهولنديين) تم استغلاله لرفع شخص العاهل إلى مكانة مافوق النقد».

ودعمت الأعمال الأدبية المدائح المرئية، مع ما أكده راسين[3] من أن «كل كلمة من كلمات اللغة، وكل مقطع هي أشياء ثمينة القدر عندنا، لأننا نعتبرها الأدوات التي نخدم بواسطتها مجد حامينا العظيم». وبالمثل آمن بوسويه [4] بأنه «تكمن في لويس إرادة الشعب بأسره» وفي مقابل جهودهم تلقى الفنانون والعلماء والكتاب مائة ألف جنيه ذهبي كل سنة من الحكومة. وباختصار فقد كرست جميع جوانب الحياة الفرنسية للمفهوم الذي مثلته ملكية لويس المطلقة. وكان لذلك تأثيره لبرهة من الزمن؛ ففي خلال النصف الأول من حكم لويس تمكنت عبادة شخصه من تجريد كل أنواع المعارضة من أسلحتها.

وكان على الحرب أن تبين حقيقة تأثير هذه الدعاية وفاعليتها. وكان لويس ينظر إلى الحرب بالنظرة نفسها التي كان ينظر بها إلى بلاطه الزخرفي أو الاحتفالي، ولكنه لم ينظر إليها باعتبارها مجرد شيء ترفي، وإنما باعتبارها وسيلة يمكن بواسطتها أن يستعرض مجده، وأن يوسع

نطاقه. ومع ذلك، فإن المصائب التي أنزلتها الحرب برعاياه، وخاصة خلال النصف الثاني من حكمه مع نشوب حرب عصبة أوجزبرج (1688 ـ 1697)، ثم حرب الوراثة الإسبانية (1701 ـ 1714) تطلبت شن حملة دعائية متواصلة لرفع المعنويات المتهاوية، سواء معنويات المدنيين و العسكريين. وكانت هذه الحملة ضرورية للغاية بالنظر إلى تزايد عدد الهجمات الدعائية ضد الملك الشمس، والتي شنها كل من نقاده الداخليين وخصومه الخارجيين، وهي الهجمات التي تركزت على اتهام لويس بأنه يحاول أن يخلق سلطة ملكية عالمية. وكان أكثر من عبروا عن هذا الرأي تأثيرا هو فرانسوا دي ليزولا الذي تكفل الإمبراطور ليوبولد الأول بنشر كتابه «فارس الدولة والعدالة Le bouclier delétat et de Justice» العام 1688. وقد واجه مثل هذه الادعاءات وزير خارجية لويس الأخير كولبير دي تورسي الذي ركز تركيزا شديدا على الدعاية الخارجية الموجهة إلى أناس لم تؤثر فيهم، بشكل مباشر، عبادة البوربون لشخص الملك داخل فرنسا. وكان تورسي، قادرا، في الداخل، على السيطرة بشكل جيد إلى درجة معقولة على الصحافة الباريسية، ولكن بمعونة الشرطة، وذلك على رغم ما اشتكى منه المستشار بونشارتران، من أن «طباعة الكتب السيئة مستمرة في مدينة روان بحرية أكثر من أي وقت مضى». ومن أن «باريس كثيرا ماتغرقها تلك الطبعات». وفضلا عن ذلك، فقد حاول تورسي ـ بالنسبة للخارج ـ أن يشجع قمع الأعمال الهجومية عن طريق توجيه المناشدات الديبلوماسية إلى الحكومات الأجنبية، وعن طريق السيطرة على نظام البريد الفرنسي بشكل أكثر فعالية والذي كان الكثير من المواد الدعائية الأجنبية يوزع من خلاله، وأخيرا عن طريق حملة دعائية مضادة، إيجابية، تنطلق دفاعا عن لويس.

ومن أسباب انتشار الإصدارات الأجنبية وشعبيتها في فرنسا إلى هذه الدرجة، نقص الأنباء والآراء البديلة في الإصدارات الرسمية من نوع الجازيت. فإذا كانت هذه ـ إلى درجة كبيرة ـ أداة تعمل من أجل التمجيد الشخصي للملك بدلا من أن تكون نشرة إخبارية، فقد بدأ القراء يبحثون عن الصحف الصادرة باللغة الفرنسية في الخارج، وبخاصة في هولندا. وكانت المشكلة ـ بالنسبة لتورسي ـ هي أن مثل تلك الصحف غالبا ما كانت تحتوي على قيم ومشاعر معادية للملكية، تدسها وسط الأخبار الحريفة

عن الحروب الخارجية؛ فكان عليه أن يبحث عن منافذ أخرى لدعايته، لأنه شعر بأنه لم يعد قادرا على استخدام الجازيت بشكل أكثر تأثيرا، حيث كانت بوقا رسميا ومعترفا به للحكومة الفرنسية (وبصفتها هذه فإنها قد تعرض المفاوضات الديبلوماسية للخطر إذا حملت هجمات دعائية ضد حكومات أجنبية). وتعد مشكلة تورسي أزمة من الأزمات التقليدية للدعاية وهي: كيف ترفع المعنويات الداخلية بواسطة نشر مجموعة معينة من المشاعر المعادية للأجانب، بينما يتعين مراعاة حساسيات الحكومات الأجنبية إزاء مثل تلك الهجمات المحلية التي يمكن أن تسد طريق تحسين العلاقات الديبلوماسية. ففي عصر الاتصالات لا توجد دولة معزولة ـ كالجزيرة ـ مغلقة أمام العالم الخارجي واتجاهاته. وفي خلال المراحل الأخيرة من حرب الوراثة الإسبانية، وحينما كانت فرنسا تواجه صعوبات كبرى عسكرية واقتصادية معا، تعين على تورسي أن يوازن ـ من جانب ـ بين ضرورة المحافظة على الولاء والمعنويات في الداخل، بينما يحاول ـ في الجانب الآخر ـ أن يتجنب إثارة حفيظة أعدائه النمساويين والإنجليز والهولنديين.

ولقد قام بذلك متبعا الطريق الوحيد الذي كان مفتوحا أمامه، وهو اتخاذ أسلوب الاتصالات الرسمية السرية مع الإصدارات الموالية لفرنسا، فأصبحت الصحيفة الأكاديمية «جريدة الحكماء» جورنال دي سافان Journal des Savans» والتي أسست العام 1665، مع قاعدة قرائها المتعلمين على نطاق دولي، أصبحت وسيلة نشر الدعاية الملكية السرية، بينما قامت «الأقلام المأجورة» بمعالجة القضايا الدينية للحرب ضد البروتستانت الإنجليز والهولنديين من خلال صحيفة: «ميموار دي تريفو Memoire des Trevous»، وهي جريدة أخرى كانت تمول رسميا بشكل سري. أما صحيفة «مفتاح قاعة أمراء أوروبا ـ لا كليف دي كابينيه دي برانس ديوروب: La clef du cabinet des princes de l'Europ»، فبلغت جمهورا أوسع بجمعها بين الأنباء السياسية والأدبية، وتمكن تورسي من أن يدس مقالات موالية لفرنسا وسط موادها المنشورة التي كانت تضم أيضا قطعا معادية لفرنسا (الأمر الذي عمق من مصداقيتها وزاد من قوة تنكرها). ولقد انتعشت الدعاية الفرنسية التي كانت تعتمد على الكتيبات الصغيرة، بعد أن كانت قد تدهورت خلال الربع الأخير من القرن السابع عشر، ولكنها عادت إلى الانتعاش

بوصفها وسيلة لمناقشة صحة مزاعم كل من أسرة هابسبورج وأسرة بوربون، وادعاءات كل منهما للعرش الإسباني عند موت تشارلس الثاني العام 1700. وقد أدى تولي فيليب الخامس حفيد لويس للعرش، ثم اعتراف الملك الشمس - لدى موت جيمس الثاني - بحق ابنه الكاثوليكي في أن يكون الوريث الشرعي لعرش إنجلترا، أدى كل هذا إلى تجدد المخاوف من قيام «ملكية عالمية» كما أدى إلى نشوب حرب جديدة أوروبية النطاق. الأمر الذي دفع تجدد انفجار دعاية أيديولوجية لعبت فيها الكتيبات دورا مهما.

وقد كتب أحد المعاصرين يقول: «حين لا يجيب أحد على ما احتواه أحد الكتيبات، يقتنع الناس بأن هذا علامة على الإقرار بما احتواه هذا الكتيب». كما كتب آخر قائلا: «يعتبر الصمت دليلا على أن الطرف الآخر - المتهم - مذنب، مقر بذنبه». وبذلك تزايدت بشدة الحاجة إلى شن دعاية مضادة، فجاءت الإجابة على تهمة السعي إلى إقامة ملكية عالمية في صورة الإنكار المنطقي المتعدد الأشكال، وعن طريق إبراز الدسائس والمؤامرات السياسية - لا الدينية - التي يدبرها أعداء فرنسا. وإلا فكيف - وبأي سبيل آخر - كان يمكن للنمسا الكاثوليكية أن تتحالف مع إنجلتزا وهولندا البروتستانتيتين؟ أم أنه بسبب الفساد الأخلاقي الذي أصاب النظام النمساوي فقد أصبح - هذا النظام - هو الأداة الطبيعية لتنفيذ المسعى الإنجليزي الهولندي لإقامة أوروبا بروتستانتية؟ أليس من واجب فرنسا إزاء الرب والمسيحية الحقة أن تمنع هذا؟ إن هذا هو سبب تمسك فرنسا بحق البوربون في العرش الإسباني، وفي حق المطالب بالعرش الإنجليزي من أسرة ستيوارت على حساب أسرة أورانج. لقد أصبحت فرنسا هي الحصن الأخير لحركة الإصلاح المضاد (الكاثولوكية) والضحية التي تقاوم وترفض المؤامرة البروتستانتية، اللوثرية الكالفينية التي اشتركت فيها طائفة الهيجونو. ولقد تم توضيح هذه النقاط جميعا بأقصى قدر من الموضوعية، بالشكل الذي يتلاءم مع المناخ الثقافي البازغ الذي عرف باسم التنوير. غير أن الإدراك المتزايد - في القرن الثامن عشر - بوجود جمهور يحتاج لمن يتوجه إليه بالخطاب لكي يبين له مصالح الدولة سواء في الداخل أو في الخارج، لم تقابله - هذا الإدراك - قدرة مساوية له من جانب رجال الدعاية الفرنسيين على سبك نوع من الوحدة بين الحكام والمحكومين. وعجز تورسي وخلفاؤه عن استيعاب درس تجربة

كرومويل في إنجلترا، فكان هذا العجز سببا رئيسيا فيما قدر على الملكية المطلقة في فرنسا من السقوط في النهاية ضحية للثوار الفرنسيين العام 1789.

الدعاية:
من آشور إلى فوكلاند



آشور بانيبال يشن الحرب، ومسلة شالمنصر الثالث. أعلن الملوك الآشوريون عن ضراوتهم ووحشيتهم بالصور المنحوتة والمنقوشة على النصب العامة الحجرية التي مجدت منجزاتهم الحربية، سواء كان هذا التمجيد احتفالا بانتصارهم أو بوصفه تحذيرا للآخرين الذين قد يفكرون - بناء على ما يرونه - مرتين في مهاجمتهم (صور مهداة من المتحف البريطاني).





عملة فضية للإسكندر الأكبر. وكانت العملات المعدنية هي أوضح تجليات الدعاية المتحركة في العالم القديم، وكانت هذه العملات ثمينة، ولذلك فإنها كانت موضع التقدير. وكان بوسع الرسالة التي تحملها أن تنتشر حيثما ازدهرت التجارة. وقد استخدم الإسكندر مجموعة واسعة التنوع من أساليب ووسائل الدعاية لتدعيم إمبراطوريته الشاسعة، ولكن العملات عكست عظمته التي رفعته إلى مرتبة القداسة (صورت بإذن من أمناء المتحف البريطاني).

عملة رومانية تصور ماريوس فوق عجلة حربية يحتفل بانتصاره على أعدائه (في هذه المناسبة كانوا قبائل الكيميري والتيوتون). وإذ كان القادة الرومان يناضلون للاحتفاظ بولاء قواتهم، فقد كانوا يسكون العملات التي تحمل صورهم لكي تذكر الجنود بأي جانب كانوا يحصلون منه على «زبد خبزهم» (صورت بإذن من أمناء المتحف البريطاني).



عملة فضية رومانية تعود إلى العام 269 ق.م، رسمت عليها الذئبة ترضع مؤسسي روما، رومولوس وريموس. لقد أمكن توصيل ونقل عملية إبداع ميثولوجيا غنية متعددة الوجوه عن تأسيس روما وعن عظمتها الباكرة، بواسطة رمزية بسيطة رسمت على «قطع» العملة بهدف تحويل الخرافات إلى حقائق فعلية في وعي الرومان (صورت بإذن من أمناء المتحف البريطاني).





معركة آجينكورت: رسم مأخوذ من السجل التاريخي لسانت آلبانس - في العصور الوسطى - يصور انتصار هنري الخامس ورماته الإنجليز والويلزيين على الفرنسيين. وعلى رغم حقيقة أن الانتصار الذي حققه الإنجليز قد انعكس خلال جيلين اثنين، فإن هذه المعركة أصبحت هي صيحة التجمع القوية للدعاية الإنجليزية فيما يتعلق بالتدخل في (صراعات) القارة الأوروبية على طول القرون التالية وحتى المرحلة الحديثة؛ منذ مسرحية شكسبير في القرن السادس عشر حتى فيلم لورنس أوليفيه العام 1944 (من مجموعة رئيس أساقفة كانتربري وأمناء مكتبة قصر لامبث)



جرائم الكالفينية
لافتة فرنسية (ملصق) تعود إلى العام 1598. لقد أحدثت الطباعة ثورة في الدعاية، فاستغلها بشكل واسع قادة حركة الإصلاح الديني لنشر رسالتهم بين جماهير تعيش بعيدا للغاية عن الحدود الوطنية لهؤلاء القادة. وهنا ترسم الأعمال الوحشية التي ارتكبت باسم الكالفينية: القتل وتدنيس المقدسات والحرب في البر والبحر كجزء من الحملة المضادة (مطبعة جامعة كاليفورنيا).



الختم الإسكتلندي لأوليفر كرومويل، يمثله بوصفه «الحامي» اتباعا لتقاليد الدعاية الملكية. ذلك أن مغازلة بريطانيا قصيرة العمر مع النزعة الجمهورية لم تستطع أن تستأصل قرونا من التراث الملكي، وخاصة بعد دعاية أسرة التيودور الملكية. وقد حاولت ديكتاتورية كرومويل الشخصية أن تستغل تلك التقاليد الموروثة فاستخدمت صورا مشابهة لتدعيم حكمه (صورت بإذن من أمين سجلات إسكتلندا التاريخية. صورة سلبية رقم 937).



إليزابيث الأولى: منتصرة عقب هزيمة الأرمادا (الأسطول) الإسباني؛ وقد صورت هنا بوصفها العاهل (رمز الملكية) على رأس أمة منتصرة موحدة. وقد كان أبناء أسرة التيودور من أكثر أهل الدعاية مهارة في عصرهم باستخدامهم أي، وكل الوسائل المتاحة لتدعيم حكم أسرتهم، والميراث البروتستانتي الذي أرساه هنري الثامن. ولم تفعل الحروب الخارجية ضد الأعداء الكاثوليك، إلا أنها أوقعت ثمار مكاسبها في أيدي دعاة التيودور (صورت بإذن من أمناء المتحف البريطاني).



«الحرية، المساواة، الإخاء، أو الموت»... ملصق ثوري فرنسي. لقد وحدت الشعارات والرموز البسيطة الثوار والفرنسيين وألهمتهم القيام بنشر رسالتهم إلى ميادين بعيدة. وخاصة حينما تطلبت الحرب أن يقاتل الجنود والمدنيون جنبا إلى جنب في سبيل قضية الثورة ضد الاستبداد الأجنبي، فـ «لابد أن يكون كل مواطن جنديا وكل جندي مواطنا» (مكتبة ماني إيفانز للصور).



داود وجوليات: جون بول الضنيل يقف وحده ضد جبروت نابوليون. لقد ساعدت شعبية الرسوم السياسية في أثناء حروب الثورة الفرنسية، وأكثرها جذبا للانتباه هي رسوم جيمس جيلراي James Gilray ، ساعدت على نقل القضايا المعقدة والتعبير عنها ببساطة وبشكل مؤثر وقامت بعملها في إطار من الفكاهة التي كثيرا ماوصفت بأنها سلاح بريطانيا السري فيما يتعلق بالمعنويات (صورت بإذن من أمناء المتحف البريطاني).



نداء لحمل السلاح: «ملصق» دعوة إلى الجندية في الحرب الأهلية الأمريكية في العام 1861. فعقب استسلام فورد سمتر للجنوب في بداية الحرب، دعا الرئيس لينكولن إلى تشكيل قوة قوامها 75 ألف رجل ـ من الميليشيا ـ للثأر من انتهاك شرف علم النجوم والأشرطة، ولسحق تمرد الانفصاليين. واكتسحت الشمال موجة من الحماس الوطني تغذيها مسيرات التجنيد، وفرق الموسيقى المتجولة وملصقات الدعاية التي توقعت كلها إنهاء الحرب في معركة واحدة مدوية جريئة مقتحمة وحاسمة. غير أن الحرب في الحقيقة تحولت إلى أربع سنوات من الرعب والمذابح المفجعة. غير أن راية الوطن كانت قد أهينت، وبلغت درجة إلهاب موجة الحماس الوطني من القوة حتى أنه كان بوسع أحد المتطوعين أن يكتب قائلا: «لقد أصبحت نافذ الصبر متلهفا على البدء (في القتال) حتى لقد شعرت بأن عشرة آلاف دبوس تشكني في كل أجزاء جسدي!» (عن موسوعة: ويسترن أمريكانا لبيتر نيوآرك).





ثلاثة ملصقات بريطانية من الحرب العالمية الأولى: الأول هو الملصق الشهير الذي رسمه ألفريد ليتس مستخدما إصبع التهديد المشهر «المسدد» من يد البطل القومي: لورد كيتشنر؛ وقد صدر هذا الملصق لأول مرة عن طريق لجنة التجنيد البرلمانية في سبتمبر العام 1914، ثم خلدته ملصقات أخرى كثيرة بعد ذلك. وحينما بدأ طوفان المتطوعين - في البداية - يتضاءل وتتزايد الخسائر في الجبهة الغربية، فقد جربت نداءات أكثر عاطفية: مثل محاولة سيدني ليوملي للتأثير في ضمائر أولئك الذين لم يكونوا قد تطوعوا بعد. وجاء ملصق «والدي؛ ماذا فعلت في الحرب الكبرى؟» فاستغل كبرياء الرجال إزاء توقعات عائلاتهم. وفي العام 1916 ومع فرض التجنيد الإجباري، حل الإرغام محل الوطنية بوصفه الموضوع الرئيسي في حملة التجنيد. ومع ذلك فقد استمرت الحاجة إلى المحافظة على نظرة خاصة إلى العدو بوصفه «الهون الغادر الخسيس». ويأتي ملصق «الأقوال الألمانية والأفعال الألمانية» لكي يجسد موضوعا شائعا في الدعاية البريطانية، حيث يدين الألمان أنفسهم بكلماتهم وأفعالهم. (حقوق نشر التاج؛ متحف الحرب الإمبراطوري).

GERMAN WORDS AND GERMAN DEEDS





الوحشية في البحر، والتشفي في الوطن: ميدالية لوزيتانيا. استغلت الدعاية البريطانية تخبطات الألمان وحماقاتهم بذكاء لامع. تستعرض ميدالية جونز التذكارية مدنيين يرفضون الإصغاء للتحذيرات الألمانية من حملة الغواصات (ضد السفن البريطانية) فيصطفون للحصول على بطاقات السفر على سطح باخرة ركاب كان المقدر لها أن يتم إغراقها؛ واقفين تحت سطر من كلمات تقول «التجارة قبل أي شيء آخر». ويصور الوجه الآخر (للميدالية) السفينة المحملة بالمدافع مع لافتة تزعم أن «لاسلع مهربة أو محظورة» . وقد وزعت الآلاف من النسخ البريطانية لهذه الميدالية (والاختلاف الوحيد مع النسخة الأصلية القليلة العدد في هجاء كلمة: مايو أسفل الوجه الثاني للميدالية)... ومع هذه النسخ المقلدة وزع منشور يقول: « سكت هذه الميدالية في ألمانيا بهدف أن تظل حية في قلوب الألمان ذكرى الإنجاز المجيد الذي حققته البحرية الألمانية بتدميرها ـ عمدا ـ سفينة ركاب غير مسلحة، ومعها 1198 إنسانا من غير المقاتلين، رجالا ونساء وأطفالا». ومن الواضح أن هذه الصورة تسعى إلى أن تطرح نظرية مؤداها أنه حينما يحذر القاتل ضحيته من نواياه، فإن ذنب الجريمة يقع على عاتق الضحية لا على القاتل» (هالتون/دويتش).



حين صعد البالون إلى السماء : صورة رسمية تمثل انتشار الوسيلة الرئيسية لتوزيع المنشورات في الحرب العالمية الأولى. وتمضي إحصائية رسمية عن فعالية انتشار تلك المنشورات التي «تخبر عن الحقيقة» كالتالي « إن انزلاق أي ورقة مطوية أو غير مطوية ـ نظريا مع الريح ـ بالأميال من نقطة تقع ـ رأسيا ـ أسفل نقطة إطلاق الورقة من البالون إلى نقطة سقوط الورقة على الأرض... إن هذا الانزلاق يتحدد بالمعادلة التالية:

الانزلاق = سرعة الريح بالميل في الساعة * عدد الدقائق التي تستغرقها الورقة للسقوط على الأرض مقسوما على (60).



الوصول بالثورة إلى الناس:
سفينة الدعاية البلشفية: « النجم الأحمر» في صورة ترجع إلى العام 1919. لقد هيأت هذه السفن - المغطاة بالشعارات والأعلام الثورية - وسيلة مثالية للبلاشفة لتدعيم سيطرتهم على المدن ومد تأثيرهم إلى الريف. وكان معنى أمية غالبية الفلاحين أن تعين على البلاشفة أن يركزوا بشكل خاص على الوسائل السمعية البصرية، وهو ما دفع لينين إلى أن يقول : «إن السينما هي أكثر الفنون أهمية بالنسبة لنا». ولذلك فقد زودت هذه السفن بإمكانات العرض السينمائي، لعرض الأفلام المناسبة من الناحية الأيديولوجية على أناس لم يكونوا قد رأوا هذه التكنولوجيا المدهشة أبدا من قبل». (قسم السياسة: جامعة جلاسجو).



إضفاء الشرعية على النظام:
لقطة من فيلم : «المدرعة بوتمكين»: الذي أخرجه أيزنشتين العام 1926. فبعد ما يقرت من عقد كامل علي الثورة الروسية، راحت صناعة السينما السوفييتية ـ سريعة النمو ـ تنظر إلى الماضي نحو لحظات سابقة لكي تثبت النجاح الحتمي لثورة العام 1917. وفي حالة هذا الفيلم تدرس رائعة أيزنشتين أحداث تمرد ميناء أوديسا في العام 1905 ؛ وتصور سلسلة لقطات « سلم أوديسا » الشهيرة وحشية النظام القيصري في تعامله مع المتمردين ومؤيديهم المدنيين (بإذن من سوفاكسبورت فيلم- عن طريق أرشيف الفيلم القومي).



مبدأ عبادة الفوهرر: لقطة من الفيلم الذي أخرجته ليني رايفنستال؛ كسجل لمسيرة الحزب النازي العام 1934 باسم «انتصار الإرادة». فلقطات الكاميرا المنخفضة (من أسفل) رسمت هتلر في هيئة الآلهة باعتباره زعيما متعاليا رفيعا للحزب النازي إثر «ليلة السكاكين الطويلة» حين خلص النازيون أنفسهم من إرنست روهم وتنظيم جنود العاصفة ذوي القمصان البنية الذي كان يتولى قيادته. وأعلن رودلف هيس - بوصفه نائب الفوهرر ـ في الاجتماع «إن الحزب هو هتلر» ولكن هتلر هو ألمانيا كما أن ألمانيا هي هتلر». ولقد كان تأسيس «عبادة هتلر» بؤرة رئيسية في الحقيقة لوحدة ألمانيا وللتأييد الشعبي، إذ كان من المقدر للزعيم القوي أن يقود مسيرة ألمانيا في عودتها إلى العظمة بعد إذلالها في العام 1918 ـ 1919. وقد رأى جوزيف جوبلز وزير الدعاية النازية أن «عبادة هتلر» هي أعظم منجزاته (حقوق نشر التاج ـ متحف الحرب الإمبراطوري ـ عن طريق أرشيف الفيلم القومي).



حرب الشعب: عقب البداية ـ الكارثة ـ التي بدأت بها الحكومة البريطانية الحرب من وجهة النظر الدعائية، بما فيها الملصق الذي أساء الناس استقباله، الذي قال: «شجاعتك أنت، وابتهاجك أنت؛ وعزيمتك أنت سوف تعبر بنا الأزمة» ... تخلت وزارة الإعلام عن أنواع التحريض الفجة وبدأت في تأكيد فكرة شراكة العمل بين الحكومة والشعب اللذين يقاتلان معا. وبسبب من ظهور قاذفة القنابل، لم تعد الحرب تدور في مناطق بعيدة عن السكان المدنيين، وإنما تدور في «الحديقة الأمامية» ولذلك تعين رعاية معنويات المدنيين إلى درجة غير مسبوقة. وقد استندت شعبية تشرشل الشخصية إلى مهارته كخطيب ومتحدث يستطيع الآن أن يصل إلى حجرات المعيشة الخاصة بالمواطنين العاديين بفضل المذياع؛ وذلك على رغم أنه زعم فيما بعد أنه لم يكن سوى صوت الزئير الذي أطلقه الشعب البريطاني «قلب الأسد». (حقوق نشرالتاج - متحف الحرب الإمبراطوري).



الإعداد النفسي للصراع السوفييتي الألماني: لقطة من فيلم أيزنشتين الملحمي «ألكسندر نيفسكي» الذي أخرجه العام 1938. وتدور أحداثه في القرن الثالث عشر ويصور الصراع بين شعوب روسيا المتحدة والفرسان التيوتون الغزاة. وتحول نيفسكي إلى مركز تجمع قومي لمجتمع متعدد الأعراق واللغات، كان عليه الآن أن يتحد ضد العدو المشترك على رغم الخلافات والتحفظات المحلية الداخلية حيال النظام الستاليني. ومع ذلك، فإثر توقيع الميثاق النازي السوفييتي في أغسطس العام 1939، سحب الفيلم من دور العرض، لكي يعرض ثانية إثر مهاجمة هتلر لروسيا في يونيو العام 1941 (في عملية باربا روسا) - (بإذن من: سوفاكسبورت فيلم، عن طريق أرشيف الفيلم القومي).



سيفتون ديلمر: «عبقري الدعاية الإذاعية». وقد هيأ المذياع أيضا وسيلة مثلى لتوجيه الدعاية إلى شعب العدو، غير أنه أكد أن الدعاية التي يعرف عنها ذلك، تصبح غير مجدية تقريبا؛ فركزت اللجنة التنفيذية للحرب السياسية على إنتاج دعاية بريطانية بدا عليها أنها صادرة من داخل ألمانيا النازية. وقد كان ابتكار ديلمر لشخصية «الرئيس» الذي يتدفق الكلام من فمه في البرنامج الذي يقدمه المقدم ـ أو المذيع الخيالي ـ جوستاف سيجفريد إينز (وهو الإسم الألماني لمقابله الإنجليزي: جورج السكر رقم واحد) الذي تظاهر بأنه يذيع من مرسل صغير داخل ألمانيا، بينما كانت «انفجاراته» تنطلق في الحقيقة من بريطانيا فيما بين العامين 1941 و 1943؛ فاكتسب الشخصان (الرئيس والمذيع سيجفريد) جمهورا يعتد به بين الألمان الممنوعين من الاستماع إلى برامج الإذاعة الأجنبية. وفي النهاية أعلن ديلمر مقتل «الرئيس» إثر ترتيبه لمطاردته من جانب عملاء «الجستابو» الذين رموه برصاص الرشاشات وهم يصيحون: «أمسكنا بك أيها الخنزير». ثم أعيدت إذاعة النبأ بعد ساعة أخرى (هالتون ـ دويتش).





التاريخ والفن بوصفهما دعاية: لورانس أوليفييه في دور هنري الخامس في الفيلم المأخوذ -العام1944- عن مسرحية شكسبير الملحمية. فبعد حياة دعائية عملية طويلة ومرموقة في نضالات بريطانيا التي دامت قرونا ضد الفرنسيين، أعاد أوليفييه إحياء المسرحية خدمة لأهداف بريطانيا في الحرب العالمية الثانية. وأنتج الفيلم وعرض في عام اليوم الأكبر: يوم بداية نزول قوات الحلفاء في نورماندي لغزو أوروبا وتحريرها من الاحتلال النازي؛ فقام الفيلم بتذكير المتفرجين بنجاحات بريطانيا التاريخية في غزو القارة الأوروبية. وقد أمد شكسبير صناع الأفلام البريطانيين بالإلهام اللازم لأعمال عدة دعائية أخرى في زمن الحرب. فمسرحية ريتشارد الثاني على سبيل المثال، قدمت ثلاثة من العناوين السينمائية: «هذه الإنجلترا» العام 1941، «نصف الجنة» العام 1943، «هذه الدفعة السعيدة» العام 1944 (بإذن من منظمة إنك) ـ الصورة إلى اليمين.

الصحافة المصورة كدعاية: إعدام شخص يشتبه في انتمائه لجماعة الفيتكونج، من تصوير إيدي آدامز العام 1968. على رغم أن حرب فيتنام كانت أول حرب تصورها كاميرات التليفزيون، فإن الكثير من صورها الباقية تأتي من فن التصوير الفوتوجرافي. وقد كانت هذه الصورة،
صورة إخبارية مثيرة، وكانت أيضا صورة دعائية مشحونة نقلت إلى الجمهور وحشية الحرب في وقت كان الرأي العام فيه يتحول ضد التورط الأمريكي نتيجة لهجوم تيت. وتنتج الأهمية ـ الدعائية لصور من هذا النوع ـ من طريقة استخدام الصحف والجماعات المضادة للحرب لها، بهدف التشكيك في التورط الأمريكي وتعريته بما يتضمنه من تحمل إثم التواطؤ مع دولة جنوب فيتنام الحليفة التي يستطيع رئيس شرطتها الجنرال نجوين نجوك لو أن يقوم بارتكاب مثل هذه الفظائع. (الأسوشيتدبرس).



«قفشتك؟!!» «إغراق البلجرانو يوم 2 مايو 1982 : صورة أرجنتينية رسمية للحظات الأخيرة للمدمرة «جنرال بلجرانو» التي أغرقتها غواصة بريطانية في خلال حرب فوكلاند. و على رغم أن أسوأ مبالغات صحف «التابلويد» الشعبية البريطانية أدت إلى التشفي - في البداية - والمباهاة بما حققه الأسطول الملكي من نجاح، فإن الرأي العام المستنير في بريطانيا انزعج مشمئزا من كل من الخسائر في الأرواح ومن رد فعل جريدة الصن. ومايزال الجدال حول الحادث مستعرا ولكن - في ذلك الحين - سرعان ماتحول حماس «فليت ستريت» أو شارع الصحافة البريطانية إلى الشعور بالصدمة حينما تم إغراق الطراد البريطاني الملكي «شيفيلد» بعد يومين فحسب. وقد ضمنت الرقابة الحكومية الموضوعة تحت السيطرة ـ بإحكام ـ أن يستمر التأييد الوطني للحرب. ولم تهدر مسز تاتشر درس فيتنام. (الأسوشيتدبرس)

القسم الرابع
الدعاية في عصر الحروب الثورية

16 الصحافة بوصفها أداة للحرية

مِثّلَ منحنى صاعد في رسم بياني، شهد القرن الثامن عشر توسعات في دور الرأي العام فيما يتعلق بشؤون الدولة، وشهد أيضا زيادة في درجة استخدام الصحافة ـ تبعا لتوسع دور الرأي العام ـ بوصفها أداة سياسية. وسارعت حكومات عدة إلى إدراك مغزى هذا الوضع. وإذا اعتمدنا على السوابق ـ الحديثة الباكرة ـ فإن تلك الحكومات أسست نظما قوية للرقابة على تنظيم عملية تدفق الأفكار. وفي إنجلترا أدى ظهور الحرية البرلمانية والتسامح الديني اللذين أعقبا «الثورة المجيدة» التي نشبت في العام 1688[1] أدى إلى إيجاد متنفس للاختلاف الأيديولوجي، وأصبحت الصحافة جزءا أساسيا من العملية السياسية الإنجليزية.

أما في فرنسا ـ في ظل «النظام القديم» ـ فعلى الرغم من ازدهار حركة التنوير بعد موت لويس الرابع عشر في العام 1715، فلم يمكن السماح بمثل ذلك المتنفس للتعبير الشعبي، مع ما ترتب على ذلك من نتائج فادحة. ومن المؤكد أنه ربما أمكن رؤية القدرات التحريرية، التي عزاها الكثيرون إلى المطبعة، في ظهور السياسة الحزبية والديموقراطية الدستورية الإنجليزية، حتى أنه لا يدهشنا كثيرا

أن يصف هوراس والبول الصحافة بأنها «مجلس برلمان ثالث».

لقد حدث قبل قرن كامل ـ وإثر تأسيس أكثر من اثني عشر كتابا إخباريا» ومجلة إخبارية أسبوعية ـ أن استهدفت إجراءات أوليفر كرومويل ترسيخ احتكار الدولة للأخبار التي تسيطر عليها الرقابة الحكومية. وبعد إعادة الملكية وضع قانون الطباعة، في العام 1662، الصحافة تحت السيطرة البرلمانية الصارمة، وعقب التسوية الثورية في العام 1688 أظهرت الحكومة ميلا أقل لفرض الرقابة، غير أنه في العام 1695 انتهى التوقيت المحدد للعمل بقانون التراخيص الذي كان «البرلمان الطويل» السابق قد فرضه، وكان معنى هذا أن الصحافة أصبحت الآن متحررة من أي رقابة رسمية تسبق النشر، ولذلك فإنه يمكن القول إن حرية الصحافة، كما نفهمها اليوم، قد بدأت في العام 1695، وهي نظام كان يسمح بنشر أي أخبار وأي آراء في حدود متطلبات الأمن القومي، ودون أن يكون الناشر عرضة للاتهام الجنائي وفق بنود القانون إلا «بعد» النشر. وأعقب هذا نمو كثيف في أعداد الصحف في كل من لندن والأقاليم.

ولكن هذا لا يعني أن البرلمان الإنجليزي قد تبنى فجأة فكرة الحرية غير المحدودة للصحافة. فالحقيقة أنه في العام 1712 أوجدت وسيلة جديدة للسيطرة على الصحافة مع فرض قانون طابع البريد (أو التمغة ـــ The Stamp Act) الذي فرض ضريبة على كل مطبوع يحتوي أخبارا عامة أو معلومات أو ملاحظات على الأحداث. وتزايدت قيمة الضريبة في تناسب طردي مع حجم المطبوع الذي أصبح من المتعين بحكم القانون أن يحمل اسم الناشر وعنوانه. أما تفسير ذلك فهو أن النظام القديم للرقابة السابقة على النشر قد تبين عدم فعاليته أو صعوبة تطبيقه. وهو درس كان على حكومات أوروبية عدة أن تتعلمه بأسلوب صعب، وكان قانون التمغة وسيلة مكنت الحكومة من السيطرة على الصحافة بفرض أعباء مالية عليها أدت إلى تحجيم عدد المطابع. وفي الوقت نفسه، تحققت إيرادات جديدة نتيجة للتسليم بمبدأ حرية الصحافة، وقد علق جوناثان سويفت[2] بعد ذلك بوقت قصير قائلا: «لقد سقطت (جريدة) الأوبزرفاتور Observator واندمجت جريدتا «ميدليزMedleys » و«فلاينج بوست Flying Post» معا. أما جريدة «اجزامينار Examiner» فمريضة مرضا مميتا، أما جريدة «سبكتاتور

Spectator» فإنها تقاوم وتضاعف من ثمنها. وازدادت المخاوف من احتمال موت الصحافة، واشتدت بسبب تحقق السلام الأوروبي، وما أعقبه من تضاؤل حجم أنباء الحرب، مع توقيع معاهدة أوترخت، العام 1713، التي أنهت حرب الوراثة الإسبانية، ثم اتفاقية السلام في مدينة نيستات العام 1721، التي أنهت الحرب الشمالية العظمى.

ومع ذلك، فقد كانت نتائج قانون التمغة وآثاره قصيرة العمر. فقد استمر الطلب على الأخبار الأوروبية بعد تولي جورج الأول ـ من بيت هانوفر ـ العرش البريطاني العام 1714، بينما استمر نمو السياسة الحزبية والديموقراطية البرلمانية في الداخل دون عائق. واكتشفت بعض الإصدارات الدعائية طرقا لتجنب دفع ضريبة الطابع. وكتب أحد المراقبين يقول: «إن مثل هذه الصحف إذ تبذل كل جهد لكي تظل قريبة من ذوق الرعاع، فإنها تساهم ربما بأكثر مما تساهم به كل المبتكرات الأخرى، في تسميم عقول العاديين من الناس وتحويلها ضد صاحب الجلالة، وفي تشويه صورة وزرائه والحط من قدرهم ولزعزعة السلام العام ولتلطيخ سمعة كل حكومة جيدة». وفي العام 1725 فرض قانون طابع (تمغة) جديد، ثم فرض قانون آخر في العام 1757، ولا شك في أن مجرد الاحتياج إلى إصدار مثل هذا التشريع يعد مؤشرا إلى نمو الصحافة في القرن الثامن عشر. وربما يكون قانون طابع (التمغة) قد دفع أسعار الصحف إلى الارتفاع على رغم أنه لم يؤد إلى خفض أعدادها ولا توزيعها، كما أن هذه القوانين لم تكبح نمو الصحف بوصفها الوسيط الرئيسي للدعاية في القرن الثامن عشر.

وربما كان أفضل مثال معروف هو صحيفة «ذا كرافتسمان The Craftsman» وهي الجريدة الرئيسية الناطقة بلسان المعارضة لروبرت والبول[3]، والتي كانت شعبيتها لا منافس لها في عشرينيات وثلاثينيات القرن الثامن عشر. وقال أحد المعاصرين «إن هذه الصحيفة كانت توزع ما يتراوح بين 12 و13 ألف نسخة كل أسبوع لكي تنير عقول شعب بريطانيا العظمى وتحررها من الأوهام». وكانت صحيفة «ويكلى جورنال Weekly Journal» أقل شهرة، ولكنها كانت تعادل الصحيفة السابقة في شعبيتها، وقد أسسها ناثانيل ميست العام 1716، ووصفها أحد المعاصرين بأنها «دكان للفضائح مستعد لتلقي أنواع الفتن والاتجار فيها، ولن يمكن طرحها أرضا

مادام وجد عدو للدستور البريطاني قادر على أن يكتب الفضائح بالإنجليزية». وإذ حرمت الحكومة من سلاح الرقابة السابقة على النشر، فقد لجأت إلى رفع دعوى الاتهام إعمالا لقانون التشهير والقذف، بل لجأت أيضا إلى أساليب «البلطجية» المتمثلة في إرسال «رسل الملك» لكي يحطموا المطابع. وأسست الحكومة بالطبع صحفها الخاصة، مثل صحيفة الـ «ريفيو Review» التي أسسها روبرت هيرلي العام 1704.

ولقد وصف هيرلي أخيرا بأنه رائد الدعاية والدعاية المضادة الحكومية البريطانية، واستكتب كلا من سويفت ودانييل ديفو [4] في جريدته التي حاولت أن تقوم بوظيفة صوت الاعتدال في مرحلة من الآراء المتطرفة. ومن المؤكد أن ديفو ـ وهو أعظم صحافي إنجليزي في عصره ـ قد استخدمته سرا حكومة حزب الويج لكي يكتب لصحف المعارضة (بما في ذلك صحيفة ميست، الويكلي جورنال) حتى يمكن جعل النقد معتدلا ومخففا، وحينما انكشف موقف ديفو الحقيقي ـ مما دمر سمعته ـ راحت الحكومة تجرب أساليب جديدة، مثل شراء صحف المعارضة (وصحيفة لندن جورنال London Journal من الأمثلة على ذلك) وتحويلها إلى ألسنة رسمية نشيطة. ولقد أولى روبرت والبول عناية خاصة خلال ثلاثينيات وأربعينيات القرن الثامن عشر لتوجيه وخداع الرأي العام من خلال الصحافة. ففي خلال العقد الأخير من عمر إدارته، دفعت الأجهزة السرية 50 ألف جنيه استرليني لمؤلفي الكتيبات والصحف التي تتفق عليها وزارة الخزانة، كما قام والبول بتوزيع كتيبات وصحف عدة مجانا (مثل: لندن جازيت London Gazette) على الفئات ذات النفوذ والمؤثرة في المجتمع، وقامت بتوزيعها إدارة البريد التي حاولت ـ في مقابل ذلك ـ إعاقة توزيع صحف المعارضة و موادها الدعائية. وقد حظيت جريدة «لندن جازيت» بوضع متميز: مثل التمتع باحتكار الأنباء الرسمية، كالبيانات الملكية وقرارات المجلس الخاص، وكانت تدار مباشرة عن طريق الحكومة، ومع ذلك فإنها لم تحقق نجاحا جماهيريا، ثم تدهورت حتى اختفت نهائيا بعد سقوط والبول العام 1742.

ولا شيء يشجع توزيع الصحف أكثر من الحرب. وفي إنجلترا ازدادت المبيعات زيادة كبيرة خلال حرب السنوات السبع (1756 ـ 1763). وعلى رغم ارتفاع أسعار الصحف (ولم تكن تلك الأسعار قد حظيت بأي مساعدة من

خلال زيادات ضريبة التمغة) فإن الكثيرين كانوا يشتركون في شراء نسخها، وكانت تقرأ بشكل جماعى وبأصوات مرتفعة في الأماكن العامة مثل المقاهي ودكاكين الحلاقين والحانات. ومنذ العام 1711، أحصي أن كل نسخة يراها أو يسمع ما تحتويه عشرون شخصا على الأقل. وقد كتب إدموند بيرك[5] (1729 ـ 1797) وهو محرر مجلة «السجل السنوي Annual Register» قائلا: «إن الصحف أداة أكثر أهمية بكثير مما يتخيله الناس بشكل عام. إنها جزء مما يقرأه الجميع، ولكنها تمثل كل ما تقرأه الغالبية العظمى من الناس ». وعلى رغم ذلك فإن الصحف في إنجلترا كانت تنشر ـ فعلا ـ كل ما كانت تريد أن تنشره، الأمر الذي جعل بوسع لورد كامدين[6] يعلق ـ بقدر ملحوظ من الثقة ـ قائلا: «إن الصحف محملة بالكثير من سموم الزيف، إلى الدرجة التي تجعلني عاجزا تماما عن تمييز الحقيقة ومعرفتها»، ولكن الأمر كان مثلما كتب الأستاذ ليفي قائلا: «إن الصحافة التي كانت هدفا للرقابة ذات يوم، قد وضعت الحكومة تحت رقابتها... وقد استخدمت (الحكومة) الصحافة وأعانتها بالأموال، ووجهت إليها الاتهامات، ولكنها لم تستطع أن تسيطر عليها». وفي حالات استخدام السياسين للصحافة في خدمة أغراضهم السياسية الخاصة مثل استخدام جون ويلكيز. (1727 ـ 1797) لصحيفة «نورث بريتون North Briton»، فإن الصحيفة تفصح عن نقده للمرحلة بأكثر مما تعبر عن المرحلة ذاتها، ولذلك فإن على المؤرخين أن يتعاملوا مع مثل هذه المصادر ـ في الصحف ـ بحذر بالغ، وذلك على الرغم مما يزعمه ماكولي[7] من أن «التاريخ الحقيقي لدولة ما يوجد في صحفها». ففي إنجلترا قدمت الصحافة منفذا للانشقاق على الحكومة الدستورية وانتقادها، مما يشكل قوة تحريرية دون اللجوء إلى التغيير العنيف.

17 الثورة الأمريكية

منذ البداية كان أهالي المستعمرات الأمريكية، الذين ناقشوا «السياسة غير الحكيمة وغير العادلة والمخربة» لسادتهم البريطانيين الإمبراطوريين، واعين تماما بأهمية الرأي العام والدعاية في دعم قضيتهم. فقد حاول البريطانيون، بعد انتصارهم على الفرنسيين في حرب السنوات السبع، أن يحموا الهنود بكبح التوسع الاستعماري غربي جبال الأبلاش، وبتمرير قانون كويبك في العام 1774 الذي كان الهدف منه أن يصبح نوعا من الـ «ماجنا كارتا»[1] للكنديين الفرنسيين. وقد أثار هذان العملان انزعاج المستوطنين الأمريكيين الذين أزعجهم أن يؤديا إلى منع التوسع المربح غربا. وكان من المقرر أن تدفع تكاليف وضع حاميات دائمة من الجنود لتنفيذ تلك الإجراءات ولحماية الأمريكيين أنفسهم من هجمات الهنود والفرنسيين، من عوائد تنفيذ قانون التمغة العام 1673. وظهر السخط الأمريكي بشكل فوري، وخاصة أن الأمريكيين أرغموا على دفع تكاليف الإجراءات التي اتخذت باسمهم، ولكن دون أن يؤخذ رأيهم فيها. ولذلك بدأت حرب الشعارات بالشعار المشهور «لا ضرائب دون تمثيل نيابي»، وهو الشعار الذي أكدته مقاطعة

البضائع البريطانية. وبعد سحب قانون التمغة وإبطاله في العام 1766، حاولت الحكومة البريطانية أن تجمع الأموال عن طريق فرض الضرائب على التجارة، غير أن مقاومة المستوطنين تزايدت حدة وجسارة بالتدريج. وعندما حل العام 1773، وهو عام حفل الشاي في بوسطون، كانت الحكومة البريطانية قد أصبحت أقل استعدادا للتراجع ، على رغم أن عدم حساسيتها تجاه الموقف في أمريكا الشمالية قد أثبت فشلها مرة أخرى. وتزايد التوتر بسبب قانون كويبك، ثم قانون عدم التسامح وقانون إيواء الفارين في العام 1774، وهي القوانين التي حاولت بريطانيا أن تستعيد بواسطتها السيطرة على (ولاية) ماساشوستس؛ وظهر التوتر جليا بتحول المشاكل والمطالب الاقتصادية إلى قضايا سياسية. فصدقت كلمة الملك جورج الثالث التي قال فيها: «لقد ألقي النرد»(*).

وأصبحت بوسطون هي المركز العصبي لدعاية الثورة. وقد كانت مسرحا لمذبحة بوسطون العام 1770، حينما أطلق الجنود البريطانيون النار على مثيري الشغب فقتل أربعة منهم. وقام رجال الدعاية من المستوطنين بالنفخ في هذا الحادث وتضخيمه، حتى صار أكبر بكثير من مغزاه الحقيقي، وذلك بهدف تصوير الطغيان والقمع البريطانيين. ووزعت الرسوم التي وضعها بول ريفيرس للمذبحة ـ فشحنها بالانفعالات المثيرة ـ توزيعا واسعا. ومن خلال جريدة «بوسطون جازيت Boston Gazette» لعب صامويل آدامز ـ المعروف بلقب «أستاذ الدمى والعرائس» ـ على أوتار الرأي العام المعادي للبريطانيين وألهبه. وكان تمثيل «حفل شاي بوسطون»، وهو حادث آخر ذو مغزى رمزي أكثر منه فعليا، انتصارا لصامويل آدامز. ثم أصبحت بوسطون مدينة من الشهداء، حيث احتلتها القوات البريطانية في العام 1773 . فوضع الساسة الأمريكيون، وكبار المؤمنين بالدعاية التي تنظمها وتشنها اللجان، ثقتهم في «لجنة بوسطون للمراسلين» التي شكلها آدامز بوصفها أداتهم الرئيسية للدفاع. فوجهت اهتمامها إلى محاولة التأثير في الرأي العام في كل من كندا وبريطانيا. فبالنسبة للرأي العام الكندي ـ على سبيل المثال ـ اتجهت الدعاية الأمريكية المطبوعة بجهدها المزدوج إلى الدعوة لمقاومة

(*) بمعنى: أن الموقف قد أفلت وتقرر مصيره، ولم يعد يمكن التراجع- أو كما يقول المثل العربي: «سبق السيف العذل»- المترجم.

القمع الاستبدادي، على الرغم من الاختلافات اللغوية والدينية مع الكنديين الفرنسيين. ومنذ بداية سبعينيات القرن الثامن عشر، تلقى وزير المستعمرات البريطاني شكاوى من أن القلق والاضطراب يتزايدان في كندا، «مع تسمم عقول الناس بواسطة ما يمارس في الأقاليم الأخرى من النفاق نفسه والأكاذيب ذاتها بنجاح ملحوظ، والذي نشره مصدروه وأصدقاؤهم في خارج البلاد بحذق ودأب عظيمين». غير أن المستوطنين الأمريكيين الذين قاموا في العام 1774 بتنظيم المؤتمر القاري الأول (من بينهم سام آدامز وجون هانكوك وجورج واشنطون) وأصدروا إعلان الحقوق والمظالم، لم يكونوا ثوريين بعد، وإنما طالبوا بحقوقهم ـ فقط من حيث إنهم مواطنون إنجليز. ومع ذلك، فإن حملتهم الدعائية زادت من قوة النداءات الداعية إلى الاستقلال. وتم تكليف الدعاة الذين عرفوا باسم: «رجال الدقيقة Minute men» في ماساشوستس بإلقاء محاضرات قصيرة حادة، لتوضيح مطالب المؤتمر. وناقشت الصحف القضايا المطروحة و«طفا الانفصال ظاهرا متدفقا من فوق المنابر». وإثر محاولة الجند البريطانيين (ذوي السترات الحمراء) إلقاء القبض على سام آدامز وجون هانكوك، أطلقت الرصاصات الأولى في ليكسينجتون وكونكورد في العام 1775. ووجدت القوات البريطانية أنها أصبحت هدفا ـ أيضا ـ للنشرات الدعائية التي كان من بينها النشرة ذات العنوان: «إلى جنود بريطانيا العظمى النظاميين الموجودين الآن بالخدمة في المستعمرات الأمريكية البريطانية»، والتي راحت تحرضهم على التخلي عن قضية الملك جورج الثالث الاستبدادية. وقام المؤتمر القاري الثاني المنعقد في فيلادلفيا بتعيين جورج واشنطون قائدا للقوات الأمريكية، وبعد أن أدت الخسائر البريطانية الفادحة في معركة بانكر هيل إلى زيادة ثقة الأمريكيين في أنفسهم، وضعت الخطط للقيام بغزو أمريكي لكندا تصاحبها النداءات الدعائية المناسبة. وتحولت المطالبة بمعالجة المظالم إلى نداءات إلى الاستقلال عن دولة احتلال يتأكد أنها عاجزة عن الحكم، وإلى «الحقوق الطبيعية» للبشر التي وصفها توم بين[2] في أكثر مقالاته مبيعا ونجاحا بأنها: «الفطرة السليمة».

واقترنت كل هذه الأحداث بسيل من قذائف الدعاية، مع اكتشاف المستوطنين الأمريكيين لأهمية ضمان تأييد الرأي العام لقضيتهم منذ

البداية. فعلى سبيل المثال، وبعد وقت قصير من فرار القوات البريطانية من ليكسينجتون وكونكورد، ظهرت أربعة رسوم محفورة لآموس دوليتل تصور المشهد بأسلوب موضوعي بدرجة معقولة، ولكنها استخدمت لتصوير روايات أكثر ذاتية ظهرت في الصحف عن كيف تمكن مزارعون بسطاء من إرغام 1800 جندي بريطاني نظامي على الفرار. وقالت إحدى القصائد:

يا لشجاعتكم حين خرجتم ببنادقكم اللامعة...
وقيل إن مرآكم سوف يملأ القلوب بالخوف...
ولكن حين وصلتم إلى هدفكم: كيف عفروا وجوهكم بالتراب...
وكيف ـ على طول طريق عودتكم ـ «خلوا» أنوفكم...
وهي ليست ـ يا أحبائي ـ تمثيلية هزلية ضاحكة:
أن يكون وجهك متكبرا فخورا... وأن تضرب في «مؤخرتك».

وعلى مستوى العمل السياسي، كتب جورج واشنطون خطابه المعنون: «إلى سكان كندا» والذي وزعه جيش ببنيدكت أرنولد في أثناء حملته سيئة المصير إلى كويبك العامين 1775 ـ 1776. وحاولت الثورة الأمريكية التي حاصرت كويبك تشجيعها على الاستسلام بإطلاق المزيد من النداءات التي كانت تربط إلى السهام الهندية. وحينما فشل هذا الأسلوب وتبين عجز الأمريكيين عن الاستيلاء على المدينة بالقوة العسكرية استخدمت الدعاية في محاولة لمواجهة آثار الهزيمة؛ وجاء قرار المؤتمر أنموذجا للتعقل الحكيم:

إن أفضل القضايا عرضة لتقلب الحظ وتغيراته.
ولم يمكن قط تجنب خيبات الأمل دون حدود؛ فهكذا هو حظ الطبيعة البشرية. غير أن النفوس الكريمة، التي أضاءتها وأدفأتها نيران الحرية المقدسة تصبح أكثر تصميما كلما زادت الصعاب فتتخطى، بعزيمة لا تقاوم، كل عقبة تقف بينهم وبين أفضل ما تستهدفه إرادتهم. إننا لن نتخلى عنكم أبدا ولن نسلمكم لسخط أعدائهم وأعدائنا.

وعلى الرغم من تأسيس مطابع فرنسية في كندا، وتجنيد قساوسة من الكاثوليك لشرح قضية المستوطنين الأمريكيين، فإنهم أرغموا على التخلي عن مشروع غزوهم لكندا، وتركيز جهودهم على الرأي العام المحلي والبريطاني. ومع ذلك فهناك ما يدل على أن الدعاية الأمريكية لعبت دورا

ما في تحييد الرأي العام الكندي في أثناء حرب الاستقلال. فعلى سبيل المثال، أرجع الجنرال بيرجوين بعض ما لقيه من صعوبات في تجنيد الكنديين لفرقته إلى «السم الذي غرسته في عقولهم رسائل المتمردين».

ومع «إلقاء النرد» ازدهرت الدعاية الأمريكية الثورية، من أغاني الحرية وأناشيدها إلى القصص الشعرية الطويلة، ومن الصور والشعر إلى الرسوم الساخرة المطبوعة، ومن المسرحيات إلى الكتيبات. أما أنشودة: «يانكي دودل Yankee Doodle فكانت ـ في أصلها ـ ترنيمة للجيش البريطاني للسخرية من الأعداء المشتتين، فاقتبستها قوات المستعمرات واستخدمتها كوسيلة لإغاظة ذوي السترات الحمراء في أثناء تراجعهم وانهزامهم، فأصبحت أنشودة تَجمُّع واحتشاد أمريكية؛ فكان من تأثيرها ما وصفه جندي بريطاني في تعليق له قائلا: «بعد نجاحنا السريع أوقفنا جنود المستعمرات الأمريكية في ازدراء هائل. ولكن سماعهم ينشدون هذا اللحن لم يكن قليل الأثر في تعذيبه لنا . أما مسرحيات من نوع «معركة بانكرزهيل» و«سقوط الطغيان البريطاني» أو «الحرية الأمريكية تنتصر: الحملة الأولى»، فقد كتبت بهدف نشر قيم وأفكار القضية الأمريكية من خلال الوسيط الترفيهي. وكرس الشعراء أيضا خدماتهم للوقوف وراء القضية، وكتب أحدهم يقول: «ليس هذا هو الوقت المناسب للشعر إلا إذا كان من النوع الذي كتبه تايرانيوس»... وكان يقصد بهذا، نوع الشعر التحريضي الذي كتبه أحد شعراء إسبرطة القديمة لحث جنودها على الانتصار. وأكد شاعر آخر ـ هو جون ترامبل الذي ألقي القبض عليه فيما بعد ـ قائلا:

> إن حماسة الطموح ذاته، وعظمة الفكر نفسها التي دفعت المحارب إلى اقتحام الخطر في ميدان الغزو، حين تنتشر وسط شعب من الشعوب سوف تستحضر روح العبقرية في كل زاوية من زوايا الحياة، وتلهب خيال الفنان، وتسمو إلى مستوى الجلال بعروس الشعر الناهدة.

ولا شك في أن رجال الدعاية الأمريكيين كانوا من بين أكثر نظرائهم فصاحة وقدرة على التعبير في التاريخ، مثلما أوضحت لنا السطور التي اقتطفناها من بيان واشنطون. ولقد ضرب انطلاقهم في عصر العقل ـ باسم حقوق الإنسان ـ على الوتر الصحيح في عقول جميع محبي الحرية،

بل إنه يستبقي حجيته وتأثيره إلى اليوم. ويعد إعلان الاستقلال، الذي صدر في يوم 4 من يوليو العام 1776 تجسيدا نموذجيا لامتزاج الأيديولوجيا أو الفكر العقيدي / السياسي الثابت، بالكلام الدعائي. وعلى الرغم من أنها سطور مشهورة فإنها تستحق أن نكررها هنا:

> إننا نؤمن بأن تلك الحقائق واضحة لا تحتاج إلى برهان، وبأن جميع الناس خلقوا متساوين، وبأن خالقهم قد منحهم حقوقا معينة لا يمكن إنكارها؛ ومن بينها الحق في الحياة والحرية والسعي إلى السعادة. وأنه لضمان تلك الحقوق وتأمينها تُؤسَّسُ الحكومات بين البشر مستمدة سلطاتها العادلة من قبول المحكومين وموافقتهم، وأنه حينما تصبح أي حكومة معادية لتلك الغايات فإن من حق الشعب أن يغيرها أو أن يسقطها، وأن يقيم حكومة جديدة، فيرسي أسسها على تلك المبادئ، منظما سلطاتها بهذا الشكل، لأنه سيجدر بتلك المبادئ دون غيرها أن تحقق لهم الأمن والسعادة.

وعلى رغم أن إعلان الاستقلال يتضمن أيضا قائمة من الشكاوى والتظلمات، فإن الناس يتذكرونه أكثر بسبب هذه الفقرة الثانية من فقراته. ولا شك في أن التأثير الدعائي لمثل تلك المشاعر يمكن تعميقه بشدة عن طريق التوزيع الواسع.

وعلى الرغم من جهود البريطانيين لإقامة ما أسماه أحد المؤرخين: «جدارا مانعا لوصول الأصوات عند الحدود»، فإنه لم يكن ممكنا وقف أو منع تأثير تلك الكلمات، على الأقل، بين المستوطنين في أمريكا الشمالية. أما السكان الأصليون الهنود فلا شك في أنهم شعروا بأنهم سقطوا في حلقة مفرغة. ومن المؤكد أن رجال الدعاية البريطانيين كانوا قادرين على استخدام حقائق من نوع قانون كويبك وضغط المستوطنين على الأراضي الهندية، وقوة تأثير الصور الملكية ذات التاريخ الطويل واستعراض القوة العسكرية. وقد تنافس الطرفان على قلوب الهنود وعقولهم، فيما سعى الأمريكيون إلى ضمان حيادهم. غير أن رسمهم على أيدي البريطانيين في صورة «المتوحشين سالخي فروات الرؤوس» هو ما أمد الدعاة الأمريكيين

بمتنفس آخر يستخدمون فيه فصاحتهم. مما أسفر عن كوارث طويلة المدى بالنسبة لبعض القبائل. وقد أدت محاولة البريطانيين إنزال الرعب في قلوب المستوطنين بواسطة القوات الهندية، إلى مجرد استنفار مقاومة أعنف من جانب المستوطنين وإثارة الرغبة في الانتقام مثلما نرى في حالة الآنسة جين ماكري المشهورة. فإن ما بدأ بوصفه حادثا ليس نادر الحدوث، قتلت فيه الآنسة المذكورة على يد مجموعة من الكشافة الهنود وسلخت فروة رأسها - وهو الحادث الذي ما كان البريطانيون ليوقعوا بالهنود أي عقاب جزاء له، خوفا من أن يهجر الهنود صفوفهم هجرة جماعية - قد أصبح حكاية ذائعة الرواج عن تلويث النقاء والطهارة الأمريكيين، ومركزا لإلهاب المقاومة من جانب المستوطنين (على الرغم من أن جين ماكري كانت متعاطفة مع حزب التوري المحافظ، وصديقة لجندي من الموالين للحكم البريطاني).

وقد أمدت هزيمة جيش الجنرال بيرجوين في موقعة ساراتوجا العام 1777 المعنويات الأمريكية بدفعة كبرى، بعد أن كانت قد تدهورت إثر خسارة نيويورك التي استولى عليها البريطانيون. وكانت آمال الأمريكيين قد انتعشت بالفعل بعبور واشنطون الجريء لنهر ديلاور لمهاجمة قوات بريطانيا الألمانية في ترينتون ليلة الكريسماس العام 1776 (وهو العبور الذي خلدته لوحة لوتزي المشهورة بعد سبعين عاما)، ثم طرد واشنطون للبريطانيين من برينستون. غير أن استسلام «السيد المحترم جوني بيرجوين» أو «سير جاك براج» كما عرف لدى القوات الأمريكية - في أكتوبر العام 1777 أصبح نقطة تحول حقيقية. وزج الفرنسيون بأنفسهم في الحرب بدافع لهفتهم إلى استرداد مكانتهم بعد حرب السنوات السبع، ومعهم جاء حلفاؤهم الإسبانيون الذين كانوا يتلهفون على استرداد جبل طارق. وأصدر المؤتمر[*1] مواد دستور الاتحاد. وفي العام 1780 كانت دولة «الولايات المتحدة الأمريكية» التي تكونت لتوها مشتبكة - رسميا - في حرب مع بريطانيا؛ وإلى جانبها كل من: فرنسا وإسبانيا وهولندا وعصبة الحياد المسلح (التي كانت في نهاية الحرب تضم كلا من: روسيا والدنمارك والسويد والبرتغال وبروسيا والنمسا الذين رغبوا جميعا في حماية حقوقهم في التبادل التجاري مع

(*1) الكونجرس Congress الذي تحول إلى هيئة تشريعية بالاسم ذاته للدولة الجديدة، تحت التأسيس - المترجم.

المستوطنين). ومع انشغال بريطانيا بجبهة تمتد من أمريكا إلى الهند، فإن الانتصار في حرب الاستقلال أصبح مؤكدا. وبعون من قوة فرنسا البحرية وأموالها ورجالها قاتل الأمريكيون البريطانيين حتى أنهكوهم، وحاصروا قوات الجنرال كورنواليس في يوركتاون، وأسروا سبعة آلاف رجل في شهر أكتوبر العام 1781، بينما كانت فرقة موسيقية عسكرية تعزف أنشودة «انقلب العالم رأسا على عقب». وتم منح الاستقلال في العام 1783.

وقد لعبت الدعاية دورا كبيرا في الثورة الأمريكية. وكانت من موادها التي تتمتع بأهمية ومغزى بعيدي المدى، كتابات جون لوك [3] (1632 ـ 1704) وخاصة كتابه: «مقالات في الحكم» الذي نشر في العام 1690، والذي دحض مبدأ حق الملوك الإلهي المقدس والحكومة الاستبدادية والحكم المطلق. ولكن من الكتابات ذات المغزى والأهمية الأكثر مباشرة تأتي أعمال ريتشارد برايس[4] الذي بيع من كتابه: «حول الحرية المدنية» الصادر في العام 1776 نحو 200 ألف نسخة، وهناك بالطبع توم بين (صاحب: الفطرة السليمة وحقوق الإنسان) والذي أشرف أيضا على تحرير مجلة «بنسلفانيا جورنال»، بل إن واشنطون أمر بأن تقرأ كتابات بين على جنوده، متبينا في كلماته قوة الدعاية الملهمة وقدرتها على إثارة الانفعال. ويكتب توم بين في كتابه: «الأزمة الأمريكية»، على سبيل المثال، السطور التالية:

هذا هو الزمن الذي يختبر نفوس الرجال. إن جندي الصيف ووطني الشمس المشرقة سوف يحجمان ـ في هذه الأزمة ـ عن خدمة بلديهما... وليس من السهل هزيمة الطغيان، تماما مثل الجحيم. ومع ذلك فإن عزاءنا هو إيماننا بأنه كلما ازداد الصراع صعوبة ازداد الانتصار مجدا.

وكتب أحد المراقبين يقول إن تلاوة مثل تلك السطور كانت «كالماء العذب للوطنيين المجهدين». وتحقق النصر في ترينتون بعد ذلك بأسبوع فتبددت وانهارت صورة العسكرية البريطانية التي لا تقهر.

واستخدم الدعاة أيضا توظيف البريطانيين لقوات ألمانية ـ الهيسيانيين المرتزقة The Hessians[5] ـ للإيحاء بأن الصلح مع الإمبراطورية الأم، مستحيل. وقال هؤلاء الدعاة إن البريطانيين قد حصلوا على عون «بعض الأمراء الأجانب الذين اعتادوا بيع دماء شعوبهم بالمال»... ووجهت النداءات إلى هؤلاء المرتزقة لكي يقبلوا الحصول على «الأراضي، والحرية، والأمن والتمتع

بالقوانين الحسنة والحكومة المعتدلة في بلد استقر فيها بالفعل الكثيرون من أقاربهم وأصدقائهم».

وترجمت الدعوات المغرية للفرار (من القوات البريطانية) مقابل الحصول على الأرض وعلى الحريات التي جسدها إعلان الاستقلال، إلى اللغة الألمانية، وقام العملاء بتوزيعها. وحالما كان الفارون أو الأسرى من الألمان يتبينون خطأهم، فإنهم كانوا يعادون إلى الصفوف البريطانية لكي ينشروا ما اقتنعوا به على نطاق أوسع. وقد أكد الأستاذ بيرجر قائلا: «إن حملة الحرب النفسية الأمريكية ضد المرتزقة كانت أكثر حملات الدعاية التي شنتها الثورة نجاحا».

ولكن الدعاة الأمريكيين كانوا أقل نجاحا في عملهم ضد الجنود البريطانيين النظاميين ذوي التدريب الجيد. وعلى رغم توزيع ونشر الحكايات عن الرماة من رجال الحدود الأسطوريين، في محاولة لبث الخوف في قلوب البريطانيين، فإن القناصة الأمريكيين افتقروا بالفعل إلى النظام في المعارك، ومالوا إلى الفرار أمام الطوابير الزاحفة من ذوي السترات الحمراء وحراب بنادقهم المشهرة. وكان الجيش الغازي[*2] قد بدأ يستخدم حراب البنادق (السناكي) في العام 1778 فقط، غير أن النشرات الدعائية كانت قد شرعت تتحدث عن أنشطة هذا الجيش قبل ذلك بمدة طويلة من الزمن. وقد استخدمت الحكايات عن أعماله الوحشية لحشد التأييد المحلي، بينما كان الكونجرس يذيع قضيته في نشرات من مثل «إلى سكان الولايات المتحدة» (1777)، التي حذرت من الفنون السرية وأفانين الجواسيس المندسين. وأجاب البريطانيون باستخدام أساليب مشابهة وبإطلاق الوعود بمنح الأراضي مقابل هجرة صفوف أعدائهم. وقد وصف الجنرال هاو كيف حاول «أن يهدئ عقول الناس غير الملتزمين... (و) أن يحطم وحدة جيشهم». وبينما كانت قوات واشنطون تعاني شتاء العام 1777 ـ 1778 في وادي فورج (فتخسر 2500 رجل في تلك الأثناء)، هبط دعاة الجنرال هاو إلى الوادي ينشرون وعودهم وحججهم فيما كانت المعنويات في أدنى مستوياتها. وتزايد انزعاج واشنطون من الارتفاع المستمر لعدد الفارين وقال: «إن أعداءنا إذ يكتشفون

(*2) البريطاني في المستعمرات الأمريكية - المترجم.

عجزهم عن خفض أعدادنا باستخدام قوة سلاحهم، يمارسون الآن كل فنون الغدر والخداع لكي يكسبوا بعض الوقت ويشتتوا وحدتنا». ومن بين مثل تلك الجهود كانت النشرة المعنونة «إلى جيش القارة» العام 1780 التي اعتقد واشنطون أنها كانت ذات «تأثير ملحوظ في الجنود». وبالمثل فقد استغل فرار بينديكيت أرنولد إلى الجانب البريطاني بتغطية دعائية واسعة في محاولة لإظهار أن الأمريكيين يقاتلون في سبيل قضية خاسرة. وقد كتب أرنولد نفسه بعض النداءات لمصلحة البريطانيين، على رغم أن تأثيرها كان بالتأكيد محدودا، بالنظر إلى تصوير الأمريكيين لارتداده وانشقاقه في صورة أقصى أعمال الخيانة. وتم إحراق تماثيل وصور صنعت لهذا الشخص «الشرير النذل الخائن المتحالف مع الشيطان» في أرجاء المستعمرات بأسرها. وبالمثل قدمت الدعاية لبريطانيا أول شهيد حقيقي في هذه الحرب، وهو الميجور جون أندريه الذي أعدمه الأمريكيون بوصفه جاسوسا، الأمر الذي ساعد على تقوية الإرادة البريطانية. وكتب الجنرال كلينتون تقريرا قال فيه إن قضية أندريه خلَّفت «رغبة عنيفة في الانتقام» بين جنوده، حتى أنه كان يجد صعوبة في كبح اندفاعهم. ومع ذلك فإن الهزائم المتلاحقة التي نزلت بالبريطانيين، إضافة إلى أن أنباء تزايد حجم واتساع المحنة الدولية التي حاصرت بريطانيا، كانت تعني أن الأمريكيين احتفظوا بالمبادرة ـ بشكل لا يمكن مقارنته ـ في الحرب الدعائية.

ولم تمتد الحملة الدعائية الواسعة التي شنها الكونجرس إلى كندا فقط، بل وصلت أيضا إلى إنجلترا وفرنسا. وكان المسؤول عن اجتذاب الفرنسيين، بنيامين فرانكلين[6] الذي أثبت ـ مع سيلاسي وين وأرثر لي ـ قدرة كبيرة على كسب المتعاطفين في باريس. فقد استغل فرانكلين المشاعر المعادية لبريطانيا التي خلفتها حرب السنوات السبع (والتي ترجع بالتأكيد إلى قرون عدة من قبل)، وأثبتت شعبيته في فرنسا نفسها في طباعة صورته واسمه مرارا ونحت التماثيل له وطباعة صورته على علب النشوق. وفي الحقيقة كان فرانكلين ـ بالنسبة للفرنسيين ـ هو الثورة الأمريكية، وبدا العالم الفيلسوف الشيخ كأنه «فولتير» أمريكي، على رغم أنه تعين تخفيف العناصر المعادية للملكية في الأيديولوجية الثورية خشية إثارة امتعاض وعداء لويس الخامس عشر. ومع ذلك فقد بين فرانكلين أنه:

> يمكننا أن نتحدث إلى الأمم من خلال الصحافة. وتملك الكتب الجيدة والنشرات المكتوبة بأسلوب جيد تأثيرا عظيما وعاما. إن سهولة تكرار تأكيد الحقائق نفسها بوضعها يوميا تحت أضواء مختلفة في الصحف، التي تقرأ في كل مكان، تمنحها فرصة عظيمة لكي تترسخ وتقبل. وإننا لا نجد فقط أنه من الصواب أن نضرب الحديد وهو ساخن، وإنما قد يكون عمليا للغاية أن نسخن الحديد بمواصلة ضربه.

وتكشف هذه الكلمات كم كان فرانكلين رائدا عظيما في مجال الدعاية مثلما كان رائدا في مجالات أخرى عدة. لقد اكتشف أنه في التوجه إلى أجانب، فمن الأفضل أن يتم ذلك من خلال أجانب أيضا، وأن الناس يرفضون أن يرشدهم دخلاء إلى التفكير السليم. ولذلك فقد عمل فرانكلين من خلال الصحافة الفرنسية ومن خلال الإصدار الرسمي الذي يحمل اسم «شؤون إنجلترا وأمريكا: Affaires Dé L'Angelettre et de L'Amerique» التي أعادت نشر الكثير من مقالاته ومقالات صحف أمريكية كان يقدمها إليها.

ويمكن أيضا الزعم بأن فرانكلين واحد من أوائل من مارسوا ـ في العصر الحديث ـ الدعاية السوداء، وهي الدعاية التي يبدو من الظاهر أنها تأتي من مصدر بعينه ولكنها تأتي في الحقيقة من مصدر آخر. فحينما ظهرت في فرنسا ـ العام 1777 ـ مقالة تحمل عنوان «قاعة الهيسيانيين»، وهي وثيقة يفهم منها ظاهريا أن كاتبها هو أحد الأمراء الألمان وموجهة إلى القائد الألماني لقوات الهيسيانيين المرتزقة في أمريكا، فقد أثار ظهورها الخواطر. ومن هذا الخطاب كشف أمر فظاظة الأمراء الألمان ووحشيتهم (وكان الاسمان الواردان في الوثيقة مزورين في الحقيقة) في تعاملهم مع الحكومة البريطانية (فقد ذكرت الوثيقة على سبيل المثال: أن الجراحين قد نصحوا بأن يتركوا الجرحى يموتون). وكان فرانكلين هو الكاتب الحقيقي لهذا الخطاب. وكان فرانكلين أيضا من أوائل الدعاة الأمريكيين الذين استغلوا القضية الإيرلندية وسيلة لمهاجمة بريطانيا، وذلك بخطابه المعنون: «إلى شعب إيرلندا الطيب» الذي نشر العام 1778. وانتعشت حملته التي شملت أوروبا بأسرها ـ يدعمها تشارلس دوماس من هولندا، في العام

1780، حين انضم جون آدامز إلى الفريق. وكتب آدامز إلى فرانكلين من أمستردام يقول:

> من الضروري أن يكون لأمريكا عملاء في مختلف أجزاء أوروبا، وإتاحة بعض المعلومات المتعلقة بأمورنا، ولندحض الأكاذيب الحقيرة التي يروجها عملاء وجواسيس بريطانيا المأجورون في كل ركن من أوروبا، والتي يحافظون بواسطتها على سمعتهم ويخربون سمعتنا.

وقد ثبت أن معرفة آدامز الشخصية بأحداث أمريكا الأخيرة كانت ذات نفع عظيم في دحض الكثير من المعلومات المغلوطة التي كانت تنشر بشأن الثورة الأمريكية، وقد ساهم عمله في هولندا بقدر كبير مما أدى إلى الحصول على التعاطف الشعبي ـ واعتراف هولندا ـ مع الولايات المتحدة الأمريكية. ويستحق فرانكلين تقديرا مشابها لما أنجزه في فرنسا، غير أن نشاطاته امتدت إلى داخل بريطانيا نفسها.

فقد غرس فرانكلين علاقاته الموالية لأمريكا في إنجلترا ونظمها في جمعيات عدة مثل «جمعية الـ 13» و«جمعية الربوبيين للعام 1774»[8]، وقد تبادل معه الرسائل أشخاص مبرزون مثل جوسيا ويدجوود وجوزيف بريستلي. وقد تمتع مؤيدو فرانكلين بميزة هائلة هي الصحافة التي سيطر عليها خصوم جورج الثالث ووزارة لورد نورث (1770 ـ 1782). ولم يبد الملك اهتماما كبيرا بالرأي العام، الأمر الذي ترك الميدان مفتوحا وخاليا أمام وزراء معارضين مثل تشارلس جيمس فوكس الذي كان مديره الصحافي دينيس أويربان يعمل من خلال مجلة «جنرال أدفيرتايزر». وحاولت الحكومة أن ترد من خلال الجريدة الرسمية «لندن جازيت»، وعن طريق نظام ـ نال الاحترام زمنا طويلا ـ هو نظام الدفع للناشرين والكتاب لكي يصدروا كتابات معادية لأمريكا والدعاية الملكية. وكان من أبرز من استخدمتهم رجل الدعاية المحترف الدكتور جون شيبير والكاتب المسرحي هيو كيلي. وكانت الصحف الوحيدة التي أيدت موقف حزب التوري (المحافظ) هي صحف: «جنرال إيفننج بوست» و«ليودز إيفننج بوست»، وانضمت إليهما فيما بعد «مورننج بوست» التي أصدرها القس هنري بيرد. ومع ذلك فمن بين الـ 25 ألف صحيفة (نسخة) أو نحوها التي كانت توزع في لندن في كل

يوم؛ كان توزيع الصحف المؤيدة ضعيفا بالمقارنة مع غيرها، على رغم أن «مورننج بوست» كانت أكثر صحف عصرها شعبية، متفوقة على ما دونها بمسافة كبيرة. وعلى رغم هذا، فقد اتهمت صحيفة «جنرال أدفيرتايزر» الحكومة بأنها تدعم بالمال الآراء التي «غشت، وخدعت وأغوت (الإنجليز) لتقنعهم برأي يقول إن هذه الحرب التعيسة الشريرة المدمرة لأصحابها ضد أمريكا هي الإجراء الصحيح». وقد أكد الكثيرون أن الأمريكيين لا يقاتلون إلا من أجل مبادئ حزب الأحرار (الويج)، وأنها التي قاتل من أجلها الإنجليز في العام 1688.

وإثر الهزيمة البريطانية في معركة ساراتوجا، أصبحت الحرب أقل شعبية بكثير في بريطانيا، خاصة أنها بدأت تجر البلاد إلى صراع أوروبي النطاق. ولم يكن بوسع الكثيرين أن يدركوا السبب الذي يجعل الإنجليز غير المخدوعين يتحالفون مع عدو بريطانيا الأكبر والكاثوليكي. ووجهت الصحافة ـ صراحة ـ اللوم كله إلى حكومة نورث التي وجدت أنه من المستحيل أن تتجاهل ما وجه إليها من نداءات لكي تتفاوض مع الأمريكيين وتتصالح معهم، بينما هي تواجه الخطر المهدد الحقيقي الأقرب إلى الوطن متمثلا في فرنسا وإسبانيا وهولندا. وكشفت أعمال الشغب المعروفة باسم «مظاهرات جوردون» في لندن العام 1780 عن سخط محلي فعلي. وفي هذا الجو بدأت نشاطات فرانكلين في باريس تؤتي ثمارها. وكانت الصحافة المعارضة أفضل معرفة بكثير بأحداث أمريكا من الإصدارات التي تمولها الحكومة، وكان هذا راجعا ـ بنسبة كبيرة ـ إلى المعلومات التي كانت تتلقاها من رجال مثل فرانكلين. ومع هزيمة يوركتاون وسقوط حكومة نورث، أصبح الطريق ممهدا لإنهاء الحرب التي كانت غالبية الصحف قد أكدت طوال الوقت أنها حرب لا يمكن كسبها.

ولقد أكد جون آدامز أن الثورة الأمريكية كانت ـ أساسا ـ نضالا في سبيل كسب قلوب وعقول الشعب حتى قبل أن تبدأ الحرب؛ وربما كان الأمر كذلك، غير أن الحرب نفسها كانت اختبارا أو سببا للولاء. فدون حملة دعائية فعّالة لتفسير الانتكاسات والهزائم ولتمجيد الانتصارات (أحيانا بما لا يتناسب أبدا مع حجمها)، فلربما ظلت فكرة إمكان تحقيق الاستقلال مقصورة على أعضاء الكونجرس. ودون تأييد الصحافة ما كان

لمهندسي وبناة الولايات المتحدة الأمريكية أبدا أن يحققوا أهدافهم، وهم الواعون تماما بقيمة الإعلام والدعاية. وبينما راح آدامز وجيفرسون يسعون للتأثير في الرأي العام الأمريكي، وسعى فرانكلين للتأثير في الرأي العام الفرنسي، راح واشنطون يسعى لرفع معنويات جنوده. وقد أصبح واشنطون ـ بحق ـ معبودا أمريكيا، وقائدا عسكريا يحتل مكانه وسط أعظم القادة العسكريين. وقد كتب الأستاذ بومان يقول: «كان بوسع رسالة منه مثلا أن تثير حماسة فرقة كاملة. وكان بإمكان ظهوره في المعسكر أن يولد حالة ابتهاج وفرح عام».

وقد حددت سنوات ستينيات وسبعينيات القرن الثامن عشر أيضا طريقا جديدا للفنون الحربية. فقد بدأ فريدريك الثاني الكبير (الذي حكم فيما بين 1740 و1786) ملك بروسيا إصلاحات حربية بعيدة المدى، ساعدت على أن تكتسب قوة صغيرة نسبيا أهمية أكثر بكثير من حجمها. وكانت جيوش فريدريك خفيفة وسريعة؛ وكانت القدرة على التحرك السريع والانضباط هي مفاتيح نجاحاتها. وكفل التدريب والتعليم الصارمان ـ على السير وإعادة تحميل المعدات وشحن السلاح ـ أن تصل جيوشه إلى ميدان القتال في حالة جيدة وأن يحافظوا على تشكيل صفوفهم وانضباطهم بعد ذلك. ومع الدقة المطلقة التي تشبه دقة طابور الاستعراض، فقد كانت جيوش فريدريك تشعر بالأمان لأنهم كانوا يعرفون أن مليكهم قد أولى عناية شخصية بكل التفاصيل بما في ذلك المعنويات. وفي كتابه «تعليمات عسكرية كتبها ملك بروسيا لجنرالات جيشه» الذي أصدره العام 1763، كتب فريدريك يقول:

> إن اهتمامنا ينصب على أن نواصل حروبنا بنشاط فيّاض وروح وثّابة حتى لا نجعل تلك الحروب تستمر لمدة أطول من اللازم؛ لأن حربا طويلة مملة لا بد أن تؤدي إلى تراخي نظامنا الممتاز، وإلى إنقاص سكان بلادنا وإجهاد ماليتنا. ولذلك فإن من واجب كل جنرال بروسي أن يجتهد بأقصى ما يستطيع حتى يصل بالأمور إلى خاتمة سريعة.

وإذ ضرب المثال الأول بنفسه، فقد حققت جسارة فريدريك في الدفع بقواته إلى القتال نجاحات باهرة، مثل هزيمته للنمساويين في معركة روزبانج العام 1757، بينما كانت القوات النمساوية تفوق البروسية بنسبة 2 إلى 1.

وقد قال الملك مخاطبا قواته قبل المعركة:

> تعرفون جميعا أنكم لم تعانوا إجهادا ولا جوعا ولا بردا ولم تقوموا بحراسة ولم تتعرضوا لخطر دون أن أشارككم إياه، وإنكم لترونني الآن مستعدا لأن أضحي بحياتي معكم ولأجلكم. وكل ما أرغبه منكم هو أن تردوا عليّ بمثل هذا التعاطف والإخلاص اللذين لا بد أنكم تثقون فيهما عندي. ولن أضيف الآن ـ ليس كتشجيع لكم وإنما كدليل على امتناني لخدماتكم السابقة ـ لن أضيف إلا أنه من هذه اللحظة وحتى اليوم الذي تدخلون فيه مساكنكم الشتوية فإن أجوركم سوف تتضاعف. والآن! قاتلوا كشجعان الرجال، وثقوا في الله يمنحكم النجاح!

وقبل أن يمضي وقت طويل كانت بلاد أخرى قد اقتبست ابتكارات فريدريك وإصلاحاته، على رغم أن الانضباط البروسي لم يكن من السهل نقله ومحاكاته في أي مكان آخر. غير أن دقة الساعات وكفاءتها لم تكن دائما هي أكثر الأساليب إنسانية لكفالة الانضباط. وفي عصر التنوير، حين أعيد النظر في علاقة الفرد بالأمة لمصلحة الفرد، فإنه حتى آراء طغاة مستنيرين ـ مثل فريدريك الأكبر ـ كانت تعتبر آراء يعتورها الخطأ. وقد أظهرت الثورة الأمريكية أن البشر يمكن أن تساهم في تحريكهم كل من الأيديولوجيا والوطنية والشعور القومي. وفي فرنسا، كانت مقالة جاك دي جويبرت «مقال عام في التكتيك»، العام 1722 قد تنبأت بالفعل ـ أو أنذرت ـ بالمساهمة الشعبية في الحروب القومية. فلن تعود الحروب ـ بعد ـ اقتتالا بين جيوش محترفة وإنما بين شعوب بأسرها، ولسوف تغير مثل تلك الصراعات وجه الأرض. وكان من المقدر أن تبلغ فكرة «الأمة تحت السلاح» نضجها الكامل وتحققها في عصر الثورة الفرنسية.

18 الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية

لقد ظهر لنا بالفعل، في حالة لويس الرابع عشر أن الرقابة الرسمية، في حد ذاتها، لا تكفي لمنع تدفق الأفكار الهدامة، وخاصة من خارج البلاد. وفي عصر التنوير، استخدم مجرد وجود نظام رقابي صارم وقاس في فرنسا بوصفه بؤرة إضافية يتجمع فيها نقد «النظام القديم». أما في إنجلترا، فربما كانت الصحافة قد أصبحت حرة نسبيا ـ بالمقارنة ـ في توجيه النقد، فأصبحت بذلك مصدر إزعاج ومضايقة مستمرة للحكومة؛ ولكنها هيأت متنفسا للآراء المخالفة والمنشقة التي كان من الممكن أن يؤدي إحباطها إلى استثارة أعمال أكثر تطرفا. وقد أصبح من المعتاد الظن بأن غياب مثل هذا التحول «الديموقراطي» في فرنسا قد ساهم في انفجار الثورة الفرنسية العام 1789. غير أن البحوث الحديثة أثبتت أنه على الرغم من الرقابة، فإن صحافة القرن الثامن عشر الفرنسية، كانت أكثر نشاطا وفاعلية في نقل الأفكار السياسية وإشاعتها مما كان معروفا من قبل. وكانت تحديات السلطة الملكية أكثر وضوحا في الكتب وفي دوريات تلك

المرحلة وجرائدها. لقد منعت الرقابة الرسمية التوزيع والانتشار على النطاق الذي عرفناه في إنجلترا، غير أنه من المؤكد أن الإصدارات السرية، أو تلك التي سمح بها قد خدمت ـ أو أوصلت خدماتها ـ إلى نخبة من الجمهور القارئ الذي خرج من وسط كل من الأرستقراطية والبورجوازية المتعلمة. ومثلما أظهرت طائفة الجانسنيين[1]، بعد العام 1750، فإن نقاد السلطة الملكية أصبحوا قادرين على نشر الأفكار المتعلقة بالنزعة الدستورية والحاجة إلى مؤسسات نيابية وسط جمهور أكثر اتساعا. وقد ردت الحكومة على كل ذلك بالأسلوب الوحيد الذي تعرفه: بالقمع وبالتعلق بخط دعائي يزداد فراغا باستمرار، يصر على أن الملكية المطلقة تعرف ما هو الأفضل والأكثر خيرا لمواطنيها، وأنه لا ينبغي أن يستمر الجدل أكثر من ذلك حول هذا الموضوع.

وقد صدر مرسوم ملكي في العام 1764 حرم، على أساس من القانون، «المذكرات والمشروعات التي يضعها أشخاص لا صفة لهم، يعلنون على العامة بحرية تلك المشروعات بدلا من تسليمها إلى الأشخاص القادرين ـ بحكم مراكزهم ـ على الحكم عليها». ومع ذلك ففي العام نفسه، قلل فولتير[2] من تأثير الكتب في «القاموس الفلسفي» الشهير، وهو أقرب إلى أن يكون دليلا لحركة التنوير. وفي مدخل (من القاموس) عنوانه «حرية الصحافة» دافع فولتير عن الحاجة إلى وجود رقابة من جانب الدولة، واستهزأ ساخرا من حرية الصحافة في بريطانيا وهولندا التي دفعتهما إلى «انحلال مرعب»، وأصر على أن أكثرية الكتب مضجرة مملة ضئيلة التأثير:

أوه، إنك تخبرني بأن كتب لوثر وكالفين قد دمرت الدين الروماني [*] وقسما من أوروبا. كلا إن روما[*2] لم تهزمها الكتب. وإنما هزمت لأنها دفعت أوروبا إلى الثورة بسبب ما كانت تقوم به من نهب. وبسبب بيع صكوك الغفران، وبسبب حطها من شأن البشر وتحقيرها لهم، وبرغبتها في أن تحكم كما لو كانوا حيوانات مستأنسة، وبإساءة استخدامها لسلطتها إلى درجة مبالغ فيها حتى إنه يدهشنا أنها تمكنت من الاحتفاظ حتى

(*) يقصد: الكنيسة الكاثوليكية وعقيدتها ـ المترجم.

(*2) يقصد: سلطة الفاتيكان ـ المترجم.

بقرية واحدة.

وعلى رغم أن تلك السطور قد احتوت على درس موجه إلى لويس السادس عشر، فإن مقال فولتير امتلأ بالتناقضات إلى درجة عجيبة. ففي المقال نفسه، اعترف بأن إنجلترا وهولندا قد سيطرتا «على تجارة العالم كله» وأشار إلى خطورة كتابات سبينوزا [3]. ولا يدهشنا أن لويس الخامس عشر لم يستطع ـ بمثل هذه النصيحة ـ أن ينظم بيته. فلقد فشلت محاولات الإصلاح ـ وخاصة للجوانب المالية، فشلا ذريعا. وباختصار، فإنه لم يماثل فشل جهاز الدعاية والرقابة التابع للنظام القديم إلا فشل حكومته.

ولقد صح ما تنبأت به مدام دي بيناي في العام 1771 من أن «ما يحصل عليه الشعب من معرفة، لا بد أن يؤدي إلى الثورة عاجلا أو آجلا». وقد تلقى نمو الدعاية المناهضة للملكية التي أوصلت إلى الشعب «فقه الإدارة»، دفعة قوية خلال الثورة الأمريكية حينما سمح الدعاة الحكوميون لكراهيتهم التقليدية لإنجلترا بأن تعمي أبصارهم عن أخطار الترويج للقضية الجمهورية الأمريكية. وبتعبير آخر، فإن «النظام القديم» ساهم ـ بغباء ـ في دعم حجج خصومه فساهم بالتالي في غروب شمسه واندثاره. وتحقق ما كتبه مونتسكيو [4] في كتابه: «روح القوانين» العام 1748، حاملا في ذهنه مثال إنجلترا:

إنه لأمر قليل الأهمية غالبا ـ في أمة حرة ـ مسألة ما إذا كان تفكير الأفراد جيدا أو رديئا. إذ يكفي أنهم يعقلون ويفكرون؛ فمن هنا تنشأ الحرية التي تضمن نتائج هذا التفكير. وبالمثل، فإن التفكير جيدا كان أو رديئا لأمر ضار ومؤذ إلى أقصى حد، في حكومة استبدادية. فإنه يكفي أن يفكر شخص واحد لكي تهتز القاعدة ذاتها التي تقف عليها الحكومة.

ولقد كان هذا تشخيصا دقيقا؛ فلا بد أن تتساهل الحكومات الديموقراطية؛ فتسمح بصحافة حرة بصرف النظر عما نوجهه لها من نقد؛ وهذا معيار لمدى ديموقراطيتها. أما الحكومات الاستبدادية فلا ترى أنه ينبغي لها ذلك. إذ تكون حرية الصحافة علامة على ضعفها. وبذلك فلا بد من أن تكون لك سيطرة كاملة على وسائل الإعلام، بدعمها الإرهاب أو أن تتضاءل هذه السيطرة إلى أقصى حد ممكن، وفي حدود متطلبات الأمن القومي. أما السبيل الوحيد الذي يمكن حكومة استبدادية من السماح بالنقد والجدل فهو أن يكون هذا مصحوبا بالإصلاح: فإعادة

البناء [*3] هو وصف (أو: وصفة) المصارحة والمكاشفة [*4] ولقد كان فشل «النظام القديم» في فرنسا هو فشله في أن يتبين هذا، أو ـ على الأقل ـ في أن يتصرف بشكل حاسم.

فعلى الرغم من تقديم تنازلات عدة لمختلف الأطراف الساخطة في فرنسا خلال ثمانينيات القرن الثامن عشر، مثل زيادة نسبة التمثيل البرلماني، فإن السلطة ظلت ـ وبشكل كامل ـ في أيدي الحكومة التي تزايدت مشاكلها بسبب الفضائح المالية. ولذلك، فإنه حينما دعي مجلس الطبقات العامة (مجلس طبقات الأمة) للانعقاد للمرة الأولى منذ العام 1614 فاجتمع في مايو العام 1789، مع مضاعفة عدد ممثلي الطبقة الثالثة (العامة ـ أو البورجوازية) لكي تتساوى مع العدد المشترك لكل من الطبقة الأولى (الأرستقراطية) والثانية (رجال الدين)، فقد تحول الإصلاح بسرعة إلى ثورة. وانفجر الجدل الاقتصادي متحولا بسرعة إلى سيل جارف من الدعاية السياسية الأيديولوجية. وظهر في هذا الشهر أكثر من مائة كتيب، أكثرها شهرة ذلك الذي أصدره سييس[5] بعنوان «ما هي الطبقة الثالثة؟». ثم ارتفع العدد إلى 300 كتيب في شهر يونيو. وحين حلت نهاية العام كان قد ظهر أكثر من ستين جريدة جديدة لكي توصل خدماتها إلى جمهور «احتاج إلى التعليم» المتعلق بمختلف القضايا في تلك الأيام المثيرة والسريعة التحرك. وقد صح ما لاحظه ـ وكتبه ـ رحالة إنجليزي في فرنسا آنذاك ـ في قوله:

> «إن حجم العمل القائم الآن في دكاكين الكتيبات في باريس حجم لا يصدق. ويقولون إن الرغبة العارمة في قراءة المقالات السياسية تنتشر في الأقاليم، ولذلك فإن جميع مطابع فرنسا مشغولة بالقدر نفسه. وتسعة عشر من بين كل عشرين من هذه المنتجات في مصلحة الحرية وتدافع عنها، يشيع فيها العنف ـ جميعا ـ ضد الكهنة والنبلاء... أليس أمرا عجيبا أنه بينما تموج الصحافة بأكثر المبادئ هدما، بل أكثرها دعوة إلى الفتنة التي لو دخلت حيز التنفيذ

(*3) أو البيريسترويكا Perestroika ـ بتعبير جورباتشوف ـ آخر الرؤساء السوفييت ـ المترجم.

(*4) أو الجلازنوست Glaznost ـ أيضا بتعبير جورباتشوف ـ والمصطلحان كلمتان روسيتان اكتسبتا شهرة عالمية، إذ كانتا أساسا لسياسة جورباتشوف لإصلاح النظام السوفييتي قبل انهياره ـ المترجم.

لقلبت الملكية، فإنه لا يظهر شيء يرد عليها ولا يتخذ البلاط
أي خطوة لكبح جماح هذا النشر غير الملتزم بأي قواعد أو
حدود.

ويمضي هذا الرحالة لكي يصف، وهو يبدي دهشة أكبر، مقاهي باريس فيقول: «إنها ليست مزدحمة في الداخل فقط، بل تتزاحم حشود منتظرة على الأبواب والنوافذ وهم يصغون... إلى خطباء بعينهم يسعى كل منهم من فوق مائدته أو مقعده إلى إثارة جمهوره الضئيل.

ولكن الثوريين الفرنسيين لم يكونوا مجرد خطباء غلاظ وسط الغوغاء، وإنما كانوا مؤمنين كبارا باستخدام الرموز وسيلة لنقل وتوصيل الأفكار المعقدة في شكل بسيط؛ فرمز واحد كان يستطيع أن يثير من الانفعالات وأن يحدد من الولاءات ما لا يحتاج إلى تفسير أو توضيح وإنما يولد الطاعة وحدها. وجاء العلم الثلاثي الألوان، من الأحمر والأبيض والأزرق لكي يمثل مختلف التكتلات الثورية، وارتداه البعض أيضا كالوشاح بينما ظهرت أردية أخرى ورموز لكي تمثل الدعوة إلى «الحرية والمساواة والإخاء». فلقد عرف الثوريون منذ البداية أهمية الرموز بوصفها وسائل للدعاية: فقد ارتدت الجماهير القلنسوة الفريجية[6] رمزا للمساواة، وظهرت حزمة مقابض الفؤوس الرومانية رمزا للإخاء، وظهرت شخصية ماريان النسائية رمزا للحرية. وكان اختيار شخصية نسائية بهدف أن تعبِّر عن تزايد دور النساء في السياسة، ولكي تعبِّر من جانب آخر عن فكرة سوف تلقى الرعاية والحماية فيما بعد، وهي فكرة «أم طفل سياسي من نوع جديد»، وأصبح (سجن) الباستيل رمزا للقمع الملكي بينما أصبح اقتحامه في العام 1789 إشارة رمزية توحي بالتحدي، على رغم أن السجن كاد يكون خاليا من السجناء. وقد درس الأستاذ رودي الكيفية التي سيطر بها الثوار على الجماهير بواسطة المظاهرات المنظمة والموجهة، والألعاب النارية، وحرق الصور والتماثيل، وخطباء الغوغاء الذين ينشدون: «تحيا الطبقة الثالثة!».

وبينما كان التغير الثوري يستجمع قوة دفعه، خرجت الجماهير من قبضة السيطرة، وقد حاول أحد الخطباء أن يعيد شحنها بشيء من العقل:

أيها الفرنسيون؛ إنكم تدمرون الطغاة؛ وإن كراهيتكم لمخيفة،
إنها كراهية مذهلة، وإنني مثلكم تسلبني لبي سرعة هذه

الأحداث. ولكن فكّروا وتخيّلوا كم ستكون الحياة كعبيد حياة شائنة مخزية، وتخيّلوا العذابات التي ينبغي أن تكون عقوبة لما ارتكب من جرائم ضد الإنسانية، ثم فكّروا أخيرا وتخيّلوا الخير والرضا والسعادة التي تنتظركم وتنتظر أطفالكم وأحفادكم حينما تقيم الحرية المباركة الجليلة معبدها في وسطكم. ومع ذلك، فلا تنسوا أن تلك التجاوزات المسرفة تستثير غضب الإنسانية وسخطها، وتشيع الرعدة في أعطاف الطبيعة.

غير أنه كان من الصعب أن يستعيد الثوريون السيطرة على الحشود التي أسكرها خمر نجاحها كأداة للتغيير. ومع ذلك، فقد تمكّن الثوريون بالتدريج من استعادة قدرتهم على إعادة شيء من القانون والنظام على رغم أنهم ظلّوا قابلين لأن تخترقهم أهواء الغوغاء، وذلك بعد إصدار إعلان حقوق الإنسان في أكتوبر العام 1789 وبعد أن أدمجت الطبقات الثلاث في مجلس واحد باسم «الجمعية الدستورية» بينما لجأ الأرستقراطيون والكهنة إلى الفرار عقب إعلان الدستور في العام 1791، وأخيرا بعد أن ألقي القبض على لويس السادس عشر.

ومن بين الصحف العديدة التي أسست في هذه الفترة، تستحق اثنتان أن تذكرا بشكل خاص بفضل مؤسسيهما. كانت الأولى هي «صديق الشعب» التي أسسها خطيب الغوغاء والصحافي مارا[7]. وفي شخصه نجد الداعية الذي عرف بوضوح ضرورة ترجمة أفكار حركة التنوير وأفكار الثورة إلى لغة تستطيع الجماهير أن تفهمها. وكانت الجريدة الأخرى هي «الدفاع عن الدستور» التي أسسها روبسبير[8] وقد قام كل من الرجلين بإنشاء نادٍ لغرس أفكار التحرر والحرية ومناقشتها، ولخلق بديل عن الدين بطقوسه وترانيمه ورموزه. ومع ذلك فقد كانت المشكلة هي أن كتلا ثورية عدة راحت الآن تتنافس على السيطرة وعكست إصداراتهم المتنوعة آراءهم المختلفة حول أي اتجاه ينبغي أن تتخذه الأحداث. وأصبح واضحا ضرورة إصدار دستور جديد. وفي الوقت ذاته، أصبح في وسع حزب الجيروند أن يتسلّموا السلطة بفضل تبنيهم للموقف الوطني، فحاولوا توحيد البلاد خلفهم تحت راية الحزب. ومع حلول العام 1793 فشل هذا الأسلوب ـ واستولى اليعاقبة

على دفة الأمور تحت قيادة روبسبير ـ بفضل نظرتهم الأكثر وضوحا إلى الحلول المحلية وتماسكهم الأيديولوجي الأكثر قوة. وقد انتهى عهده القصير ـ الذي بدأ بفضل قتل مارا وتنظيم الإرهاب للتخلص من خصومه ـ بتطبيق الأسلوب ذاته الذي طبقه على الكثيرين من الأرستقراطيين الذين أبغضهم، أي أنه انتهى على المقصلة.

وبتأسيس جمهورية تحل محل الملكية في العام 1792، وجد الثوريون أنه يتعين عليهم أن يتبعوا أساليب الدعاية التي يتبعها الحكام بدلا من تلك التي يتبعها المحكومون الساخطون. ويشهد مجرد وجود لجنة الإرشاد العام على الدور الرئيسي المحوري الذي أولاه الثوار الفرنسيون للدعاية. ولقد لقيت مهمتهم عونا عظيما بإعلان الدول الأوروبية الحرب على فرنسا، بعد أن أثار النظام الجمهوري انزعاجها ثم صدمها أكثر إعدام الملك في العام 1793. ولا شيء يوحد أمة من الأمم بقدر ما توحدها حرب تشنها عليها القوى الأجنبية. وقد ساعدت حرب التحالف الأول ضد فرنسا على تدعيم التأييد الشعبي للجمعية الوطنية الثورية الجديدة. ومع ذلك، فبالمثل أيضا، لم يوحد أوروبا شيء إلى هذه الدرجة مثل المقاومة المشتركة للثورة الفرنسية، وخاصة حين أطلقت نداءها للدعوة إلى «حملة صليبية جديدة، حملة من أجل الحرية للعالم كله». غير أن تدعيم الثورة في الداخل تطلب ـ أولا ـ إسهام الدعاة المتمرس. وحينما ثار النقاش حول رموز النظام الجديد، توجه الفرنسيون إلى الثورة الأمريكية بحثا عن الأنموذج الملهم. وتم اختيار «ماريان» بوصفها رمزا للحرية: «حتى يوضح شعارنا وهو ينتشر في المعمورة بأسرها، لجميع الشعوب الصورة المحبوبة لحرية الجمهورية وكبريائها». وصدر تقويم جديد لكي يؤكد فكرة البداية الجديدة مع اعتبار العام 1792 هو العام الأول. وأصبح لافاييت(9) البطل الفرنسي للثورة الأمريكية، بطلا للحرية الفرنسية مع حلول الصور الجمهورية محل الدعاية الملكية القديمة. وساعدت عمليات إقامة التماثيل الكاملة والنصفية للأبطال القدامى والجدد، وأعياد الحرية وغيرها من الاحتفالات للإشادة بهم، ساعدت كلها على ترسيخ فكرة الجمهورية في مجتمع لم يألف من قبل سوى الحكومة الملكية.

فماذا كان تأثير كل هذا في الجيش الفرنسي؟ إن ما كان يحدث في

المجتمع الفرنسي ككل كان ينعكس ـ عمليا ـ في القوات الفرنسية المسلحة. ولقد كان بوسع الجيش الفرنسي أن يقمع الثورة الفرنسية في العام 1789، وبدلا من ذلك انضمت الغالبية الساحقة من جنوده إلى الثورة فصنعوا بذلك سبيكة تحالف عاتية القوة مع الشعب. وقد قال نداء صادر في يوليو العام 1789: «أيها الجنود الشجعان، امتزجوا بإخوتكم واختلطوا بهم وتقبّلوا أحضانهم وقبلاتهم. إنكم لم تعودوا أتباعا للطاغية ولا سجاني إخوتكم. إنكم أصدقاؤنا، مواطنونا الأشقاء وجنود الوطن». ونتيجة لذلك فقد لاحظ مراقب أجنبي قائلا ـ في العام 1793:

لقد ظهرت قوة تجاوزت كل خيال. ففجأة أصبحت الحرب مرة أخرى هي شغل الشعب الشاغل؛ وهو شعب من ثلاثين مليونا جميعهم يعتبرون أنفسهم مواطنين... لقد أصبح الشعب مشاركا في الحرب؛ وبدلا من الحكومات والجيوش مثلما كان الوضع حتى الآن، ألقي ثقل الأمة كلها في كفة الميزان. وقد تجاوزت المواد والجهود المتاحة للاستخدام الآن كل الحدود التقليدية المعروفة: فلا شيء الآن يعوق القوة العاتية التي يمكن أن تشن بها الحرب.

وإذ شحن الفرنسيون بالحماسة الثورية ـ وبالدعاية الثورية بالطبع ـ فقد تحولوا بسرعة إلى أمة تحت السلاح، وقوة عسكرية غير مسبوقة في الحجم والكثافة. وإذ تشجع النظام بفضل الانتصار في معركة فالمي ـ العام 1792 ـ على جيش الغزو البروسي / النمساوي، فقد أعاد هذا النظام تنظيم قواته خلال حكم الإرهاب (1793 ـ 1795) حيث تم التخلص بوحشية من العناصر المعادية للجمهورية (ومن خصوم روبسبير السياسيين، مثل دانتون [10]) واستدعي كل رجل فرنسي قادر على حمل السلاح للدفاع عن مبادئ الثورة، ووجه كل طفل وامرأة بالمثل للعمل في المستشفيات أو لصناعة أزياء الجنود وضمادات الجرحى، بينما «سوف يخرج عجائز الرجال إلى الميادين العامة لكي يشجعوا الجنود ويرفعوا معنوياتهم، ولكي يبشروا بوحدة الجمهورية وكراهية الملوك!». ولكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد. فقد تبنت الثورة نوعا من حماسة الصليبيين، فإذا أرغمت على أن تدافع عن الحرية ضد قوات الاستبداد والحكم المطلق الأجنبية، فإن الثورة تحولت الآن إلى الهجوم باسم: «النزعة الجمهورية العالمية».

تحقق الانتصار في فالمي، من جوانب عدة بفضل الحظ، فقد كانت الثورة بسبب مثلها العليا المتمثلة في المساواة، قد أضعفت الجيش الفرنسي إلى درجة كبيرة بسبب تآكل الانضباط والنظام والتسلسل القيادي (وقد انضم 60 في المئة من الضباط إلى الهجرة الأرستقراطية). غير أن دخول بريطانيا الحرب في العام 1793 حوّل الحرب إلى صراع شمل أوروبا كلها لم تكن الحماسة الثورية ـ في حد ذاتها ـ كافية فيه لتحريك العاديين من الرجال والنساء ودفعهم. وقد أصبحوا الآن متورطين في مواصلة الصراع. وتزايد معدل التدريب والانضباط وتطورت الأساليب الفنية للقتال وتحسنت القواعد التعبوية. وحتى في هذه الحالة كانت الجيوش الفرنسية الثورية مختلفة تماما عن الجيوش السابقة عليها في دوافعها النفسية. فلأول مرة تم الاعتراف بارتباط مصالح الفرد واهتماماته بمصالح الأمة واهتماماتها. ولقد خاضت هذه الجيوش المؤلفة من مواطنين، القتال، ليس بهدف الحصول على المال، ولا لأنها كانت مجبرة على ذلك. إنما قاتلوا في سبيل قضية، قضية عامة مشتركة تم الاعتراف فيها بأن مصالحهم واهتماماتهم الفردية هي نفسها مصالح واهتمامات بلادهم، أو «إنه ينبغي أن يكون كل مواطن جنديا وكل جندي مواطنا». وكانت الأجور مجرد مكافأة وليست حافزا، وكان الجندي يفرض النظام على نفسه ولا يُفرَض عليه؛ وكانت الطاعة واجبا لا علامة على الخضوع. وكان تعريف الجيش بأنه «أداة في يد الشعب»، بدلا من اعتباره شيئا منفصلا عن المجتمع ككل، ابتعادا كبيرا عن المفاهيم السابقة؛ أو بالأحرى ـ كان عودة إلى العصور القديمة التقليدية. وأصبح الاختلاف الآن مرتبطا بالحجم والمدى، بينما راحت موجة بعد أخرى من المجندين تنضم إلى الجيش الأعظم الجديد.

وبهذه الوحدة المنصهرة التي ضمت الأمة وجيشها امتزجت الدعاية الحربية بالدعاية المدنية؛ فدائما ما ضمت احتفالات البلديات أو «المآدب» الرسمية وحفلات الزواج والتعميد (للأطفال) الجنود، لأن الجميع كانوا جنود الثورة. وكانت المآدب الرسمية وسيلة أساسية لتجنيد القوات والاحتفال برحيلهم، وباعتبارها وسيلة أيضا لتعميق الإحساس بتطابق الهوية المدنية مع القضية الوطنية الثورية. ومع ذلك فبالنظر إلى عدم التثبت من ولاء الكثير من وحدات الجيش، بعد أحداث العام 1789 مباشرة، فقد كان لا بد

من شن حملات دعائية محددة. وتضمنت إحدى هذه الحملات التعريف بالدستور الجديد في العام 1793، وحَلف يمين ولاء جديد. وقد وصف الجنرال القائد في مدينة كامباري هذا الحدث بالتالي:

> من الضروري أن تكون جمهوريا لكي تدرك تماما التأثير الذي ولده دخول الموكب إلى حيث توسط القوات التي احتشدت في الميدان. وكان بوسع المرء أن يرى هؤلاء الجنود الشجعان - خلال القراءة - وهم لا يستطيعون إلا بجهد جهيد أن يمنعوا أنفسهم من مقاطعة القراءة والتصفيق. لكم كان مؤثرا أن أرى هؤلاء المحاربين وهم يمنعون أنفسهم بدافع من الاحترام منتظرين اللحظة التي يستطيعون فيها الانفجار لإشباع إحساسهم. ولكن لكم زادت سعادة المرء لكونه شاهدا على صرخات وصيحات تحيا الجمهورية - ثم ما يتبعها دائما «يحيا الدستور»... الصيحات التي تعالت عند انتهاء هذا الإعلان. ثم بدأ على الفور إنشاد نشيد المارسيلييز. ولا أستطيع أن أتذكر شيئا أسرع من ترديد النشيد الذي تعالت به الأصوات من كل الجوانب، مما أشاع شعورا طاغيا صاعقا. وتلا ذلك إنشاد كل الأغاني وكل الشعارات الوطنية؛ ولم تخبُ حماسة الجنود إلا بعد ساعتين من هذه البهجة الجمهورية!

وعلى أسس أكثر دواما وثباتا، أنشأت لجنة الأمن العام نوادي أو جمعيات خاصة، وطبعت جرائد خاصة للجيش في محاولة للحفاظ على الولاء وتثبيت مبادئ الثورة. ويوضح هذا ما تلقاه أحد العملاء الدعائيين:

> إن أحد أهداف مهمتك الرئيسية هو توزيع الجرائد الوطنية، وأن تنشر بين إخواننا في السلاح وتثبت في قلوبهم حب الحرية الذي جعلهم يحققون كل تلك الانتصارات، وأن تحذرهم من مناورات الأرستقراطية، وأن تنزع أقنعة الوطنيين المزيفين الذين لا يريدون سوى كسب ثقة الجنود بهدف خيانة الجمهورية.

وحيثما لم تكن الجرائد المناسبة متاحة، فإن لجنة الأمن العام كانت تصدر جرائدها الخاصة، وعلى رأسها «لوسواريه دي كامب Le Soirée de

Cump» التي كانت توزع على الوحدات 29 ألف نسخة في اليوم الواحد، بينما كانت جريدة أو نشرة الـ «بولتين Le Bulletin» تقوم بوظيفة السجل الرسمي للأحداث؛ فتعلق في الأماكن العامة، أو تقرأ بصوت مرتفع «بالشكل الذي يضمن أن يسمع كل الناس، وهي تنتهي بعبارات التهنئة والتشجيع». وليس ما يدعو للعجب أو للدهشة إذا ما صور الجنود الشجعان، والمحاربون الأبطال الذين يحاربون من أجل بلادهم في كل أنواع الدعاية المطبوعة في تلك الفترة؛ بل لقد كانوا أبطال نحو ثلاثة آلاف أغنية ثورية كتبت فيما بين 1789 و1799، وطبعت في كتب الأغاني ووزعت مجانا على الجنود حتى يستطيعوا أن يمرحوا ويقصفوا في وضعهم الجديد. وفي وصف أحد المجندين لمزاجه الأكثر رزانة واتزانا في مسيرته الأولى، فإنه يصف كيف «بدأ أصغر رجل في الكتيبة يغني فجأة... ورددت الكتيبة بأسرها اللزمات الجماعية، فحلت البهجة الهائلة في صفوفنا محل الحزن». وقد أبدت لجنة الأمن العام تقديرها الكامل لـ «شعبية الأغاني لإثارة شجاعة المدافعين عن الوطن». تماما مثلما أبدت اللجنة تقديرها للمسرح السياسي الذي قدم مسرحيات من مثل: «الخداع والحرية» أو: «الديموقراطية».

كل هذه التربية وهذا الشحن كان في جانب، ولكن هل كانت المعنويات تصمد حين يشتد لهيب المعركة؟ وهذا سؤال من الأسئلة التي تتردد كثيرا، ومثلما فعلنا في الحروب السابقة لا ينبغي لنا أن نقلل من أهمية المناخ الاجتماعي الذي أثر في المعنويات القتالية. ولا شك أنه في خلال الحروب الثورية احتفظت بتأثيرها كثير من الضغوط ذاتها التي دفعت بعض الرجال طوال التاريخ للقيام بأعمال شجاعة فريدة في ميدان القتال. وقد ذكر أحد الآباء ابنه بقوله: «حين تزحف إلى القتال، فلا تنس أبدا أنك تقاتل من أجل أبيك وأمك وإخوتك وأخواتك، ولتعرف كيف تفضل الموت نفسه على العار». غير أن ما كان يمثل وضعا مختلفا الآن، هو أنه كان للجميع أبناء وأقارب في الميدان؛ ولم يعد الجبن عارا عائليا وإنما صار عارا قوميا شاملا. وقد عكست الدعاية هذا: «لا قيمة للحياة دون الحرية!» فالانتصار وحده هو الذي يمكن أن يضمن حياة مجتمع ثوري وحريته. وكان البديل هو عودة الطغيان القديم.

ويوحي كل ذلك بنجاح تاريخي هائل للدعاية، ولقد كان الأمر كذلك

بالفعل إلى حد كبير. على رغم أن المعارك ـ لا الكلمات ـ هي العامل الحاسم الأخير والنهائي في الحرب، فإن من الصعب أن نتجاهل المدى الذي ساهمت به الدعاية الثورية في شحن معنويات الأمة التي أصبحت تحت السلاح في هذه الفترة. ولا يستطيع المرء إلا أن يعجب من نجاح الجيوش الفرنسية التي كانت تتكون ـ ربما ـ من نحو مليون رجل نقلوا الثورة معهم إلى كل ركن ـ حرفيا ـ من أركان أوروبا. لقد تفوقوا على أعدائهم بالأرقام وحدها، وعاشوا على ما يأخذونه من الأرض، وتحركوا بسرعة وتنقلوا خفافا. ولقد كانت تعبئة المجتمع الفرنسي لمساندة هذا المجهود هي أقرب الأشياء إلى الحرب الشاملة السابقة على القرن العشرين. غير أن الحرب أخذت ضريبتها مع تتابع الأزمات الداخلية. وفي الجيش كان الفرار وعدم الانضباط أبعد ما يكونان عن الاستئصال، وظلت الخسائر مرتفعة، ومع حلول العام 1798 أصبح من الضروري فرض التجنيد الإجباري، مع استمرار الخدمة العسكرية الإجبارية لمدة خمس سنوات. ومع ذلك فعلى الرغم من الإجراءات اليائسة التي اتخذتها حكومة الإدارة (الديكتوار)، فقد حدث خلال هذه الفترة أن ظهر نابوليون بونابرت فبرز بوصفه ـ في الوقت ذاته ـ قائدا لثورة ضلت طريقها وللجيش الثوري معا.

وقد كانت المعنويات الجيدة ـ بالنسبة لنابوليون ـ هي جوهر النجاح، (فهو القائل:) «في الحرب، تمثل المعنويات ثلاثة أرباع القوة، أما توازن القوة المادية فلا يمثل إلا الربع الباقي». وبعد أن عين قائدا لجيش إيطاليا العام 1796 وهو في السادسة والعشرين من عمره، فقد برز نابوليون بعد عودته من حملته المصرية ـ التي أعقبت ذلك ـ بوصفه رجل دعاية حربيا لا يقهر، مضخما للغاية من انتصاراته وقادرا على التهوين من هزائمه. ولدى عودته إلى فرنسا في العام 1799 استقبل استقبال الأبطال الفاتحين، وفي نهاية العام عين قنصلا أول. وفي العام 1802 أصبح قنصلا مدى الحياة ثم أعلن إمبراطورا في العام 1804. وكان نابوليون واعيا بنقاط التشابه ـ في صعوده السريع إلى السلطة ـ بما حدث في حياة قيصر. وقد فعل مثلما فعل قيصر، إذ كتب ذكرياته ـ يمتدح فيها نفسه ويثني عليها ـ بعد حملاته العسكرية. وقد أعيد الفنان ديفيد الذي كان قد فقد الحظوة لدى سقوط روبسبير، إلى مركز الداعية الأول ـ للدعاية المرئية ـ لكي ينتج صورا وتماثيل

لنابوليون بالأسلوب الذي اتبعه القياصرة الرومان بينما شيدت أقواس النصر وغيرها من النصب التذكارية في كل مكان من باريس والأقاليم. ومع تتويجه إمبراطورا بدأ نابوليون عملية تأسيس دعاية إمبراطورية قدر لها أن تدعم مركزه السياسي لمدة عقد من السنين، ولكنها تمكنت من التأثير في الحياة الأوروبية لمدة طويلة وبعد موته.

وفي ظل نابوليون، أصبحت فرنسا أول دولة حديثة تقوم بالفعل على الدعاية. ومن الأمثلة التي تبين الدرجة التي بلغها دعاته في السيطرة على كل جوانب الحياة الفرنسية وتوجيهها، ما حدث إثر اغتيال النمساويين للمندوبين الفرنسيين العام 1699. فقد أعلن عن يوم للحداد القومي وأعلمت السلطات المحلية بأنه يتعين أن يكون موضوع ذلك اليوم هو الانتقام:

> ولا تفوتوا فرصة لإعطاء الاحتفالات طبيعة جليلة ملهمة، وليضع الفنانون على كل قبر أو ضريح أو شاهد قبر أو عمود جنائزي أغصان زيتون مكسورة ملطخة بالدم، فالطبيعة تكسو وجهها بخمار الحزن، والإنسانية تذرف الدموع... وأظهروا الطغيان وهو يجمع دماءهم في كأسه، وصوروا كل الشرور التي تأتي في إثره: المجاعة والنار والحرب والموت. وصوروا الجمهوريين وهم يندفعون إلى سلاحهم لكي يصدوا الوحش... ولتتبع الموسيقى الجنائزية ذات الحزن المفجع، لحظة صمت، ثم لينكسر هذا الصمت فجأة بصيحة تصرخ: الانتقام!

وبمثل هذا الاهتمام بالتفاصيل (بما فيها التعليمات بكتابة التقارير عن رد الفعل الجماهيري) يتضح لنا أننا نتعامل هنا مع شيء جديد في تاريخ الدعاية: الدعاية الشاملة. ولقد آمن نابوليون بأنه: «ينبغي أن يخاف المرء من ثلاث صحف معادية أكثر مما يخاف من ألف حربة»... ولذلك فقد أغلق 64 صحيفة من بين الـ 73 صحيفة فرنسية التي كانت موجودة في العام 1800 ـ 1801. وكان من المقرر لنظامه الرقابي أن ينجح، حيث فشل نظام لويس الرابع عشر، بفضل شموله الكامل وحده.

وكان نابوليون قد تعرَّض للمتاعب على أيدي الصحافيين المعادين الذين كانوا يعملون لحساب الصحافة الثورية، كثيفة الانتشار، خلال حملته في

إيطاليا. وعلى رغم أن الصحافة قدمت خدمات مجيدة لحملاته الحربية برفضها نشر أخبار قد تكون ذات قيمة للأعداء، فإن آراءها هي ما كان نابوليون يخشاها أكثر من أي شيء آخر. ولذلك فقد طلب مراقبتها بانتباه. وقد شارك هو ووزراؤه بشكل منتظم في الكتابة لما تبقى من الصحف وللإصدارات «غير السياسية» التي نالت تشجيعه. وأصبحت جريدة الـ: «مونيتور Moniteur» الناطق الرسمي بلسان الحكومة، وكانت توزع مجانا على الجيش. وظهرت صورته على قطع النقود المعدنية وعلى «الميداليات» وعلى شكل رسوم وتماثيل. وظهر الحرف اللاتيني: «N» في كل مكان مع إعادة تشكيل مظهر باريس المعماري فيما بين العامين 1804 و1813 بفضل موجة هائلة من أعمال إقامة المباني العامة. وحينما كانت إحدى الصحف تثير غضب نابوليون، مثلما حدث في العام 1807 حين انتقد الشاعر شاتوبريان الحكومة في مقال نشرته صحيفة: «ميركور دي لافرانس Mercure de la France» فإنه كان يغلق تلك الصحيفة: «حتى أنه في العام 1810 لم تكن قد بقيت في فرنسا سوى أربع صحف فقط. وكتب يقول: «لو أنني سمحت بصحافة حرة لما بقيت أكثر من ثلاثة أشهر». وفي العام 1812 كان الرأي البريطاني في سيطرة نابوليون على الصحافة يقول: «الحقيقة المميتة هي أنه قد أنزل من الإساءات بواسطة (صحيفة) مونيتور باريس ما هو أكثر جدا مما حققه على الإطلاق بواسطة الجهود المشتركة للمدفع والسيف».

ولقد أثرت سيطرة نابوليون في الفكر الفرنسي في جميع جوانب الحياة الفرنسية. وفي العام 1810 أسس «الإدارة العامة للطباعة والمكتبات Direction Generale de L'impreimerie et de le liberaires» لكي تشرف على جميع الأنشطة الثقافية وتوجيهها بينما تمت تعبئة الفنانين والكتاب لتمجيد حكمه. ومن خلال قائد شرطته، طلب من كل مؤلف أن يسلم نسختين من كل كتاب لفحصه قبل النشر؛ وطلبت الإجراءات ذاتها من نصوص المسرحيات والمحاضرات بل من الملصقات واللافتات. وتوجب على الناشرين أن يحصلوا على تراخيص، وأن يؤدوا يمينا أو قسما معينا. وأعيدت كتابة التاريخ، وخاصة تاريخ حملاته الحربية، بوحي من اعتقاد نابوليون بأن «التاريخ مجرد أسطورة يختار الناس أن يصدقوها». وقد أصبح نابوليون نفسه أسطورة اختار الناس تصديقها. وقد أنفق 16 ألف جنيه استرليني كل عام

على صوره وتماثيله، وأمر ببناء مبان لافتة للنظر بسبب أحجامها لا بسبب أساليبها المعمارية، وأعاد صياغة النظام التعليمي، واستخدم المؤامرات التي كانت تُحاك ضد الدولة لكي يدعم مركزه (وأحيانا كانت المؤامرة تخترع لهذا الغرض)، كما استخدم الانتخابات لإظهار شعبيته. وباختصار كان نابوليون أستاذا وواحدا من أعظم رجال الدعاية في التاريخ في كل مجال، بدءا من فرض الرقابة الصارمة الدقيقة إلى استعراض الصورة الإيجابية إلى الدعاية السوداء.

وأحد العناصر الأساسية التي صنعت قوة نابوليون، كان صورته بوصفه: الجندي - الإمبراطور التي تم تصنيعها بعناية. وبينما تواصل انتشار الأعياد القومية والاحتفالات العامة، فإنها راحت تقع أكثر - بالتدريج - تحت سيطرة الموضوع العسكري بينما قام نابوليون بتحويل فرنسا إلى دولة عسكرية.

وحينما انهار التحالف الأول مع لجوء بروسيا إلى السلام العام 1795 وتبعتها النمسا العام 1797، وقفت بريطانيا وحيدة - عمليا - في الحرب ضد فرنسا. وتشكل تحالف جديد هو التحالف الثاني في العام 1798؛ ولكنه كان أكثر تميزا بالخلافات والتشتت، وليس بالوحدة والتناسق. وقد صدق ما كتبه كليف إمزلي في قوله: «واجهت حكومة بيت [11] مشاكل المحافظة على المعنويات ومحاولة رفعها، وكما هي العادة الأبدية واجهت مشكلة تدبير الأموال والرجال لخوض الصراع». وأُسست الجريدة الموالية والهجومية للتحالف «أنتي جاكوبان Anti-Jacobin» في العام 1797 للمعاونة في ذلك السبيل ولمحاربة الكتلة المعادية للحرب بزعامة تشارلس فوكس. ونشرت أنشودة حرب بريطانية جديدة، قالت:

دعوا فرنسا تغني في صعودها الوحشي
وتنشد لثورتها الدموية؛
فنحن نعتز ببلادنا، ونحب مليكنا،
ونمجد دستورنا. لأجلهم سوف نوجه كل خطر،
ونترك أعمالنا العادية المجهدة،
ستخلي محاريثنا مكانها لزناد البندقية،
ومناجلنا ستتحول إلى سيوف.
أما أنشودتنا فستكون في درع سابغة،

تقول: «يا رب، أعطنا الموت... أو الانتصار».

وبينما كانت المخاوف تتصاعد من وقوع غزو فرنسي، امتلكت الإنجليز موجة من الوطنية، فيما راحت جريدة «أنتي جاكوبان» وغيرها من الإصدارات تستحضر روح معارك كريسي وآجنيكورت، وتستعيد ذكرى الأرمادا الإسباني، ثم عثرت على بطل قومي جديد في شخص هور اشيو نيلسون الذي دمر الأسطول الفرنسي في معركة خليج أبي قير البحرية العام 1798. وأعيدت طباعة وتوزيع رسوم جيمس جيلراي السياسية الساخرة التي تهاجم الفرنسيين وحزب فوكس، على نطاق واسع، وخاصة سلسلة رسومه التي وصفت «عواقب غزو فرنسي ناجح». وقد ركبت الحكومة تلك الموجة فراحت تضطهد الجماعات المعادية للحرب، وأوقفت العمل بقانون «الجسد الموجود» أو «Habias Corpus Act»، وألقت القبض على المتآمرين وعلى الدعاة المعادين. غير أن تصاعد تكلفة الحرب وسوء المحاصيل المتدهورة وتزايد السخط الشعبي في الداخل اقترن بانسحاب الروس ثم النمساويين من التحالف الثاني فتم توقيع صلح آميين العام 1802.

ولكن كان السلام قصير العمر؛ لم يعش سوى أربعة عشر شهرا في الحقيقة. وشهد تجدد الأعمال الحربية بين فرنسا وإنجلترا استمرارا للمخاوف من الغزو، غير أنه بينما ظل نابوليون متفوقا على اليابسة فإن انتصار نيلسون في معركة الطرف الأغر في العام 1805 كان تذكرة بتفوق بريطانيا في البحر، وتم إنشاء حلف ثالث، وشيدت التحصينات الساحلية ونشطت الدعاية الوطنية. وامتدح الشاعر ويليام ووردزورث[12] و«رجال كنت» الذين كانوا يقفون الآن في خط المواجهة الأول ضد الغزو، وقال: «في بريطانيا، قولة واحدة في نفس واحدة: إننا الآن معكم من الساحل إلى الساحل. يا رجال كنت: وإنه النصر أو الموت!» وابتكر جيلر اي شخصية «ليتل بوني» أو «النحيل الضئيل» التي تهزأ بنابوليون. وعرضت المسرحيات المعادية للفرنسيين، بما فيها مسرحية (شيكسبير) هنري الخامس، العتيقة التي لا تبلى. وامتدحت الأغاني الوطنية جهود جون بول[13] وشخصيته، بل لقد تعالت من فوق منابر الكنائس أصوات المواعظ المعادية للإمبراطور الفرنسي. وأظهرت الصحف والكتيبات صورة جيوش نابوليون البربرية، ومعاملتهم الوحشية للسجناء والمدنيين وغيرها من الأعمال الهمجية. وظهرت

أغان للأطفال، لتهدئتهم تقول:

طفلي، طفلي، طفلي الشقي،
اسكت، أيها الشيء الباكي، أقول لك
أسكت بكاءك وإلا فإنه ربما
يكون بونابرت سائرا في هذا الطريق.

وكان معنى المشاركة المحتملة من جانب السكان بأسرهم في مقاومة غزو فرنسي، هو أن توجه الدعاية إلى جميع فئات وطبقات الرجال والنساء والأطفال. وحينما تضاءل هذا التهديد فإن الحرب نفسها استمرت، وبدت الأزمة الاقتصادية المستمرة والسخط الشعبي المتصاعد باعتبارهما عنصرين يوازنان ـ ويحجمان تأثير ـ أي قدر من الدعاية الوطنية. ومع ذلك فبحلول العام 1812 كان نابوليون قد طُرد مهزوما من موسكو، وكان دوق ويلينجتون يستعد للزحف على فرنسا من إسبانيا. وفي أبريل العام 1814، وإذ وجد نابوليون نفسه وقد أحاطت به قوات بريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا، فقد «ألقى المنشفة» مستسلما وتنازل عن عرشه. ولكنه عاد إلى باريس خلال العام نفسه، وكان من الضروري استيعاب الابتهاج الحماسي الطاغي الذي استقبله ورحّب بفراره من (جزيرة) إلبا حتى هزيمته النهائية في معركة ووترلو.

وقد تحولت «ووترلو»، على الرغم من محاولة ويلينجتون بعدها لأن «نترك المعركة في حدودها»... تحولت إلى بؤرة للكبرياء قومية هائلة، وإلى موضوع لما لا نهاية له من المدائح وعمليات صنع الأساطير. وعلى جانبي الأطلنطي أدت الروايات المشبعة بالانفعالات ودوافع التلوين (والتي تضمنت قصائد ملحمية كتبها بيرون وفيكتور هيجو [14]، والرسوم الضخمة التذكارية أدت إلى الترويج لووترلو باعتبارها واحدة من أكثر المعارك حسما في التاريخ. أما بالنسبة لما ترمي إليه هنا، فإن مغزى ووترلو يكمن في درجة ما أظهرته من ولاء الجنود الفرنسيين لإمبراطورهم، ومدى استخدام نتيجة المعركة في الترويج للرأي القائل بأن الاستبداد والطغيان الثوري قد هزما في آخر الأمر.

19 الحرب والرأي العام في القرن التاسع عشر

بهزيمة نابوليون في النهاية ونفيه في مكان آمن عاجزا عن التسبب في أي ضرر، أطلقت أوروبا أنفاس الارتياح الطويلة صُعداء لعودة السلام ـ أخيرا ـ بعد جيل كامل من الحرب. ومن المحزن والصادم معا أن نتخيل أن كل من كان في الخامسة والعشرين من عمره في العام 1815 لم يكن قادرا على أن يتذكر زمنا لم تكن أوروبا في أثنائه في حالة حرب. ولكن هذه التجربة إضافة إلى الأفكار التي أطلقها نابوليون والثورة الفرنسية لم تختف فجأة بهزيمة فرنسا، والحقيقة أن ما حدث كان هو العكس تماما، إذ بدأت أوروبا تتكيف مع قوى التغيير التي أسرعت الحرب بتطورها، والتي لم يكن الرأي العام والدعاية أقلها أهمية بأي شكل قط. فلقد أدت الحرب النابوليونية إلى تضييق المسافة بين الحكام والمحكومين بأكثر مما كانت في أي وقت سابق، بسبب عمق انغماس الناس العاديين في أوروبا طوال جيل كامل في تلك الحروب وتأثرهم بها. وقد شهد القرن التاسع عشر محاولات لتوسيع تلك المسافة مرة أخرى، وخاصة في

بريطانيا الفيكتورية [1]، ولكن قوى التغيير لم يمكن كبحها، ونتيجة للابتكارات التكنولوجية شهد القرن زيادة مستمرة ومتواصلة لدور الرأي العام وفي استخدام الدعاية من جانب النخب الحاكمة للتأثير فيه. وبكلمات الأستاذ كوالتر فإنه:

> حتى أولئك الذين لم يتغير موقفهم تجاه الرأي العام في السياسة قد وجدوا أنه من الضروري أن يتعلموا آليات الإقناع السلمي بواسطة الدعاية. ومع امتداد الحقوق والامتيازات السياسية وتزايد عدد السكان أصبح القيام بأي شيء آخر مكلفا للغاية وفادح الثمن، وبينما كان بالإمكان ــ في زمن ما ـ شراء أصوات الناخبين، أصبح من الضروري الآن إقناعهم. ولذلك فلقد أصبح على السياسيين أن يهتموا بالدعاية.

ولقد نال هذا عونا عظيما بما تحقق من خطوات واسعة إلى الأمام في السرعة التي يمكن إنتاج الصحف بها، وباختراع التصوير الضوئي (الفوتوغرافي) وبواسطة أنظمة النقل المحسنة مثل السكك الحديدية ـ وفيما بعد في القرن نفسه ـ بابتكار الكهرباء والطيران. ولقد كان آزا بريجز محقا حينما وصف مثل هذه التطورات في القرن التاسع عشر بأنها تشكل: «ثورة اتصالات» حقيقية.

وإنه لمن الخرافات القول بأن مائة العام التي تفصل بين نهاية الحروب النابوليونية وبين انفجار الحرب العالمية الأولى كانت: «قرنا من السلام»، ولا يحتاج المرء ـ لكي يدحض تلك الخرافة ـ إلا إلى أن يتذكر حرب القرم والحرب الأهلية الأمريكية وحروب الأفيون والحرب الفرنسية ـ البروسية وحروب الإمبريالية. ولكن إذا كانت الحروب بين القوى الكبرى نادرة نسبيا، فإن الصراعات الأصغر بدأت تحظى باهتمام إعلامي واسع بفضل ما طرأ على الاتصالات من تطورات. وحتى إذا نظرنا إلى المسألة بهذه النظرة، فإنه ينبغي أيضا أن نتذكر أن أوروبا التي أنهكتها الحروب حاولت خلال الجيل التالي لمعركة ووترلو أن تضمد جراحها بواسطة الوسائل السياسية لا العسكرية، بينما تزايد كل من السكان والتصنيع. وظهرت الحركات القومية، وراحت تتحدى النظام المستقر المعترف به، وراحت الأفكار السياسية تجتذب جمهورا أعرض. وإذا كانت الإنسانية سوف تتذكر هذا القرن باعتباره

«قرن الثورات» فإن دور وسائل الإعلام في المجتمع قد لحقه هو الآخر تغير ثوري. ففي ثلاثينيات القرن التاسع عشر ظهرت أولى الجرائد الجماهيرية كثيفة التوزيع. ومع ظهور جريدة «نيويورك صن New York Sun» بدأ عصر: «صحافة الفلس» أو المليم «The Penny Press» أو أنها فيما يقول أحد المصادر الموثوق بها قد فتحت الباب لنظام جديد، لعالم اجتماعي مشترك، تعين فيه إعادة تعريف ما هو «عام» وما هو «خاص».

وفي بريطانيا بدأت تظهر الصحف التي تقدم خدماتها لطبقة بعينها من الناس، وذلك إثر خفض رسم التمغة من أربعة بنسات إلى بنس واحد فقط. وفي العام 1836 ظهرت الصحف الأسبوعية الشعبية الرخيصة التي اعتمدت على تراث النشرات الدعائية القديمة، واستخدمت بعض الحركات (الاجتماعية السياسية)، مثل حركة المشارطين(2) تلك الصحف استخداما حميدا. وكانت صحيفة «نورثرن ستار Northern Star» هي صحيفة المشارطين الدعائية الرئيسية والتي التزمت بتوعية الطبقة العاملة. وعكست أرقام التوزيع المتزايدة وأعداد الصحف الصادرة ذاتها تحسن معدلات التعليم وانتشاره. فبينما كانت هناك 76 صحيفة ودورية تصدر في إنجلترا وويلز في العام 1781، فقد ارتفع الرقم إلى 563 في العام 1851. وفيما بين العامين 1840 و1852 تضاعف توزيع جريدة التايمز The Times التي أسست في العام 1785 باسم «ديلي يونيفرسال ريجستر Daily Universal Register» أربعة أضعاف، من عشرة آلاف نسخة إلى أربعين ألفا للعدد الواحد. ومع ابتكار كونيج Koenig للمطبعة البخارية في بداية القرن أمكن إنتاج ألف نسخة في الساعة، ولكن هذا المعدل تزايد إلى ما بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف نسخة في الساعة في العام 1848 حينما وضعت الحروف المجموعة على حامل دائري - ودوار (أسطوانة) - بدلا من وضعها على حامل مسطح (صينية). وأدى نمو وانتشار السكك الحديدية في ثلاثينيات القرن إلى زيادة كبيرة في سرعة توزيع الصحف، بينما أدى استحداث البرق الكهربائي في الأربعينيات إلى مضاعفة سرعة نقل الأشياء بالنسبة لسرعة الوسائل الأخرى التي كانت تعتمد على الحمام (الزاجل) وعلى أجهزة الإشارة اليدوية (السيمافور Semaphore). وأدى إنشاء الشبكة العالمية للإرسال والاستقبال البرقي وظهور وكالات الأنباء الكبرى - مثل وكالة رويترز Reuters - إلى زيادة

عظيمة في سرعة الاتصالات، وإلى تحسين وتوسيع التغطية الإخبارية من جميع أنحاء العالم. وعندما اقتربت نهاية القرن، ومع ابتكار السينما والراديو ـ كانت ثورة الاتصالات هذه ـ التي مانزال نعيشها إلى اليوم ـ قد وصلت إلى ذروتها [3].

ولقد اخترنا أمثلتنا ـ أساسا ـ من التجربة البريطانية، على رغم أننا نستطيع تكرار عملية الاختيار نفسها من أي دولة، لأن بريطانيا هي الدولة التي برزت بوصفها الرائد الذي لا يبارى في ميدان الدعاية السياسية. وفي القرن العشرين، أصبحت هي الأستاذ الذي لا يجادل في مجال الدعاية للحرب. وسوف يكون هذا الزعم زعما مدهشا بالنسبة لأولئك (البريطانيين أساسا، وهو ما يجب أن أقوله) الذين يعتقدون أن البريطانيين ـ من بين كل الشعوب ـ كانوا، ومايزالون، أكثر أهل الدعاية في العالم إحجاما عن ممارسة الدعاية، وأن الدعاية، في بريطانيا، شيء يمارسه غير البريطانيين أو أنها نشاط «غيرإنجليزي» بعيد عن طبيعة الإنجليز، يرتبط بتدمير وإعاقة حرية التعبير والعمل والتفكير. ومع ذلك فقد حدث في خلال القرن التاسع عشر أن وضع بريطانيا الفريد قد ساعدها على تطوير نظام لإدارة واستغلال وسائل الإعلام، في الداخل وفي الخارج على حد سواء؛ وهو النظام الذي قدم لها خدمات جليلة في القرن التالي. فإن هذه المجموعة الصغيرة من الجزر التي تقع تجاه الساحل الشمالي الغربي لأوروبا، باعتبارها مهد الثورة الصناعية وقد تحررت نسبيا من القلاقل الداخلية التي كانت تهدد غيرها من الدول، وباعتبارها مؤسسة لإمبراطورية اتسعت ـ بالفعل ـ على نطاق العالم، فقد كانت قادرة على أن تطور لنفسها مركز قوة ونفوذ في إطار منظومة الاتصالات العالمية لا يضاهيه إلا مركزها باعتبارها الدولة العظمى الأولى في العالم. فإن إمبراطوريتها ذات الأبعاد المترامية، من إسكتلندا حتى سنغافورة قد تماسكت وبقيت، بفضل الاتصالات النشطة والفعالة بقدر ما تماسكت وعاشت بفضل كفاءة كل من الجيش البريطاني والأسطول البحري الملكي. وقد ساعد إنشاء وتطوير شبكة أسلاك البرق «الحمراء» لندن على بث قراراتها وأفكارها إلى تلك النقاط المتناثرة على خريطة العالم والمظللة كلها باللون الإمبراطوري المناسب؛ فقد كان من الضروري للإمبراطورية أن: «تفكر بالأسلوب البريطاني»، إذا كان للقوة

البريطانية أن تبقى.

لقد تزايد في الداخل، تزايدا مستمرا عدد الناس الذين شرعوا يفكرون في السياسة. وقد أدى توسيع حجم وعدد الناخبين بفضل قوانين العامين 1832 و1867 ـ على رغم أن هذه الزيادة كانت أكثر تواضعا مما تشير إليه معظم الكتب المدرسية ـ إلى توسيع قاعدة القوة السياسية، كما ساعد على نشر القلق السياسي. وأصبحت الصحف وسيطا بين الحكومة والشعب ـ أو السلطة الرابعة ـ وخاصة حينما ألغيت في النهاية رسوم التمغة في العام 1855، ثم حين تخلت الحكومة عن الضريبة على الورق (التي عرفت باسم: الضريبة على المعرفة) في العام 1861. ولم تكن الصحف تنقل الأفكار السياسية إلى الناس، وإنما كانت تنقل أيضا الرأي العام إلى السياسيين. ويمكننا رؤية هذه العملية ذات الاتجاهين في حملات الدعاية التي شنتها حركة المشارطين وعصبة الرافضين لقانون الذرة على رغم أن هاتين الجماعتين قد استخدمتا ـ أيضا ـ وسائل أخرى، كالمظاهرات والشعارات والرايات والشارات والأشرطة، وعصابات الرأس. وبدأت الصحف في استخدام الصور بشكل متزايد، وخاصة بعد تأسيس جريدة «أخبار لندن المصورة Illustrated London News» العام 1842 التي استثمرت اختراع لويس داجوير للتصوير الضوئي (الفوتوغرافيا) في العام 1839، واستحداث و.هـ فوكس تالبوت للطباعة التصويرية أو الكالوتايب Calotype في العام 1841. وتزايد انشغال السياسيين ـ أكثر وأكثر ـ بأهمية إلقاء الأحاديث العامة، ليس فقط في البرلمان، حيث كانت خطبهم تنقلها الصحافة بحرية منذ ثمانينيات القرن وما بعدها، وإنما أيضا بأحاديثهم وخطبهم في الاجتماعات العامة، مع جمهور من الناخبين الذين تزايد انشغالهم بالسياسة والذين اعتمد حصول السياسيين على مراكزهم وبقائهم فيها على تأييد هؤلاء الناخبين. ولقد تزايدت ـ وتعمقت ـ كل هذه التطورات بشكل ملحوظ أكثر خلال النصف الثاني من القرن، مع إتقان رجال مثل جلادستون[4] ودزرائيلي[5] وغيرهما لفن الدعاية السياسية الذي كان رواده في بريطانيا رجالا من نوع كانينج وبالمرستون[6]، وهما يستحقان من الاهتمام ما يزيد على ما يمكن أن نقدمه هنا. غير أنهما يقدمان لنا الخلفية الضرورية لأي إدراك لذلك الابتكار الكبير في مجال الدعاية للحرب المتمثل في ظهور

المراسل الحربي.

ففي العام 1815، أظهرت جريدة ويكلي بوليتكال ريجستر Weekly Political Register التي أسسها كوبيت غضبها الشديد، لأن الصحافة البريطانية لم تهتم إلا اهتماما ضئيلا بهزيمة بريطانيا على أيدي الأمريكيين في معركة نيو أورليانز - خلال الحرب الإنجليزية الأمريكية (1812 -1815) - وقالت الجريدة:

> إن سكان الريف في إنجلترا، والكثيرين جدا من سكان المدن لم يعرفوا شيئا أبدا عن تلك الهزائم، أما صحف لندن، التي تتمتع وحدها بتوزيع واسع للغاية، فإنها تستخدم في نشر الأخبار المزيفة، وفي إخفاء الحقيقة.

ولقد عبرت هذه الرسالة عن مضمونها ووصلت إلى هدفها بشكل جيد على رغم أن الصحافة كانت مشغولة - بصورة حتمية - بالانتصار في ووترلو الأكثر قربا بكثير من الوطن. ومع تضاؤل اعتماد الصحافة على المصروفات الحكومية وتزايد اعتمادها على ما تحقق من دخل تحصل عليه وفق أسس تجارية من المبيعات ومن الإعلانات، فقد بدأت الصحف في توظيف مراسلين خاصين لجمع الأخبار المثيرة التي لم تكن تهدف غالبا إلى الإعلان بقدر ما كانت تهدف إلى الترفيه. وكان على هؤلاء المراسلين أن يستخدموا أنواعا متنوعة من وسائل التنكر والحيل لإخفاء هوياتهم، لأن القادة (بمن فيهم ويلينجتون) ماكانوا ليسمحوا بوجود أي مدنيين بالقرب من ميدان القتال؛ غير أن الأنباء الحربية، وبتفاصيل وافية، تمكنت بالفعل من الوصول إلى صحافة لندن، الأمر الذي دفع ويلينجتون إلى الشكوى ودفع نابوليون إلى إطلاق جملته الشهيرة: «إن صحف لندن هي أفضل جواسيسي». ولذلك فقد أدت الأخطار المتمثلة في نشر معلومات قد تكون ذات فائدة للعدو، إلى فرض رقابة عسكرية صارمة في أواخر القرن وإن كانت السلطات قد لجأت في الفترة الأولى إلى السيطرة على تسرب الأخبار عن طريق إصدار بيانات رسمية كئيبة ومنع الضباط العاملين - في الخدمة - من نشر خطاباتهم. ومع ذلك فبعد عودة السلام واصلت الصحف إرسال مراسلين خاصين لها إلى الحروب الصغيرة، أو في الحملات العسكرية في الهند والصين - على سبيل المثال - حتى تقدم خدماتها لقراء تتزايد شهيتهم

لقراءة الأخبار. ومع ما أصاب أوروبا كلها حرفيا، من اضطراب بسبب صدمة ثورات العام 1848، فقد انعكس الانغماس المتزايد للعاديين من الناس في السياسة على الصحافة التي أصبح بوسعها الآن أن تنقل، بسرعة أكبر بكثير من ذي قبل، أخبار ما يقع في البلاد النائية من أحداث.

وفي العام 1851 وبينما كانت أوروبا تستفيق من قلاقلها السياسية الأخيرة فإن بريطانيا بما حققته من منجزات إمبراطورية راحت ترفل متنعمة بتلك الأمجاد في «المعرض الأكبر» الذي أقيم بقصر الكريستال. وكانت مثل تلك العروض لإعلان القوميات عن ذاتها قد أصبحت شائعة بشكل متزايد، غير أن لندن الفيكتورية هيأت المسرح المناسب لأكثر معارض الدعاية إبهارا في القرن التاسع عشر. وكان هذا المعرض تدريبا، قوميا ودوليا معا في الدعاية؛ وصدق التعليق الذي كتبه بول جرينهالج، قائلا:

> يمكن اعتبار المعرض الأكبر... إجراء هائلا مضادا للثورة؛ فمن المؤكد أنه منذ أيامه الأولى اعتبر حدثا القصد منه هو غرس الخوف والكبرياء، في وقت واحد، في أذهان الجمهور البريطاني، واستعراضا ضخما للقوة وضعت خطته بهدف ردع أعمال الانتفاض والتمرد المحتملة.

وقد يبدو هذا الكلام باعثا إلى الدهشة والانزعاج. غير أن الحقيقة الباقية هي أنه على الرغم مما تحقق من تقدم في مجال التمثيل السياسي للشعب الإنجليزي، فقد ظل هناك الكثير مما يتعين القيام به. وليست مصادفة أن تتم طباعة ونشر «البيان الشيوعي» في لندن العام 1848[7] وأن المؤرخين مايزالون مختلفين منذ ذلك الحين في اجتهادهم المضني للإجابة عن السؤال: لماذا انفردت إنجلترا وحدها بعدم نشوب ثورة في تلك السنة. غير أن أهل العصر الفيكتوري ربما كانوا ـ مثلما كشف المعرض الأكبر ـ أكثر صناع الأساطير كفاءة منذ أسرة التيودور. وواحدة من أكثر أساطيرهم أهمية هي القول بأن الجيش البريطاني بتقاليده وميراثه التي ترجع ـ في الذاكرة الغربية إلى ووترلو ـ ولكنها التي ترجع إلى معارك آجينكورت وكريسي ـ قد ظل: «أكثر جيوش العالم قوة واقتدارا». ولكن في خلال ثلاث سنوات فحسب بعد المعرض الأكبر، قدر للفجوة بين هذه الأسطورة والحقيقة أن تنكشف، مجسدة بالكلمة والصورة من خلال حرب القرم، وبشكل خاص

من خلال كتابات أشهر المراسلين الحربيين ويليام هوارد راسل William Haward Russel الذي كان يعمل لجريدة التايمز. ومثلما كتب فيليب نايتلي فإن: «تغطية مراسل لحرب القرم تعد علامة على بداية بذل الجهود لنقل أنباء إحدى الحروب إلى السكان المدنيين في الوطن، اعتمادا على خدمات صحافي مدني».

ومن بين الأسباب المعقدة التي أدت إلى انفجار الحرب بين كل من بريطانيا وفرنسا ورجل أوروبا المريض أي تركيا، من جانب، وبين روسيا من جانب آخر، فإن السبب الذي استحوذ على خيال الجمهور أكثر من غيره، كان النضال من أجل الأماكن المقدسة في الشرق الأدنى. ومع ذلك فسرعان ما أخلت الحماسة الشعبية مكانها لنوع آخر من الاهتمام؛ إذ راح راسل ـ البالغ من العمر 34 عاما ـ يبعث رسائله الانتقادية من الجبهة بعد أن روعه نقص الاستعدادات والظروف القاسية التي لاحظها في كل مكان. ونشرت التايمز ـ التي كانت في ذروة شعبيتها ـ رسائله مع المقالات الافتتاحية القوية التي كان يكتبها رئيس تحريرها جون ديلان. وسرعان ما كسبت عداء كل من الحكومة والسلطات العسكرية. وعلى الرغم من الجهود الرسمية لتعجيزه وسلبه القدرة على نقل ما رآه فقد واصل راسل إرسال صور وصفية حية أثارت انزعاج قرائه. وكتب ـ من بين ما أرسله من القرم ـ يقول:

قليلون ممن كانوا مع الحملة (يقصد: الجيش المرسل إلى الحرب هناك) سوف ينسون ليلة الرابع عشر من سبتمبر (1854). فنادرا ما كان هناك 27 ألف رجل إنجليزي أكثر بؤسا... لم تكن هناك أي خيام أرسلت إلى الشاطئ... وتزايد هطول المطر في حوالي منتصف الليل وحتى الصباح الباكر فاخترق البلل الألواح المشبعة بالماء... واخترق (الماء) الأغطية والمعاطف الثقيلة.

وبوضوح ألقى راسل باللائمة كاملة على عاتق نظام عسكري عاجز تجاوزه الزمن؛ ومع ذلك فقد كان من بواعث السخرية أن عجز هذا النظام هو ما ساعد تقارير راسل الصحافية على الإفلات من الرقباء. وقد وجد المراسلون الفرنسيون أن قيود رقابتهم أكثر صرامة وهو السبب الذي جعل الصحف الفرنسية تبدو أكثر تأييدا لجهود إمبراطورها نابوليون الثالث (على رغم أنه ينبغي الاعتراف بأن ظروف المعيشة في الجيش الفرنسي

كانت أفضل منها في الجيش البريطاني). ولم يتراخ راسل وزملاؤه في شارع فليت(*) ومن بينهم الفنانون الرسامون المتخصصون في موضوعات الحرب الذين زودوا كتاباته بالصور المرئية لتدعيم الكلمات الانتقادية... لم يتراخوا في هجماتهم فشجعوا على إطلاق نداء عام، تطوعت من خلاله فلورانس نايتينجيل[8] بتقديم خدماتها، وهو النداء الذي أسقط الحكومة في النهاية.

وبذلك أصبح للصحافة البريطانية «ملاك رحمة» تثني عليه وتمتدحه بوصفه بطلا حربيا من نوع جديد، ومع ذلك فقد بدأت تلك الصحافة في هدم أبطال من النوع القديم. فقد أصبح اللورد راجلان ـ السكرتير الحربي لويلينجتون في ووترلو وقائد القوات البريطانية في القرم ـ هدفا رئيسيا لهجمات الصحافة عقب الهجوم البطولي ـ ولكن الفاشل ـ الذي شنته فرقة الفرسان الخفاف في معركة بالاكلافا. وقد قدم ذلك الهجوم الفاشل أساسا ماديا أكثر قوة لاتهام العجز وعدم الكفاءة، (الذي وجه إلى راجلان) وقد بعث راسل إلى ديلان يخبره بأنه:

> إنني مقتنع مما رأيته بأن لورد راجلان لا يصلح مطلقا لقيادة جيش يتحمل مسؤولية تنفيذ مهمة شاقة... غير أن أكثر نواقصه خطورة ـ والتي يبذل جهوده في ظلها ـ هو أنه لا يكون موجودا وسط جنوده. إنه لا يزور المعسكر، ولا يشجع جنوده ولا يتحدث إليهم.

كانت هذه نماذج من ملاحظات راسل عن الحرب، ولكن دون ذكر ملاحظاته عن المعارك. وفي البداية لم يكن بوسعه أن يشهد العمليات الحربية إلا من بعيد فتكمن مهارته في تصوير المعركة من خلال روايات (كثيرا ما تكون متناقضة) ينقلها عن الجنود الذين يوافقون على أن يتحدثوا إليه. ولكنه أصبح قادرا تحت ضغط التايمز على الحصول على موقع أكثر تميزا فشاهد معركة بالاكلافا من فوق هضبة صغيرة تطل على ميدان القتال التي بدت له «مثل منصة مسرحية، ينظر إلى من يتحركون فوقها من صندوق (صالة) المسرح».

ولقد امتزج الرعب بالكبرياء في مشاعر راسل وهو يشهد فرسان اللورد

(*) الشارع الذي تقع فيه غالبية الدور الصحفية في لندن - المترجم.

كاريجان (الـ 673) وهم يهاجمون المدافع الروسية، فتنزل بهم خسائر مفزعة في «وادي الموت» الذي خلدته قصيدة تينيسون[9] العام 1854. وتقدم لنا ـ هذه المشاعر المسجلة ـ استبصارا عميقا لأزمة المراسل الحربي ومأزقه الأبدي الذي يتلخص في السؤال: متى ينتقد ومتى يمتدح؟ فليس هناك صحافي وطني (وهو ما يميزه عن الصحافي المحايد) يرغب في أن يبدو مسرفا مبالغا في انتقاده لجهود وطنه، غير أن الصحافيين في حرب القرم ـ مثلما حدث بعد ذلك في فيتنام ـ شعروا بأنه لا خيار لهم إلا أن ينشروا ما رأوا أنه فضيحة قومية. وحاولت السلطات أن ترد على الهجوم بأن تتهم راسل بتقديم معلومات ثمينة للعدو، وهو اتهام كان قد أصبح ممكنا بالنظر إلى السرعة التي صارت الرسائل تصل بها إلى لندن حتى قبل أن تبدأ المعركة، والتي تتيح إرسالها ثانية إلى روسيا بالسرعة نفسها بواسطة عملائها. وقد أدى هذا في النهاية، في العام 1856 ـ وهو موعد متأخر إلى الدرجة التي تجعل ما يتخذ فيه من قرارات غير مؤثر في حرب القرم، وإن كان يشكل سابقة سوف يستند إليها خلال الصراعات المقبلة ـ أدى هذا في ذلك العام إلى أن يصدر الجيش أمرا عاما ـ أصبح هو الأصل للرقابة العسكرية البريطانية ـ بمنع نشر أي معلومات قد تساعد العدو، وقد سمح الأمر نفسه أيضا بطرد المراسلين الصحافيين. وكانت الدعاية المضادة ـ قبل ذلك ـ قد دخلت هي الأخرى امتحانها الخاص، حينما أرسل المصور الملكي روجر فينتون لكي يسجل بصوره حربا نظيفة ومحكومة منتظمة بدا فيها الجنود سعداء وأصحاء. ولابد أن تؤدي المقارنة بين صور فينتون وكتلة التغطية الصحافية التي غلبت عليها تماما النظرة الانتقادية... لابد أن تؤدي تلك المقارنة إلى دق أجراس الإنذار محذرة من تلك البديهية القديمة التي تقول إن «الكاميرا» لا تكذب أبدا. فالأمر يتوقف على توجيه حامل آلة التصوير لآلته؛ ولم يكن فينتون قد تحمل ـ حتى ـ مشقة أن يوجه آلة تصويره فيفتحها على مواقع القتال في معركة بالاكلافا التي كانت ترصعها القبور نصف المحفورة والجثث المتعفنة لـ «الستمائة الأبطال».

ويكمن مغزى إنجاز راسل وأهميته في أنه قد طرح حقائق ما يصحب الحرب من أنواع الرعب والمخاوف، أمام جمهور كان قد أصبح له من الرأي في الشؤون السياسية وفي سلوك الحكومة التي تقرر تلك السياسة أكثر

مما كان له من قبل. فالحرب لم تعد شأن الملوك والحكام ورجال الإدارة والجنود المحترفين وحدهم، وإنما أصبحت من شؤون الشعب الذي يخوضها هؤلاء باسمه. وكانت الصحافة هي من تكفلت بهذا. فإذا ما تعين على الحكومة أن تضمن ظهور النوع الصحيح من المواقف العامة والتأييد، فقد كان عليها أن تنظر بجدية إلى مسألة الدعاية الرسمية والرقابة. وقد استغرق استيعاب هذه القاعدة بشكل سليم نصف قرن من الزمان، غير أن حرب القرم كانت حدا فاصلا وتمهيدا لما تلاها.

وقد اتضح الاعتراف الرسمي بقوة الصحافة المستقلة ـ بل وربما المبالغة في تقدير تلك القوة ـ في أثناء الانتفاضة[*2] الهندية العام 1857، حينما أغلقت السلطات الصحف الهندية الخمس الرئيسية. وكان الجيل، أو النوع الجديد من المراسلين الحربيين الذي أعطاه راسل شهادة ميلاده قد تدفق أبناؤه على شبه القارة لكي ينقلوا أنباء المذابح التي قام بها الجانبان. وفي هذه الأثناء رسمت صورة الإمبراطورية البريطانية كما لم ترسم من قبل، وأثارت أعصاب الجمهور الحكايات الغريبة عن الحملات الإمبراطورية، الاستعمارية، في الهند والصين وأفريقيا. وبدا أن النجاح الحربي يثبت التفوق العرقي البريطاني على شعوب من نوع أدنى؛ وروج لهذه الخرافات في أنواع عدة من وسائل الاتصال والنشر، من الصحف إلى الروايات ومن استعراضات المواكب إلى البطاقات البريدية، ومن الكتب المدرسية إلى الجمعيات، ومن ألعاب الورق وغيرها من ألعاب المائدة إلى علب الشطائر المحفوظة والبسكويت. وعلى حد ما كتبه جون ماكينزي، فإن هذه الحملة من الدعاية الإمبراطورية (الاستعمارية) الواسعة، «كانت معنية بتمجيد مزيج المغامرة العسكرية والثقافة المسيحية التوسعية العدوانية».

وقد وجدت الدعاية، بوصفها أداة للسيطرة الاجتماعية، ولضمان أن تفكر الجماهير، وأن تسلك بالشكل الذي تريده لها النخبة الحاكمة، وجدت الدعاية ـ بوصفها هذا ـ في النزعة الاستعمارية (أو: الإمبريالية) التعبير المثالي عنها. فقد احتوت هذه النزعة على كل المكونات الصالحة للدعاية: المغامرة العسكرية، والتفوق العرقي والأماكن الغريبة البعيدة. غير أنها كانت محفوفة بالمخاطر، واعتمدت في نجاحها على كل من التفوق العسكري

(*2) يسميها المؤلف: «التمرد أو العصيان Mutinry» الهندي.

(والبحري) وحكم المستعمرات بأسلوب حساس. وحينما لقيت القوات البريطانية المتاعب على أيدي قوات يفترض أنها تنتمي إلى أعراق أدنى ـ مثلما حدث في حروب الزولو والبوير ـ (فقد تم تبرير ذلك) بأن البريطانيين غلبوا تحت وطأة الثقل المجرد للأعداد الكثيفة والوحشية، وأن تلك هي «مسؤولية الرجل الأبيض» التي لابد من حمل تبعتها. وظهر ـ في تلك الأثناء ـ وسام «صليب فيكتوريا» بوصفه أسمى رموز الشجاعة العسكرية، وتجلى تمجيد الإنجاز الإمبراطوري الاستعماري في كل أنحاء بريطانيا بتماثيلها التي نصبت للملكة والإمبراطورة فيكتوريا، وأبهة احتفالاتها، واحتفائها بالأبطال الحربيين، مثل غوردون الخرطوم. وتأثرت دول أوروبية أخرى بالقدر ذاته فتدافعت متنازعة على أجزاء من أفريقيا والصين، لكي تثبت وضعها وتؤكد مكانتها بوصفها دولا عظمى. ومثلما فعلت بريطانيا، فإن دولا مثل فرنسا، ثم ألمانيا الموحدة بعد العام 1870، اعترفت بما يتحقق في الداخل من ميزات بفضل وجود إمبراطورية وراء البحار وبأهمية قيام شبكة اتصالات للأخبار في داخل مثل تلك الإمبراطورية. فكانت وكالتا «هافاس» الفرنسية و«فولف بيرو» في برلين، وكالتين مدعومتين رسميا للأنباء. وسرعان ما اعترفت الحكومات في كل من الدولتين بأهمية السيطرة على الصور الرمزية من خلال الصحف الرسمية والمباني العامة والفنون. وبالمقارنة، فربما كانت الدعاية البريطانية تتحقق أكثر في صورة تلقائية وغير موجهة ومن خلال المشروعات الخاصة بأكثر مما تتحقق من خلال التخطيط الحكومي. غير أن العقلية الإمبريالية التي خلقتها الجماعات المختلفة والمنظمات والإصدارات، أدت إلى وجود دور توحيدي ثمين القيمة لدى أي حكومة تبحث الدخول في حروب فيما وراء البحار.

وفي الولايات المتحدة، اتضح أكثر، الافتقار الحاد إلى الوحدة حينما غرقت البلاد في الحرب الأهلية العام 1861. وقد انضم أكثر من 500 مراسل حربي إلى قوات الجانب الشمالي في الحرب فوجدوا في البرق (التلغراف) عونا عظيما لعملهم. ولكن التصوير الضوئي لم يساعدهم، لأنه لم تكن هناك أي صحيفة أمريكية تملك التكنولوجيا اللازمة لصنع الكتل الرمادية (الـهاف تون Half Tone Blocks) اللازمة لطباعة الصور. وعلى رغم وجود سجل من الصور الضوئية (الفوتوغرافية) للحرب لذلك الصراع

(وخاصة ذلك الذي أنجزه ماتيوبرادي) فإنه من الأنفع أن ندرس التأثير المرئي، البصري لرسامي الحرب الذين عملوا لمجلات أسبوعية مصورة، مثل مجلة «هاربرز Harper's». ومع تزايد الاهتمام الشعبي بالحرب أصبحت أمريكا أمة من قراء الصحف الذين يعتمدون على ما يبعثه من تقارير وأنباء المراسلون الحربيون الذين نظروا إلى عملهم من زاوية تأثيره في المعنويات وليس من الناحية الموضوعية. فقد نشرت مجلة هاربرز ـ على سبيل المثال ـ رسما لحكاية مزورة تزويرا كاملا عن جنود الانفصاليين، وهم يطعنون بحراب بنادقهم جنود الاتحاديين الجرحى، بينما قامت جريدة «نيويورك تريبيون New York Tribune» التي أسسها هوراس جريلي بدور رأس حربة الدعاية الشمالية بالكلمات. ومثلما حدث في القرم، فقد بذلت القوات ـ من الجانبين ـ كل ما في وسعها لإعاقة عمل الصحافيين المعادين وتسهيل مهمة الموالين، مثل السماح لهم بأن ينصبوا خيامهم بالقرب من عربة البرق العسكري. غير أن الفجوة ظلت واسعة بين الجنود الذين يوشكون على الموت وبين المدنيين الذين يوشكون أن يتفرجوا عليهم من أجل إعلام قرائهم والترفيه عنهم، وازدادت هذه الفجوة بين الطرفين اتساعا، خاصة حين بدأ الصحافيون يتنافسون على السبق الإخباري، وعلى الانفراد بالأخبار في حرب ظلت منذ البداية تفتقر إلى المعارك الحاسمة.

ولكن معركة جيتسبرج في 2 يوليو العام 1863 غيرت ذلك الوضع. ومع ذلك فإن قمة فشل المراسلين، أو فشلهم المطلق، في نقل أنباء الحرب الأهلية بشكل سليم وكاف، انكشف أكثر بعد هذه المعركة حينما استقبلت واحدة من أجمل ما ألقي في التاريخ من خطب، وهي خطبة جيتسبرج التي ألقاها لينكولن[11]، بتغطية صحافية ناقصة نقصا فادحا مع ما نقلته صحيفة واحدة اكتفت بأن قالت: «وقد تحدث الرئيس أيضا». ولم تستخدم القيمة الدعائية لبلاغة لينكولن إلا فيما بعد، فكان تأثيرها في الحربين العالميتين الأولى والثانية أكبر من تأثيرها في الحرب الأهلية. وقد تسببت تعليمات رئيس تحرير صحيفة «شيكاغو تايمز Chicago Times» لهيئة المحررين لديه بأن «يبرقوا كل ما يمكنهم من أخبار، وحينما لا تكون هناك أخبار فأبرقوا الشائعات»... تسببت هذه التعليمات في تفشي العبارة المشهورة، التي سارت مسرى الأمثال والتي تقول: «يقاتل الجندي الأعداء، ويقاتل الصحافي

الحقيقة». وعلى أي حال فقد تولت الرقابة استبعاد أي انتقاد لقضية الشمال أو أي ذكر للظروف المخيفة التي كانت تسود الجيش؛ وأغلقت نحو عشرين جريدة من جرائد الاتحاد على مدار الحرب. وقد نشرت أنباء الاشتباك الذي تم في بول روني، وهو أول اشتباك في الحرب، على أنه نصر مؤزر للاتحاد بدلا من ذكر حقيقته بوصفه هزيمة منكرة، بينما كانت السلطات العسكرية تحفظ أرقام وأعداد الخسائر البشرية من القتلى والجرحى، وراح وزير الحربية، ستانتون يصدر بيانات يومية عن الحرب، أفضل ما يمكن أن توصف به هو أنها كانت تقتصد في ذكر الحقيقة، أما الجنرال شيرمان الذي اعتقد بأن الصحافيين يسببون «أضرارا لا حد لها» فقد بذل كل ما في وسعه لكي يمنعهم من الوصول إلى المعلومات، فوجد أن الصحافة ـ نتيجة لذلك ـ قد وفرت تغطية أكثر لأقل الانتصارات أهمية، تلك التي حققها الجنرال جرانت الأكثر وعيا بأهمية الإعلام.

أما قضية الجنوب، التي كان يخدمها نحو مائة مراسل حربي يعملون لجرائد أسبوعية قليلة التوزيع عتيقة الطراز، فقد أعاقها بشدة اعتمادها ـ السابق للحرب ـ على الشمال في الحصول على المطابع والعمالة والمعدات. وعلى هذا فقد أدى النظام القديم الذي كان يقضي بالاعتماد على الخطابات والتقارير الواردة من ضباط عاملين ـ في الخدمة الفعلية ـ أدى هذا النظام إلى إيجاد صحافة دعائية شديدة التحيز، تضاءل ـ باستمرار ـ عدد ما تصدره من جرائد، كما تضاءل توزيعها. في هذه الصحافة أصبحت عمليات التراجع، انسحابات استراتيجية. وأصبحت الهزائم نكسات مؤقتة؛ أو ببساطة، لم تحدث؛ وأصبحت الخسائر لا أهمية لها. ولم يكن الاعتماد على التقارير الواردة من الجبهة هو أكثر الطرق التي يمكن الوثوق فيها، لنقل أنباء الحرب ومجرياتها، بالنظر إلى أن جنديا واحدا لا يتوقع منه أن يستطيع إبصار المعركة في كليتها؛ بالإضافة إلى أنه من المفهوم أن عقله سيكون مركزا على أشياء أخرى. أما إذا كان هناك مراسل حربي يراقب المعركة، فربما يكون واعيا بضرورة أن يراه الآخرون وهو يقوم بواجبه ببسالة، فيكون هذا قوة دافعة تزيد من شجاعتهم. أما كتابة الجنود للرسائل والمذكرات بعد وقوع الحدث نفسه، فيكون شكلا من أشكال طرد الشياطين وأشرار الجان التي لبستهم في أثناء القتال: شياطين الخوف والتهور

والقتل؛ إنها عمليات استيعاب عقلاني وتفسير لما قاموا به من أعمال ـ أو لسلوكهم الذي سلكوه ـ ولكن بعد وقوعه بالفعل. وقد تحتوي الخطابات الخاصة التي يرسلونها إلى الوطن على اعترافات بالخوف؛ ولكن الرسائل العامة الموجهة إلى الصحافة لم تحتو على مثل تلك الاعترافات، ولم تحتو إلا على حكايات الشجاعة والبسالة غير العادية ـ أي المادة الدعائية ذاتها ـ التي توضع لكي توجه إلى المدنيين المزهوين، ولكنهم الذين قد يكونون في حالة انهيار معنوي. ولقد كتب في مثل هذا ـ أحد الجنود، يقول: «لقد خضنا القتال شاعرين بأننا هدف لنظرات مشددة من عيون أولئك الذين يحبوننا وأرسلونا إلى الحرب». ولذلك فإنه لا يمكن أن نتجاهل دور الصحافة بوصفها مفسرا ومترجما لأعمال الجنود أمام عقول المدنيين، فتكون بذلك داعما قويا لمعنويات الطرفين.

من ناحية ثانية، كان الانضباط مشكلة كبرى في الجيوش التي خاضت الحرب الأهلية. فبعد اشتباك بول رون الأول، اشتكى الجنرال شيرمان من أن «كل فرد (أو جندي عادي) يفكر لنفسه» وقال: «إنني أشك في أن شكل حكومتنا الديموقراطية يعترف بذلك النظام والانضباط اللذين يكون أي جيش من دونهما مجرد حشد من الغوغاء». وكانت هذه ملاحظة مثيرة للاهتمام، وقد قدر لها أن تدخل اختبارا قاسيا في خلال القرن العشرين. فإذا كانت الدول الديموقراطية تقدس مبدأ حرية الفكر والتفكير، فكيف يمكن لجيش ديموقراطي أن يكون جيشا كفئا وناجحا؟ لقد كان الانضباط والتدريب وسيلتين نالتا الاحترام والتقدير على مدى الزمان لتحقيق التماسك. ولكن حيث إن الأمم أصبحت ديموقراطية بشكل متزايد فهل يمكن لها أن تفي باحتياجاتها الحربية من خلال المزيد والمزيد من الانضباط والتدريب؟ ربما كانت النزعة الوطنية التي ولدتها القومية تمثل أحد الحلول؛ غير أن هذا يصبح أمرا صعبا في حرب أهلية. ولهذا السبب فإن دعاية الشماليين رسمت الانفصاليين في صورة الخونة، أو ـ على حد ما كتبه أحد الجنود ـ «إنهم يقاتلون في سبيل كذبة؛ إنهم أعداء القيم النبيلة والحس السليم، والإنسان. فنحن من خلال قتالنا ضدهم، نقاتل ضد خطأ جسيم». أما الانفصاليون، فقد رسموا الاتحاديين ـ من جانبهم ـ على أنهم غير أمريكيين؛ جماعة من المهاجرين يمثلون حثالة الأرض يأتون لكي ينهبوا

الجنوب المتحضر الأرستقراطي. وتستطيع الدعاية في المجتمع الجماهيري أن تلعب دورا توحيديا، غير أن الولايات المتحدة في ستينيات القرن التاسع عشر كانت بعيدة عن أن تكون مجتمعا جماهيريا. ومن جوانب عدة كانت التجربة الفعلية للأمريكيين العاديين في معارك الحرب الأهلية؛ أن يشتركوا مع أعدائهم في خصائص وقسمات أو سمات مشتركة وأن يشهد كل منهم شجاعة الآخر. وكانت هذه التجربة هي ما أدت إلى أن تتحرك الولايات المتحدة على هذا الطريق؛ أما الدعاية الحربية التي قام بها كل من الطرفين فقد كانت حاجزا بينهما مثلما يحدث في أي حرب أهلية.

غير أن الحرب كانت ذات أبعاد دولية أيضا؛ وهو ما تبينه الطرفان حينما اتجه كل منهما إلى شن حملة دعائية وراء البحار، وجهت ـ أساسا ـ إلى بريطانيا. فقد اتجه لينكولن بنداءاته ومناشداته إلى رجال صناعة النسيج الإنجليز الشماليين، الذين كان من الطبيعي أن يتجه تعاطفهم ناحية الانفصاليين منتجي القطن، وذلك بأن راح يكتب إليهم مباشرة. وقام الطرفان بتنظيم المحاضرات ودس المقالات المتعاطفة مع وجهة نظر كل منهما في الصحافة البريطانية. غير أن الشمال اكتشف أن له عدوا عنيدا يتمثل في جريدة «التايمز». فقد أوفد راسل من لندن لكي يغطي الحرب، وعلى رغم أن ميوله كانت ضد العبودية وتجارة الرقيق وتشغيلهم، فإنه استعدى الاتحاد بشدة بسبب نقله بدقة نتائج معركة بول رون؛ ولما عجز عن الحصول على إذن من الشمال (الاتحاد) لنقل وجهة نظره من الجبهة، وعلى الرغم من موقفه الموالي للشمال الأمر الذي أملى ضرورة فرض بعض القيود على سياسة «التايمز» في الترويج للحرب عقب قضية السفينة ترنت Trent (حينما صعد الجنود الشماليون على ظهر الباخرة وألقوا القبض على مندوبين للانفصاليين كانا موفدين إلى أوروبا)، على الرغم من كل ذلك فقد تناقضت كتابات راسل مع آراء جريدته فبدأ نفوذه في الاضمحلال. غير أن حظ مراسلين آخرين كان أفضل حينما اصطدم موقفهم الموالي للجنوب ـ على رغم أنه كان موضع الترحيب في لندن ـ بالأحداث الحقيقية وتناقض معها. فبعد هزيمة الانفصاليين واغتيال لينكولن، فصلت «التايمز» تشارلس ماكلي ـخليفة راسل ـ وطردته لأن تقاريره «كانت متحيزة لجانب واحد، وتنم كل ملاحظة من جانبه عن أحقاده الخاصة». غير أن الخسارة

كانت قد وقعت بالفعل مع ازدراء الشمال المنتصر ورفضه ـ طوال سنوات تالية ـ للدور العدائي الذي قامت به الصحافة البريطانية.

نخلص إلى أنه إذا كانت تجربة كل من حرب القرم والحرب الأهلية الأمريكية قد علمت السلطات أن تبدأ معالجة جادة لمسألة الرقابة العسكرية بوصفها أداة من أدوات الدعاية الحربية، فإن هاتين التجربتين قد علمتا الصحافة ـ بدورها ـ أنها يجب أن تلتزم بالمعايير المهنية في تغطيتها للحرب. ولقد شعر الطرفان على السواء (السلطات والصحافة) بأنهما يقدمان خدمة للأمة التي ينتميان إليها، غير أن الاهتمام الأكبر كان موجها إلى ضمان تكامل إحساس كل منهما بالمسؤولية وليس تصادمهما. لقد كان المراسلون الحربيون ـ في نظر السلطات العسكرية ـ «لعنات حديثة الابتكار أصابت الجيوش»؛ وتطلب الأمر بعض الوقت لكي تتبين تلك السلطات أن الصحف يمكن أن تكون حلفاء لهم قيمتهم. وبتعبير آخر، لقد كان يتعين على كل من الحكومة والصحافة تعلم أن تتحدا دعما للقضية ذاتها، إذا كان لحملة الدعاية القومية في زمن الحرب أن تنجح. ولقد أصبح هذا أمرا بالغ الأهمية في بريطانيا على سبيل المثال مع استمرار ارتفاع توزيع الصحف بتحسن مستويات التعليم إثر صدور قانون التعليم، الأساسي العام 1870 وما تلاه من قوانين في الأعوام 1881 و1891 و1902. وتحقق الأمر نفسه في بلاد أخرى. وأصبحت الصحافة قادرة على زيادة تغطيتها لأخبار الحروب الخارجية بفضل سرعة نقل الأخبار التي أصبحت ممكنة بواسطة البرق من كل أنحاء الكرة الأرضية. ولم يكن من الممكن التوصل إلى قدر معقول من الموضوعية إلا حينما قام المراسلون بنقل أنباء الصراعات التي لم تكن بلادهم مشتركة فيها. ومع ذلك فقد مجدت الأكثرية الحرب وساعدوا في الإبقاء على صورتها باعتبارها رياضة النبلاء.

وإذا كانت السلطات العسكرية قد أبطأت في تقدير الدور الذي يمكن للصحافة أن تلعبه لتمجيد «رياضتهم»؛ فإن السياسيين لم يبطئوا في ذلك لمعرفتهم الكاملة باحتياجهم إلى التأييد الجماهيري لسياساتهم. فقد اعترف بيسمارك[12] على سبيل المثال بقيمة وجود صحافة صديقة وودية، وقطع شوطا طويلا في مسعاه إلى السيطرة على الصحف الألمانية المحلية وإلى التغلغل في الصحافة الأجنبية وخاصة في أثناء الحرب الفرنسية البروسية

العام 1870/1871. فلقد أدى تسريبه المتعمد لبرقية إيمز التي أعيدت صياغتها بعناية لكي تعطي الانطباع بأن مطالب فرنسا غير معقولة، أدى هذا العمل إلى إشعال الحرب. وفي إيطاليا كان قادة عملية التوحيد رجال دعاية يلفتون النظر: فكان كافور[13] هو رئيس التحرير السابق لمجلة «روزيرجيمنتو» وكان ماتزيني كاتب نشرات ماهرا، وكان غاريبالدي[14] أستاذا في تنظيم المظاهرات واستخدام الحشود من الجماهير. أما دزرائيلي وهو مؤلف رواية «سيبيل» الدعائية فكان سريعا في استغلال تقلبات المزاج الشعبي، وراح يغرس ويشيع صورا بعينها عن الملكية والإمبريالية - الإمبراطورية والدين والعرق - بوصفها أدوات سياسية. وبتعبير آخر، فإن السياسيين في أواخر القرن التاسع عشر، قد عرفوا أنهم كانوا يعملون في عالم من نوع جديد؛ عالم أصبح للرأي العام فيه أهمية متزايدة، وفي مجتمع جماهيري صناعي وعبر نوعيات بالغة التعدد من ألوان الطيف البشري. واقترنت بهذه المعرفة جهود منسقة وموجهة للتأثير على هذا الرأي العام من خلال القوى الوسيطة التي شكلت الاتجاهات العامة. لقد أصبحت السياسة بالفعل شأنا عاما، ولم يعد ممكنا أن تظل السياسة ولا الحرب على ما كانتا عليه من قبل.

القسم الخامس
الدعاية في عصر الحرب الشاملة

20 الحرب وثورة الاتصالات

شهد القرن العشرون ظهور نوع مختلف اختلافا أساسيا من الأعمال الحربية: «الحرب الشاملة». وعلى الرغم من أن الحروب النابوليونية وحرب الاستقلال الأمريكية كانتا نذيرا بوصول هذه الظاهرة بسبب حجم ومستوى المشاركة الشعبية، فإن الحروب العالمية في القرن العشرين اختلفت بقدر ملحوظ عن الصراعات السابقة، ليس فقط في مدى اتساعها وإنما أيضا في درجة تأثر المدنيين بها ومساهمتهم المباشرة في أحداث خطها الأول. لقد أصبحت الحرب شأنا يهم كل واحد من السكان، ونضالا من أجل البقاء القومي لابد من تعبئة جميع موارد الأمة ـ العسكرية والاقتصادية والصناعية والبشرية والنفسية ـ بهدف تحقيق النصر فيه أو تجنب الهزيمة. وقد لا ينتج العجز عن التعبئة إلى المدى الأقصى ـ مثلما أظهرت تجربة الثورة الروسية العام 1917 ـ مجرد الهزيمة العادية وحدها وإنما الدمار الكامل للنظام القديم.

ولقد جاءت فنون الحرب الحديثة بالمعارك لكي تكون أشد قربا من حياة المواطنين العاديين منها في أي وقت مضى، سواء كان ذلك في شكل تشغيل النساء في المصانع أو في شكل تعرض المدنيين

للقصف بالقنابل. وأصبح كل من التجنيد الإجباري، والإنذار من الغارات الجوية، وتقنين وتحديد كميات الطعام المسموح بها جميعا من العوامل الحيوية المؤثرة. ووجد الرجال والنساء العاديون الذين لم يكونوا ليتأثروا من قبل إلى حد كبير بالحروب التي يخوضها جنود محترفون في أراض بعيدة، وجدوا أنفسهم يتأثرون مباشرة بما يقع في الجبهة من أحداث. وفي الحقيقة أصبح الناس أنفسهم هم جبهة القتال الجديدة. وأصبح الرجال والنساء والأطفال هم الجيوش الجديدة. وبالتالي أصبحت روحهم المعنوية، وإرادة القتال والمقاومة لديهم على الصعيد الجماعي الشامل، رصيدا عسكريا وحربيا مهما. ولقد كانت هذه بالتأكيد هي طبيعة الصراعين اللذين نشبا فيما بين 1914 و1918 وفيما بين 1939 و1945، وكان هذا هو حجم ومدى كل منهما بالمعنى القومي والعالمي والنفسي، وكانت تلك هي تكلفة كل منهما على صعيد الدمار الإنساني والخراب المادي، إلى الدرجة التي جعلت من غير الممكن أبدا النظر ثانية إلى الحرب باعتبارها رياضة الملوك والنبلاء. بل إنها قد أصبحت ـ على حد قول كليمينصو[1] رئيس الوزراء الفرنسي ـ «أمرا أكثر خطرا من أن يترك للجنرالات».

وفضلا عن ذلك، فقد رأى القرن العشرون أيضا ظهور وسائل الاتصال الجماهيرية الحديثة. وكان العام 1896 عاما بارزا كالعلامة المميزة بحق لأنه شهد ثلاث مستحدثات جديدة. الأولى هي أن لورد نورثكليف أسس في بريطانيا أول صحيفة يومية ذات توزيع جماهيري كثيف، هي الديلي ميل Daily Mail لكي تخدم وتهتم بالجيل الجديد من الناس العاملين المتعلمين القارئين. ذلك أنه عقب صدور قوانين التعليم في سبعينيات القرن وما تلاها ونتج عنها من تحسينات اجتماعية، فإن العاملين العاديين من الناس لم يصبحوا فقط أكثر تعليما بشكل متزايد، وإنما راحوا أيضا يستمتعون بفوائد الإصلاحات الليبرالية الفيكتورية التي تصاعد ما وفرته لهم من أجور أفضل ووقت فراغ أطول. ولم تكن الجرائد قبل هذا قد قدمت ولا اهتمت إلا بالقسم المتعلم الصغير نسبيا من المجتمع. غير أن جريدة «ديلي ميل» كسرت هذه القاعدة وسرعان ما تبعتها الجرائد التي قلدتها في العالم الصناعي بأسره. وفي أمريكا بدأ راندولف هيرست الظاهرة التي عرفت باسم «الصحافة الصفراء». غير أنه بالنسبة لأولئك الذين لم يرغبوا

في الاستفادة من قدرتهم المكتسبة حديثا على القراءة وهم من يعتقد المرء أنهم الأغلبية، فإن العام 1896 شهد أيضا أول عرض سينمائي تجاري قدمه الأخوان لوميير في باريس (على الرغم من أن المخترعين الحقيقيين للسينما والتوقيت الأصلي لذلك الحدث لا يزال موضوعا للكثير من الجدل التاريخي). وقد نشأ فن التصوير السينمائي بدافع من الفضول العلمي لمعرفة الحياة البرية (من رغبة العلماء ـ على سبيل المثال ـ في دراسة حالة الطيور في أثناء الطيران حتى يستطيع الإنسان أن يحاكي هذه العملية)، وقد أدت البحوث التي أجريت في أنحاء شتى من العالم ـ وكان كل منها يجري منفصلا عن الآخر في الغالب ـ أدت إلى تحويل فن التصوير السينمائي إلى أقوى وأقدر وسائل الاتصال الجماهيرية في النصف الأول من القرن العشرين. وفي العام 1896 وقع حدث ثالث مهم حينما أظهر جوجليلمو ماركوني إمكان التطبيق العملي للإرسال البرقي اللاسلكي في سهل سالزبري. ولذلك، فإنه في سنة واحدة بارزة في التاريخ، ظهرت إلى الوجود الوسائط الرئيسية للاتصالات الجماهيرية: الصحافة والإذاعة والفيلم السينمائي، فحققت ثورة الاتصالات ـ بذلك ـ قفزة فلكية. ولقد كان امتزاج الحرب الشاملة بوسائط الاتصال الجماهيرية هو ما أعطى الدعاية الحديثة للحرب أهميتها وتأثيرها في القرن العشرين.

وفي البداية، كان تأثير الوسائط الجديدة على أداء الدعاية للحرب ضئيلا نسبيا. غير أنه من المؤكد أنه في أثناء حرب البوير (1899 ـ 1902)[2] أصبحت الصحافة الشعبية ذات صبغة وطنية متعصبة متطرفة، بينما راحت حشود الجماهير تستمتع ـ أيضا ـ بحربها من خلال أغاني صالات اللهو والاستماع. غير أن تلك الحرب وما جلبته من صور الفزع كانت بعيدة ـ ماديا ـ على الرغم من التغطية الإخبارية التي حصلت عليها من خلال فرق صنع النشرات الإعلامية المتزايدة. وفي أمريكا، أثبت هيرست أنه لا يقل قدرة على صك الشعارات المتعصبة والمتطرفة في الحرب الإسبانية الأمريكية (العام 1898) بالصيحة التي أطلقها تقول: «تذكروا ألمين»... مشيرا إلى سفينة حربية أمريكية أغرقها الإسبانيون في بداية الحرب. غير أن الحرب الروسية اليابانية في العام 1905 هي التي حظيت بمتابعة تميزت باهتمام خاص من جانب السلطات السياسية والعسكرية على السواء، مما

يؤكد دور وسائل الاتصال الحديثة في تقريرنتيجة صراع ما بين القوى الكبرى. وفي خلال عقد واحد من السنين، كان من المقدر أن تختبر الدروس التي عرفت في ذلك الصراع، من خلال أكثر نضال دموية عرفته البشرية حتى ذلك الحين.

21 الحرب العالمية الأولى

انطلقت قاطرة التغير التاريخي بكامل سرعتها العام 1914 بالنسبة لكل من الحرب والدعاية. غير أن الحرب التي بدأت بالرقص في شوارع عواصم أوروبا كلها انتهت بعد ذلك بأربع سنوات، بالهدنة التي وقعت في غابة كومبيين وسط صنوف من الأحزان والفواجع وتبادل الاتهامات. لقد كانت حربا بدأت بجيوش المتطوعين التقليدية، ثم انتهت وقد لجأت جميع الدول المتحاربة إلى فرض التجنيد الإجباري؛ وشهدت انهيار أربع إمبراطوريات أوروبية: (الروسية والألمانية والنمساوية ـ المجرية والعثمانية)؛ كما شهدت تأسيس دول عدة جديدة مستقلة، ولكنها لا تملك الأمان ولا تعيش آمنة: (رومانيا ويوجوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا)، وهي الدول التي قدر لها أن تكون غرسا لبذور الصراع التالي. أما كل ما لم يحفظ ذكره، من الموتى والمشوهين، والغاز السام وحرب الخنادق، والدبابات، والطائرات، وأعمال الحصار والموت جوعا، والتمردات والثورة... أما كل ذلك الذي بدا بعيدا عن التصور أو الخيال في ذلك الصيف البريء للعام 1914، حينما شن الألمان الحرب ببدء تطبيق خطة شلايفن[1] وسط وهم أثمر الاعتقاد اليقيني

بأن كل شيء سيكون قد انتهى مع حلول عيد الميلاد.

ولقد أدت الحقيقة المجردة التي تؤكد بالطبع أن ألمانيا قامت بغزو بلجيكا وفرنسا في شهر أغسطس العام 1914، وأنها ستظل تقاتل على أراضيهما طوال ما بقي من سنوات الحرب... أدت تلك الحقيقة إلى أن تخسر ألمانيا صورتها الأخلاقية الرفيعة التي كانت الحكومة الألمانية قد سعت إلى تثبيتها في أذهان الناس بدعاياتها السابقة على الحرب. فبصرف النظر عن كثرة ما دفع به الألمان من مواد دعائية في محاولتهم لتبرير ذلك الغزو، فإن الصورة المقابلة لـ «بلجيكا الصغيرة المسكينة» ظلت طوال الحرب هي الصيحة التي تجمع صفوف أعدائهم وحدهم. ولم يعد من الممكن اعتبار الحرب رياضة يمارسها نبلاء يلعبون طبقا للقواعد السليمة. ولكنها أصبحت ـ بدلا من ذلك ـ نضالا دمويا لا هوادة فيه، حيث أصبح تدعيم المعنويات لا يقل أهمية ـ بالنسبة لكل من الطرفين ـ عن تدعيم المجهود الحربي. فلم تكن الحرب مجرد معركة بين الجنود والمدافع والغواصات والسفن والطائرات، وإنما صارت معركة بين شعوب بأسرها. ولقد كانت معركة قدر على الألمان أن يخسروها؛ على الرغم من تفوق تخطيطهم السابق على الحرب، مع ما ترتب على ذلك من آثار دراماتيكية ونتائج مثيرة بالنسبة لأوروبا وللعالم كله.

في خلال ساعات بعد انتهاء مهلة الإنذار النهائي البريطاني لألمانيا، قامت سفينة الأسلاك (الكابلات) البريطانية «تلكونيا» بقطع الكابلات المباشرة الغاطسة (تحت المحيط الأطلنطي) التي تربط ألمانيا بالولايات المتحدة. وبفضل هذا العمل السريع والذي كان ثمرة تفكير عميق مسبق، فقد تمكن البريطانيون من الإمساك بالمبادرة فيما ـ ربما ـ كان أكثر جميع معارك الدعاية حيوية وأهمية: معركة النضال لكسب تعاطف الشعب الأمريكي.

وفي العام 1914 كانت كل من بريطانيا وألمانيا هي أفضل شريك تجاري بالنسبة للأخرى. وعندما نشبت الحرب أصبح من الضروري لكل منهما أن تعوض خسارتها عن طريق زيادة تجارتها وتبادلها التجاري مع أسواق الولايات المتحدة سريعة الاتساع. أو الأفضل من ذلك كثيرا، إقناع الأمريكيين بمشاركتها قضيتها. وكانت بريطانيا ـ التي تزعمت دول الحلفاء ـ في وضع

أفضل من ألمانيا ـ بالطبع ـ لتوجيه وخوض تلك الحملة ضد الحياد الأمريكي بفضل اللغة والتراث المشتركين. وحتى مع ذلك فقد تطلب الأمر التزام الحذر الشديد؛ فلا توجد أمة تحب أن يدلها الآخرون إلى واجباتها ولا إلى ماهية التزاماتها، وخاصة إذا كانوا أجانب لهم لكنة غريبة. وكان هذا هو الخطأ الذي سترتكبه الحكومة الألمانية التي راحت تدفع بموادها الدعائية التلقينية الصارخة في رأس أمريكا المحايدة، مستخدمة في ذلك الجمعيات الألمانية الأمريكية أو الجمعيات السياسية المتطرفة كوكلاء لها لتوزيع دعايتها. وقد أكدت جميع الأدلة التي توافرت للحكومة البريطانية عقم هذا الأسلوب وعجزه عن إنتاج الأثر المطلوب.

ولكي تشن هذه الحملة الدعائية البالغة الحساسية بهدف أن تضمن التعاطف الأمريكي، فقد أقامت الحكومة البريطانية مكتبا سريا للدعاية الحربية في «ويلينجتون هاوس» تحت قيادة تشارلس ماسترمان. وكانت هذه الإدارة هي أكثر الفروع أهمية في شبكة الدعاية البريطانية فيما بين العامين 1914 و1917، وكان عملها بالغ السرية، حتى أن أكثرية أعضاء البرلمان لم يكونوا يعرفون بوجودها. فقد كان من الضروري بصورة جوهرية أن تختفي عن الشعب الأمريكي حقيقة أن الكتلة الضخمة من المواد المكتوبة المرسومة التي يتلقونها من بريطانيا عن الحرب ـ من النشرات والملصقات والرسوم بل والأخبار نفسها ـ إنما كانت تصدر عن ويلينجتون هاوس تحت إشراف وزارة الخارجية. أُسست وُرسخت أيضا مبادئ عدة مهمة أخرى للعمل، وناجحة في النهاية. فعلى سبيل المثال، اتخذت الحملة البريطانية أسلوبا هادئا يعنى عناية بالغة بانتقاء مفرداته وموضوعاته، ويعتمد على الإقناع لا على التحريض الإنشائي والخطابي. واتضح أيضا أن أفضل الدعاة لقضية الحلفاء هم الأمريكيون المتعاطفون مع تلك القضية، وخاصة أولئك الذين يشغلون مناصب مؤثرة في الحكومة ومجال الأعمال والتعليم ووسائل الإعلام. وكان المبدأ الحاكم في هذا الصدد، على حد ما أفصحت عنه إحدى الوثائق هو «إنه من الأفضل التأثير في أولئك الذين يستطيعون التأثير في الآخرين، من محاولة التوجه مباشرة إلى كتلة السكان». وبفضل سيطرة البريطانيين على الاتصال البرقي المباشر بين أوروبا وأمريكا الشمالية احتكر البريطانيون أيضا كل الأخبار، وكانت الأخبار هي أساس الحملة

الدعائية البريطانية، التي اختيرت كل مكوناتها وأخضعت للرقابة بالطبع بعناية. ولم يتمتع أسلوب الاعتماد على الحقائق بميزة المصداقية أو القابلية للتصديق فقط، وإنما أدى أيضا إلى إعطاء المحررين الأمريكيين حرية تقديم الأخبار وعرضها بأسلوبهم المعتاد حتى يتمكن قراؤهم من صياغة آرائهم والتوصل إلى مواقفهم الخاصة حيال القضايا المطروحة. غير أننا لابد أن نتذكر دائما أن البريطانيين قد سيطروا على مصادر تلك الأخبار؛ بل إن المراسلين الأمريكيين الذين كانوا يعملون خلف الخطوط الألمانية كانوا يعتمدون أيضا على الكابلات المباشرة. فالكابلات غير المباشرة التي تمر عبر الدول المحايدة في إ سكندنافيا والبرتغال كانت أكثر بطئا وأكثر تكلفة. وكانت مشروعات الصحف تعتمد آنذاك ـ مثلما هي الآن ـ على السرعة والاقتصاد، ولكن الرقابة ـ من جانب آخر ـ كانت مصدرا للكثير من الاحتكاك بين بريطانيا وأمريكا فيما بين العامين 1914 و1917، وإن كانت عنصرا جوهريا من عناصر الحملة الدعائية البريطانية الناجحة.

ولقد نالت الحملة البريطانية عونا كبيرا من أخطاء ألمانية عدة فاضحة، لعل أشهرها هو إغراق الباخرة «لوزيتانيا» العام 1915، ومسألة برقية زيمرمان العام 1917، فقد ساعدت هاتان الحادثتان البريطانيين على أن يتخلوا ـ أحيانا ـ عن أسلوبهم القائم على الخطو الهادئ البطيء لكي يتحولوا في تلك المناسبات إلى القفز الطويل، مثل قفزات الأرانب. ويشير الدليل الذي اكتشفه الأثريون البحريون وخبراء إنقاذ واستخراج الأشياء الغارقة في أواسط الثمانينيات، يشير بقوة إلى أن باخرة الركاب المدنية التي نسفتها غواصة ألمانية في شهر مايو العام 1915 كانت تحمل ـ في الحقيقة ـ أسلحة مهربة بشكل غير مشروع، ومع ذلك فقد صور هذا العمل للمعاصرين ـ أيامها ـ على أنه عمل وحشي صارخ وأنموذج آخر للبربرية البروسية على حساب مدنيين أبرياء... وأصر الألمان من جانبهم على أن إغراق لوزيتانيا كان عملا حربيا له ما يبرره؛ فإذا أضفنا إلى هذا الإصرار نشر «تقرير لجنة بحث المزاعم حول أعمال الوحشية الألمانية» الذي اشتهر باسم «تقرير برايس Bryce Report» في بلجيكا بعد أيام قليلة من حادث إغراق «لوزيتانيا»... إذا أضفنا الإصرار الألماني إلى نشر هذا التقرير لأدركنا كيف أدى هذا كله بالضبط إلى تأكيد وتكريس صورة «الهون»(2) الذي كانت

الدعاية البريطانية تسعى إلى خلقه. غير أن الخطأ الألماني الحقيقي جاء بعد ذلك بعام، حينما قام الفنان الألماني جونز بصب «ميدالية» برونزية لإحياء ذكرى إغراق الباخرة. وتمكنت وزارة الخارجية البريطانية من الحصول على نسخة من هذه الميدالية على رغم صدورها في أعداد محدودة، وقامت بتصويرها ثم أرسلتها إلى الولايات المتحدة حيث نشرت في جريدة نيويورك تريبيون في الذكرى السنوية لحادث إغراق السفينة. وقد أدى نشر الصور إلى الكثير من الإثارة، حتى أن البريطانيين رأوا أن يزيدوا من استغلالهم للشعور المعادي لألمانيا بأن صنعوا أنموذجا «طبق الأصل» من الميدالية، ووضعوه في صندوق للهدايا ومعه منشور «مفسر» للمسألة. وأنتج من هذا الأنموذج عشرات الآلاف من النسخ؛ وتحول ما كان في الأصل مجرد محاولة قام بها ـ بشكل فردي ـ فنان ألماني يعمل بمبادرة شخصية منه لكي يبرر لشعبه حرب الغواصات [3] تحول إلى قضية تشهير بالبربرية الهونية، وواحدة من أكثر نجاحات الدعاية البريطانية بروزا في أثناء الحرب.

وقد جاء نشر صور ميدالية لوزيتانيا في أمريكا في لحظة مواتية للغاية بالنسبة لبريطانيا. فعقب انتفاضة عيد الفصح المجهضة في إيرلندا وما تلاها من إعدام لقادتها، كانت مشاعر التعاطف مع الإيرلنديين في أمريكا تعوق مسيرة القضية البريطانية وتجبر رجال الدعاية البريطانيين على التحول إلى الدفاع؛ وقد جاءت استجابتهم في صورة شن هجوم على السمعة الأخلاقية لقادة المتمردين، وخاصة سير روجر كيزمنت الذي احتوت يومياته المزعومة ـ والتي كانت مزورة في الحقيقة ـ على تفاصيل مثيرة شنيعة عن أعمال الشذوذ الجنسي. غير أن أكثر النقاط أهمية في المسألة الإيرلندية، إضافة إلى الأسباب الأخرى للاحتكاك البريطاني الأمريكي ـ مثل الحصار البريطاني المضروب حول (موانئ) دول الوسط[4]، والرقابة ـ هي أن الألمان ـ بشكل استثنائي وغريب ـ عجزوا عن استغلال تلك القضايا في أمريكا، وبالإضافة إلى أخطائهم الخاصة، فإن تلك الفرص الضائعة تبدو متناقضة تناقضا ملحوظا مع المبادرات البريطانية الناجحة. ولننظر على سبيل المثال إلى قضية الممرضة إديث كافيل. فقد بدا أن إعدامها في العام 1915 كان برهانا يؤكد وحشية الألمان بشكل تم توثيقه بشكل جيد في تقرير برايس. وربما كان للألمان ما يبرر تصرفهم بالتأكيد، بوصف إعدام الممرضة عقابا

مشروعا لشخص كان يساعد جنود الحلفاء على الهرب. غير أن موجة الإدانة ـ على نطاق العالم والتي أثارها إعدامها - كانت ضربة خطيرة أخرى للقضية الألمانية، فلم تعد (الممرضة) مجرد امرأة تسببت في إطلاق صيحة الإدانة. فإن إعدام الفرنسيين لماتاهاري[5] لاتهامها بالتجسس العام 1917 لم يسبب مثل تلك الموجة من التعاطف معها (وأحد الأسباب هو أن الألمان عجزوا عن استغلال موتها). أما إديث كافيل فقد قدمت في صورة ملاك الرحمة، وعرضت جريمة قتلها وسط خلفية صنعت من انتهاك حياد بلجيكا. وكان استناد الألمان الجامد إلى العدالة العسكرية مجرد تأكيد للأنموذج النمطي الذي صنعه لهم رجال الدعاية البريطانيون: أنموذج الوحشية التيوتونية[6] واللا إنسانية القاسية.

ولقد كانت الحكايات عن الأعمال الوحشية من الأساليب التي طالما استخدمها أبطال الدعاية الحربية وقدروها، ولم تكن الحرب العالمية الأولى استثناء من هذه القاعدة. فإن صور «الغول البروسي» يلهو فخورا بهراوته؛ أو صورة «الوحش الهوني» الذي لا يكاد حزام سيفه يطوق «بطنه» الهائل، المشغول طوال الوقت بصلب الجنود واغتصاب النساء وتقطيع أوصال الأطفال وتلويث الكنائس ونهبها... كلها أجزاء من الصور الشعبية التي غرست بعمق في معرض القرن العشرين للصور الشعبية. وإذ نجح رجال الدعاية ـ في دول الحلفاء ـ في إحياء تلك الصورة خلال الحرب الكبرى (العالمية الأولى) فإن النمط الذي صنعه البريطانيون لـ «الهون» أو صنعه الفرنسيون لـ «البوش»[7] قد أمدهم ببؤرة التركيز الرئيسية التي كانوا بحاجة إليها لكي يشنوا هجومهم المعنوي على العدو في داخل بلاده وفي داخل بلادهم وفي الخارج. وتمكنوا من تشخيص وتجسيد مجتمع ألماني قائم على المبادئ العسكرية حتى يغرسوا في أذهان الجنود والمدنيين على السواء النتائج المريبة للهزيمة أمام هذا المجتمع. ولم يترك للبلاد المحايدة بدورها مجال للشك في الاتجاه الذي ينبغي لمشاعرهم أن تتجه إليه. وفي خلال المراحل الأولى للحرب كان من المهم لرجال الدعاية أن يلقوا على كاهل العدو بالمسؤولية عن بدء الصراع وأن يبرهنوا على أنه قد أطلق ـ عامدا ـ شياطين الحرب لتنهش الأمم المحبة للسلام. وقد أمدت حقيقة أن الألمان قد انتهكوا القانون الدولي بمهاجمتهم فرنسا وبلجيكا، أمدت البريطانيين

بالأساس الأخلاقي والمعنوي الذي كانوا بحاجة إليه، لكي يبرروا تدخلهم للعاديين من الرجال الذين كانوا بحاجة إليهم ـ الآن ـ لكي يتطوعوا «من أجل الملك والوطن». ولقد ساعدت الحكايات عن الأعمال الوحشية ـ مثلما فعلت دائما ـ على تغذية الإدانة الأخلاقية للعدو وعلى دعمها.

وربما كانت أسوأ الحكايات عن الأعمال الوحشية، سمعة، خلال الحرب الكبرى هي الحكاية التي ترددت عن المصنع الألماني المزعوم لـ «تحويل الجثث». ففي يوم 10 أبريل من العام 1917 ـ أي بعد أربعة أيام فحسب من دخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء ـ نشرت إحدى الجرائد الألمانية موضوعا صحافيا عن مصنع يستخدم لتحويل الجثث (Kadaver بالألمانية) إلى سلع حربية. وبعد أسبوع، اتهمت الصحف البريطانية ـ التي كثيرا ما كانت الحكايات عن الأعمال الوحشية بالنسبة لها فرصة جيدة ـ اتهمت الحكومة الألمانية بأنها «تسلق» الجثث الآدمية لتصنع منها الحساء، وأجري تحقيق رسمي للتيقن من أصل الحكاية. واكتشف أن جريدة في برلين كانت، بالتأكيد، قد نشرت خبرا عن اكتشاف عربة من عربات السكك الحديدية في هولندا محملة بجثث الجنود الألمان. وكان القطار متجها إلى مدينة لييج(في شرق بلجيكا)، ولكنه حول إلى هولندا بطريق الخطأ. وكانت صحيفة بلجيكية قد التقطت الحكاية وزعمت أن هذه الجثث كانت مرسلة إلى «مطاعم الحساء». ولم يمكن العثور على المزيد من الأدلة المادية المؤكدة، باستثناء شهادة ضابط من الجيش البريطاني ذكر أنه رأى الألمان ينقلون موتاهم من ميدان القتال في معركة «حافة فيمي»، بينما لم تكن هناك مقابر حربية ألمانية في المنطقة. ومع ذلك فقد كان ذلك كافيا بالنسبة للصحافة البريطانية التي استخدمت القضية لكي تنشرها كواحدة من الموضوعات المنقولة من الميدان. ولم يكن الكثيرون من أعضاء الحكومة الذين اعتقدوا أن كلمة Kadaver الألمانية تعني أو تشير إلى لحم الخيل، لم يكن هؤلاء أقل استعدادا للسماح بما نالته هذه الحكاية من ذيوع وانتشار. بل إن وزير الخارجية «بالفور» ذهب إلى حد الزعم بأنه مهما كان من ضعف الدليل وعدم وضوحه، فإنه «لا يوجد أي سبب يمنع هذا الخبر من أن يكون صحيحا بالنظر إلى كثرة الأعمال الوحشية التي اتضح أن الألمان قد ارتكبوها بالفعل وثبتت فيها إدانتهم!». فهل كانت الحكومة البريطانية

قد ابتلعت دعايتها وصدقتها؟ ربما كان الأكثر أمانة أن نقول إن هذا كان دليلا على مقدار نجاح صورة الوحشية الهونية، حتى أن «الحقائق» كانت كثيرا ما تفسر لكي تتطابق مع «النمط» المصطنع بأكثر مما كانت تفسر في ضوء الأدلة الحقيقية.

وقد كان هذا أحد الأسباب التي أملت أن تعامل أعظم ضربة دعائية موفقة في الحرب، بحذر كبير ونعومة بالغة. فقد كان نشر «برقية زيمرمان» هو دون شك الإنجاز الذي توج حملة الدعاية البريطانية في الولايات المتحدة وساعد على الإتيان بالأمريكيين إلى الحرب وتثبيتهم بقوة إلى جانب الحلفاء. وتعد القصة أيضا أنموذجا حرفيا للعلاقة بين الدعاية والرقابة والمخابرات السرية في العالم الحديث.

فبعد اندلاع الحرب بوقت قصير، حقق البريطانيون، أو حصلوا على ثلاث ضربات حظ مرموقة عرفوا من خلالها الشفرات الرمزية الرئيسية الثلاث للأسطول البحري الألماني. كانت الشفرة الأولى المرموز لها بالحروف «هـ. ف. ب ـ H.V.B» قد وضعت لكي تستخدمها قيادة الأسطول (الأدميرالية) الألمانية والسفن الحربية للاتصال فيما بينها، ومع السفن التجارية. وقد استولت عليها سفن البحرية الأسترالية الملكية من سفينة تجارية ألمانية تجاه ميناء مدينة ملبورن؛ ولم يكن قائدها يعرف أن الحرب قد أعلنت. أما الشفرة الثانية، التي كان يرمز لها بالحروف «س.ك.م ـ S.K.M» التي عرف ـ بعد فك رموزها ـ معنى إشارات الدرجة الأولى للبحرية الألمانية، فقد عثرت عليها سفينة روسية مع جثة بحار ألماني من السفينة «ماجدبرج» التي كانت قد أغرقت في بحر البلطيق. ثم عثرت سفينة صيد بريطانية على الشفرة الثالثة المتبقية، والمرموز إليها بالحرفين ـ «ف. ب ـ V.B.» داخل صندوق في شهر نوفمبر العام 1914. أما الشفرة الديبلوماسية التي استخدمها الألمان فقد حصل عليها البريطانيون بفضل الشجاعة والحظ مرة ثانية. أما الشجاعة فقد جاءت من جانب مهندس لاسلكي نمساوي ـ ولد في بريطانيا ـ يدعى ألكساندر جيل، كان يعمل في إصلاح محطة اللاسلكي البلجيكية التي سقطت في أيدي الألمان. ونجح جيل في أن ينسخ جزءا كبيرا من رموز الشفرة الديبلوماسية وأن يسلمها للبريطانيين في أواخر صيف العام 1915. ومقابل هذه الجهود، قتل بعد ذلك رميا بالرصاص،

ومن المحتمل ألا يكون الألمان هم من فعلوا ذلك، بل البريطانيون الذين خشوا من احتمال إبلاغه للعدو بما فعله فيعرض بذلك عملية اختراق الشفرة للفشل. وفي صيف العام 1915 أيضا، أدى حسن الحظ إلى الكشف عن مكان وجود كراسة تحتوي على الشفرة الدبلوماسية الألمانية كاملة، في الطابق السفلى ـ تحت الأرض ـ لمكتب الهند الألماني، حيث كان قد ترك وسط الأمتعة المهملة لنائب قنصل ألماني كان قد أرغم على الرحيل إلى إيران. ونتيجة لذلك كان في وسع البريطانيين أن يراقبوا حركة البرقيات الداخلة إلى ألمانيا والخارجة منها. ومع نهاية العام 1915 كان بوسعهم أيضا أن يفكوا شفرة أكثرها.

ولقد تم تنفيذ هذا كله في الغرفة رقم 40 بمبنى قيادة الأسطول (الأدميرالية). ولذلك، ففي الساعات الباكرة من صباح يوم 16 يناير العام 1917، حينما تمكن ضباط «وردية» الليل في الغرفة رقم 40 من التقاط برقية وجهها وزير الخارجية الألماني زيمرمان، إلى السفير الألماني في واشنطون «الكونت بيرنستورف» يعلمه فيها بإطلاق حرب الغواصات دون قيود بدءا من الأول من شهر فبراير، ويقترح فيها إقامة تحالف مع المكسيك في حالة بدء تدخل أمريكي، عرف هؤلاء الضباط على الفور أنهم قد حصلوا على قنبلة دعائية. وتم فك شفرة معظم الرسالة على الفور؛ أو بما يكفي لإدراك معناها وأهميتها. ولكن بقيت مشكلتان كبيرتان: أولاهما هي كيفية إقناع الأمريكيين بأنها صحيحة، خاصة أن خبراء فك الشفرة الأمريكيين لم يكونوا قد تمكنوا من فك الشفرة الألمانية، فليس في وسعهم التحقق من صحة البرقية. والمشكلة الثانية تمثلت في التساؤل عما إذا كان من المفيد المخاطرة بنشر البرقية فيعلم العدو حينذاك أن شفرته قد تم اختراقها. وفضلا عن ذلك، فإن البرقية كانت قد أرسلت عن طريق «الكابلات» الأمريكية، التي كان البريطانيون مترددين في الاعتراف بأنهم يتنصتون عليها خشية استعداء واشنطون. وبينما كانت مجموعة الغرفة رقم 40 ورئيسها المزهو بنفسه هال «اللماح» يفكرون في هذه المشاكل بدأ الألمان ـ في التوقيت المحدد تماما ـ شن حملتهم لحرب الغواصات دون قيود، بهدف إجبار بريطانيا على الاستسلام بواسطة تجويعها. وتم الإتيان بنسخة من البرقية من الطرف المكسيكي للخط البرقي، وحلت شفرتها

بأسلوب فج نسبيا باستخدام كراسة مكتب الهند؛ وأدى هذا إلى تخفيف القلق من اكتشاف الأمريكيين للدرجة التي بلغتها نشاطات البريطانيين لاختراق الشفرات السرية حتى وصلت إلى الدول المحايدة. وفي يوم 23 فبراير، سلم بالفور البرقية إلى السفير الأمريكي في لندن، والتر بيج، فنشرت في الولايات المتحدة يوم الأول من مارس، ولم يكن من غير الطبيعي أن تثير الخواطر. كان الألمان يهددون بالفعل بالإتيان بحرب العالم القديم إلى حديقة أمريكا الخلفية. وقد عرضوا على المكسيك استعادة أراضيها الضائعة في تكساس وأريزونا مقابل أن تقدم (للألمان) منطقة قفز ينطلق منها الغزو. تذكروا معركة آلامو[8].

غير أن الحقيقة، هي أن الرئيس وودرو ويلسون، الذي كان منذ ستة أشهر فقط قد خاض الانتخابات الرئاسية الأمريكية وفاز فيهاعلى أساس برنامج انتخابي شعاره هو «حافظوا على بقاء أمريكا خارج الحرب» كان قد استقر رأيه على التدخل إلى جانب الحلفاء قبل أن يسمع عن برقية زيمرمان من والتر بيج. فقد كان تزايد اعتماد الحلفاء الاقتصادي على الأموال الأمريكية، وحملة الغواصات الألمانية غير المقيدة ذاتها؛ وذكريات إغراق الباخرة لوزيتانيا، والعديد من بواخر الركاب الأخرى التي أغرقها الألمان، وتقرير برايس، كل هذا إضافة إلى الحملة الدعائية البريطانية السرية والتي أديرت بمهارة بالغة قد ساعد الأمريكيين على أن «ينظروا من الزاوية الصحيحة» إلى الأمور، فأعلنت أمريكا الحرب ـ وهي محقة في ذلك ـ على ألمانيا يوم 6 أبريل العام 1917. غير أن برقية زيمرمان قد ساعدت ـ دون شك ـ على تمهيد الطريق لويلسون في تعامله مع مجموعات الضغط المعارضة للتدخل. أما أي شكوك يمكن أن تكون قد علقت بصحة برقية زيمرمان، فقد أزيلت بفضل مبادرة مدهشة من مبادرات الغباء، قام بها وزير الخارجية الألماني نفسه يوم 3 مارس حينما اعترف بأنه أرسلها. وتمكنت الغرفة رقم 40 أيضا من إخفاء حقيقة أن الألمان قد نجحوا بدورهم في حل شفرتها هي نفسها، وزعم الألمان أن نسخة محلولة الشفرة من البرقية قد سرقت من المكسيك. غير أن أفضل ما في الموضوع كان حقيقة أن خبراء حل الشفرات الأمريكيين، الذين لم يكونوا قد حصلوا على شيء ذي قيمة سوى ما يكفي لإقناعهم بصحة البرقية، قد حصلوا على معظم

الشكر والثناء لحلهم شفرة البرقية.

وحالما دخل الأمريكيون الحرب، أصبح من الواضح تضاؤل احتياج البريطانيين إلى التركيز بالقدر نفسه في دعايتهم نحوهم، فتضاءلت أهمية «ويلينجتون هاوس». وبعد أسبوع من إعلانهم الحرب، أقام الأمريكيون إدارتهم الدعائية الخاصة باسم: لجنة الإعلام العامة، تحت إشراف جورج جريل الصحافي وأحد مؤيدي الرئيس. وكانت هذه الهيئة مسؤولة عن الرقابة والدعاية، على رغم أن جريل كان معنيا بـ «التعبير لا عن القمع». وقد وصف عملها بنفسه فيما بعد قائلا إنه: «اقتراح بإعلام لا لون له، ومشروع كبير للتسويق، وأعظم مغامرة عالمية في مجال الإعلانات». وقسمت لجنة جريل إلى قسمين: القسم المحلي الذي حاول تعبئة أمريكا من أجل الحرب، والخارجي الذي انقسم بدوره إلى: مكتب الصحافة الخارجية. ومكتب خدمة اللاسلكي والبرق، ومكتب الأقلام الخارجية. وأشرف القسم الخارجي على مكاتب في أكثر من ثلاثين دولة وراء البحار. وتعامل أكثر من عشرين قسما أخرى مع الجوانب التخصصية الأخرى من العمل. ومثل «ويلينجتون هاوس» من قبل، فقد عمل في هذه الهيئة كثيرون من الكتاب والصحافيين، ولكنها على العكس من نظيرتها البريطانية، عملت علانية؛ وتحت أنظار الجمهور دون مواربة. وقد أنتج هؤلاء الرجال، الملايين من النشرات والكتيبات، تعالج دائما القضايا ذات الأهمية الشخصية لمؤلفيها المثقفين الليبراليين ذوي العقليات الإصلاحية، الذين بدوا دائما أكثر تصميما على إعادة تأكيد المثل العليا للجمهورية الأمريكية من عزمهم على محاربة النزعة العسكرية البروسية. وبكلمات أخرى، فإن الكثيرين من العاملين في لجنة الإعلام العامة (التي عرفت بالحروف الأولى من اسمها: C.P.I) رأوا تعيينهم فيها باعتباره فرصة للترويج لأيديولوجيا الديموقراطية الأمريكية في زمن كانت أمريكا تمر فيه بتحول اجتماعي مهم، مثل نمو المدن وإغلاق الحدود (الذي أثر بدوره في عملية الهجرة). ولذلك فإن مثل هذه الأيديولوجيا تمكنت من توفير نوع من التماسك التوحيدي لبلد متنوع ومتعدد (في الأعراق والثقافة) مثل أمريكا في زمن كانت تخوض في أثنائه الحرب والتغير الاجتماعي معا.

وكان الهم الأكبر للجنة جريل هو الكيفية التي يمكن بها إفهام الأمريكيين

العاديين السبب الذي لأجله أصبحوا متورطين في حرب ناشبة على بعد أربعة آلاف ميل من بلادهم. فعلى الرغم من وجود الغواصات، وبالنظر إلى أن أول رحلة جوية عبر الأطلنطي لم تحدث إلا في العام 1919، فإن الوطن الأمريكي نفسه لم يكن مهددا بصورة مباشرة، وقد اتبعت أساليب عدة متنوعة لكي يبدو هذا الوطن مهددا مباشرة بالفعل. فأولا، أوحت الخطابات الرسمية بأن أمريكا إنما تخوض حربا من أجل السلام والحرية والعدالة لجميع الشعوب؛ بل إنه حتى الألمان العاديون يستحقون الحصول على فوائد الديموقراطية بدلا من قمع حكامهم الأوتوقراطيين(*) والأنظمة العسكرية القاسية. وعلى حد ما أكده الرئيس ويلسون في العام 1917 من: «إننا لا خصام بيننا وبين الشعب الألماني. ولا شعور لدينا إزاءهم سوى الشعور بالتعاطف والصداقة. ولم يكن بدافع منهم أن دخلت حكومتهم هذه الحرب». وكان المقصود من نغمة من هذا النوع هو ضرب مثل للحلفاء الآخرين، الذين كان موضوع دعايتهم الأكبر ضد العدو طوال ما بقي من سنوات الحرب هو السعي إلى إبعاد الشعب الألماني عن قادته والتقسيم والفصل بينهما، غير أن النغمة ذاتها أدت إلى تنبيه الشعب الأمريكي إلى أن عدوه نظام وليس شعبا، وأيديولوجية وليست جيشا، وأنه إذا ما قيض لمثل هذا النظام الأوتوقراطي الفردي المطلق أن ينتصر، فإن الديموقراطية ستصبح في خطر أينما كانت.

وكان لدى لجنة الإعلام العام مورد راسخ من الدعاية المعادية للألمان يتمثل في حكايات الأعمال الوحشية التي كانت منتشرة تتردد في بلدان الحلفاء. وكان من البديهي أن تعتمد اللجنة على هذا المورد لكي تبين طبيعة نظام القيصر[9] وعدم توافقه مع المثل الديموقراطية. ورسم القيصر في صورة شيطان يرتدي خوذة ذات مهماز مدبب كالمسمار البارز، في قمتها، ورسم الجنود الألمان في صورة مغتصبي النساء (وكان الهدف المفضل لشهوتهم الكريهة من الممرضات والراهبات) وقتلة أطفال. واستُغل سجل الألمان في كل من بلجيكا والمكسيك والمحيط الأطلنطي لتصوير «الثقافة» الألمانية. وقد غمرت السعادة الطاغية رجال الدعاية البريطانية وهم يساعدون نظراءهم الأمريكيين ويمدونهم بالمواد المطلوبة، مثل رسوم لويس

(*) الذين يتبعون نظام الحكم الفردي المطلق ـ المترجم.

ريميكرز الساخرة التي كانت قد صارت تطبع ـ في أكتوبر العام 1917 ـ في أكثر من 2000 صحيفة أمريكية يصل توزيعها إلى أقل قليلا من 250 مليون قارئ. بل إن غواصة ألمانية وقعت بكاملها في قبضة الإنجليز أرسلت ـ على سبيل الإعارة ـ إلى أمريكا لكي تعرض للجمهور، غير أنه كان على البريطانيين أن يولوا عناية خاصة، وأن يحرصوا على ألا يستثيروا عداء الرأي العام الأمريكي، وكانوا سعداء بأن يتركوا الأمريكيين يتولون الآن القيادة بأنفسهم. وحاولت لجنة الإعلام العام أن تروج لعقلية دولية المنزع لكي تبرر التدخل باعتباره قياما برسالة أمريكية للوصول بالديموقراطية إلى العالم القديم.. وقد وصلت هذه الرسالة إلى المدارس؛ مثلا عن طريق طبع كتاب: «خدمة المدارس القومية» وإلى المصانع؛ وبالطبع إلى كل الأماكن العامة بما فيها دور السينما التي أصبحت الآن مراكز رئيسية للتعصب الوطني المتطرف.

ولما كان الراديو مايزال إلى حد كبير في مرحلة الإرسال القائم على شفرة «مورس» فقد أنشئت شبكة من المتحدثين عرفت باسم «رجال الدقائق الأربع» الذين تولوا إلقاء مليون خطاب مدة كل منها أربع دقائق تصل إلى ما يقرب من 400 مليون نسمة. وقد كانوا ناجحين نجاحا باهرا في إثارة المشاعر وفي زيادتهم لنسبة ومستوى المشاركة الشعبية في الحرب، وفي ترويجهم لمبيعات سندات الحرب والتشجيع على التطوع والتجنيد في الجيش. وتعرضت أمريكا أيضا لـ «قصف» كثيف بالملصقات والصور والمعارض، بينما وظفت شركات الإعلان الأمريكية التي كانت قد بذلت الكثير قبل الحرب لكي ترتاد طريق الأساليب الحديثة في التسويق والتوزيع، وظفت هذه الشركات لكي تضع خبرتها المهنية ـ فائقة الاحتراف ـ في خدمة الحملة. وكانت صناعة الصور المتحركة الأمريكية تبرز بسرعة بوصفها الأكثر قوة في العالم نتيجة لما أنزلته الحرب من آثار بإنتاج الأفلام الأوروبية. وكانت هذه الصناعة قد انتقلت من نيويورك إلى هوليوود فغمرتها السعادة أن تتقدم لمساعدة الحكومة من خلال لجنة صناعة الصور المتحركة للتعاون الحربي التي كان يرأسها د. و.جريفيث، المخرج المشهور لفيلم «مولد أمة» في العام 1915، وهو الفيلم الذي جسد تحول السينما إلى شكل فني جاد وأداة للإقناع الجماهيري. وظهر نجوم من مثل: شارلي شابلن ودوجلاس فيربانكس وماري بيكفورد ووبليام هارت في أفلام من نوع «تدعيم سند

الحرية العظيم» العام 1917 وهو فيلم دعائي قصير استغل الصور السينمائية لنجومه لترويج مبيعات سندات الحرب (سند الحرية)، أما الفيلم الروائي «الأمريكي الصغير» (1917) والذي أخرجه سيسل دي ميل عن الفتاة الشابة (ماري بيكفورد) التي تسافر إلى فرنسا لزيارة عمتها المريضة؛ وفي أثناء الرحلة تنسف سفينتها بالطوربيد (ولا جوائز لمن يحذر من الفاعل). وإذ تصل إلى فرنسا فإنها تشهد ما يرتكبه الألمان من أعمال وحشية، وتقدم للفرنسيين معلومات عن المواقع الألمانية، ويلقي الألمان القبض عليها ولكن يتم إنقاذها قبيل قتلها ببرهة قصيرة برصاص فرقة الإعدام. وفي الداخل جاءت أفلام الجاسوسية بالتهديد الألماني إلى الأرض الأمريكية نفسها بينما ساعدت أفلام من نوع: الهون في الداخل (1918) والقيصر ووحش برلين (1918)، ومخالب الهون (1918) على المحافظة على المناخ الشامل للمشاعر المعادية للألمان.

وبوجود مثل هذا الشريك المعطاء، فإنه قد يغفر للحكومة الأمريكية تركها الدعاية السينمائية لهوليوود وحدها، غير أن لجنة الإعلام العامة لم تكن تشعر دائما بالسعادة لمنتجات مصنع الأحلام لزمن الحرب الممتلئة بالحماسة الوطنية. ولذلك فإنها بعد بداية بطيئة، أنتج قسم الأفلام التابع للجنة الإعلام العامة أكثر من ستين فيلما رسميا، تراوحت بين الأفلام الروائية، مثل «غزاة بيرشينج» وبين النشرة الإخبارية «أنباء الحرب الرسمية». وفي يوليو العام 1917 كلف سلاح الإشارة بالجيش الأمريكي بأن يكون وحدة لإنتاج الأفلام الرسمية، وعلى رغم أنها ربما تكون قد حققت شهرة أكبر في الحرب العالمية الثانية حينما تم تجنيد أفضل أبناء المهنة في هوليوود للخدمة فيها، فإن المصورين قليلي الخبرة التابعين للجيش في العامين 1917 و1918 استطاعوا أن ينتجوا شرائط عدة من الأفلام التي تصور العمليات القتالية، أدمجت في العديد من الأفلام المجمعة والمصنفة التي أنتجتها لجنة الإعلام العامة، مثل: إجابة أمريكا (1918) و«مقاتلاتنا الملونة» في 1918 أيضا. وكانت الأفلام الرسمية أقل صراحة في صبغتها الدعائية من المنتجات التجارية التي أصدرتها صناعة السينما. وقد كانت موجهة لتلبية احتياجات عسكرية محددة (تجنيد الشباب ورفع المعنويات) وللإعلام والتعليم، ولكي تكون «سجلات» تاريخية. وبتعبير آخر، جسدت هذه الأفلام

جانبا من فلسفة لجنة الإعلام العامة القائلة بأن واجبها هو القيام بنوع من التربية الوطنية تستهدف ديموقراطية حديثة.

ومع وجود جمهور من النظارة يصل إلى 80 مليون نسمة كل أسبوع، إضافة إلى تقدير متزايد لدور السينما وقدرتها على الإقناع والإعلام فإن لجنة الإعلام العامة لم يكن بوسعها أن تتجاهل شرائط السينما باعتبارها وسيلة للدعاية. ولذلك، فإنه تجنبا لاحتمال ألا تكون منتجات هوليوود قادرة على خدمة المصالح القومية في دور السينما، فإن رجال الدقائق الأربع كانوا يظهرون لكي يلقوا كلماتهم في أثناء تغيير «بكرات» الأفلام. وبذلك فقد تم استخدام جميع وسائل الاتصال لتوسيع وتعميق الإحساس بالقومية الأمريكية، غير أن البعض شعر بأن لجنة الإعلام العامة تمثل تهديدا للديموقراطية ذاتها التي تقاتل أمريكا باسمها. وبالاستناد إلى الحجة القائلة بأن احتياجات الدولة ترجح احتياجات الفرد، فقد أحس البعض بأن لجنة الإعلام العامة تسبح ضد تيار مؤسسة فلسفية أمريكية. وقد شعر جريل وزملاؤه في الحقيقة بأن الحرب أظهرت بعض القضايا التي تتعلق بدور الدولة وعلاقتها بشعبها في العالم الحديث، وبأنها قضايا لابد لأمريكا من مواجهتها. غير أن هذا كله لن يكون له معنى ما لم تهزم ألمانيا.

وكان الانشغال الأكبر للجنة جريل هو الجبهة الداخلية، غير أنه لم يكن بوسع الأمريكيين إلا أن ينضموا إلى العمل الذي كان حلفاؤهم قد بدأوه بالفعل في الحملة ضد معنويات العدو. ومرة أخرى كان البريطانيون هم القادة التطبيقيين الممارسين. فقد كان للفرنسيين منظمة مهمة للدعاية تدعى «بيت الصحافة Maison de la Press». غير أنها كانت هدفا دائما للشك السياسي وللصراعات الداخلية. وقد قامت هذه المنظمة بأكثر أعمالها نفعا في المناطق الفرنسية التي احتلها الألمان، حيث حاولت أن تجعل المواطنين على صلة ودراية بإدارة باريس للحرب. غير أن الفرنسيين كانوا قد اتخذوا من تنظيم البريطانيين نموذجا لهم في بناء منظمتهم الدعائية، وفي العام 1918 كانت المنظمة البريطانية قد وصلت إلى ذروة تعقيدها. وكان «ويلينجتون هاوس» قد بدأ يتدهور بعد أن حقق مهمته. وأنشئت وزارة للإعلام تولاها لورد بيفربروك لكي تشرف على كل أنواع الدعاية في البلدان الحليفة والمحايدة، بينما أنشئت إدارة دعاية العدو في كرو هاوس Crewe House

تحت إشراف لورد نورثكليف. وكان كل هذا بقرار من لويد جورج، رئيس الوزراء منذ العام 1916 ومن بنات أفكاره، وهو الذي كان شغوفا في اهتمامه بالدعاية والذي كان يبغض الدبلوماسيين المحترفين الذين كانوا يقومون بعملهم الخاص في أمريكا. فقد أراد لويد جورج أن يرى الجمهور المستهدف للدعاية البريطانية وقد اتسع لكي يتجاوز فئات النخبة صانعة الرأي العام. ولهذا السبب فقد أراد أن يجند إمكانات فليت ستريت (شارع المؤسسات الصحافية التقليدي في لندن). وكان نورثكليف يملك صحفا عدة، من بينها التايمز والديلى ميل. وكان بيفر بروك يملك الديلي اكسبريس. وإلى جانب هذا، فإنه عن طريق السيطرة على سادة الصحف وملاكها وإدخالهم في خدمة الحكومة فإن هذا سيقلل من ميلهم إلى انتقاد حكومته. غير أن الكثيرين من النقاد رأوا في هذا خطرا ماثلا، هو أن يستخدم مثل هذا الجهاز الدعائي لأغراض سياسية في الداخل بالمساعدة في الإبقاء على حكومة لا أخلاقية في السلطة.

ويظن الباحثون على الدوام أن الدعاية البريطانية الموجهة ضد العدو بدأت بتأسيس كرو هاوس غير أن الحملة ترجع في الحقيقة إلى ما قبل مجيء نورثكليف. ويتذكر جندي ألماني مخضرم قائلا:

> في العام 1915، بدأ العدو دعايته بين جنودنا، وبدءا من 1916 أصبحت أكثر كثافة بشكل متزايد، وفي العام 1918 كانت قد أصبحت كالسحابة العاصفة، ويستطيع المرء أن يرى الآن آثار غوايتها التي ظلت تنمو بالتدريج. فقد تعلم جنودنا أن يفكروا بالطريقة التي أرادها لهم العدو.

أما الرجل الذي كتب السطور السابقة فلم يكن غير أدولف هتلر. ففي كتابه «كفاحي» خصص الزعيم الألماني المقبل فصلين كاملين لموضوع الدعاية، انعكس فيهما إعجابه بالحملة البريطانية إضافة إلى تقديره للنقاط التي تجلت فيها دقة تلك الحملة ورهافتها، مثل اهتمامها بالتوقيت، وبالتأثير المتراكم والتكرار، وكانت تلك دروسا سوف يستخدمها هو نفسه فيما بعد استخداما فعالا.

وقد أعجب عدد من الشخصيات الألمانية الأعلى مرتبة، مثل الجنرال لودندورف[10] بما عملت «وزارة تدمير ثقة الألمان في أنفسهم» وقال: «لقد

نومتنا دعاية العدو مغناطيسيا مثلما تفعل الأفعى بالأرنب». ولابد من التعامل بحق مع كل هذه الشهادات التي يدلي بها الأعداء عن فعالية حملة الحلفاء الدعائية: فعلى سبيل المثال، هل كانت تلك الشهادات ستكون مليئة بالمديح إلى هذا الحد لو أن الألمان كسبوا الحرب؟ وبتعبير آخر، لقد استخدمت شخصيات عدة في ألمانيا المهزومة، الدعاية بوصفها عارا يبرر الهزيمة. غير أن هذا التفسير أفضى إلى استنتاج مشؤوم. وتمضي تلك المحاجة الاستنتاجية كالتالي: إن الجيوش الألمانية لم تهزم في ميدان المعركة؛ وألمانيا لم تتعرض للغزو. ومن المؤكد أن ألمانيا قد انتصرت في الجبهة الشرقية بعد معاهدة بريست ليتوفسك[11] في العام 1918. فكيف إذن خسرت ألمانيا الحرب؟ لأنها تعرضت للخيانة من الداخل؛ فقد أدت الدعاية التي شنها الحلفاء إلى انهيار معنوي في الداخل؛ ولذلك فإن الجيوش الألمانية قد طعنت في ظهرها... وقد استخدمت العناصر اليمينية في حكومة فيمار الألمانية في العشرينيات تلك المقولة بالطبع، لكي تبرهن على وجود مؤامرة دبرها البلاشفة واليهود؛ وهي المقولة التي ساعدت على وصول هتلر إلى السلطة العام 1933.

ولكن إلى أي مدى تصدق هذه المقولة؟ من الحق بالتأكيد أن البريطانيين بدأوا يشنون حربهم النفسية منذ أوائل العام 1915. وفي البداية كانت السلطات العسكرية مترددة؛ فقد كانت الدعاية على حد تعبير جنرال ويلسون «أمرا ثانويا ـ فما يهمنا عمليا هو قتل الألمان». ولكن بعد أن شرع الألمان في إسقاط المنشورات فوق خطوط الحلفاء حول مدينة نانسي في أثناء معركة جراند ـ جورون في شهر سبتمبر العام 1914، بل إنهم أصدروا مجلة «جازيت دي آردين» الموجهة إلى الجنود الفرنسيين، قرر البريطانيون أن يردوا من خلال مدير المخابرات الخاصة ومن خلال الإدارة التي عرفت بالرمز «M.I. & - IV». ومع حلول شهر مارس العام 1915 كانت «حرب ورقية» كاملة قد نشبت بين القوات الجوية الألمانية وسلاح الجو الملكي البريطاني. وبعد ستة شهور أنشأ الفرنسيون: إدارة الدعاية الجوية التي قامت بإسقاط «لافوا دي بايي» أو «صوت الوطن» فوق المناطق المحتلة، غير أن مثل هذه العمليات كانت موجهة بوضوح إلى القوات؛ أما المدنيون الألمان فكانوا لا يزالون بعيدين للغاية عن متناول مدى طائرات الحلفاء. وكانت المنشورات

تحتوي على ما ينكره الجانب الآخر أو يخفيه من الأنباء، وخرائط تبين طريق العودة إلى الوطن، أو وصف للمعاملة الجيدة التي يلقاها الأسرى وما إلى ذلك. وعندما بدأ حصار الحلفاء البحري لألمانيا يؤتي نتائجه ويشعر الألمان بوطأته، بدأ البريطانيون يسقطون على الجنود الألمان صورا من قوائم الطعام الموجودة في مطاعم لندن لكي تبين عقم حملة الغواصات الألمانية التي كانت تستهدف إجبار بريطانيا على الاستسلام. وتضمنت الوسائل الأخرى استخدام مكبرات الصوت التي وضعت على طول خطوط الخنادق لكي تعلن وتؤكد فشل مساعي العدو وعقم محاولاته. وفي مدينة بال، بسويسرا المحايدة، كان من المهام التي أوكلت حتى للقنصل البريطاني أن يضع الرسائل الدعائية في زجاجات يلقيها في نهر الراين لكي يحملها التيار إلى داخل ألمانيا. ومن الصعب أن نصدق أن مثل هذه الأساليب الدعائية هي التي أشعلت الثورة الألمانية وأدت الى تنازل القيصر عن العرش في العام 1918.

وفضلا عن ذلك فقد كانت الوسيلة الرئيسية لتوزيع دعاية الأعداء، حتى قرب نهاية العام 1918، هي البالونات لا الطائرات. ويرجع هذا إلى ما حدث في نهاية العام 1917 حينما حوكم أربعة من الطيارين البريطانيين الأسرى أمام محكمة عسكرية ألمانية «لتوزيعهم منشورات تحتوي على إهانات موجهة ضد الجيش والحكومة الألمانيين بين الجنود الألمان في المسرح الغربي للحرب». وعلى رغم تبرئة اثنين من المتهمين بسبب نقص الأدلة، وعلى رغم أن المحكمة نفسها شككت في القاعدة القانونية القائلة باعتبار عملهم انتهاكا للقانون الدولي، فقد حكم على الضابطين الآخرين بالسجن لمدة عشر سنوات. وحينما وصل نبأ هذه العقوبة إلى وزارة الحربية في يناير العام 1918 أوقفت جميع عمليات إسقاط المنشورات بواسطة الطائرات، وصدر تهديد بالمعاملة بالمثل على سبيل الردع. مما أسفر عن العفو عن الضابطين اللذين أعيدا إلى معسكر الاعتقال وعوملا كأسيرى حرب عاديين. غير أن وزارة الطيران ظلت على امتناعها عن تكليف رجالها وطائراتها القيام بغارات إلقاء المنشورات، وظل قرار الإيقاف قائما حتى أكتوبر 1918 قبل انتهاء الحرب بشهر واحد فقط؛ واعتمد البريطانيون بدلا من ذلك على البالونات في توزيع المنشورات في الجبهة الغربية. غير أنه نظرا لأن

أقصى مدى لغالبية البالونات لم يزد على نحو خمسين ميلا فإن الظروف الاستثنائية النادرة وحدها هي التي سمحت بالوصول إلى المدنيين الألمان حتى الأيام الحرجة في أوائل نوفمبر العام 1918 حين استأنفت الطائرات عمليات التوزيع. ولكننا إذا وضعنا في اعتبارنا الطابع التراكمي للدعاية، والمعاملة التي اختُص بها الضابطان البريطانيان في أواخر العام 1917 والتي لابد أن توحي بأن القيادة الألمانية العليا كانت تخشى ـ ما تزال ـ تأثير دعاية الحلفاء. إذا وضعنا ذلك في اعتبارنا فإن نظرية «الطعن في الظهر» يجب أن تبحث عن منطلق مختلف في مكان آخر.

وقد كان الاختيار في الحقيقة قد وقع على «كروهاوس» في البداية لكي يتخذ من إمبراطورية النمسا والمجر ـ حليفة ألمانيا ـ هدفا له. فإثر اشتعال الثورة البلشفية وما تلاها من انسحاب روسيا من الحرب، بدا أن الموقف في ألمانيا لا يهيئ للدعاية فرصا للنجاح مثل ماتهيئه الظروف في إمبراطورية الهابسبرج حيث انفجرت الإضرابات الضخمة في يناير العام 1918 لدرجة أصابت البلاد بالشلل. وهيأت طبيعة الإمبراطورية النمساوية المجرية ـ ذات القوميات المتعددة ـ الفرصة للدعاية الانفصالية. وفي 8 يناير العام 1918، فتح الرئيس ويلسون هذا الباب بما قد يكون أهم خطاب دعائي خلال الحرب، حين أعلن نداءه ذا الأربع عشرة نقطة، والتي تضمنت ـ بين أشياء أخرى ـ تعديل خط الحدود الإيطالي على طول حدود القوميات، وإعطاء الحكم الذاتي لشعوب النمسا والمجر، بما في ذلك تأسيس دول تحكم نفسها بنفسها لكل من اليوجوسلاف والبولنديين والرومانيين والصربيين. وأدى هذا الإعلان السياسي ـ الذي عبر عن أكثر السياسات تماسكا وجذرية في أثناء الحرب حتى ذلك الحين ـ إلى إعطاء الضوء الأخضر لكروهاوس لكي تؤيد فكرة تفكيك الإمبراطورية المزدوجة عن طريق الترويج للسخط الداخلي، بل والانتفاضة والتمرد بين «القوميات المقهورة» وهو ما سوف يؤدي بدوره إلى إضعاف قوة ألمانيا على مواصلة القتال. وجاءت مكافأة إضافية في صورة أن النمساويين ـ على العكس من الألمان ـ لم يكونوا قد أصدروا أي تهديدات بشأن الطيارين الذين يوزعون المواد الدعائية بالطائرات إذا وقعوا في الأسر.

وفيما بين مايو وأكتوبر من العام 1918، وزع الحلفاء في إمبراطورية

النمسا والمجر، نحو 60 مليون نسخة من 643 منشورا مختلفا كتبت بثماني لغات، إضافة إلى 10 ملايين نسخة من 112 صحيفة مختلفة نشرت بأربع لغات. وبنهاية هذه الفترة بلغت عمليات هروب الجنود من الخدمة حجما كثيفا. ويزعم أحد المصادر أن مئات الآلاف من الجنود من أصل سلافي[12] استسلموا دون قتال، واكتشف أن الكثيرين منهم كانوا يحملون مواد دعائية للحلفاء، على رغم عقوبة الإعدام التي كانت تتهددهم إذا ما ألقت السلطات النمساوية المجرية القبض عليهم وهم يحملونها. وقد عثر على ثمانمائة منشور مع 350 جنديا أسروا في يوم واحد. وفي 16 أكتوبر، حين قام الإمبراطور تشارلس - متوقعا الهزيمة المؤكدة - بمنح القوميات الحق في إنشاء دولها المنفصلة مستبعدا النمسا بذلك من الحرب بوصفها حليفا مؤثرا، أصبح لألمانيا ما يبرر زعمها بشكل ما بأنها قد طعنت في الظهر، وإن جاءت الطعنة من حليفتها.

وترجع مشكلة ألمانيا جزئيا إلى عدم كفاءة جهازها الدعائي؛ فكانت الدعاية الألمانية سيئة التنظيم والتنسيق منذ البداية على رغم استعداد ألمانيا المسبق للحرب. وكان لمكتب الصحافة الألماني، أو الكريجزبريسيمت Kriegs Presseamt وظيفة مزدوجة تتمثل في إمداد الصحافة الألمانية بأنباء الحرب، وتنسيق عمليات رعاية المعنويات والمحافظة عليها في الداخل وبين الجنود. وعلى العكس مما فعله البريطانيون، الذين فصلوا بين الإدارات القائمة بالعمل في هذه المجالات التخصصية كانت الهيئة الألمانية بتكليفها المزدوج، مثقلة بالعمل دون تحديد لوظيفتها. فاختارت أن تركز على أخبار الحرب بأكثر من تركيزها على المعنويات، الأمر الذي أسفر عن اكتشاف أن المعنويات قد أهملت إهمالا خطيرا، وذلك حينما بدأت دعاية الحلفاء تتصاعد في العامين 1917 و1918. ولذلك فقد جاءت المحاولات الألمانية لشن حملات الدعاية المضادة متأخرة للغاية. وبدأت القيادة العليا للجيش برنامجا للتلقين الوطني بين الجنود مستخدمة الأفلام وصحف الجيش والمحاضرات. غير أن هذا كله - ومثلما كان الأمر من قبل - قامت به السلطات العسكرية التي كانت أولويتها الأولى - وليس هذا بالأمر المستغرب - هي شن الحرب، فلم يقدروا إلا في وقت متأخر للغاية القيمة الحقيقية لاحتياج الحرب الحديثة إلى «قصف العقول» بقدر احتياجها إلى تخطيط

المعارك. بل إن نشرة الأخبار الخاصة بالجيش الألماني (صحيفة أخبار الجيش الثامن عشر ـ ناخريختن بلات دير «18» آرمى! Nachrichten blutt der 18 Armee) اعترفت عشية الهزيمة بأنه:

> لقد أوقع العدو بنا الهزيمة في مجال دعاية المنشورات. فإن إطلاق السهام المسمومة من مخبأ آمن لم يكن أبدا فنا ألمانيا. ومع ذلك فلقد تبينا أن هذا النضال هو مسألة حياة أو موت، وأنه يتعين على المرء أن يقاتل عدوه بأسلحته. ومع ذلك فإن روح منشورات العدو تحوم متسللة ممتنعة على القتل.

وعلى الرغم من الجوائز التي تمنح مقابل تسليم منشورات العدو والعقوبات القاسية جزاء عدم تسليمها، فإن السلطات العسكرية الألمانية لم تكن قادرة ببساطة على أن تحقق الضروري من الانتصارات اللازمة لكي تقتل بذور السخط التي بذرتها دعاية الحلفاء السابقة. والتي استغلتها ـ بكفاءة لا ترحم ـ دعاية «كروهاوس» سواء داخل الخطوط الألمانية أو خلفها.

وما كان بوسع الدعاية وحدها ـ بالطبع ـ أن تهزم الألمان. فبعد أربعة أعوام من تجمد الموقف العسكري وفشل آخر هجوم ألماني كبير في يوليو، ازدادت عوامل الانهيار الداخلي لألمانيا وشروط هذا الانهيار وضوحا. وعلى الرغم من الانتصار المؤقت على روسيا، فإن حملة حرب الغواصات غير المقيدة ـ التي وفرت الكثير من عوامل دفع أمريكا إلى دخول الحرب ـ قد فشلت في النهاية في إرغام الحلفاء على التسليم. وأدت عوامل نقص الغذاء بسبب الحصار البحري من جانب الحلفاء، والدعاية الاشتراكية الداعية للسلام التي روجت لها روسيا البلشفية، ووصول القوات الأمريكية إلى الجبهة الغربية، أدت كل هذه العوامل إلى التأثير بشدة في إرادة القتال لدى الألمان، دون ذكر إرادة السعي إلى الانتصار. وكان انهيار إمبراطورية النمسا والمجر ضربة عنيفة أخرى. ولذلك فحينما بدأ «كروهاوس» يركز انتباهه على المعنويات الألمانية خلال صيف العام 1918 ـ بعد أن كان قد ساهم ماديا بالفعل في انهيار الهابسبرج ـ فإن التماسك الداخلي للإمبراطورية الألمانية كان قد بدأ ينحل بالفعل ويتفكك. غير أنه يبقى سؤال: إلى أي مدى ساهمت دعاية الحلفاء بالفعل في الانهيار النهائي

للمعنويات الألمانية؛ وهل كانت المعنويات المدنية هي التي انهارت أم العسكرية، أم كلتاهما معا؟

في العام 1918، بدأت وزارة الحربية تجميع المعلومات حول ما إذا كان الأسرى الألمان قد أقروا ـ في أثناء استجوابهم ـ بأنهم قد تأثروا بالدعاية. ولقد كانت تلك استقصاءات أولية، وكانت بعيدة عن أن تكون نهائية أو حاسمة. ومع ذلك فقد اكتشف أن الكثيرين من الأسرى كانوا يحملون ـ لدى أسرهم ـ مواد دعائية. ومن بين 48 تقريرا تم تجميعها في الفترة من 13 مايو إلى 17 أكتوبر حول فعالية توزيع مواد الدعاية بواسطة البالونات، احتوى تقرير واحد على تعليق سلبي من جانب أحد أسرى الحرب الألمان. وتحدث الهاربون من الخدمة ـ بشكل خاص ـ عن المنشورات الدعائية بحماسة، قائلين إن هذه المنشورات كانت تستبدل أحيانا بالنقود، وأنها ساهمت بالتأكيد في اتخاذهم قرار الاستسلام في النهاية. ويقول أحد المصادر الأمريكية إن 80 بالمائة من الأسرى وجدوا وهم يحملون منشورات. وتكون أقوال الأسرى موضع شك بالطبع على الدوام؛ فدائما مايقولون بالضبط مايظنون أن من يستجوبونهم يريدون أن يسمعوه. غير أنه من الواضح أن ملايين المنشورات التي أسقطت فوق الخطوط الألمانية في خلال الشهور الأخيرة من الحرب كانت تصل إلى أهدافها وكانت تقرأ بالفعل، ومع ذلك فمن غير المؤكد ما إذا كانت قد أنتجت بالفعل انهيارا عاما في معنويات القوات الألمانية. ومن المؤكد أنه لم يحدث تمرد واسع النطاق بشكل يناظرتجربة القوات في روسيا . ولكن المكان الذي ربما تكون الدعاية البريطانية قد حققت فيه تأثيرا ملموسا، هو مناطق إراحة الجنود ومعسكرات إعادة الإعداد خلف الخطوط مباشرة، حيث كان الجنود يحاولون الاسترخاء بعد توتر المعركة وتوفزها، وحيث كان لديهم ما يكفي من الوقت لقراءة المنشورات إضافة إلى قراءة الخطابات الواردة إليهم من الوطن والتي كانت تتحدث عن صور الحرمان والصعاب التي تواجهها الحياة العائلية الألمانية في ظل الحصار البحري. في هذه المواقع، وفي عطلات الجنود كانت تزداد احتمالات الاتصال بين الجندي والحياة المدنية. وهنا كان الدعاة البريطانيون يحققون أفضل تأثير لهم.

وقد أصر الجيش الألماني على القول بأن منظمة الدعاية الألمانية لم

تمنح المعنويات المدنية إلا القليل من الاهتمام. وبالمقابل، لم تكن ثمة مناقشات من أي نوع ـ بعد الحرب ـ حول ما إذا كانت المعنويات البريطانية قد تصدعت، وأنها أثرت بذلك في النتيجة النهائية. ومع ذلك فلم تكن المشاعر الوطنية ـ في حد ذاتها ـ كافية. ومن المؤكد أن الحكومة البريطانية قد مالت خلال الثمانية عشر شهرا الأولى من الحرب، إلى الاعتماد على هذا العامل وحده. فلدى انفجار الحرب، كان مجموع عدد الجيش النظامي البريطاني 160 ألف رجل، وهو عدد كبير بما يكفي ـ كما قال بسمارك ذات مرة هازئا ـ لأن تلقي القبض عليه الشرطة الألمانية. وعلى رغم أنه لم يكن ذلك «الجيش الصغير الجدير بالازدراء» الذي تصوره الكثيرون من الألمان، فإن هذه القوة ذاتها من المتطوعين المحترفين المتمرسين بدرجة عالية، لم تكن ـ بوضوح ـ كبيرة بما يكفي لأن تؤثر بأي شكل حاسم في مسار هذا الصراع الجديد. وعلى هذا الأساس، ففي 8 أغسطس العام 1914، أطلق لورد كتشنر ـ الذي كان من القلة النادرة بين العسكريين والسياسيين التي اعتقدت بأن الحرب لن تكون حربا قصيرة ـ أطلق نداءه لكي يمتشق الرجال سيف العدل وأن يهبوا للقتال من أجل الملك والوطن. وفي البداية لم يكن ثمة نقص في المتطوعين. وفي خلال شهر واحد بلغت الأرقام 30 ألفا كل يوم. ولم تستطع لافتات الدعوة إلى الجندية التي أقامتها وزارة الحربية في كل أنحاء البلاد أن تتوازن بسهولة، مع كثافة أعداد المتطوعين الذين تدفقوا لكي يتطوعوا بإرادتهم لمجرد أن «مليككم ووطنكم يحتاجان إليكم». ومع ذلك فسرعان ما تضاءل هذا الفيضان الأولي متحولا إلى تيار ثم إلى قطرات قليلة مع اتجاه الحماسة إلى التلاشي. وكان نقص المتطوعين منذرا ومثيرا للانزعاج بسبب الخسائر الفادحة في الجبهة الغربية حتى أصبح فرض التجنيد الإجباري حتميا ولا مفر منه. ومع ذلك، ففي الوقت ذاته كانت المحاولة الباكرة التي بذلتها اللجنة البرلمانية للتجنيد من أجل إنشاء قوة من المتطوعين، هي ما تحدد بداية أول حملة دعائية حديثة منظمة في بريطانيا توجه إلى كتلة السكان المدنيين. وتظل الدعوة إلى الجندية هي الموضوع السائد في الدعاية المحلية إلى أن فرض التجنيد الإجباري في يناير من العام 1916، كما قدر لهذه الدعوة أن تكون نقطة التركيز الرئيسية لالتزام المواطن الفرد، وما يقدمه من مساهمة للمجهود الحربي القومي.

أما الوسائل التي استخدمت في بداية الحرب فكانت ـ إلى حد كبير ـ تنويعات على نداء كتشنر المشهور. وكانت وسائل مباشرة بشكل عام فيما تستخدمه من تصورات وما تبثه من وسائل، فتصور علما بريطانيا أو بطلا عسكريا محبوبا يطلب متطوعين. وكان هناك عدد وافر من رجال الدعاية الهواة أو غير الرسميين، وكان هناك أيضا تأثير الصحافة المتطرف المتعصب في وطنيته. وحينما بدأ الإقبال على الجندية يتضاءل اتخذت الكلمة نغمة أكثر تهديدا بتصويرها أولئك الذين كانوا يخوضون معارك القتال بالفعل، فتوحي بذلك بأن هناك من لم يتحملوا نصيبهم من المسؤولية بعد. ومن هنا يأتي مضمون الرسالة «من المتغيب الآن؟ هل هو أنت؟!» مع صورة جون بول يصوب إصبع الاتهام نحو الناظرين. ولم يكن الضغط يمارس مباشرة فقط على من يحتمل قبولهم الجندية ولم يتطوعوا بعد، ولكنه كان موجها أيضا إلى عائلاتهم التي كان متوقعا أن تقوم أيضا بالتضحية. ومن هنا يأتي مضمون اللافتة التي تقول: «يا نساء بريطانيا، قلن لهم: اذهبوا» أو: «ماذا فعلت في الحرب العظمى، يا أبي؟!» وشاركت جميع الوسائل: اللافتات، وبطاقات السجائر والمحاضرات والأفلام ومسيرات الدعوة إلى الجندية، في تأكيد المعنى ذاته: أن تذهب هو الأكثر وطنية وقبولا اجتماعيا من أن تبقى.

وأصبحت ممارسة هذا الضغط أكثر صعوبة مع استمرار تصاعد أرقام الخسائر. وفي يناير العام 1916 أصبح الإرغام لا الوطنية هو المفتاح الرئيسي للتجنيد، غير أن النزعة الداعية إلى السلام كانت تتصاعد بدورها وخاصة بعد معارك فردان وسوم وآنكر[13]. وأصبح مطلوبا بوضوح بذل المزيد من الجهود المنسقة للحفاظ على إرادة القتال بين السكان المدنيين. فأنشئت في العام 1917 اللجنة القومية لأهداف الحرب بهدف التركيز على الدعاية الداخلية. وواصلت هذه اللجنة استخدام الكثير من الأساليب التي استخدمتها اللجنة البرلمانية للتجنيد، للمحافظة على مستوى الالتزام الشعبي بالحرب. وكانت الأفلام السينمائية مؤثرة بشكل خاص في أوساط الطبقات العاملة التي تزايد انجذابها إلى حزب العمال السلامي النزعة. فاستشرت أفلام من نوع «بريطانيا مستعدة» العام 1915 الواسع الشعبية، ومعركة السوم العام (1916) ومعركة آنكر، وتقدم الدبابات العام 1917، استثمرت

تزايد شعبية السينما نفسها كوسيلة جماهيرية للترفيه عن طريق دفع موضوعات وطنية أصبحت أكثر تأثيرا لنقلها إلى الجمهور في سياق الترفيه. بل إن الحكومة البريطانية كلفت د. و. جريفيث لتحويل رواية «قلوب العالم» في العام 1918 إلى فيلم دعائي عن قرية فرنسية صغيرة تحت الاحتلال الألماني الذي رسم في صورة بالغة الوحشية. ومن الأفلام المعادية للألمان بشكل ظاهر كان فيلم «نقاط جلد الفهد» العام 1918 الذي لا يزيد طوله على دقيقتين ونصف الدقيقة، والذي دارت حوله ـ بالفعل ـ مناقشة في البرلمان بعد أن عرض تحت العنوان الخاطئ «إذا كنت من الهون مرة، فأنت هون دائما». ويصور هذا الفيلم جنديين ألمانيين في بلدة فرنسية مدمرة يهاجمان امرأة وطفلها؛ ثم يظهر الشخصان أنفسهما في صورة بائعين جوالين في قرية إنجليزية بعد الحرب يحاولان بيع سلعهما. ويعجب تاجر إنجليزي من دكانه بوعاء صغير معهما إلى أن تظهر زوجته فتكتشف عبارة «صنع في ألمانيا» أسفل الوعاء، فيتم طردهما على الفور من الدكان، وتظهر على الشاشة عبارة تقول: «يجب ألا يكون هناك تبادل تجاري مع هؤلاء الناس بعد الحرب» وكانت السينما ماتزال صامتة.

ولسوف يشعر الناس بتأثير هذه الدعاية المدفوعة بالكراهية عندما يعود السلام، ولدى سماع هتافات من نوع:«اشنقوا القيصر» و«لتدفع ألمانيا الثمن» خلال الانتخابات التي أعقبت الحرب مباشرة. ولو أن الحرب العالمية الأولى كانت حقا هي «الحرب التي تنهي كل الحروب» كان من الضروري أن تنسى بسرعة كل أنواع الاتهامات والإدانات التي تبادلها الأطراف في زمن الحرب ـ وذلك بهدف لا يقل عن أن تتمكن بريطانيا وألمانيا من استئناف علاقاتهما بتبادلهما التجاري السابق المربح ـ وهو التبادل الذي أصبح ضروريا إذا كان لألمانيا أن تدفع ما عليها من تعويضات ولبريطانيا أن تدفع ديون الحرب. ومع ذلك فقد ظل شعار «الهون القدماء بأنفسهم» موضوعا شعبيا باقيا وعالقا بقوة لم يمكن إزاحة ميراثه وتأثيره حتى بانتشار نزعة المسالمة التي ظهرت في الثلاثينيات.

وقد كان لتجربة الدعاية في زمن الحرب أربع نتائج أخرى ثبت فيما بعد تأثيرها المخرب للسلام المقبل. أما النتيجة الأولى وقد ناقشناها بالفعل، وهي بالتحديد توظيفها فيما أساء أشباه أدولف هتلر استخدامه من دور

مزعوم للدعاية في زمن الحرب للوصول إلى أهدافهم السياسية الخاصة. والدور الذي لم ينل حقه من التقدير هو دور الدعاية في خلق تلك الدول الجديدة في وسط شرق أوروبا. فحينما أعلن الرئيس ويلسون نقاطه الأربع عشرة في يناير العام 1918 فإنه كان يطرح أكثر البيانات التي صدرت تفصيلا عن أهداف الحرب من جانب أي من قادة الحلفاء حتى ذلك التاريخ. غير أن تلك النقاط ذات طابع عام إلى حد ما، وحينما ضغطت القوميات الخاضعة في وسط أوروبا وشرقها مطالبة بالمزيد من التفاصيل، فإن هذه التفاصيل لم تعلن بشكل دقيق. وعلى رغم ذلك فإنه حتى الوعود العامة عن تقرير المصير القومي قد أمدت دعاة الحلفاء بأفضل فرصة أتيحت لهم حتى ذلك الحين لكي يقدموا حوافز حقيقية إلى «القوميات المقهورة». وقبض «كروهاوس» الذي تم إنشاؤه أخيرا على تلك الحوافز بقوة وافرة. وكانت المشكلة هي أنهم راحوا يطلقون الوعود ـ في غمار عملية الدعاية ـ بشأن التسوية التي ستتم بعد الحرب والتي كان مايزال من المتعين أن تقرها حكومات الحلفاء. وأدى هذا إلى كسر إحدى القواعد الأساسية للدعاية الحربية المؤثرة، وهي ضرورة أن تدار كل من الدعاية والسياسة معا، وأن يسيرا يدا بيد دون انفصال بينهما. وكان لورد نورثكليف مستعدا تماما لأن يلوي ذراع الحكومة البريطانية بإطلاق الوعود الدعائية بشأن سياسة كانت ماتزال بانتظار أن يُتخذ قرار بشأن كل تفصيلاتها، وإن لم يكن بشأن المبدأ العام المتعلق بها. وقد طرحت هذه التفاصيل الخاصة على مائدة البحث في مؤتمر باريس للسلام العام 1919 حينما ظهر البولنديون والسلوفينيون والسلوفاك والتشيك والرومانيون وغيرهم، وجاؤوا متوقعين الوفاء بتلك الوعود. وكانت النتيجة هي خلق سلسلة من الدول المستقلة ـ في وسط وشرق أوروبا ـ التي أنشئت تطبيقا لمبدأ حق تقرير المصير على أساس عرقي بدلا من الأسس والخطوط الاستراتيجية أو الاقتصادية. وقد استبد الغضب بالإيطاليين بشكل خاص، لأنهم كانوا قد دخلوا الحرب إلى جانب الحلفاء في العام 1915 على أساس من معاهدة لندن السرية، في مقابل حصولهم بعد الحرب، على مكاسب إقليمية في جنوب شرق أوروبا، وهي المكاسب التي يحرمون منها الآن ـ في موتمر السلام ـ على أساس مبدأ حق تقرير المصير، فغادروا باريس تملؤهم مشاعر الخيبة وقد تحققوا

من مواقف «حلفائهم» فاستولوا على مدينة فيوم (تريستا) بعد أن اصطدموا بدولة يوجوسلافيا التي كانت قد أنشئت لتوها، وفي موجة من الحماسة القومية المتهوسة بدأوا في التحول إلى اتجاه اليمين الذي أدى إلى تعيين موسوليني رئيسا للوزراء في العام 1922. لقد لعبت الدعاية في زمن الحرب دورا مهما في صعود موسوليني، وقد قدر له هو نفسه أن يحول تجربة زمن الحرب لاستخدامها في زمن السلم.

وهناك تركة ثالثة لتجربة الدعاية في زمن الحرب كانت لها نتائج خطيرة في زمن السلم، وهي تتعلق هذه المرة بالولايات المتحدة. فعقب قرار مجلس الشيوخ الأمريكي في أواخر العام 1919 بعدم التصديق على معاهدة فرساي مع ألمانيا، بدأت سلسلة من التحقيقات حول أسباب دخول أمريكا الحرب. وفي أثناء تلك التحقيقات ألقي الضوء على الكثير من التفاصيل المتعلقة بطبيعة ومدى حملة بريطانيا الدعائية في أمريكا فيما بين العامين 1914 و1917. وكانت النتيجة المستخلصة: هي أن الولايات المتحدة قد استدرجت بالتأكيد لكي تتورط وتصبح شريكا في جانب الحلفاء، وخاصة بواسطة الدعاية البريطانية السرية الصادرة عن ويلينجتون هاوس. وجاءت سلسلة من البحوث التاريخية قام بها علماء باحثون أعلام، فأكدت ما كان يتحول بسرعة إلى إيمان أسطوري بقوة الدعاية. ومع ذلك فقد تعلقت بأطراف هذا الجدل العناصر المؤيدة للعزلة في الساحة السياسية الأمريكية الذين راحوا الآن يدعون إلى عدم التورط الأمريكي في الشؤون الأوروبية، وإلى أن يتنبه الأمريكيون ويحترسوا من الدعاية الأجنبية المخادعة الملتوية. وقد بلغت الحساسية الأمريكية إزاء الدعاية الأجنبية إلى درجة أنه في العام 1938 وافق مجلس الشيوخ الأمريكي على قانون تسجيل العملاء الأجانب لأنفسهم بهذه الصفة، وهو القانون الذي يطلب أن يسجل جميع العاملين في مجال الدعاية على الأراضي الأمريكية أنفسهم لدى الحكومة الأمريكية. ومايزال هذا القانون قائما ونافذا إلى اليوم. وفي خلال الثلاثينيات، حينما كان يمكن للتأييد الأمريكي أن يشد من أزر الدول الديموقراطية الأوروبية في تعاملاتها مع الديكتاتوريات، فإن استخدام الدعاية وسيلة لكسب ذلك التأييد كان محظورا إلى حد كبير بالنسبة للبلدان نفسها التي كانت رائدة في استخدام الدعاية في زمن الحرب.

وأسفر كل هذا عن استقرار عزم البريطانيين على تفكيك آلتهم الدعائية التي عملت في سنوات الحرب عندما عاد السلام؛ ولم تكن هذه الدعاية أبدا من الأنشطة التي شعر البريطانيون إزاءها بالارتياح. صحيح أنها لعبت دورا لا يقدر بثمن في أيام الحرب، في كل من المساعدة على الإتيان بأمريكا إلى الحرب والمساهمة في إنزال الهزيمة بالعدو. غير أنه ساد إحساس بأنها لا عمل لها في زمن السلم؛ وقد ترك الأمر كله مذاقا كريها في أفواه السادة الإنجليز الذين جلسوا في مقاعد القيادة الخاصة بإمبراطورية بريطانية بدت كأنها في ذروة قوتها ومكانتها. فلم يحدث أبدا من قبل أن لونت كل هذه الأجزاء من خريطة العالم باللون الأحمر. وكان ما حققه البريطانيون وأنجزوه في سنوات الحرب واضحا ظاهرا لكل ذي عينين. فما الحاجة إلى المزيد من الدعاية؟ وقد عكس اللورد بوتسونبي مزاج الكثيرين حين كتب في العام 1926 قائلا: «إن دس سم الكراهية في عقول البشر عن طريق التزييف والتزوير لشر أعظم في زمن الحرب من الخسائر الفعلية في الأرواح. وإن تدنيس النفس الإنسانية لأسوأ من تدمير الجسد الإنساني». ويبدو القول إن النشاط الرامي إلى محاولة إقناع جندي بأن يلقي سلاحه، وأن يكف عن القتال لأسوأ أخلاقيا ـ بشكل ما ـ من قتله الفعلي. قد يبدو هذا القول اليوم قولا غريبا؛ غير أنه كان عاديا تماما وشائعا في بريطانيا عقب الحرب العالمية الأولى، الأمر الذي يعكس مدى التغير الذي لحق بكلمة: «دعاية» منذ العام 1911، حينما وصفتها دائرة المعارف البريطانية بأنها نشاط يتعلق إلى حد كبير بالإقناع الديني. غير أن الحدة الخبيثة التي تميزت بها الدعاية عن وحشية الحرب بشكل خاص وشيوعها بين الناس أدت إلى بروز معنى مختلف لحق بالكلمة (الاصطلاح) ذاتها وإلى تخلي البريطانيين عن مبادراتهم في هذا الميدان. كان البريطانيون قد أظهروا للعالم قوة الدعاية الهائلة في الحرب، ولكنهم تخلوا عنها في زمن السلم؛ فبدأت روسيا السوفييتية، ثم ألمانيا النازية فيما بعد من حيث توقف البريطانيون وتوقفوا في ظل السلام.

غير أنه كانت هناك نتيجة رابعة وربما كانت هي الأكثر مأساوية. فقد كتب لورد بوتسونبي رأيه إثر تحقيق أجري بعد الحرب حول مدى دقة الحكايات التي نشرت في أثناء الحرب عن ارتكاب مختلف الأعمال الوحشية،

ولم يستطع هذا التحقيق وغيره مما أجري من استقصاءات أن يجد دليلا قويا، أو أن يجد دليلا على الإطلاق على صدق أي من تلك الحكايات. وعلى ذلك فقد أدى تأثير تلك الدعاية عن ارتكاب الأعمال الوحشية إلى ابتعاد عام من جانب الجمهور في الثلاثينيات والأربعينيات وعدم ميله إلى تصديق حكايات الوحشية الحقيقية التي بدأت تخرج من ألمانيا النازية... وفي هذا الصدد لم تؤد التشويهات والأكاذيب التي صدرت في الحرب العالمية الأولى إلا إلى إخفاء حقائق الحرب الثانية.

22 الثورة البلشفية وحرب الأيديولوجيات (1917-1939)

لم تكن «الحرب التي تنهي كل الحروب» في مستوى هذا التوصيف ولم تصدق عليها هذه التسمية؛ ولم تبشر معاهدات السلام التي ختمتها بعودة السلام العالمي. وكان رئيس الأركان الإمبراطورية العامة صادقا في ملاحظته العام 1919 عندما أحصى 44 حربا تدور رحاها في شتى أنحاء العالم وفي قوله: «لقد أسفرت معاهدة السلام هذه عن انفجار الحروب في كل مكان». وربما كان العام 1918 قد شهد نهاية الحرب الكبرى، غير أن الصراع الدولي ظل مشتعلا. وكان أكثر ما يلفت النظر هو تكثيف صراع كان قد بدأ مع استيلاء البلاشفة على السلطة في روسيا العام 1917؛ وهو الصراع الذي راح يشتعل بشكل متقطع منذ ذلك الحين، فيصبح حربا علنية صريحة أحيانا، ويؤجل أحيانا، ولكنه غالبا ما يتخذ شكل الحرب الباردة منذ العام 1945. إنه - بشكل أساسي - صراع بين أيديولوجيتين متعارضتين تعارضا رأسيا كاملا، حيث لعبت الدعاية دائما دورا محوريا. وربما تكون الثورة البلشفية قد نجحت في إبعاد روسيا عن الحرب

العالمية الأولى، غير أنها أدت أيضا إلى تطور جديد مهم، وله مغزاه، في إدارة الشؤون الدولية. فبعد العام 1917، أصبحت الدعاية حقيقة من حقائق الحياة اليومية. وأصبحت الدعاية عند لينين وخلفائه، الذين يدينون بالكثير للتوظيف الناجح للدعاية في استحواذهم على السلطة على حساب القياصرة - أصبحت الدعاية بالنسبة لهم مكونا أساسيا أيضا في الحرب الأيديولوجية ضد الرأسمالية، وفي النضال من أجل إشعال ثورة عالمية. غير أنه تعين استخدامها أيضا لنشر فكرة الثورة وكلامها في الداخل بين الأغلبية الواسعة من الفلاحين الذين لم يشعروا - ابتداء - بأحداث الثورة في سان بطرسبرج ولكنهم الذين كانت حياتهم ستتغير تغيرا جذريا بسبب هذه الأحداث، وبوجه خاص في أثناء الأيام الحاسمة للحرب الأهلية (1918 - 1921).

فقد أدى عنصر الغزو التبشيري (شبه الصليبي) في الأيديولوجيا الماركسية، بهدف توصيل «الحقيقة» الأساسية إلى الفلاحين والطبقات العاملة في كل من روسيا والعالم على اتساعه، ممتزجا بتجربة النضال السري والمقاومة الخفية - أدى إلى التركيز الشديد من جانب لينين ومؤيديه على دور الدعاية في المساعدة على الاستحواذ على السلطة والاحتفاظ بها. ولقد كان الثوريون الروس - بالطبع - دعاة، أو رجال دعاية كبارا، وإذ كانوا يعملون من مطابع سرية، كثيرا ما كانت توجد خارج بلادهم، بدأوا في نشر أفكارهم قبل انفجار الثورة نفسها بزمن طويل، وذلك من خلال إصدارات ومطبوعات مثل: جريدتي «إيسكرا» (الشرارة) و«برافدا» (الحقيقة). ومع ذلك فعلى الرغم من اشتهار «إيسكرا» بأنها أطلقت الشرارة التي أشعلت الثورة فإن أهميتها بوصفها صحيفة دعائية لم تصل أبدا إلى مستوى شعبيتها. كانت تطبع في ميونيخ ويشرف على تحريرها بليخانوف[1] ثم تهرب عبر سويسرا إلى روسيا تحت إشراف كروبسكايا زوجة لينين؛ غير أن أسلوبها العقائدي والثقافي المرتفع جعلها نوعا ثقيلا من القراءة، ولم يزد توزيعها أبدا على رقم الـ 40 ألفا. وعقب الانقسام بين كتلتي البلشفيك والمنشفيك[2] في العام 1904 وقعت «إيسكرا» في أيدي الأخيرين فقام البلاشفة بتأسيس صحف أخرى. وكان تروتسكي [3] مسؤولا عن تأسيس «برافدا» في العام 1912 وراح توزيعها يزداد بانتظام بفضل أسلوبها الأكثر بساطة والأكثر قابلية للقراءة. وفي خلال العامين الأولين

من عمرها أغلقتها السلطات تسع مرات.

وهيأت الحرب الكبرى دفعة قوية لقضية البلاشفة وحركتهم، وخاصة حينما واصلت روسيا تورطها في الحرب عقب عزل القيصر في العام 1917. بل إن الألمان ساعدوا البلاشفة على إصدار طبعة خاصة من «برافدا» لكي توزع في الخنادق، وهو ما ساعد على انتشار وتفشي الدعاية للسلام. وأعادت الصحيفة فتح مكاتبها في بتروجراد، ثم أسست جريدة «إزفستيا» (الأخبار). وفي الداخل أيضا كان بوسع البلاشفة أن يعزفوا على أوتار ما سببته الحرب من إجهاد، بواسطة رسالتهم الأيديولوجية باستخدامهم للشعارات التي تمكنوا من صياغتها بأستاذية، مثل: «السلام والأرض والخبز» أو «كل السلطة للسوفييت»[4]، وكانت هناك بالطبع مهارة لينين نفسه في الخطابة. ومن موقعه في المنفى قبل العام 1917 توافرت له كل الفرص أيضا لدراسة معارك الدعاية التي كانت تدور على مختلف الجبهات العسكرية والمدنية؛ فعاد إلى روسيا وقد صار خبيرا في الدور الذي يمكن أن تلعبه التربية العقائدية والإقناع الجماهيري في الداخل والخارج معا. ومما يدعو للسخرية أنه ربما كان هذا هو أعظم إنجاز حققته الدعاية الألمانية في خلال الحرب العالمية الأولى.

وكانت أمية الكتلة الغالبة من السكان الروس هي العقبة الكبرى أمام لينين، ومن هنا تتضح ضآلة الدور الذي كان يمكن للصحف أن تقوم به. وكانت «إزفستيا» قد حققت أكبر توزيع بوصولها إلى (أربعمائة ألف) نسخة في أفضل حالاتها. ولم تكد «برافدا» تصل إلى ثلث هذا الرقم، وهي أرقام ضئيلة، بالنظر إلى حجم السكان في روسيا. ومع ذلك فقد كانت الجماهير مهيأة - تاريخيا وثقافيا - لأن تتقبل الأيقونات[5] التي كانت قد اتخذت دورا محوريا في حياتهم الروحية واليومية طوال قرون. فإذا أمكن اقتباس هذا التقليد الموروث وتحويره لكي ينقل الصور السياسية عبر وسائل الاتصال الحديثة وبواسطتها، إذن لحصل البلاشفة على فرصة جيدة للوصول برسالتهم إلى تلك الجماهير. واقتضى هذا استخدام اللافتات. وقبل أن يمر وقت طويل كان البلاشفة ينتجون لافتات ذات خيال وتصميمات حتى أنها كثيرا ما اعتبرت أعمالا فنية. ومن المؤكد أن لافتات فترة الحرب الأهلية تعتبر من بين أكثر المساهمات تأثيرا - في مجال الفن التصويري -

التي قدمها الاتحاد السوفييتي على الإطلاق. فقد كان بوسع اللافتة، مثل الأيقونة، أن تعرض وأن تقدم رموزا بطريقة بسيطة يسهل التعرف عليها وإدراك مغزاها حتى من جانب الفلاحين شبه الأميين. وظهر نوع من اللافتات التي تحمل سلسلة من الصور المرئية تروي ما يشبه الحكاية. وهي ليست بعيدة عن الحكايات التي ترويها رسوم الصحف المصورة، ومايزال هذا النوع من اللافتات موجودا إلى اليوم. وقد أدت عمليات التجريب في هذا الشكل الجديد، بأشخاص لم يحصلوا على أي تدريب فني، مثل د. س. أورلوف، أو مثل ف. ديني، إلى أن يبرزوا بوصفهم أكبر ممثلي فن اللافتات. غير أن الرسام ميخائيل تشيرمينيخ هو الذي أبدع أكثر اللافتات تميزا في مرحلة الحرب الأهلية، التي عرفت باسم «نافذة السخرية الفكاهية Satire window» والتي عرفت أحيانا باسم نافذة «روستا Rosta». وهذه الكلمة، أي: روستا، تتكون من الحروف الأولى من اسم «وكالة البرق» البلشفية التي أنشئت في شهر سبتمبر العام 1918، التي قامت بإصدار صحفها الخاصة. وعلى رغم ذلك، فقد دفع النقص الحاد في الورق، إلى أن ابتكر تشيرمينيخ فكرة صحف الحائط التي كانت تلصق في المناطق المزدحمة من موسكو وفي نوافذ العرض بالدكاكين؛ وسرعان ما جاءت الملصقات تالية لذلك، وانتشرت الفكرة بسرعة في المدن الأخرى. وعند نهاية الحرب الأهلية، كان لـ «روستا» نحو خمسين وكالة (فرعا) في أنحاء العالم تستخدم تلك الأساليب. وحققت ملصقات الشاعر مایاکوفسکي(6) نجاحا خاصا. غير أن نجاحها اقتصر على فترة الحرب الأهلية؛ وغالبا ما اجتذبت الانتباه الفني لا السياسي، وبالتالي فقد تدهورت ثم تلاشت الحركة الطليعية التي كان لها فضل الريادة بدءا من العام 1921.

وكان غزو الحلفاء لروسيا، تأييدا لقوات «الثورة المضادة» البيضاء قد بدأ قبل أن تنتهي الحرب العالمية الأولى. فبينما ازداد القتال كثافة وشدة حينما أخذت كل من بريطانيا وفرنسا وألمانيا ترزح تحت عبئه على الجبهة الغربية إثر تمكن ألمانيا من تحرير قواتها في الشرق مع توقيع معاهدة بريست ليتوفسك الروسية الألمانية في مارس العام 1918، فقد هبطت قوات الحلفاء (اليابانيين أساسا) على الساحل الروسي للمحيط الهادي (الباسيفيك) عند فلاديفوستك في الشهر التالي. غير أن الدول الغربية لم

تكن تتحرك عند هذه المرحلة بدافع من الاعتبارات الأيديولوجية، وإنما اتخذت تلك الخطوة لتشتيت انتباه ألمانيا ولفت نظرها إلى الشرق بعد أن ثار انزعاج الحلفاء لانسحاب روسيا من الحرب. ومن هنا جاء احتلال بريطانيا لمورمانسك[7] في مارس العام 1918 ثم احتلالها للآرشانجل[8] في الأول من أغسطس. وحتى مع هذا الوضع فقد انتشرت الحرب الأهلية: من سيبريا إلى أقاليم القوزاق والقوقاز. غير أن الدول الأوروبية لم تستطع - إلا بعد هزيمة ألمانيا - أن تتحمل تكلفة التدخل بشكل أكثر كثافة؛ وقد أتاح هذا لتروتسكي الوقت اللازم لبناء الجيش الأحمر الجديد، كما أتاح لجهاز الـ «تشيكا Cheka» أي البوليس السري الفرصة لإحكام قبضته على السكان في الداخل.

وازداد التدخل من جانب الحلفاء زيادة كبيرة بعد توقيع الهدنة مع ألمانيا، فنزلت قوات فرنسا عند ساحل أوديسا في الجنوب في ديسمبر، بينما دعم البريطانيون واليابانيون قواتهم في شمالي روسيا وفي الشرق الأقصى حيث انضمت، هناك، قوات أمريكية أيضا. غير أنه بعد أربعة أعوام من الحرب الدموية تضاءل التأييد الشعبي لتدخل الحلفاء، وخاصة بعد فشل الجنرالين «الأبيضين» كولشاك ودينيكين في تحقيق تقدم ملموس في هجماتهما خلال العام 1919. وانضمت بولندا إلى الصف المضاد للثورة وهاجمت روسيا في العام 1920، ولكنها على الرغم من مساعدة الأوكرانيين فقد لقيت سلسلة من الهزائم على أيدي الجيش الأحمر. وفي مارس 1921 وقعت معاهدة ريجا، وفي هذا الوقت كانت غالبية قوات الحلفاء قد سحبت، ومع إجلاء اليابانيين لقواتهم نهائيا في العام 1925 انهارت قضية البيض، ونجا البلاشفة.

ويصعب تقييم دور الدعاية في كل هذه الفوضى وهذا الاضطراب... غير أنه من المؤكد أن «البيض» كانوا أقل مهارة في هذا المجال، شأنهم في غالبية المجالات الأخرى، وخاصة فيما يتعلق بفشلهم في كسب تأييد الفلاحين. وقد افتقرت أيديولوجيتهم أيضا إلى التماسك الذي تمتعت به أيديولوجية خصومهم؛ بينما ساعد وجود قوات أجنبية على الأرض الروسية لكي تدعم البيض، ساعد الحمر على العزف على أوتار الرغبات القومية الرامية إلى طرد الغزاة من «روسيا الأم». غير أن هذا - كما سوف نرى - لم

يكن يخلو من سخرية بالنظر إلى الطموحات الدولية للبلاشفة. ولكن روسيا كانت بعيدة عن أن تكون بلدا موحدا؛ فقد استغل البيض العناصر الانفصالية في جمهوريات عدة. الأمر الذي جعل التفكك احتمالا واقعيا للغاية. غير أن البلاشفة من جانبهم راحوا يضغطون على تشرذم خصومهم وعدم وحدتهم بينما راحوا هم يوحدون المدن والريف خلف منظمتهم الحزبية الخاصة. ولقد تحقق هذا من خلال منهج جمع بين الإثارة والتحريض والإرهاب والدعاية. وكان مرسوم الأرض ـ الذي أصدره لينين وكان أول قرار له بعد توليه السلطة ـ «ضربة معلم Master Stroke» دعائية الأمر الذي جعلها تقدم الأساس الذي أمكن بواسطته كسب الفلاحين. وانطلق الدعاة «المنشطون» إلى أنحاء الريف لكي ينقلوا الأنباء إلى الفلاحين، والتي تخبرهم بأنهم أصبحوا يملكون الأرض، ولكي ينظموهم ويحرضوهم.

ومع ذلك، فمع استطالة أمد الحرب الأهلية، أدى نقص الأطعمة في المدن إلى مصادرتها في الريف، الأمر الذي أدى ـ بمجرد وقوعه ـ إلى إثارة استياء الفلاحين ونفورهم. وجاء رد البلاشفة في صورة زيادة «التربية والتعليم» أي: «الدعاية» وأنشئت قوميسارية (إدارة أو لجنة) التنوير لكي تشرف على عمليات القراءة العلنية العامة للفلاحين والعمال والجنود الأميين أما الشباب والناشئة، وهم هدف أولي دائما لأي دولة ساعية إلى الدعاية وترتكن إليها، فقد نظموا وشحنوا عقائديا من خلال (منظمة) الكومسمول. وانطلقت «سفن الإثارة والتحريض» على طول الأنهار، كما انطلقت قطارات الإثارة والتحريض إلى أنحاء الريف حاملة الرسالة إلى الشعب؛ وأقيمت المنابر والمراكز الإثارية (أو الأجيتبوتكي Agitputky) في محطات السكك الحديدية، مزودة بالمكتبات وقاعات المحاضرات بهدف إقامة الارتباط «بين المحليات والمركز، ولإثارة (الجماهير) ونشر الدعاية، وجلب المعلومات، ولتوفير الأدب». على أن أسماء سفن وقطارات الحملات الإثارية كان لها هدف دعائي: ف. آي ـ لينين؛ ثورة أكتوبر؛ النجم الأحمر. وكانت كل واحدة أو واحد من تلك السفن وهذه القطارات، وحدة دعائية متحركة مزخرفة، مغطاة بالملصقات والأعلام والشعارات؛ وكان كل منها يحمل نحو مائة شخص (من بينهم ضباط التشيكا وممثلو جميع اللجان البلشفية القيادية) بهدف تجنيد وتنظيم المسؤولين المحليين المختارين، مع قسم للشكاوى (كان

مشغولا دائما) إضافة إلى مطبعة، وجهاز إرسال لاسلكي. فضلا عما هو الأكثر أهمية من أي شيء آخر، وهو جهاز عرض الأفلام السينمائية.

وقد أعرب الرأي ـ الذي كثيرا ما ينقل عن لينين، ويقول فيه: «بالنسبة لنا، فإن أكثر الفنون أهمية هو السينما» ـ أعرب هذا الرأي عن التقدير للدور الذي يمكن للوسيط الجديد للاتصال الجماهيري أن يقوم به في سياق الثورة. وفي روسيا العام 1920 كان اثنان فقط يعرفان القراءة والكتابة من بين كل خمسة بالغين في المتوسط وذلك على رغم أن هذه النسبة العامة كانت تتغير من مدينة لأخرى أو من المدينة إلى الريف. وكان استخدام الفيلم هو أكثر الوسائل فعالية في الوصول إلى الغالبية من الروس غير المتعلمين. فكانت السينما ـ عند لينين ـ أداة تربوية أولا، أي تستخدم للتربية السياسية. أما بالنسبة للنظارة فكانت أساسا وسيلة للترفيه (وكان شارلي شابلن، خاصة هو من يتمتع بالشعبية). وكانت السينما «معجزة» بالنسبة للكثيرين من الفلاحين الذين لم يكونوا قد شاهدوا فيلما إلى أن جاءهم «قطار الثورة» بواحد يتفرجون عليه. وساعدت حقيقة أن الأفلام كانت صامتة في ذلك الزمن ساعدت في التغلب على عقبة توصيل المعاني المطلوبة إلى العديد من أبناء القوميات المختلفة بلغاتهم المتنوعة. وكانت الأفلام الأجنبية ـ التي غالبا ما تجسد أفكارا لا تتناسب مع الأيديولوجيا البلشفية ـ تتمتع بالشعبية، فتعين مواجهتها بصناعة سينمائية محلية لم تكن قادرة بعد على تلبية احتياجات الثورة. فلا شك في أن الحرب الأهلية كانت قد دمرت ـ بصورة مؤقتة ـ صناعة السينما الروسية. ولم تتمكن الأفلام السوفييتية من تحقيق مكاسب من «شباك التذاكر» أكثر مما تحققه المنتجات المستوردة إلا في العام 1927 بعد انقضاء فترة إعادة البناء. وكان لينين قد أمم صناعة السينما في شهر أغسطس من العام 1919، غير أنه بالنظر إلى حرمان هذه الصناعة من مخزون الأفلام الخام والمعدات المستوردة من الخارج (ولا داعي لذكر نقص الكهرباء، والاحتياج إلى الكثيرين من الفنيين والممثلين والمخرجين الذين هربوا من الثورة) بالنظر إلى كل ذلك فإنه لم يكن محتملا أن تلعب الدعاية السينمائية نفسها دورا مهما في حسم النتيجة النهائية للثورة. فلم تفعل الأفلام المتاحة في الريف إلا أن اجتذبت النظارة الفضوليين، لكي يهبط المسؤولون من قطار الإثارة

والتحريض لكي يقوموا بعملهم، أي توصيل رسالتهم مستخدمين الأساليب التقليدية في تحريك الحشود واستغلالها.

ومع ذلك، فمن هذه البداية الخربة، سرعان ما بدأت صناعة السينما السوڤييتية في إنتاج واحدة من أكثر الهيئات نجاحا في تاريخ السينما العالمية. ففي العام 1925 أسست شركة قومية للإنتاج باسم «سوفكينو» وأقيمت «استوديوهات» جديدة في موسكو ولينينجراد وكييف وأوديسا؛ وبلغ عددها ثلاثة عشر انتشرت في البلاد بأسرها، في العام 1928، لكي تنتج 128 فيلما في هذا العام يصل كل منها إلى متفرجين يبلغ عددهم في المتوسط 2,5 مليون نسمة. وكانت جميع الأفلام، تنتج ـ عمليا ـ لكي تخدم الدولة. فقد صور فيلم «المدرعة بوتمكين» الذي أخرجه سيرجي أيزنشتاين[9] العام 1926، تمرد بحارة الأسطول في العام 1905 في أوديسا، غير أن رسالة الفيلم كانت مرتبطة بالدعاية أكثر منها بالتاريخ. وجاء فيلم أيزنشتاين التالي «أكتوبر» في العام 1927 لكي يحيي الذكرى العاشرة لنشوب الثورة فلحق الفيلم بفصيلة مشابهة لسابقه. ويحمل الفيلمان طابعا تسجيليا أو وثائقيا، ولكنهما يركزان على الأحداث لا على الأشخاص. ولذلك فكثيرا ما يظن ـ حتى اليوم ـ أنهما «تسجيلات» أو «وثائق» لما حدث في ثورتي 1905 و1917 وليسا إعادة لتلك الأحداث بهدف خدمة مصالح الدولة السوڤييتية في العشرينيات. أما فيلم المخرج بودوفكين «نهاية سانت بيترسبرج» العام 1927 ـ وهو إحياء تقليدي آخر لذكرى الثورة ـ فقد أولى اهتماما أكثر للعناصر الإنسانية في النضال الثوري، غير أن رسالته ـ مرة أخرى ـ كانت رسالة رمزية ودعائية وليست رسالة تاريخية. وقد أضفت مثل هذه الأفلام المشروعية على الثورة، فأضفت المشروعية بالتالي على النظام الذي ورثها. ومع ذلك فيبدو أنها قد ولدت انطباعا في الخارج أعظم بكثير مما ولدته في الداخل.

وعلى الرغم من أن السوڤييت كانوا روادا لطرائق جديدة في الدعاية الداخلية راقبتها البلدان الأخرى باهتمام شديد، فإن دعايتهم الموجهة إلى البلدان الأجنبية هي ما أثارت أكثر القلق في الخارج. فمن المحقق أن القيادة البلشفية أسرعت إلى تقدير القيمة الحقيقية للدور الذي يمكن للدعاية أن تلعبه في نسف مكانة الدول «الرأسمالية الإمبريالية» وفي نشر

أفكار تلك القيادة حول الثورة العالمية. ففي أكتوبر العام 1917 ـ على سبيل المثال ـ نشر البلاشفة معاهدات سرية عدة كان النظام القيصري قد توصل إليها مع الحلفاء، ومن أبرزها معاهدة لندن التي عقدت العام 1915. وقد ساهم الحرج الذي سببه هذا النشر للحلفاء ـ في وقت كان الرئيس ويلسون يدعو فيه إلى إقرار حق تقرير المصير للقوميات ـ ساهم في نفور الإيطاليين وتغييرهم لموقفهم، بعد أن تبددت أوهامهم، بسبب التسوية السلمية في باريس. وفضلا عن ذلك فقد تأثرت الدعاية بأفكار تروتسكي النظرية حول الثورة العالمية. فقد مثَّل دور هذه الدعاية في نشر أيديولوجيا ذات أساس طبقي لا تعترف بالحدود ولا بالفوارق القومية، تهديدا خطيرا للنظم المستقرة التي كانت تعاني من الفوضى الاجتماعية/الاقتصادية والسياسية الحادة التي سببتها الحرب العالمية الأولى. وقد انعكست الآمال الكبرى في اقتراب تحول النظريات إلى حقائق بانفجار الثورة في ألمانيا، وما تلاها من تأسيس نظام شيوعي ـ لم يعش كثيرا ـ في المجر، انعكست هذه الآمال في تأسيس الدولية الثالثة، أو الكومينترن في مارس العام 1919. وقد ضمت هيئات العاملين في البعثات الديبلوماسية السوڤييتية عملاء الكومينترن. ولاشك في أنه خلال السنوات التي أعقبت الثورة مباشرة أصبح التطابق كاملا بين كل من السياسة السوفييتية الخارجية والدعاية السوڤييتية إلى درجة يستحيل معها التمييز بينهما.

أما في نظر حلفاء روسيا السابقين، فقد كان حلول البلشفية محل «العسكرية البروسينية» بوصفها التهديد المرئي القريب للحضارة كما عرفوها، فقد كان أمرا تطلب بوضوح إجراءات مضادة عاجلة. وقد كانت الإمبراطورية البريطانية بشكل خاص هدفا أوليا للكومينترن، فتحددت بوصفها الحصن الرئيسي للنظام «الرأسمالي ـ الإمبريالي» العالمي. وهيأت الاضطرابات التي وقعت في أيرلندا والهند وفلسطين فرصا مثالية لاستنفار النشاط الثوري. غير أن بريطانيا كانت ـ من جهتها ـ قد فككت جهاز دعايتها الكفء في زمن الحرب، وكان عليها أن تعتمد على التدخل العسكري في الحرب الأهلية بوصفه أفضل وسيلة لوقف نشاطات الكومينترن. وإثر انتصار الحمر استمرت نشاطات الشيوعية الدولية، غير أنه بدا أن فرصة نشوب ثورة عالمية قد أفلتت وولت. وقدم العون للشيوعيين الصينيين إلى

أن طرد المستشارون الروس في العام 1928؛ وبدا أيضا أن الفرصة التي لاحت من خلال الإضراب العام في بريطانيا العام 1926 قد تلاشت وانتهت. وعقب موت لينين العام 1924 والصراع الداخلي على السلطة والذي أسفر عن طرد تروتسكي وإقصائه وتولي ستالين، فإن الفوضى الاقتصادية التي نتجت عن الحرب الأهلية تطلبت اهتماما عاجلا؛ فبدأ الكومينترن يتلاشى ويضعف مع إقرار الخطة الأولى للسنوات الخمس وتطبيق سياسة بناء الاشتراكية في بلد واحد مع نهاية العشرينيات.

ومع ذلك فقد بقي الخوف من البلشفية في البلدان الغربية الديموقراطية. وأدى تكوين الـ «موسكوات الصغيرة»[10] في شتى أنحاء أوروبا وأمريكا العام 1919 إلى هز أركان النظام القائم. بل إن العلم الأحمر رفع فوق قاعة بلدية مدينة جلاسجو وأطلقت النداءات إلى عمال العالم لكي يتحدوا بالاستعانة بوسيط «الراديو» الجديد، وكان الراديو عند لينين «جريدة دون ورق... ودون حدود». وحين بدأ راديو موسكو إرساله في العام 1922 كان يمثل أقوى جهاز للإرسال في العالم. وفي العام 1925 أضاف إلى قوته أول إرسال في العالم على الموجة القصيرة. وفي العام التالي حينما استحضر الإضراب العام في بريطانيا ذكريات «كلايد الحمراء»[11] والإضرابات الواسعة في العام 1919، فقد حاول راديو موسكو أن يغذي الإضراب بالإثارة إلى أن قامت الحكومة البريطانية بالتشويش على إذاعته. وعلى الرغم من الوعد الروسي ـ في الاتفاق التجاري السوفييتي البريطاني في العام 1921 ـ بعدم مهاجمة بريطانيا دعائيا، فقد استمرت انتهاكات هذا الوعد خلال السنوات العشر التالية، على رغم أنه في نهاية هذه السنوات العشر، ومع وجود ستالين الأعمق تفكيرا في موقع المسؤولية، بدأ هذا التهديد يخبو ويضعف. وقد نجت الديموقراطية في بريطانيا وفرنسا وأمريكا من أزمتها التي أعقبت الحرب مباشرة. وبدا أن الإجراءات المضادة (مثل حظر عرض فيلم المدرعة بوتمكين وغيره من الأعمال السوفييتية التقليدية) قد منعت انتشار الدعوة البلشفية، وتطلعت الدول إلى استعادة السلام وسط الآمال في تحقيق نزع سلاح عالمي.

وشهدت روح التفاؤل الجديدة في أواخر العشرينيات تطورات مهمة في ثورة الاتصالات: فكان العام 1927 عاما شديد الزخم، حاسما، مثل العام

1896. فقد كان هذا هو عام قيام تشارلس ليندبرج برحلته الجوية التاريخية، وحيدا، عبر الأطلنطي. كانت هذه الرحلة بشيرا ببداية انتهاء عزلة أمريكا الشمالية الجغرافية عن أوروبا. ومع التطور السريع لخطوط الطيران المدني الدولية، كان العالم يتحول أكثر إلى ما يشبه القرية العالمية. وساهم التليفون أيضا في إشاعة الإحساس بتقلص حجم العالم، وفي العام 1927 أسس واستكمل الاتصال التليفوني واللاسلكي عبر الأطلنطي. وفي العام نفسه تحولت شركة الإذاعة البريطانية إلى هيئة الإذاعة البريطانية حاملة شعار «سوف تتبادل الأمم خطاب السلام». وفي خلال خمس سنوات كانت الـ «بي. بي. سي BBC» قد افتتحت إذاعتها (خدمتها) الإمبراطورية التي خطط لها أن تساعد الشعوب المتباعدة التي تضمها الإمبراطورية البريطانية على أن تظل على اتصال دائم مع البلد الأم. وسمع الإرسال الإذاعي الأسترالي في بريطانيا للمرة الأولى العام 1927. وشهد العام نفسه أيضا ظهور أول فيلم ناطق تجاري ناجح وهو «مغني الجاز». كان الراديو والسينما، اللذان كانا في مهدهما خلال الحرب العالمية الأولى، هما أول الوسائط الإعلامية الجماهيرية الحقيقية وكان من المقدر لآثار كل منهما في السياسة والدعاية والحرب أن تكون آثارا بعيدة المدى. وفي العام 1927 أثبت بيرد[12] بالدليل إمكان نقل الصور التليفزيونية الملونة (وكان الروس قد أثبتوا إمكان تحقيق تكنولوجيا التليفزيون حتى قبل الحرب العالمية الأولى) على رغم أن هذا الوسيط بشكل خاص لم يقدر له أن يحصل على أهميته الحقيقية كوسيط دعائي حتى أواخر الأربعينيات.

وجاء الكساد الاقتصادي العالمي الذي نتج عن انهيار سوق الأوراق المالية الأمريكي في العام 1929، لكي يسرع بتحطيم تفاؤل أواخر العشرينيات قصير العمر. وفي ألمانيا بدأ هتلر صعوده السريع الى السلطة وعين مستشارا في العام 1933. فبدأ حينذاك في تفكيك دولة جمهورية فيما/ الديموقراطية وتأسيس الدولة الشمولية النازية مستخدما الكثير من الأساليب الدعائية التي كان روادها هم البريطانيين والسوفييت. في الوقت نفسه قرر اليابانيون، الذين كان الكساد قد ضربهم بعنف، أن يتخلوا عن أي أفكار تتعلق بالأمن الدولي الجماعي فهاجموا منشوريا العام 1931؛ وصدم الرأي العام العالمي عندما شوهدت أول جريدة سينمائية تصور العمليات العسكرية ضد المدنيين

والتي تضمنت قصف اليابانيين جوا للمدن الصينية. ولم تفعل عصبة الأمم ـ التي أُسست العام 1919 لكي تحرس وتضمن السلام الدائم ـ شيئا لمعاقبة المعتدي أو لحماية الدولة الصغيرة المستهدفة. وانسحب هتلر من كل من المؤتمر العالمي لنزع السلاح وعصبة الأمم، وشرع في إعادة تسليح ألمانيا. وهاجم موسوليني الحبشة (إثيوبيا) في العام 1935. ومرة أخرى عجزت عصبة الأمم عن منع العدوان. ووافق الأمريكيون ـ الذين لم يكونوا قط أعضاء في العصبة ـ على قوانين الحياد وحاولوا أن يعزلوا أنفسهم عن العدوان الأوروبي المتصاعد. ووقعت فرنسا وسط أزمة سياسية واقتصادية، وهزتها سلسلة من الفضائح وأعمال الشغب ـ أما بريطانيا، التي كانت القوة العالمية الوحيدة ذات المصالح الممتدة من أوروبا عبر البحر المتوسط إلى الشرق الأقصى، فوجدت نفسها في مواجهة ثلاثة أعداء محتلين ولكنها عاجزة تماما عن مواجهة القوة بالقوة. وقررت روسيا ـ التي كان يمكن أن تمد يد العون بفضل مصالحها في كل من أوروبا والشرق الأقصى ـ أن تتخلى عن عزلتها ودخلت عصبة الأمم العام 1934؛ ثم عقدت معاهدة مع فرنسا في العام التالي. فمهما كان العمل الذي لم يكتمل بعد ويشغل ستالين في الداخل، فإن ظهور نظام في ألمانيا كرس نفسه للإطاحة بالشيوعية، كان تهديدا لا يستطيع ستالين أن يتجاهله. ومع حلول منتصف الثلاثينيات كانت أوروبا تتحول من جديد وبشكل متصاعد إلى الاستقطاب بين معسكرين متعارضين، وقدر للصراع الأيديولوجي بين قوى اليسار وقوى اليمين أن يصبح أكثر حدة حينما انفجرت الحرب الأهلية الإسبانية في يوليو العام 1936.

وإذ نشبت هذه الحرب بسرعة بالغة عقب الأزمات في كل من أوروبا والشرق الأقصى وأفريقيا، فقد شعر كثيرون من المراقبين بأنها ـ أي الحرب الأهلية الإسبانية ـ يمكن أن تتطور بسهولة تامة إلى حرب عالمية ثانية. فمثلما حدث في الحرب الأهلية الروسية، أصبحت الدول الأوروبية متورطة في شؤون ربما كانت تبدو في البداية وكأنها لا علاقة لها بها. ولكن على رغم أن الحرب العالمية الثانية نشبت في العام 1939، فإن بولندا ـ لا إسبانيا ـ كانت السبب المباشر. ويرجع هذا ـ إلى حد ما ـ إلى حقيقة أن بريطانيا وفرنسا ـ على الأقل ـ حاولتا، باستماتة، تحديد آثار الحرب الأهلية الإسبانية،

ومنعها من الانتشار والتحول إلى صراع أكبر اتساعا، وذلك عن طريق اتفاقية بعدم التدخل. ومع ذلك فقد اتفقت كل من ألمانيا وروسيا وإيطاليا على عدم احترام الاتفاقية وانتهاكها. واستغلت كل منها الصراع لخدمة أهدافها الخاصة، فأصبحت ساحة قتال كبرى في حرب الدعاية الدولية التي نشبت في الثلاثينيات، وكأنها كانت تدريبا كاملا (تجربة مسرحية كاملة بالملابس والديكورات) لما سيأتي من الأحداث. وبتعبير آخر، كانت الدعاية، بحلول أواخر الثلاثينيات، قد أصبحت حقيقة راسخة من حقائق الحياة اليومية. فالإرسال الإذاعي الدولي؛ والصحف ودور السينما التي تسيطر عليها الدولة، واستطلاعات الرأي العام، والمظاهرات والمسيرات الجماهيرية: كل تلك الأدوات والوسائط والأساليب كانت تمثل ملامح وقسمات جديدة لعصر تميز بصراع أيديولوجي ذي أبعاد عالمية الاتساع بفضل تكنولوجيات ثورة الاتصالات. وبهذا الوصف، كانت الحقيقة قد أصبحت ضحية كبرى قبل أن يبدأ القتال الفعلي بوقت طويل.

23 الحرب العالمية الثانية

شهدت الحرب العالمية الثانية أكبر المعارك الدعائية في تاريخ الحروب، فطوال ست سنوات استخدم جميع الأطراف المشاركة في الحرب الدعاية على نطاق تتضاءل بالمقارنة معه جميع الصراعات الأخرى، بما في ذلك الحرب العالمية الأولى نفسها، وثمة أسباب عدة لذلك. ففي المقام الأول كانت هذه حربا بين أمم بكاملها، وزادت في هذه الصفة حتى على ما شهدته الأعوام من 1914 إلى 1918. وفي الدول الشمولية كان القهر قد حل محل الشورى في العمليات السياسية، وكانت الديموقراطية قد تفكك بنيانها وأخضعت كتل الجماهير لإرادة أنظمة الحزب الواحد. ومن جوانب عدة كانت الحرب فيما بين 1939 و1945 معركة بين نوعين من الأنظمة السياسية يتصارعان في سبيل السيادة فيما بينهما، وفي معركة من أجل المستقبل. ولقد تطورت وظهرت كل من الديموقراطية المدنية والديكتاتورية الشمولية من طيات أعماق الحرب العالمية الأولى، وجاء العام 1939 ليكون شهادة على استحالة أن يوائم كل منهما الآخر، وأعقب ذلك نشوب صراع بين مجتمعات جماهيرية، حرب بين أيديولوجيات سياسية لم تكن الدعاية فيها سوى

أحد الأسلحة، على رغم أهميتها البالغة. وفضلا عن ذلك فإن التطوير المستمر لثورة الاتصالات قد أتاح ـ منذ ظهور السينما الناطقة والراديو ـ أداة اتصال وربط مباشرة بين الحكومة ومن تحكمهم، وبين حكومة دولة بعينها وشعب دولة أخرى، وفي هذا الصدد كانت الدعاية بديلا للدبلوماسية. وكانت القاعدة القديمة التي تقضي بألا تتدخل الحكومات في الشؤون الداخلية لبعضها البعض قد طرحت جانبا في الثورة الروسية، وإضافة إلى ذلك ظهر تأثير التكنولوجيا الحديثة في الأعمال الحربية، وبوجه خاص مع ظهور قاذفة القنابل التي جاءت بالحرب ـ للمرة الأولى ـ «إلى الحدائق الأمامية» للمنازل.

وقد أدى الخوف من الخسائر والدمار الذي يمكن أن تسببه القاذفات الألمانية ـ إذا حاولت توجيه ضربة مفاجئة من الجو ـ إلى إغلاق جميع دور السينما البريطانية لدى انفجار الحرب العالمية الثانية. ولذلك فسوف يكون من الأمور ذات المغزى للمعركة الدعائية القادمة، أن الحرب بدأت ـ بالنسبة للغالبية من البريطانيين ـ على الراديو. ذلك أن الخطاب الذي ألقاه رئيس الوزراء ليعلن فيه بدء الأعمال الحربية ضد ألمانيا النازية والذي أذاعته هيئة الإذاعة البريطانية صباح ذلك الأحد الثالث من سبتمبر العام 1939، قد أسس وأوضح معالم المنبر المعنوي المرتفع للمبادئ الديموقراطية. فقد أعلن تشمبرلين لمستمعيه:

> إن لنا لضميرا نقيا خالصا، ولقد فعلنا كل ما بوسع أي بلد أن يفعله لترسيخ السلام، ولكن أصبح من المستحيل التساهل في موقف لا يمكن فيه الثقة بكلمة واحدة ينطق بها حاكم ألمانيا، ولا يستطيع أن يشعر فيه أي شعب أو بلد بالأمن... فليباركم الرب الآن جميعا ونتضرع إليه أن يدافع عن الحق؛ ذلك أن الشرور هي ما سوف نخوض القتال ضدها: شرور القوة الغاشمة والضلال والظلم والقمع والاضطهاد. وإنني لواثق من أن الحق هو ما سوف ينتصر على هذه الشرور.

ولا يمكن أن تكون هذه هي أحاسيس رجل مسن متعب كان قد رأى سياسة التهدئة والمسالمة ـ التي كان قد آمن بها كل ذلك الإيمان لكي يحفظ السلام الذي أحرز بثمن غال في العام 1918 ـ تتمزق الآن إثر الغزو الألماني

لبولندا، وإنما كانت تلك الكلمات خطابا دعائيا بارعا ألقاه سياسي حاذق لم تكن صورته الشعبية، بوصفه «رجل ميونيخ المذنب»[1] متطابقة مع الحقيقة التاريخية. وبتعبير آخر كان ذلك هو الخطاب الذي أسس التبرير الأخلاقي والمعنوي الرئيسي لخوض بريطانيا القتال، وسبب إعلانها (مع فرنسا) الحرب على ألمانيا بدلا من أن تعلن ألمانيا الحرب عليهما، والسبب الذي يوجب على البريطانيين أن يعدوا أنفسهم لمواجهة هجوم القاذفات الألمانية.

وكان تشمبرلين على صواب في إبرازه لحقيقة أن بريطانيا قد أعلنت الحرب بدافع من أسباب عادلة؛ وكان قبل اثني عشر شهرا، في ميونيخ قد وقع مع هتلر اتفاقية ينتقل بناء عليها 3,5 مليون ألماني إلى الرايخ الثالث كانوا يعيشون رغما عنهم تحت الحكم التشيكوسلوفاكي في إقليم السوديت. وبتعبير آخر فإن ميونيخ كانت ـ في الأساس ـ متعلقة بتطبيق مبدأ الرئيس ويلسون الخاص بالحق القومي في تقرير المصير، والتي حرمت منه ألمانيا في معاهدة فرساي العام 1919. وكانت إعادة النظر في هذا الخطأ هي ما تكمن وراء قبول بريطانيا لعودة ألمانيا إلى احتلال إقليم الراين العام 1936 ثم لعملية «انشلوس» والوحدة مع النمسا العام 1938[2]. وكانت ميونيخ أيضا عملا أساسيا بالنسبة لأزمة السوديت التي كادت تتحول إلى انفجار لحرب لم يكن هناك من أيدها ولا من هو مستعد لها. وكثيرا ما يُنسَى أن ميونيخ حظيت ـ في حينها ـ بالقبول الشعبي الجارف في كل من بريطانيا وألمانيا، وأن العالم كله قد أشاد بتشمبرلين بوصفه «صانع السلام» و «رجل الساعة» الذي أنقذ أوروبا فاجتذبها من على حافة الكارثة.

ولم يكد يمر اثنا عشر شهرا إلا وكان تشمبرلين يعلن الحرب على ألمانيا، مؤمنا بأن معركة نهاية العالم[3] ربما تكون قد نشبت بعد مرور جيل واحد فقط على «الحرب التي تنهي كل الحروب». وعلى رغم أن بولندا كانت هي السبب المباشر للحرب فإنها لم تكن علتها؛ فقد كانت أحداث مارس من العام 1939، لا أحداث سبتمبر 1938، هي التي أثبتت أنه لا يمكن الوثوق بهتلر وأنه يمثل «القوة الغاشمة والضلال والظلم والقمع والاضطهاد»، وأنه مرتكب «الشرور» التي لا تستطيع أمة متحضرة ومحبة للسلام أن تتسامح بشأنها، حتى ولو خاطرت بتدمير الحضارة بالشكل الذي عرفتها به البشرية. فلم يحدث أن بدأ غالبية الناس يتحققون من أن هتلر لا يمكن

الوثوق به إلا حينما استولى على بقايا تشيكوسلوفاكيا في مارس العام 1939، وأنه كان عاقد النية على شن الحرب. وربما شعر البعض، بشيء من التحفظات بعد «ليلة كسر الزجاج Kristallnacht»[4] في نوفمبر العام 1938، وهي أكبر مذبحة تعرض لها اليهود حتى ذلك الحين. غير أن بوهيميا ومورافيا[5] لم يكونا فناء ألمانيا الخلفي، وأصبحتا تمثلان إرغام غير الألمان على الانضمام قسرا إلى الرايخ الثالث؛ فلم يعد بوسع هتلر أن يتذرع بأنه لا يفعل سوى علاج ضغائن الألمان المتخلفة عن معاهدة فرساي. وحينما حدث ذلك تخلى تشمبرلين عن سياسة التهدئة والمهادنة في ليلة واحدة، وشرع من فوره في إصدار الضمانات لدول وسط وجنوب شرق أوروبا التي أصبحت أهداف التهديد التالية من جانب هتلر: بولندا واليونان ورومانيا وتركيا. وكثيرا ما ينسى البعض أن بريطانيا كانت قد شرعت في إعادة التسلح استعدادا لحرب ضد ألمانيا منذ العام 1935، غير أنها لم تكن مستعدة للحرب قط في مارس 1939 أيضا؛ وكانت ميونيخ قد أتاحت فرصة لالتقاط الأنفاس، غير أن نقص الأموال والأيدي العاملة المدربة أعاق برنامج إعادة التسليح. فلم تكن بريطانيا مستعدة تماما في سبتمبر 1939 أيضا؛ ويرجع الفضل إلى السنة الإضافية التي هيأتها ميونيخ، والشهور الستة التي وفرتها «الحرب المزيفة»[6] في إتاحة الفرصة لبريطانيا لبناء ما يكفي من المقاتلات من طرازي «سبيتفاير» و«هاريكين» لردع اللوفتفاف (سلاح الجو الألماني) في معركة بريطانيا.

أما الحرب التي بدأت بهجوم للفرسان في بولندا[7] وانتهت بعد ذلك بست سنوات بإسقاط القنابل النووية على هيروشيما وناجازاكي، فإنها لم تصبح حربا عالمية بالمعنى الحقيقي إلا في العام 1941، حين قام الألمان بغزو روسيا واليابانيون بقصف الأسطول الأمريكي في بيرل هاربور. غير أن أبناء الشعب البريطاني دخلوا الحرب في العام 1939 ضد ألمانيا متوحدين فيما بينهم؛ وفي بسالة - في مواجهة ما هو حتمي ولا يمكن تجنبه - مسحت من الأذهان مخاوف الثلاثينيات وتوتراتها حين غذى الخوف من قاذفة القنابل تيار المهادنة والمسالمة. ولكنهم لم يخرجوا إلى الشوارع لكي يرقصوا ويصخبوا مثلما فعلوا في أغسطس العام 1914. ولم يعتقدوا أن كل شيء سوف ينتهي قبل أعياد الميلاد؛ ولكنهم أيضا لم يقعوا فريسة للذعر أو

اليأس. فإذا كان لمثل هذه الأحاسيس وجود، فإنها كانت أكثر وضوحا في دوائر الحكومة حيث ساد الاعتقاد بأنه لو أمكن لبريطانيا النجاة من ضربة قاضية سريعة مبكرة، فإن الإمبراطورية البريطانية، ربما، وربما فقط، تربح حرب استنزاف طويلة ضد «العنقاء»[8] العسكرية الألمانية. وقد اقترن هذا النوع من التفكير العسكري المرتبط بالحرب العالمية الأولى بتأكيده على الحصار البحري، بموقف الحكومة إزاء الدعاية الذي ركز في البداية على محاولة الفصل بين الشعب الألماني وقيادته مثلما حدث في العام 1918، غير أن هذه الحملة الدعائية سرعان ما تحولت إلى حرب كلمات أكثر تعقيدا وتطورا ـ بل أكثر قذارة ـ بكثير.

وفي هذا الشتاء الأول لم تصل قاذفات اللوفتفاف - في قطعان كثيفة - إلى الجزر البريطانية. وبينما اشتبك الألمان في القتال ضد البولنديين الشجعان في الشرق، واقتسموا الغنائم مع روسيا ستالين طبقا لبنود المعاهدة النازية السوفييتية، فقد بدت الحرب بعيدة كل البعد بالنسبة للغالبية من البريطانيين، وراحت بريطانيا تستعد وتستفيد بالوقت الذي اشتراه لها البولنديون، وأعيد افتتاح دور السينما في نهاية سبتمبر لإزاحة الملل المتزايد الذي سببه غياب أي عمل حربي في الغرب. وفي الوقت ذاته كانت الأجهزة الدعائية قد أنضجت استعدادا للأزمة القادمة؛ فسواء اتخذت الحرب صورة قصف المدنيين أو صورة حرب استنزاف فقد أصبح واضحا أن المعنويات ستكون عنصرا حاسما، وأنه سوف يتعين على وزارة الإعلام ـ التي أنشئت لدى انفجار الحرب ـ أن تتنافس مع جهاز الدعاية الألماني الذي يقوده جوزيف جوبلز، والذي كان قد عاش بالفعل ست سنوات من التجارب واكتساب الخبرة. وكان التخطيط لإنشاء وزارة الإعلام قد بدأ ـ في الحقيقة - منذ العام 1935. ولكن هذا التخطيط كان ما يزال بعيدا عن الاكتمال في العام 1939. ومرة أخرى أتاح الوقت الذي هيأته «الحرب المزيفة» لوزارة الإعلام ـ فرصة ثمينة لإعداد نفسها بما يكفي للقيام بالمهام القادمة.

وخصص القدر الأكبر من الانتباه للرقابة، وهو ما يكاد يكون خاصية يتميز بها البريطانيون. فالرقابة، بوصفها دعاية سلبية لا تفرض فقط بغرض منع وصول المعلومات المهمة إلى العدو، وإنما تفرض أيضا بهدف منع الأخبار التي قد تضر بالمعنويات، وهو ما تحقق الإقرار به منذ وقت

طويل بوصفه عاملا مهما في توجيه الرأي العام وتوظيفه. وإذا كان قد أمكن تطبيق اصطلاح «الحرب الشاملة» على الحرب العالمية الأولى، فقد أصبح أكثر صلاحية لوصف صراع الأعوام فيما بين 1939 و1945. لقد كانت هذه هي أول حرب بريطانية يدعى لتقرير نتيجتها وحسمها رجال ونساء أحرار حرية كاملة يتمتعون جميعا بحق الانتخاب؛ أي أنها كانت حربا شعبية بحق. ولقد هاجمت قاذفة القنابل الأهداف المدنية مثلما هاجمت الأهداف العسكرية، ومثلما تزايدت مشاركة الجماهير في السياسة في زمن السلم، فلقد تزايدت أيضا مشاركة السكان بأسرهم في الحرب الشاملة. وكان السياسيون البريطانيون المنتخبون، والموظفون المدنيون التابعون لهم وغير المنتخبين قد تبينوا ذلك منذ صدور قانون تمثيل الشعب في العام 1918، ثم قانون الحق المتساوي في الاقتراع «التصويت» في الانتخابات الذي صدر بعد القانون الأول بعشر سنوات؛ غير أن هؤلاء السياسيين ظلوا على شكوكهم في الناخبين الذين ينتمون إلى الطبقة العاملة الجديدة، على الرغم من حقيقة أنها لم تسقط فريسة للنزعة الفوضوية أو للثورة خلال إضرابات العام 1919، ولا في خلال الإضراب العام في سنة 1926، ولا في خلال كساد الثلاثينيات. ومع ذلك فقد ساد شعور بأن قاذفة القنابل هي آخر نذير يمكن أن يعلن التمرد المدني العام والفوضى المدنية. ومن هنا كان التركيز على السيطرة الاجتماعية أو أداتها الرئيسية، أي الرقابة.

لقد بلغ من حرص السلطات في بداية الحرب على مراقبة ومنع جميع الأخبار ذات الأهمية بالفعل، حتى أن مصوري الأفلام لم يسمح لهم باصطحاب قوة الحملة البريطانية إلى فرنسا. وحتى في العام 1914 كانت أطقم التصوير السينمائي يسمح لها ابتداء - بأن تصحب القوات قبل أن تسحب وزارة الحربية تصريحاتها إثر التراجع البريطاني من مدينة مونز. وقد راحت قصة العام 1939 الإخبارية ضحية للتعتيم الإخباري الكامل الذي لم يرفع إلا بعد أن أعلنت إحدى إذاعات باريس أن الحملة البريطانية قد وصلت بالفعل إلى فرنسا. ولكن الحظر فرض مرة أخرى بعد أن كانت الصحف قد أرسلت بالفعل إلى المطابع. وهي مهزلة شهدت مكاتب شارع فليت ستريت وقد احتلها ضباط «سكوتلاند يارد» والصحف المذنبة تصادر من آلات البيع المبكر، وذلك قبل أن يرفع الحظر مرة أخرى بعد فترة

قصيرة. وقد عكس هذا النوع من السلوك الفوضى التي اتصفت بها تصرفات وزارة الإعلام في البداية، والتي لم تؤد إلا إلى استعداء وسائل الإعلام التي كانت الوزارة تحتاج إليها لكي تقوم بعملها. وكان غالبية الرقباء من ضباط الأسطول المتقاعدين، فأصبحوا هم الأشرار الحقيقيين في تلك الفوضى المبكرة.

وكان من المفترض أن تقوم السلطات العسكرية بإمداد وزارة الإعلام بالمعلومات، ولكنها لم تفعل ذلك عازمة على أن تعمل ـ بدلا من ذلك ـ على أساس قاعدة أنه «إذا لم تكن هناك أخبار، فالأخبار - إذن - جيدة». ولكن وزارة الإعلام هي ما انصب عليها نقد الصحافة التي لم تنتقد وزارة الحربية ولا قيادة الأسطول. وسخر الصحافيون من وزارة الإعلام لأنها عينت 999 موظفا أطلق عليهم اسم «بصاصو كوبر» (إشارة إلى اسم داف كوبر وزير الإعلام أيامها). بل لقد قيل لأحد الصحافيين عندما طلب نسخة من منشور كانت الملايين من نسخه قد أسقطت فوق ألمانيا: «ليس مسموحا لنا أن نفشي معلومات قد تكون ذات قيمة للعدو».

وعندما حل شهر مايو العام 1940 كانت وزارة الإعلام قد شهدت مجيء ورحيل اثنين من الوزراء: لورد ماكميلان ولورد رايث. ولم يبق الأخير في منصبه سوى أربعة أشهر، ولكنه كان ـ على الأقل ـ يتمتع بقدر من المعرفة ومن الاهتمام بالدعاية، لأنه كان قد قضى خمسة عشر عاما في منصب المدير العام لهيئة الإذاعة البريطانية (بي. بي. سي)، وكان هو الذي جعل وزارة الإعلام تعمل بشكل أكثر فعالية وكفاءة. وكان المبدأ الذي وضعه رايث بسيطا وفعالا. فقد استند إلى القول بأن «الأخبار هي طليعة الدعاية». وقبل أن يمضي وقت طويل كان شعار وزارة الإعلام هو «الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة؛ وبقدر الإمكان، كل الحقيقة».

وفي منتصف العام 1940 كانت كل مشاكل الرقابة قد حلت إلى حد كبير. فمضت المنظومة في عملها بشكل ملحوظ الفعالية طوال ما بقي من الحرب؛ وشكلت هذه المنظومة الأساس لحملة الدعاية المحلية، ولكن كيف قامت بعملها؟ كانت النقطة الأساسية هي مراقبة (وحظر) الأخبار السريعة (أو الساخنة) عند المنبع. وكانت وسائل الاعلام البريطانية ـ الصحافة ـ و«بي. بي. سي» والأفلام الإخبارية تعتمد كلها في الحصول على غالبية

معلوماتها من وكالات الأنباء. وكانت وزارة البحرية - قبل الحرب العالمية الأولى ـ قد أعادت تعديل مسارات شبكة «الكابلات» البريطانية حول العالم بحيث تلتقي جميع الكابلات التجارية عند نقطة واحدة. وكان المقر الرئيسي في لندن لوكالة «بريس أسوسيشن (اتحاد الصحافة) Press Association التي كانت تتولى تزويد الصحافة: المحلية بالأخبار. وكان هذا المقر يقع في ذات المبنى الذي يوجد فيه المقر الرئيسي لوكالة رويترز Reuters (التي كانت تزود الصحافة الأجنبية بالأخبار). وهنا كان الرقباء يتحكمون في جميع ما يصل إلى وسائل الإعلام من أخبار قبل أن تصلها بالفعل. وبتعبير آخر فقد كانت الرقابة هنا رقابة سابقة على النشر أو الإذاعة (وكانت الأفلام الإخبارية تخضع أيضا لرقابة تالية للتسجيل والتصوير). فإذا ما غادرت الأنباء المراقبة وزارة الإعلام كان للمحررين والصحافيين أن يفعلوا بها ما يشاؤون تبعا لأسلوب الجهة التي يعملون بها. ولم تكن «آراؤهم» تخضع للرقابة، ولكن هذا ولد انطباعا بأن ثمة قدرا محدودا من الرقابة يفرض على هذا المجال؛ بل ولد أيضا انطباعا بأنه نظام تطوعي مما هيأ للدعاية الرسمية قناعا تنكريا فعالا وضميرا أكثر نقاء بالنسبة لدول ديموقراطية ليبرالية تخوض الحرب. غير أن الأخبار البطيئة (أو الباردة) مثل ما نجده في الكتب والمجلات أو الرسائل البريدية فقد أمكن التعامل معها بإيقاع أكثر هدوءا وأحكام أكثر تساهلا. وقد عمل هذا النظام بفعالية كاملة يوما بعد يوم وعلى أساس يومي حتى أن الكثيرين من المراقبين لم يدركوا أن نظاما للرقابة المسبقة يعمل بالفعل، الأمر الذي يفسر ما أحرزته الدعاية البريطانية في زمن الحرب من شهرة وسمعة طيبة بأنها تقول الحقيقة، بينما كان من النادر ـ في الحقيقة ـ أن تقال «الحقيقة» بكاملها. إن السمة الجديرة بالملاحظة في الرقابة البريطانية في زمن الحرب بعد العام 1940 هي قلة ماوقع من صدامات مع وسائل الإعلام؛ فلم تقع أكثر من ستة صدامات حادة مع الصحافة طوال ستة أعوام من الحرب (وأكثرها وقع في أيام العام 1940 الصعبة حين كانت وزارة الإعلام تشرع لتوها في اكتشاف موطئ قدمها)، ليعد إنجازا باهرا لدولة ديموقراطية ليبرالية تخوض الحرب. ولم تتقدم وزارة الإعلام إلا بأربعة اتهامات فحسب ضد الصحافة طوال الحرب. وعلى رغم كل مايمكن أن

يقال أو يفعل. وعلى الرغم من توترات الصحافة من الرقابة في زمن الحرب،فإن ما أثار خوف الصحافيين لم يكن مافعلته وزارة الإعلام بالفعل، وإنما كان مصدر خوفهم هو ماكان يمكن أن تفعله. فقد أدى اليقين الأساسي المشترك من أن للحكومة ولوسائل الإعلام الهدف الواحد ذاته فيما يتعلق بكسب الحرب، وأن شراكتها في تشكيل المعنويات ورفعها قد تساعد في حسم نتيجتها، أدى كل ذلك إلى تقدير مشترك للمدى الذي يمكن أن يصل إليه كل طرف أو لايستطيع الوصول إليه.

وفي مايو 1940 حظرت الحكومة تصدير الصحف الشيوعية. كان ستالين قد وقع ميثاق عدم اعتداء مع هتلر في أغسطس العام 1939، وتعين معاملة روسيا باعتبارها دولة غير صديقة إن لم يكن باعتبارها عدوا حتى يونيه العام 1941 حين هاجمها الألمان... ولم يرفع هذا الحظر إلا بعد معركة ستالينجراد[9]. وفي يوليو العام 1940 وجه تحذير وتنبيه إلى صحيفة «ديلي ووركر Daily Worker» بأن خط التهدئة الذي تتبعه، يتناقض مع المادة الثانية من بند «د» من قانون تنظيم الدفاع التي نصت (في ظل قانون الدفاع عن المملكة)، على تجريم الفعل الذي يؤدي إلى «النشر المنتظم للمادة الموجهه بغرض إلهاب المعارضة لمواصلة الحرب».وتجاهلت الصحيفة هذا التحذير. وفي يناير العام 1941 أصدر هربرت موريسون وزير الداخلية أوامره إلى سكوتلاند يارد باقتحام مكاتب صحيفة «ديلي ووركر» إضافة إلى مكاتب صحيفة « ذا ويك The Week » أو (الأسبوع) وإيقاف المطابع. ولم يسمح لهما باستئناف الصدور إلا في أغسطس العام 1942 حينما شنت حملة شاملة لإعادة تربية الجمهور بمفهوم جديد عن «أصدقائنا السوفييت» فبلغت الحملة ذروتها آنذاك. غير أن البلاغات المستمرة من جانب « ديلي ميرور Daily Mirror » كانت هي الأكثر جدية وخطورة بكثير بسبب حجم توزيعها وطبيعته. لقد ارتفع توزيع هذه الجريدة من 1,75 مليون في العام 1939 إلى 3 ملايين في العام 1946، وكانت واسعة الانتشار بشكل خاص بين الجنود، الذين اجتذبتهم دون شك مفاتن «جين» بطلة قصصها المصورة ذات الجاذبية الجنسية الصارخة. وحتى حينما حل تشرشل محل تشمبرلين في منصب رئيس الوزراء فإن الصحيفة واصلت شن حملة إدانتها المتشددة ضد «مذنبي ميونيخ» إلى الدرجة التي جعلت تشرشل نفسه يشعر بالحرج. وفي يناير

العام 1941 استدعى تشرشل ملاك الجريدة وأمرهم صراحة وبشكل فعلي بأن يكفوا. ولكن ميله إلى قمع الصحيفة هدأ وتطامن بسبب تدخل كل من وزير الداخلية ووزير الإعلام اللذين لم يرغبا في قمع الرأي الآخر، أو أن يتورطا في مشاكل ما بعد فرض الرقابة. وكان إجراء مقابلة صحافية شخصية كافيا لكبح هجمات الصحيفة على تلك المناسبة وتهدئتها.

وكانت الفترة الممتدة بين شهري فبراير ونوفمبر 1942 فترة كئيبة كالحة بالنسبة لبريطانيا فيما يتعلق بالمعنويات - العامة والخاصة على السواء - مثلها مثل حالها في أي وقت في أثناء الحرب. فما كادت البلاد تفيق من صدمة الأنباء التي ذكرت أن عددا من سفن الألمان الحربية قد عبرت القنال الإنجليزي (بحر المانش) دون أن يرصدها أو يشعر بها أحد، قد وصلت أنباء استسلام حامية أقصى الأطراف الشرقية للإمبراطورية البريطانية، سنغافورة، لليابانيين مع خسارة 60 ألف أسير. واستمرت نجاحات الألمان في معركة الأطلنطي ، وارتفعت أسعار النفط، وشنت الصحف - التي كانت جائعة تتلمظ إلى الأخبار الجيدة - هجوما على الإدارة العسكرية للحرب بواسطة «جنرالات أدمغتهم مليئة بالعظام». ولذلك فحينما نشرت الديلي ميرور يوم 6 مارس العام 1944 الرسم الساخر الشهير، الذي رسمه فيليب زيك، يصور فيه بحارا من سفينة تجارية، يكاد يغرق في محيط شاسع خال وهو ملوث بالزيت والشحم ومتعلق بقطعة خشب طافية، وتحته سطر يقول : زاد سعر البترول «بين» واحدا - (رسميا) . وقدر لهذا الرسم أن يثير الاضطرابات؛ لأن دلالته المستمرة تشير إلى أن البحارة الأبطال يخاطرون بحياتهم لمصلحة تجار السوق السوداء وتحقيق أرباح أعلى بموافقة الحكومة أو تجاهلها. وثارت ثائرة تشرشل، وقام موريسون، الذي قال إنه يظن أن الرسم يستحق جهود «جوبلز في أفضل حالاته»، قام بتحذير الديلي ميرور من أن المادة الثانية من قانون قواعد الدفاع يمكن تنشيطها وتطبيقها، وهرع «فليت ستريت» ليقف وراء الديلي ميرور ووراء رايته القديمة؛ راية «حرية التعبير». وتجمع البرلمان وراء الحكومة. ولكن العاصفة هدأت على رغم أن التحذير كان كافيا لأن تهدئ الميرور من نغمة نقدها. وبذلك أمكن تجنب فرض رقابة ما بعد النشر، غير أن الواقعة أدت بالصحافة البريطانية إلى أن تظل يقظة حذرة طيلة ما بقي من الحرب.

وفي هذه الفترة أيضا وقعت محاولة شهيرة أخرى لفرض الرقابة، وكان الهدف هذه المرة فيلما سينمائيا. فقد شرع فريق الإبداع السينمائي الشهير الذي يضم كلا من مايكل باول وإيميريك بريسبرجر أن ينتجا فيلما عن شخصية بطل المسلسلات القصصية المصورة، التي يصدرها ديفيد لوو David Low؛ وهو «كولونيل بليمب Colonel Blimp» تحت عنوان «حياة كولونيل بليمب وموته». وثار سخط تشرشل وغضبه لدى سماعه بنبأ هذا المشروع لأنه كان شديد الحساسية إزاء اتهامه بـ «البليمبرية». ورفضت وزارة الإعلام أن تمد يد العون للمشروع، بل منعت لورانس أوليفييه من مغادرة السلاح الجوي التابع للأسطول لكي يقوم بالدور الرئيسي (الذي قام بأدائه روجر ليفيزي بدلا منه). وحاول تشرشل، وقد بدا كمن شد لجامه وأحكم أو كمن ألقم حجرا بين أسنانه، أن يمنع صناعة الفيلم من الأساس، مزمجرا: «لست مستعدا للسماح بالدعاية التي تنزل أفدح الأضرار بالجيش». واستمرت العاصفة طوال صيف العام 1942، مع عودة وزارة الإعلام إلى الإحجام عن السماح بحظر الرأي الآخر. وشاهد الرقباء الفيلم قبل عرضه العلني، وأكدوا أنه لا ضرر منه. غير أن العاصفة المحدقة به قد استمرت حينما اجتذبت محاولة تشرشل منع الفيلم من أن يعرض خارج البلاد الكثير من انتباه وسائل الإعلام. وحين عرض الفيلم هرع الجمهور متدفقا لكي يرى «الفيلم المحظور». وكانت الواقعة بأسرها نوعا من العاصفة تهب في فنجان الشاي فأفصحت عن الكثير من حساسية تشرشل إزاء النقد، أكثر مما أفصحت عن أي شيء آخر.

وقد كان تشرشل مثل قادة الحرب الآخرين: روزفلت وستالين وموسوليني وهتلر. مولعا كبيرا بالأفلام السينمائية، عارفا بقوة الفيلم كوسيلة للدعاية. غير أنه كان أقل تقديرا للدرجة التي يمكن أن يصل إليها في سماحه بنقد الجمهور للحكومة وإدارتها للحرب ولما يخدم به هذا النقد أهداف الحملة الدعائية المحلية. ولقد أكد هذا النقد الإيهام بأنه لا يلجأ إلى فرض أي نوع من الرقابة، وهو ما مثل خطا دعائيا ممتازا مع المحايدين السابقين مثل الولايات المتحدة. فلو سمح لتشرشل بأن تنفذ إرادته في واقعتي الديلي ميرور والكولونيل بليمب، لكان في ذلك تأكيد على وجود رقابة ما بعد صدور أو نشر الرأي الآخر، وهو ما لم يكن سيؤدي إلا إلى تدمير المظهر

الأخلاقي لدولة ديموقراطية ليبرالية في حالة حرب (مثلما حدث في فرنسا قبل سقوطها في العام 1940)، ولكن هذا كان سيعني تعرية اللعبة الدعائية وفضحها بكشف مدى ممارسة الرقابة السابقة على النشر بالفعل.

ولذلك فإن الدعاية تدور حول ما «لم» يصرح به بقدر دورانها نفسه حول التعبير الصريح المطلق. ولكن ماذا عن الجوانب الأخرى الأكثر إيجابية في دعاية بريطانيا في أثناء الحرب؟ ومرة أخرى، بدأت وزارة الإعلام عملها في هذه الساحة بداية سيئة. ففي البداية اتخذت موقفا يقوم على التحريض وإثارة الحماسة انعكس في اللافتة التي تقول: «شجاعتك أنت؛ ابتهاجك أنت، تصميمك أنت، سوف تجلب لنا النصر». وعلى رغم أن اللافتات كانت في العام 1939 أقل أهمية مما تمتعت به في العام 1914، فقد امتلأت جدران البلاد بـ «بقع» من هذا النوع الذي اتخذ هذا الأسلوب العتيق. ولم يؤد هذا إلا إلى إيجاد اتجاه مزدوج موزع بين، «نحن» و«هم» الأمر الذي سرعان ما بانت حماقته وما ينطوي عليه من بلاهة. فلقد كانت هذه الحرب ـ على رغم كل شيء ـ هي حرب الشعب التي ينبغي أن تضيق فيها الفجوة السابقة بين الجندي والمدني، وبين السياسي والجمهور حتى تختفي عن الأنظار تماما أو تكاد. وسرعان ما عرفت وزارة الإعلام خطأها، ومن هنا ظهرت لافتات تحمل صورة تشرشل تقول: «لنتقدم معا» و«سوف نعبرها معا».

واستخدمت اللافتات أيضا لنشر المعلومات «السعال والعطس ينشران الأمراض» وللإيحاء بالاقتصاد أو تشجيعه «استعمل أدواتك بحكمة وقم بصيانتها» و«صحن نظيف يعني ضميرا نقيا»، ولمنع الإشاعات «الكلام بإهمال يكلف أرواحا» و«احتفظ بأسرارك تحت قبعتك» و«القيل والقال يخسران القتال» و«اسكت... وأسكت أمك - فهي تفهم دون كلام...!»(*) . وبعد 1940أنتجت وزارة الإعلام لافتات يستطيع تصميمها أن يصمد للمناقشة مع أي لافتات في العالم. وقد ذكر سيريل بيرد، الذي اشتهر باسم «فوجاس» وهو مبتكر سلسلة لافتات «الكلام بإهمال يكلف أرواحا»، أكد أنه كان على لافتات الدعاية أن تتغلب على ثلاث عقبات:

(*) في هذا الشعار أو النداء يلعب مؤلفه على معاني كلمة Mum التي تعني «السكوت» في العالمية وتعني «الأم» ـ المترجم.

> أولاها الميل العام إلى تجنب قراءة أي ملاحظة أو تنبيه من أي نوع؛ وثانيتها عدم الميل ـ لدى عامة الناس ـ إلى تصديق أن أي تنبيه، حتى لو قرئ بالفعل، يحتمل أن يكون موجها إلى شخص القارئ بذاته؛ والثالثة، عدم الاستعداد العام، على رغم كل شيء؛ لتذكر الرسالة لمدة كافية لأن يعمل المرء وفقا لها.

ولهذه الأسباب، فإن الكلمة المنطوقة التي ينقلها الراديو، مرتبطة بالصور، وأفلام السينما كانت أداة أكثر فعالية للدعاية بكثير.

وفي البداية اتسم عمل وزارة الإعلام بالبطء فيما يتعلق بالدعاية الفيلمية. وقد أنتج فيلم «الأسد له أجنحة»، العام 1939 بشكل مستقل عن تأثير وزارة الإعلام ونفوذها، على يد ألكساندر كوردا. غير أنه عندما حل العام 1940 كانت وزارة الإعلام قد وضعت برنامجا للدعاية الفيلمية، فاستحوذت على وحدة إنتاج الأفلام الدعائية القديمة وأطلقت عليها اسما جديدا هو «وحدة أفلام التاج» لكي تنتج أفلامها الخاصة، الرسمية. وقد ظل ارتياد دور السينما - الذي كان قد أصبح في أعوام الثلاثينيات جزءا عاديا من حياة الأكثرية - «عادة اجتماعية أساسية»، بل أكثر أنواع الترفيه شيوعا، وخاصة عند الطبقات العاملة التي كانت تدعى في تلك الآونة لكي تخوض حرب الشعب. ففي العام 1936، كان يذهب إلى السينما في بريطانيا كل أسبوع 19 مليون شخص. وفي العام 1945 ارتفع هذا الرقم إلى 30 مليونا، أي نصف السكان. وبعد نوفمبر العام 1939 لم يكن هناك أقل من 4 آلاف دار سينما تعمل في أي وقت من اليوم حتى في أثناء الغارات الجوية. وعلى الرغم من أن سيطرة هوليوود ـ التي كان عمرها قد أصبح طويلا بالفعل ـ على سوق الشاشة لم تواجه أي تحد حقيقي من جانب صناعة الفيلم البريطانية خلال الحرب، فإن السينما البريطانية ـ مع ذلك ـ قد حظيت بشيء يشبه «العصر الذهبي» فيما بين 1939 و1945 على صعيد كل من الانتشار الشعبي والمستوى الفني أو التقدير النقدي. فبينما أنتجت هوليوود 400 فيلم روائي ـ كل سنة في المتوسط ـ خلال سنوات الحرب، فإن الإنتاج البريطاني لم يزد أبدا على خمس هذا الرقم. وعلى رغم أن غالبية هذا الإنتاج كان من أنواع الترفيه الهروبية ـ مع شيوع الأفلام الفكاهية لكل

من جراسي ويلدز وجورج فورمبي وشعبيتها بوجه خاص ـ فإن الأفلام البريطانية بدأت بالفعل تنافس ـ وتسبق ـ منافسيها الأمريكيين في شباك التذاكر. بل إن بعضها حصل على جوائز أوسكار من الأكاديمية الأمريكية لعلوم وفنون الصور المتحركة، مثل فيلم نويل كوارد «حينما تخدم» (1942) أو فيلم لورانس أوليفييه «هنري الخامس» (1944) اللذين حصلا على جوائز الأكاديمية الخاصة. وأحرز فيلم «انتصار الصحراء» العام 1943 لروي بولتينج جائزة أوسكار لأحسن فيلم تسجيلي. وعند نهاية الحرب، وعلى الرغم من أن 80 في المائة مما شاهده هؤلاء الـ 30 مليونا من مرتادي دور السينما من أفلام كانت أفلاما أمريكية، فإن الأفلام البريطانية كانت تحظى بدرجة غير مسبوقة من الجماهيرية والنجاح.

ومن أسباب هذا النجاح أن الأفلام البريطانية كانت ـ في تلك الآونة ـ ترسم شخصيات أناس عاديين عاملين ـ وهم الكتلة الساحقة من جمهورها ـ رسما جادا في ضوء ساطع. أما ما قبل الحرب فإن الإنسان العامل، رجلا كان أو امرأة، كان يرسم ـ إلى درجة كبيرة ـ رسما ساخرا بهدف التفكه والمزاح الهازل. ولكن حرب الشعب تطلبت أن ينظر إلى هؤلاء نظرة جادة وأن يؤخذوا على محمل الجد. وفي جوانب عدة فإن رقابة سنوات ما قبل الحرب الصارمة التي كانت هيئة رقباء الأفلام البريطانية تمارسها، قد لانت في هذه الآونة وخفت قيودها في معالجتها للقضايا الاجتماعية. فإن رواية «حب على ضفة نهر دول» من تأليف وولتر جرينوردز التي منعتها تلك الهيئة ـ على سبيل المثال ـ من أن تتحول إلى فيلم قبل الحرب، أعيد السماح بتحويلها للفيلم المطلوب العام 1940. ويرجع الكثير من هذا التحول إلى نفوذ صناع الأفلام التسجيلية، وتأثيرهم وهم الذين قدموا مساهمات كبرى للسينما البريطانية في سنوات الثلاثينيات والذين سعت وزارة الإعلام بلهفة للحصول على خدماتهم وتوظيف جهودهم بعد العام 1940. فبعد أن كانت الحكومة تتجاهلهم في البداية، بسبب تركيزها في الدعاية على الأفلام الإخبارية، فإنها عادت فسعت إلى تجنيدهم لإنتاج أفلام تسجل وترسم البريطانيين في حالة وفي قلب الحرب، لرفع المعنويات العامة، وليس لأن الجمهور كان قد طلبها بأي قدر، وقد أنتج الكاتب الفنان الشاعر المخرج همفري جيننجز Humphrey Jennings[10] كمية استثنائية وغير عادية

من الأعمال في هذه الفترة، ومن أبرزها: «اصغوا لبريطانيا» العام 1941 و «إشعال الحرائق» العام 1943 و«يوميات من أجل تيموثي» العام 1945. وقد ظلت هذه الأفلام سجلا مؤثرا للبريطانيين في ظروف الحرب، وهي تشهد أيضا على كيفية تأثير الحرب بوصفها حافزا إبداعيا لصناعة السينما البريطانية.

لقد حققت أعمال جينينجز وآخرين معه حيوية جديدة لصناعة الفيلم البريطانية. فخلال سنوات الحرب أنتجت وحدة أفلام التاج التابعة لوزارة الإعلام ما يقرب من ألفي فيلم قصير «موسميا»، بينما كانت وزارة الإعلام نفسها مسؤولة عن الموافقة على (أو التشجيع بأشكال أخرى) ما يزيد على 3 آلاف عدد من الجريدة السينمائية وما يقرب من 400 فيلم روائي بريطاني الإنتاج. وبمعنى ما، فإن جميع ما عرض من أفلام في بريطانيا كانت أفلاما رسمية لأن شيئا منها ما كان ليظهر على الشاشة دون موافقة وزارة الإعلام أو دون الحصول على شهادة هيئة رقباء الفيلم البريطانية. وفضلا عن ذلك فإنه نظرا لاعتبار مخزون الأفلام (أي الأفلام الخام، السيلولويد) مادة حربية حيوية تخضع للسيطرة الصارمة من جانب مجلس هيئة التجارة، فإنه ما كان يمكن فعليا إنتاج أي فيلم دون موافقة الحكومة. وقد أعطت الحكومة الأولوية للشركات الخمس الكبرى المنتجة للجرائد السينمائية (باثي، يونيفرسال، جومونت ـ بريتيش، بريتيش موفيتون و: باراماونت)، التي كانت تقف في الصف الأمامي لحرب الدعاية البريطانية السينمائية. غير أن الجرائد السينمائية كانت هي الأكثر جرأة وإقداما في عرضها للقضايا المطروحة فكانت دعائية بشكل واضح؛ أما الأفلام «الرسمية» التي أنتجتها وحدة أفلام التاج فكانت ذات نغمة أقل حدة، كما أنها كانت تنتج بإيقاع أقل سرعة وفي فسحة من الوقت أطول بكثير مما كان متاحا للجرائد السينمائية التي كانت تتعامل مع الأخبار «الساخنة». وكانت الأفلام الرسمية أقرب إلى الأفلام التسجيلية الوثائقية، أي أفلاما قصيرة إعلامية تشرح كيف تزرع البطاطس، أو كيف ومتى ترتدي القناع الواقي من الغازات، وكيف تطفئ الحريق أو كيف تبني خزانات المياه وما إلى ذلك. وقد لا تبدو مثل هذه الأفلام أفلاما دعائية، ولكنها كانت تستهدف خدمة المجهود الحربي بأكثر معانيه اتساعا. وكان المؤسس المؤثر لحركة الأفلام التسجيلية

البريطانية، جون جريرسون قد حدد من قبل الفيلم التسجيلي بأنه «المعالجة الإبداعية للوقائع الفعلية». ولذلك فإن الأفلام الرسمية، مثلها مثل الجرائد السينمائية، لم تقدم «الحقيقة الواقعية» وإنما قدمت الإيهام بتلك الحقيقة، وهو إيهام حدد شكله وتفاصيله المصور بآلة تصويره والهدف الذي وجه إليه هذه الآلة، والمخرج وأين وضع موضوعاته وشخصياته (وكانوا غالبا ممثلين لا أناسا عاديين) ثم محرر الفيلم(*2) وأين قطع تسلسل الصور الفيلمية، ثم العارض، وأين ومتى عرض الفيلم في صورته النهائية.

وقد عرفت وزارة الإعلام وأكدت أنه: «لكي يكون الفيلم دعاية جيدة فإنه ينبغي أن يكون ـ أيضا ـ ترفيها جيدا». وكان أكثر من يذهبون إلى دور السينما يتوقعون أن يشاهدوا جريدة سينمائية وفيلما رسميا قصيرا أو فيلمين. إضافة إلى فيلم مساعد أو ثانوي؛ غير أن هذه كلها لم تكن تمثل الأعمال الجذابة الرئيسية. فالناس تذهب إلى دار العرض السينمائية لكي تشاهد الفيلم الروائي الرئيسي. وهنا كانت الدعاية تستطيع ـ إذا كانت مصنوعة ومعروضة بمهارة ـ أن تدس بشكل مؤثر فعال، في اللحظات التي يسترخي فيها الجمهور فيتخلى عن حذره. وقد كانت الأفلام الروائية ذات الموضوعات الحربية قليلة العدد إذا ما قورنت بغيرها، وكان غالبية الناس يذهبون إلى قصور أحلامهم تلك هربا من حقائق الحرب، ثم تناقصت أعدادها أكثر مع استطالة أمد الحرب. وكانت الأفلام العاطفية ذات الانفعالات القوية، أو الرومانسية الميلودرامية، والأفلام التي من نوع «السيدة الشريرة» العام 1945 الذي جمع النجمين جيمس ماسون ومرجريت لوكوور، هي ما يريد الناس أن يشاهدوه وما ترى الاستوديوهات أن واجبها يلزمها بإنتاجها. ومع ذلك فإن عدد الاستوديوهات العاملة انخفض من رقم 22 قبل الحرب إلى 9 فقط مع استدعاء الفنيين للخدمة العسكرية، وزيادة الضرائب المؤثرة في الصناعة (وأسعار تذاكر الدخول نتيجة لذلك). وفي مثل هذه الظروف تعد منجزات صناعة الفيلم المحلية منجزات غير عادية، كما يعد إنتاج أعمال محترمة كبرى عالية القيمة الفنية، من قبيل المعجزات، لا أقل.

ولسنا نقدم هنا تاريخا للسينما في زمن الحرب، غير أنه لا يمكن

(*2) القائم بالمونتاج أو المونتير Montaire ـ المترجم.

مناقشة دعاية بريطانيا الحربية فيما بين 1939 و1945 دون ذكر العديد من أمثلة أفلام الدعاية الكبرى وذات القيمة الفنية الباقية. فمن الأفلام التي قدمت مساهمة ملحوظة، تلك التي قدمها بويل Powell وبريسبرجر Pressburger مثل: «كونترابانيد» العام 1940؛ «الشبيه رقم 49» العام 1941؛ «إحدى طائراتنا مفقودة» العام 1942؛ «حياة الكولونيل بليمب وموته» العام 1943؛ «حكاية من كانتربري» العام 1944؛ «مسألة حياة أو موت» العام 1946؛ تماما مثلما قدمت أفلام كارول ريد Carol Reed: «مستر بيت الصغير» العام 1942؛ «الطريق الممتد» العام 1944؛ «المجد الحقيقي» العام 1945؛ وأفلام تشارلس فريند Churles Frend: «الحصار الكبير» العام 1942؛ «رئيس الوردية ذهب إلى فرنسا» العام 1942؛ «من سان ديمتريو إلى لندن» العام 1943؛ وأفلام أنتوني أسكويث Anthony Asquith: «راديو الحرية» العام 1940؛ «نغطس عند الفجر»؛ «نصف الفردوس» العام 1943. ولا يظهر المضمون الدعائي لمثل هذه الأفلام بوضوح أبدا، ولكن معظمها عالج موضوعات كانت تمثل أهدافا لاهتمام وزارة الإعلام، مثل موضوع الطابور الخامس الألماني[3*]، ولذلك فإنها كانت تمثل موضوعات مألوفة بشكل كبير للجمهور المعاصر في حينها.

فقد كان من الضروري شرح وتفسير نجاحات ألمانيا العسكرية المثيرة في الغرب التي أدت إلى الجلاء عن دنكرك وسقوط فرنسا العام 1940، كان من الضروري شرحها وتفسيرها على أسس مختلفة عن العجز الفرنسي الإنجليزي، وهو ما أدى إلى الاعتقاد بوجود طابور ألماني خامس يعمل كطليعة متقدمة للجيش الألماني. وكانت فكرة وجود «العدو بالداخل» أو ما دعاه تشرشل «الورم الخبيث في وسطنا»، هي الفكرة الكامنة وراء حملة وزارة الإعلام بلافتات «الكلام بإهمال يكلف أرواحا»، فظهرت الفكرة ذاتها في أفلام عدة. ونرى في فيلم «رئيس الوردية ذهب إلى فرنسا» ـ وهو فيلم يدور حول استعادة آلة ما في أثناء سقوط فرنسا ـ نرى أعضاء الطابور الخامس في كل مكان يسببون الفوضى ويقومون بأعمال الخيانة اللئيمة. وبذلك قدمت فرنسا بوصفها مثالا حتى يحذر الجميع بعدها، ومع احتشاد القوات الألمانية على طول الساحل الفرنسي صعدت الحملة توقعا لغزو

(3*) أو عملاء وجواسيس الألمان والمتعاطفين معهم ـ المترجم.

وشيك. وحذرت أفلام رسمية مثل «السيدة جرانت تذهب إلى الباب» العام 1940 من أفراد الطابور الخامس وجنود المظلات الألمان، بينما عالجت الموضوعاتِ ذاتَها أفلام «روائية كبرى مثل «أقرب الأقرباء» الذي أخرجه ثورولد ديكنسون Thorold Dickinson العام 1941 و «هل أمضيت يوما طيبا؟» من إخراج كافالكانتي Cavalcanti العام 1942، وقد أنتج الفيلمان في استوديوهات إيلينيج. ودار الفيلم الأخير حول قرية خيالية إنجليزية يجتاحها جنود المظلات الألمان المتنكرون في أزياء جنود بريطانيين استعدادا لغزو شامل، وكيف اكتشف أمرهم ثم تحققت هزيمتهم على أيدي القرويين في النهاية. كان الفيلم صورة مصغرة للحرب، وكان الدرس الذي يتعين على كل شخص أن يلم أطرافه حتى يُهزم الأعداء وعملاؤهم الخونة واضحا يستطيع الجميع أن يبصره. وكانت أفلام الجاسوسية مثالية بالطبع بالنسبة لمثل هذه الأغراض؛ وقد استخدمت أيضا بهدف تصوير الأعداء من زاوية معينة، غير ودية في الغالب، فرسم الألمان في صورة القساة الوحشيين الكريهين، أي: «الهون القدامى أنفسهم». فكان من النادر أن تقدم الأفلام البريطانية المنتجة في زمن الحرب صورة «ألماني طيب»، فإذا فعلت ذلك، فإنها كانت «تخرج عن الصف» مع وجود رأي عام متأثر بقوة بالظاهرة التي عرفت باسم «النزعة الفانسيتية».

ففي سلسلة من الأحاديث الإذاعية من هيئة الإذاعة البريطانية في برنامجها الدولي «لما وراء البحار» العام 1940، قام اللورد فانسيتارت Lord Vansittart[11] الوكيل الدائم السابق للخارجية البريطانية، برسم الألمان في صورة شعب تميز طوال تاريخه بالعنف والعدوان؛ وما النازية سوى آخر مظاهر تلك الخصائص القومية. وحظيت هذه الأحاديث بإقبال جماهيري بالغ، تماما مثل الكتيب الذي تلاها بعنوان «السجل الأسود: الألمان في الماضي والحاضر». وقد واصل فانسيتارت فكرة «الشرور التي نواجهها» التي أثارها تشمبرلين[*4]. فقد أكد في أحاديثه، أن هتلر ليس مصادفة، وإنما هو الذروة المنطقية للتاريخ الألماني؛ كما أنه ليس وحيدا، فقد تلاءمت أفكاره تلاؤما كاملا مع أفكار وزارة الإعلام عن «حملة الغضب» التي قيل

(*4) في خطابه المذاع يوم 3 سبتمبر 1939 لإبلاغ الشعب البريطاني بإعلان الحرب على ألمانيا ـ المترجم.

فيها: «إن زعيم الهون يقف على الأبواب، وسوف ينشر الخراب والدمار، وسوف يذبح النساء والأطفال». وانهمر تيار مستمر من الكتيبات، كتب معظمها لاجئون سياسيون، تحت عناوين من نوع: «الرجال الذئاب» بقلم سيجيرت كاهن العام 1945 ، أو «300 مليون من الأقنان والعبيد» العام 1943 بقلم يورجين كوزينسكي التي طرحت ما يفترض أنه تفسير عقلاني للبربرية الألمانية. وعلى مستوى أكثر قاعدية وقربا من الجماهير، أكدت أغاني صالات الموسيقى واللهو وجود التصور ذاته، وفي العادة بالاستعانة بسلاح بريطانيا السري، أي حسها الفكاهي، وذلك بعناوين مثل «الياباني والطلياني والهون» التي كتبها رونالد فرانكاو ومونتى كريك، التي تبدأ بالسطور التالية:

«أعمال من القذرين وسلوكهم القاسي نحو التشيك والبولنديين ويوغسلافيا وفي أثينا وفي هونغ كونغ والشرق.

قد أرغمتنا على أن نصمم على أن وصفهم بأنهم وحوش وحشرات سامة... هو

إهانة للحشرات السامة وللوحوش؟

وقد اعتنق أشخاص مثل أنتوني إيدن، وزير الخارجية، آراء لا تبعد كثيرا عن اتجاه من هذا النوع، وقد كتب يقول: «لا أثق في مقدرتنا على أن نجعل من الألمان أوروبيين مهذبين، وإنني لا أعتقد بأن النظام النازي يمثل عقلية الغالبية العظمى من الشعب الألماني». ومع ذلك فقد اهتم أعضاء كثيرون آخرون في الحكومة بالطابع الانتقامي الحقود لهذه الدعاية، لأسباب عدة ليس أهونها أنها ستزيد كثيرا من صعوبة إقرار تسوية مع ألمانيا بعد الحرب. وقد سخر نويل كوارد[12] من هؤلاء النقاد في أغنية له عنوانها «لا يصح أن نكون وحشيين تجاه الألمان» وانتهت الأغنية بالسطور التالية:

دعونا نتركهم يشعرون بأنهم سيتضخمون ثانية

وسوف يقصفوننا بالقنابل ويرسلوننا إلى الجحيم ثانية،

ولكن لا يصح أن نكون وحشيين تجاه الهون».

ولكن بعد إعلان سياسة «الاستسلام غير المشروط» في مؤتمر الدار البيضاء في يناير العام 1943، لم يعد سهلا التمييز بين الألمان والنازيين. ولم تكن الدعاية التي تكشف الأعمال الوحشية قد استخدمت أبدا بالمدى ولا على النطاق الذي استخدمت به في الحرب العالمية الأولى: فهذا النوع

من الدعاية كان قد فقد مصداقيته منذ وقت طويل. غير أن الرسالة الضمنية التي حملتها كل هذه المادة كانت تشير إلى أن النازية نفسها عمل وحشي وأن الألمان جميعا يحملون وزره. فإذا تطلب الأمر المزيد من البراهين فإن التصوير الإخباري السينمائي لبيلسين Belsen[13] ومعسكرات الاعتقال والتجميع الأخرى كانت تستهدف تقديم هذه البراهين عند نهاية الحرب.

ولقد كنا ـ حتى الآن ـ نتعامل مع دعاية «بيضاء» أي الدعاية التي تصدر عن مصدر معروف بوضوح أو يمكن معرفته دون لبس. وكان أكثر المصادر للدعاية البيضاء مقدرة وقوة في بريطانيا في أثناء الحرب بأسرها، هو هيئة الإذاعة البريطانية. ولم تعتمد أهمية الراديو على شموليته، ووصوله للكافة، وقدرته على الوصول الفوري فقط؛ وإنما اعتمدت قوته ـ على قدرته على نقل وتوصيل الأخبار والدعاية - مثل غيره من وسائل الإعلام والاتصال الجماهيرية على السياق الترفيهي الذي تقدم تلك المادة في إطاره، بل إن دور الإذاعة البريطانية (الـ : بي. بي. سي) في أثناء الحرب قد امتد إلى ما هو أبعد من ذلك، من رصد الإذاعات العلنية أو السرية، إلى خدمة الدفاع الجوي عن بريطانيا . غير أن الجهد الأساسي للحرب الإذاعية وجه إلى الألمان. ويرجع ذلك جزئيا إلى نقص استعداد الـ «بي. بي. سي» للحرب ولكنه يرجع أيضا ـ بالطبع ـ إلى حقائق الموقف العسكري. ولم يكن هناك من عنصر فعال جاهز قائم سوى الفلسفة التي تقول: «لا يمكن أن نقدم سياسة دعائية في العالم الحديث على دعائم من الكذب أو تزييف الحقيقة».

لقد قوبل انفجار الحرب بتعتيم إعلامي فعلي أنتج نوعا من الكآبة الصماء والخواء الأجرد في الإذاعة، الأمر الذي أثبت ـ قبل مضي وقت طويل ـ أنه مدمر فيما يتعلق بالمعنويات. ولم يكن هذا راجعا، في حالة الـ «بي. بي. سي»، إلى إحجام الرقباء عن الإفراج عن الأخبار، فقد التزمت وزارة الطيران الحذر الشديد، حيث شعرت بالانزعاج من احتمال أن تستخدم قاذفات الأعداء إشعاعات الراديو للتوجيه الملاحي في الجو. وفي حالة الإنذار بغارة جوية وشيكة كانت قيادة المقاتلات تأمر الـ «بي. بي. سي» بواسطة هاتف مباشر بإغلاق أي جهاز إرسال قد يقوم بوظيفة الدليل الجوي، فتقوم الـ «بي. بي. سي» في هذه الحالة بترميز

تقديم جهاز مرسل آخر يعمل خارج المنطقة المستهدفة مع تخفيض طفيف في قوة الصوت وكفاءته، وكانت النتيجة هي السماح للـ «بي. بي. سي» ببث برنامج واحد على موجتين (برنامج الإذاعة المحلية) تقدم من خلاله الكمية المخفضة المقررة من الأخبار، وسط طوفان لا يتوقف من الأحاديث والثرثرة والموسيقى المسجلة الجاهزة. ومع ذلك فلم يمض وقت طويل قبل أن تتضح ميزات السماح للـ «بي.بي. سي» بأن تعمل مستقلة بقدر الإمكان. وسرعان ما تعلمت وزارة الإعلام أنه من الأفضل أن تترك عملية توصيل الأخبار للمحترفين المتمرسين من أصحاب المهنة، وأن مصداقيتهم وأمانتهم في تغطيتهم للأخبار سوف تتسع وتتحسن بفضل مظهر الاستقلالية الخارجي. وفي العام 1940، زودت الـ «بي. بي. سي» بموجتين إضافيتين خصصتا لبرنامجها الموجه إلى القوات المسلحة؛ ومن باب الاحتياط، جلس في ستوديو الإرسال، رقيب يضع إصبعه على زر التشغيل.

ومع انهيارات الحكومات الغربية أمام الهجمات النازية الخاطفة، زادت الـ «بي. بي. سي» من إرسالها الخارجي، وزودت المنفيين بحقوق الحصول على «ميكروفوناتها» مجانا. وكان «راديو هولندا البرتقالية» هو أول ما أصبح مصدرا أسطوريا للخدمات الإخبارية رافعة المعنويات، وداعمة أجهزة المخابرات بين بلدان وأمم أوروبا المحتلة. وحينما بدأت معركة بريطانيا وغاراتها الصاعقة، أخضعت الـ «بي. بي. سي» لسلاح الدفاع الجوي عن بريطانيا العظمى. وفي خلال هذه الفترة أيضا قدمت الـ «بي. بي. سي» خدماتها وتسهيلاتها للمذيعين الأمريكيين، مثل ريدماك الذي بذل الكثير لكي يأتي بالحرب إلى منازل وبيوت الأمريكيين المحايدين والبعيدة عن القصف الجوي، ومعها استثار تعاطفا مع البريطانيين لا يستهان به في خلال أكثر ساعاتهم دقة وخطورة. واستخدمت الأفلام أيضا للوصول إلى الغرض ذاته. وقد أنتجت وزارة الإعلام فيلمي «لندن تستطيع التحمل» و«عيد الميلاد تحت النار» في العام 1940، وفي حسبانها التوجه بهما إلى الجمهور الأمريكي، بينما ذهب أشخاص من مثل ألفريد هيتشكوك إلى هوليوود لكي يصنع أفلاما مؤيدة لبريطانيا ولمحاربة نزعة العزلة الأمريكية بمساعدة الجالية البريطانية التي كانت موجودة بالفعل في هوليوود، (وكانت النتيجة هي فيلم: «المراسل الخارجي»، العام 1940). ورسم فيلم «الشبيه

رقم تسعة وأربعين»، العام 1941، التهديد النازي للأمريكيين من خلال مؤامرة يحوكها طاقم غواصة ألمانية جنحت تجاه الساحل الكندي. وفي الداخل أصبحت البرامج الإذاعية التي كان يقدمها «ج. ب. بريستلي» وخاصة برنامجه المشهور «ما بعد الطبع»، أصبحت لا تقل جماهيرية عن الخطب التي كان يلقيها ذلك المتحدث الإذاعي اللامع، وينستون تشرشل. وبينما كانت الـ «بي. بي. سي» قد بدأت تحظى باستقلالها في أثناء «معركة بريطانيا» أخذت جماهيرية برنامج «لورد هاو هاو»، ويليام جويس، تتضاءل. وبرهنت الـ «بي. بي. سي» حتى ذلك الحين على أنها عنصر أساسي في مجال الحفاظ على المعنويات، بل ربما أصبحت أكثر عنصر وحيد أهمية في هذا المجال. فإلى جانب نشراتها الإخبارية المفاجئة السريعة، أصبحت برامجها الترفيهية الخفيفة، مثل «إيتما» أو «الموسيقى وأنت تعمل» أو «مجمع العقول» أصبحت هذه البرامج جزءا أساسيا من حملة الدعاية الداخلية. وقد بلغ من أهمية دور الـ «بي. بي. سي» في «حرب الكلمات» أن الأفلام كثيرا ما استعارت عناوينها من نشرات الأخبار السريعة، ومن أمثلة ذلك فيلمي «إحدى طائراتنا مفقودة» و«الحرائق اشتعلت».

وقد حظيت الإذاعات البيضاء، الصريحة والمباشرة، الموجهة إلى أوروبا بشعبية مماثلة، وهو ما أثبتته حملة حرف «ن» تعبيرا عن «النصر[*5]». وكانت هذه الحملة قد شنت دون تدبير ذكي في يناير العام 1941 إثر إشارة عفوية وردت في برنامج من الـ «بي. بي. سي» موجه إلى بلجيكا. وقبل أن يمضي وقت طويل كان المقاتلون المنتمون إلى المقاومة يرسمون علامة الحرف ذاته على الجدران في بلجيكا بأسرها وهولندا وفرنسا. وحاول الألمان أن يدعوا الحرف لأنفسهم، بدأوا يذيعون الألحان الأولى من سيمفونية بيتهوفن الخامسة ـ كعلامة مميزة لإذاعتهم ـ وعلى أساس أن هذا اللحن يساوي، في شفرة مورس اللاسلكية، الحرف نفسه. غير أن الحكومة البريطانية شعرت بالقلق، إذ إن الحملة كانت تغذي الأمل في تحقيق النصر بسرعة سابقة على الأوان المناسب لتحقيقه، فأمرت الحكومة بإيقاف الحملة في مايو العام 1942. ومع ذلك فقد أثبتت الحملة مدى تأثير المذياع والدور الذي يمكن أن يلعبه في نشر وتدعيم المقاومة بين شعوب القارة التي تسيطر

(*5) في الأصل ـ بالطبع الحرف هو: «V» تعبيرا عن كلمة Victory أي: النصر ـ المترجم.

عليها نشرات أخبار النازي الإذاعية.

وفي هذا السياق تتجلى أهمية اللجنة التنفيذية للحرب السياسية التي عرفت بالحروف الثلاثة الأولى لاسمها «Political Worfare Executive» أي: P.W.E پي. دبليو. إي. وقد أنشئت هذه اللجنة في سبتمبر العام 1941 لكي تتولى مسؤولية الدعاية الموجهة إلى بلاد الأعداء والبلاد التي يحتلونها؛ وقد تطورت الإدارة التي كانت موجودة في بداية الحرب، باسم: إدارة دعاية العدو التي عرفت بالحرفين: إي. إتش ـ E.H والتي كانت قد ذابت في كيان لجنة العمليات الخاصة (S.O.E) إس. أو. إي، في صيف العام 1940. وكانت مهمة هذه اللجنة في عبارة تشرشل المشهورة، هي «إشعال الحريق في أوروبا كلها»، وكانت مقسمة إلى قسمين: العمليات الخاصة رقم واحد التي عالجت موضوع الدعاية؛ والعمليات الخاصة رقم اثنين التي تولت مسؤولية أعمال التخريب والتدمير. أما اللجنة التنفيذية للحرب السياسية فقد أنشئت عقب سلسلة من الخلافات الحادة نشبت بين العمليات الخاصة رقم واحد ووزارة الإعلام حول السيطرة على الدعاية الموجهة لما وراء البحار، تم بسببها إدماج العمليات الخاصة رقم واحد بالإدارات المتخصصة في الدعاية وسط الأعداء من وزارة الإعلام لكي يظهر التكوين الجديد، أي اللجنة التنفيذية للحرب السياسية. وكان أمر التكليف الصادر إليها بسيطا، وهو أن: «تسدد ضربة حاسمة إلى قلب معنويات العدو» بأي وسائل ممكنة؛ وكان معنى هذا في التطبيق العملي هو إصدار وتوزيع المنشورات وبث الإذاعات، وكانت اللجنة مستعدة تماما لاستخدام أساليب كل من الدعاية السوداء والدعاية البيضاء على السواء. وفي البداية تعثر عمل اللجنة التنفيذية للحرب السياسية بسبب الموقف الحربي الذي ولدت اللجنة في ظله. غير أنها قدر لها أن تحصل على ميزتين كبيرتين: السمعة المحمودة التي كانت الـ «بي. بي. سي» تكتسبها وتزداد منها في أوروبا؛ ثم ما حدث فيما بعد من دخول الولايات المتحدة بما تملكه من ترسانة ضخمة متمثلة في أنظمة إسقاط وتوزيع المنشورات والتي عرفت باسمها الأشهر، وهو قاذفات القنابل.

وفي البداية، وزعت اللجنة التنفيذية للحرب السياسية دعاياتها البيضاء، إما بواسطة الغارات التي قامت بها قاذفات سلاح الجو الملكي لإلقاء

المنشورات فوق ألمانيا، وإما بواسطة إذاعات الـ «بي. بي. سي» الموجهة إلى أوروبا. وكان على إذاعات الـ «بي. بي. سي» أن تعتمد على الأخبار وحدها حتى تكون مقبولة وقابلة لأن يصدقها المستمعون، فأصبحت كل من الموضوعية وقول الحقيقة (ولكن ليس كل الحقيقة أبدا) هي القاعدة البديهية السائدة. وفي بعض الأحيان، كانت تمنع حتى الأخبار الطيبة خوفا من إثارة الشك لدى جمهور من المستمعين ميال إلى التكذيب وعدم التصديق، وهو الجمهور الذي وقع تماما تحت ثقل تأثير، ونفوذ النظام النازي، والذي كان من الممكن أن تكون سيطرته على الأخبار مطلقة لولا وجود الـ «بي. بي. سي». أما فيما يتعلق بالمنشورات فقد تمكنت اللجنة التنفيذية للحرب السياسية من استحداث نوعين جديدين، النوع الأول، غير مرتبط بلحظة زمنية بعينها بغرض توزيعه على مدى فترة طويلة من الزمن؛ والثاني هو النوع الفوري الذي عالج القضايا المثارة في اللحظة القائمة المباشرة (فتم التمييز هنا مرة أخرى، بين الأخبار الساخنة والباردة). غير أن العمل - في التطبيق - لم يكن مرضيا على الدوام. فقد اتخذت اللجنة التنفيذية للحرب السياسية مقرها في بلدة «ووبورن آبي Woburn Abbey» على بعد ثلاثين ميلا من لندن؛ فأدى هذا الانفصال المادي عن «بوش هاوس» ـ وهو مقر رئاسة الـ «بي. بي. سي» ـ إلى إثارة بعض المشاكل. وفضلا عن ذلك، فإن رئيس اللجنة، هاف دالتون، لم يستطع أن يتماشى في العمل مع داف كوبر ولا مع خليفته كوزير الإعلام بريتوان براكين، وكثيرا ما أوحى التوتر بين اللجنة التنفيذية للحرب السياسية الـ «بي. بي. سي»، أو بين اللجنة ووزارة الإعلام، أن الحرب السياسية كانت أشد اشتعالا في الجبهة الداخلية منها في الجبهة ضد الأعداء. وفي مشكلة مشابهة، فإن «هاريس قاذفة القنابل» قائد سلاح قاذفات القنابل لم يكن حريصا على أن يخاطر برجاله ـ وهم من أثمن الرجال وأغلاهم ـ وطائراته في إسقاط «قطع من ورق التنظيف» على حد وصفه للمنشورات. ومع ذلك فقد تمكنت اللجنة التنفيذية للحرب السياسية من الوقوف على قدميها والاستقلال بالتدريج، وانتقلت رئاستها إلى لندن، وصفيت الخلافات الشخصية إثر رحيل دالتون. وعندما جاءت سنة 1942 كانت الـ «بي. بي. سي» تبث ارسالها باثنتين وثلاثين لغة.

ولكن الدعاية السوداء التي نشرتها اللجنة التنفيذية للحرب السياسية

كانت لعبة أكثر خطورة بكثير إذا كان من المتعين الحفاظ على مصداقية الـ «بي. بي. سي». إن عبارة: «الدعاية السوداء» تستخدم لوصف مادة تأتي من مصدر غير معلن، حتى أن المتلقي إما أنه لا تتوافر لديه أي فكرة عن مصدر ما يتلقاه، وإما أنه يتوهم مصدرا مخالفا للمصدر الفعلي. وقد عملت الدعاية البريطانية السوداء على أن تبدو وكأنها صادرة من أوروبا، بينما كانت تصدر في الحقيقة من إنجلترا؛ وبسبب من سرية مصدرها، فقد كان من الممكن التصرف في «الحقيقة» بأكثر من طريقة وبدرجات مختلفة. غير أن الـ «بي. بي. سي» ما كانت لتفعل ذلك، ولهذا السبب أقامت اللجنة التنفيذية للحرب السياسية محطات بثها الخاصة التي عرفت باسم «وحدات البحث» وكانت أسوأها سمعة الوحدة التي عرفت باسم «وحدة جوستاف سيجفريد الأولى» أو «جي. إس رقم١». وكان العبقري الذي أقام تلك المحطات السوداء هو ستيفون ديلمر، المراسل الخارجي السابق لجريدة الديلي إكسبريس والخبير في «العقلية الألمانية». وقد وجهت «وحدات البحث» اهتمامها في البداية إلى القوات الألمانية المسلحة، أو إلى أطقم الغواصات الألمانية الذين يستخدمون الموجة القصيرة للإرسال والاستقبال. وبهذا الطريق أصبح بوسع اللجنة التنفيذية للحرب السياسية أن تنشر الشائعات (ما عرف بالكلمة الدارجة: Sibs ـ أي: النمائم) وأن تثير السخط، ولقيت مساعدة عظيمة القيمة بحصولها على آلات الهلشرايبر Hellechreiber، وهي آلة اخترعها الألمان لبث الأخبار والمواد الأخرى باللاسلكي، ولكن إرسالها يمكن التقاطه وطباعته بشكل فوري في أوروبا بأسرها [(*6)]. وكان معنى ذلك أن اللجنة التنفيذية للحرب السياسية أصبحت قادرة على رصد الأخبار النازية في اللحظة ذاتها التي تتلقاها فيها الصحف ومحطات البث الإذاعي النازية. وكان حصول اللجنة على «الهلشرايبر» بالنسبة لرجال الدعاية في مثل أهمية الحصول على جهاز الإنيجما Enigma[(*7)] لحرب المخابرات.

(*6) عرفت فيما بعد باسم: تيلي برينتر Teleprinter أي: الطابعة عن بعد، التي تطورت إلى التيكر Ticker وأصبحت أهم وسائل تلقي الأخبار والمواد الصحافية الأخرى ـ المكتوبة عن طريق وكالات الأنباء في دور الصحف ومحطات الإذاعة وكل المشتركين الآخرين، في الفنادق أو الهيئات الحكومية والمصارف وغيرها ـ المترجم.

(*7) جهاز فك الشفرات السرية الألمانية ـ المترجم.

لقد كانت تلك هي الحرب النفسية في أكثر حالاتها ومستوياتها تطورا، إذ كانت تعمل ـ يدا بيد ـ مع العمليات العسكرية. فعلى سبيل المثال كان أطقم الغواصات الأسرى يستخدمون للحصول منهم على معلومات تفصيلية عن بيوت الدعارة في موانئ بريست وكييل، ثم تذاع أي معلومات مثيرة للخواطر أو تؤدي إلى إدانة أحدهم وتلويث سمعته عن طريق وحدات البحث حتى تلوث سمعة الأشخاص العسكريين أو يضعف نفوذهم ومكانتهم. وقد عرف أن البعض قد انتحروا عقب ما أذاعه ديلمر من معلومات من هذا النوع، وبذلك نقص عدد الهون واحدا في حرب يدور القتال فيها والأيدي داخل قفازاتها. وحينما دخل الأمريكيون الحرب أمكن للجنة أن تحصل على جهاز قوي للبث الإذاعي على الموجة المتوسطة أطلق عليه الاسم الرمزي: آسبيدسترا Aspidistra، وقد أعان هذا الجهاز اللجنة على الوصول إلى أجهزة الموجة المتوسطة الأكثر شيوعيا بكثير، بينما غالبية السكان المدنيين الألمان ـ على الرغم من العقوبات القاسية التي كانت توقع على من يلقى القبض عليهم لسماعهم للدعاية الأجنبية. وقد حاولت الإذاعات التي بثت عن طريق جهاز الآسبيدسترا أن تنسف الولاء للنظام النازي عن طريق خفض ما يقدمه المدنيون للمجهود الحربي. وعلى العكس من الدعاية البيضاء، فقد اعتمدت نظيرتها السوداء على محاولة الفصل بين الشعب الألماني وقيادته النازية، غير أنه بسبب استحالة تحديد مصدر هذه الدعاية فقد كان بوسع اللجنة التنفيذية للحرب السياسية أن تنفذ أعمالها منحرفة بذلك عن سياسة الحكومة. ولكن هذا الوضع ازداد صعوبة عقب توجيه دعوة الدار البيضاء إلى الاستسلام غير المشروط. ولكن العمل الأساسي للجنة كان موجها إلى قوات العدو المسلحة. وعلى ذلك، ووفقا لكلمات أحد المسؤولين في هذه اللجنة فإن: «الأسلحة المقاتلة تهاجم الجسد، أما نحن فنهاجم العقل».

وبدخول الأمريكيين الحرب، أتيحت الألوف من قاذفات القنابل للقيام بكل من تسديد ضربات مادية لقلب ألمانيا الصناعي ولمهاجمة عقول المدنيين الألمان. ولكن لم تمض العلاقات الأنجلو - أمريكية في مجال الدعاية دون توترات؛ ولكنها أيضا لم تمض دون إحراز النجاحات. ولقد ميز الأمريكيون أيضا بين الدعايتين البيضاء والسوداء؛ ولهذا السبب فقد أقاموا منظمتين

منفصلتين؛ فالمادة السوداء يعالجها ويتعامل فيها مكتب الخدمات الاستراتيجية، أما البيضاء فهي من اختصاص مكتب الاستعلامات الحربي (ومن الواضح أن الأمريكيين كرهوا كلمة «دعاية» بقدر ما كان يحترمها البريطانيون). وقد أفرد الأمريكيون سربا خاصا من القلاع الطائرة للقيام فقط بمهمة شن غارات إسقاط المنشورات؛ وفي نهاية الحرب كان الأمريكيون يسقطون أكثر من سبعة ملايين نسخة من المنشورات كل أسبوع فوق أوروبا المحتلة. وقد مهدت المنشورات طرق غزو كل من صقلية وإيطاليا، وقد استخدمت استخداما واسعا في فرنسا، إضافة إلى «جريدة هوائية» أصدرها مكتب الاستعلامات الحربي بعنوان: «أمريكا في الحرب: L'Amerique en Guerre. وقد تلقت المدن الألمانية جريدة: «العلم المزين بالنجوم: Sterner. وحظي التوزيع بدعم قوي باختراع قنبلة مونرو، وهي جهاز يحمل أكثر من 80 ألف منشور تنطلق في الهواء عندما تهبط القنبلة إلى ارتفاع ألف قدم. وكانت المنشورات والجرائد محملة بالحقائق إلى حد كبير، على رغم أن البعض منها كان يحمل خرائط وأدلة إلى الممرات والطرق الآمنة لتشجيع الجنود على الاستسلام أو الهرب من الخدمة العسكرية.

أما الإنجاز العظيم الآخر للمجهود الدعائي الأمريكي في زمن الحرب فيكمن في المساهمة التي حظيت بها المعنويات الأمريكية ومعنويات الحلفاء ـ على السواء ـ من جانب هوليوود، أو بالأحرى، من جانب صناعة الصور المتحركة الأمريكية، وهو الوصف الأكثر دقة الذي ينبغي أن توصف به. فمن الممكن ـ ببساطة ـ تصوير التأثير العالمي المدى، والإمكانات الدعائية الخاصة لهوليوود في الحرب عن طريق الإحصاءات التالية: فعند نهاية الحرب العالمية الثانية كانت الولايات المتحدة تملك نصف دور السينما في العالم. وفي العام 1923، كانت 85٪ من الأفلام التي تعرض في فرنسا - مثلا - أفلاما أمريكية؛ وفي العام 1914 بينما كان 25٪ من الأفلام المعروضة في بريطانيا أفلاما بريطانية فعلا، فإنه في العام 1925 لم تتجاوز هذه النسبة 2٪. وحتى في العام 1939، بعد مرور سنوات من محاولات الحكومات الأجنبية لمكافحة عملية «أمركة» صناعات السينما الوطنية، كانت الولايات المتحدة تملك نحو 40٪ من دور السينما على نطاق العالم كله. وفي أثناء الحرب نفسها تردد على دور السينما أكثر من 80 مليون أمريكي سنويا،

بينما كان تعداد رواد الأفلام الأمريكية على نطاق العالم يُحصى بمئات الملايين؛ وما كان يوصف بأنه أسلوب هوليوود التقليدي أثبت أنه صيغة عالمية ذات قبول وجاذبية عالميين.

ولا يمكن مقارنة الدور الذي قامت به الأفلام البريطانية لمكافحة نزعة العزلة الأمريكية فيما بين 1939 و1941، بعدد من الأفلام الأمريكية التي صنعت في فترة الحياد، والتي كانت مؤيدة للحلفاء ومعادية للنازيين. وأشهر الأمثلة - من تلك الأفلام - فيلم «اعترافات جاسوس نازي» العام 1939، الذي يدور حول شبكة تجسس ألمانية تعمل في أمريكا وقام ببطولته إدوارد ج. روبنسون. وأنتجت الفيلم شركة إخوان وارنر التي لا يقارن سجلها في معالجة موضوعات السياسة الخارجية بسجل أي شركة أخرى، وهو السجل الذي تجلى في عشقها غير العادي للإمبراطورية البريطانية الذي انعكس في سلسلة من الأفلام: «كابتن بلود» العام 1935 و «هجوم الكتيبة الخفيفة» العام 1936 و «مغامرات روبن هود» العام 1938 و «اليزابيث واسكس» العام 1939 و «صقر البحار» العام 1940. وقد أخرج جميع هذه الأفلام المخرج ميشيل كورتيز، وهو مهاجر مجري، أخرج فيما بعد فيلم: «كازابلانكا» العام 1942. ومع ذلك فقد كان فيلم: «اعترافات جاسوس نازي» معاديا للنازية بوضوح بكشفه لأنشطة الطابور الخامس، وأسلوبه الشبيه بالأسلوب التسجيلي، واستخدامه المتميز للمونتاج «القص واللصق الفيلميين». وكان هذا الفيلم أيضا هو أول فيلم روائي أمريكي يشير إلى هتلر بالاسم؛ ولكن الأفلام الإخبارية كانت تقدم موضوعات عن ألمانيا النازية منذ سنوات عدة، ولكن أوضح سلسلة من الأفلام عداء للنازية كانت السلسلة التي عرفت باسم «مسيرة الزمن» التي أدى كشفها لوحشية النازية في فيلم «داخل ألمانيا النازية» إلى منعه في بريطانيا وحظر عرضه قبل الحرب، وهي السلسلة التي استخدمت مزيجا من تصوير أحداث فعلية ومواد تمثيلية أخرى، وبتعبير آخر، كانت صناعة السينما الأمريكية أكثر استعدادا لنقد النازيين مما كان البريطانيون مستعدين لذلك قبل العام 1939، على الرغم من أن الأفلام الأمريكية المعادية للنازية قد دعمت الجهد الدعائي البريطاني عقب غزو «ألمانيا» لبولندا.

ولقد بلغ من وضوح اتجاه بعض منتجات هوليوود في توجهها الدعائي

ـ في وقت كانت الولايات المتحدة تفترض فيه من الناحية النظرية على الأقل أنها دولة محايدة ـ بلغ من ذلك أن بعض دور السينما الأمريكية امتنعت عن عرضها، وخاصة في المدن والضواحي التي توجد فيها جماعات الأمريكيين الألمان. ومن الأمثلة على ذلك. فيلم «وحوش برلين» العام 1939 (الذي كان عنوانه الأصلي هو: «هتلر: وحش برلين» ثم عرض فيما بعد باسم «خطوة الإوزة وشياطين الجحيم»)، وهو الفيلم الذي امتنع اتحاد منتجي وموزعي الصور المتحركة الأمريكية عن منحه شهادة التصريح بالعرض، وهذا الاتحاد هو النظير الأمريكي لهيئة رقباء السينما البريطانية. وقد اعتمد فيلم «وحوش برلين» على نجاح «اعترافات» فتم تصويره في أقل من أسبوع وأنتجته شركة إنتاج صغيرة «ب. ر. سي P.R.C»، غير أنه أصبح في الحقيقة مقدمة لعدد كبير من أفلام الدعاية التقليدية في سنوات الحرب. وفي صيف العام 1941 عرض «إخوان وارنر» فيلمين آخرين مواليين للحلفاء هما «السرب الدولي» وهو إشادة بسلاح الجو الملكي و «السرجنت يورك». وعلى رغم أن أحداث هذا الفيلم الأخير تدور إبان الحرب العالمية الأولى، فإن الآلام الدينية والأخلاقية التي يعانيها بطله، وقام بدوره جاري كوبر ـ حول ما إذا كان يقبل أو يرفض حمل السلاح ـ كانت «مجازا» يشير إلى الجدل الدائر بين أصحاب نزعة العزلة «الأمريكية» وأولئك الداعين إلى التدخل؛ وهو الجدل الذي كان يدور ـ صاخبا ـ في أمريكا في تلك الفترة. ومن المؤكد أن هذا الفيلم،وأفلاما عدة أخرى، مثل فضح شركة متروجولدوين ماير لنزعة العداء للسامية في «العاصفة المهلكة» العام 1940، وفيلم شركة فوكس للقرن العشرين «الرجل الذي تزوجته» العام 1940 (وكان قد سمي في الأصل: «تزوجت نازيا»)، وفيلم شارلي شابلن التهكمي الرائع العام 1940 «الديكتاتور العظيم» وغيرها الكثير، من المؤكد أنها هي التي دفعت اثنين من أعضاء مجلس الشيوخ من دعاة العزلة، وهما نان وكلارك، إلى التحول إلى العمل. ففي الأول من أغسطس العام 1941 طالبا بـ «إجراء تحقيق كامل شامل عن أي انتشار للدعاية، بواسطة الأفلام والصور المتحركة والإذاعة وأي نشاط آخر تقوم به صناعة الصور المتحركة للتأثير في المشاعر العامة في اتجاه تشجيع مشاركة الولايات المتحدة في الحرب الأوروبية الحالية». ولم يكن هذا القرار ـ الرقم 152 ـ الذي أصدره مجلس الشيوخ

مجرد محاولة لكسر احتكار صناعة الأفلام الأمريكية من جانب الاستوديوهات الكبرى الثمانية (باراماونت ومتروجولدوين ماير» و«ر.ك.و» والاخوان وارنر، وفوكس للقرن العشرين وكولومبيا ويونيفرسال واليونايتد آرتست ـ الفنانين المتحدين)، التي شعر ناي بأنها مثقلة برجال الدعاية الأجانب الموالين للحلفاء؛ وإنما عكس هذا القرار أيضا حساسية الكثيرين من الأمريكيين إزاء نوع الحملة الدعائية التي قيل إنها غررت بأمريكا حتى دخلت الحرب العام 1917. ولم يكن ناي وكلارك قد شاهدا أيا من الأفلام التي كانا يوجهان إليها الاتهام، وكانت جلسات الاستماع (التحقيق) التي عقدت في سبتمبر العام 1941 مهزلة إلى حد كبير. وعلى رغم أن الهجوم الياباني على بيرل هاربر بعد ثلاثة أشهر جعل التحقيق عملا لا معنى ولا هدف له، فمن الصعب أن نتجنب استنتاج أن القرار رقم 152 لم يكن قائما على أساس صحيح على رغم أن المطالبين به افتقدوا المعرفة اللازمة لتمريره.

ولقد دفعت ألمانيا واليابان بالولايات المتحدة لكي تقف بثبات وقوة إلى جانب الحلفاء بفضل أعمالهما في ديسمبر العام 1941. وأسرعت هوليوود إلى تعبئة قواها وحشدها. وفي خلال السنوات الأربع التالية احتفظت بإيقاع إنتاجها السينمائي دون كلل وهو ما قدم خامات جيدة للمجهود الدعائي القومي، وذلك حسبما جاء في قول روزفلت: «إن صناعة الصور المتحركة يمكن أن تكون أقوى أداة للدعاية في العالم سواء حاولت ذلك أم لا».

ولقد كان مكتب الصور المتحركة محقا حينما اعتبر أن كل فيلم يمكن أن يزيد في شهرة البلاد أو أن ينقص منها في الخارج. وكان بوسع الفيلم السينمائي أن يتغلب على عقبة البعد المكاني للحرب المشتعلة على الجانب الآخر لكل من المحيطين الهادي والأطلنطي. ولقد تم تجنيد شخصيات فيلمية مثل طرزان (طرزان ينتصر ـ العام 1943 و لغز صحراء طرزان ـ 1943) وشرلوك هولمز: (شرلوك هولمز وصوت الرعب ـ 1942) وشخصيات المسلسلات المصورة (مثل الرجل الوطواط «الباتمان» والمعجزة ذو القناع، والعميل السري رقم X ـ 9). جندت هذه الشخصيات كلها لخدمة الدعاية الحربية لمحاربة عملاء النازي حول العالم بأسره. وكانت أفريقيا هي الموقع

المفضل لتدبير مثل تلك المؤامرات فاستخدمت لتدعيم سياسة «أوروبا أولا» التي اتبعتها الولايات المتحدة التي قررت أن تطرح ألمانيا أرضا قبل أن تسعى للثأر لبيرل هاربور. ولقد غطت هوليوود الحرب في المحيط الهادي - بالطبع - بأفلام من نوع «جزيرة اليقظة» العام 1942 و «يوميات جوردلكنال» العام 1943 و «باتان» العام 1943 و «كوريجدور» العام 1943 و«الهدف طوكيو» العام 1943 و «بورما الموضوعية» العام 1945. وقد أثار هذا الفيلم الأخير عاصفة من الاحتجاجات في بريطانيا بسبب ما أوحى به من أن الأمريكيين هم من يحملون عبء الحرب ويرزحون تحت وطأتها في بورما، حتى اضطر الاستديو إلى سحب الفيلم من العرض في المملكة المتحدة، وقد حملت معظم هذه الأفلام شيئا من الدعاية عن «الرعب الأصفر» على الرغم من أنه قد يكون مثيرا للاهتمام أن نلاحظ - على سبيل التعارض - ندرة الأنماط المعادية للإيطاليين في الأفلام التي تناولت الحرب في أوروبا. أما الألمان فقد رسموا في صورة رجال العصابات والبلطجية، منتهكي حرمات النساء والأبرياء (أبناء هتلر العام 1943 نساء في الأسر العام 1943 وعدو النساء العام 1944)، وكان هذا هو الشكل الجديد من أشكال الدعاية عن الأعمال الوحشية التي ربما كانت أكثر توازنا وذكاء، ولكنها حملت الرسالة ذاتها؛ إن الألمان هم أعداء الحضارة والديموقراطية. ولقد كانت هناك محاولات لهجاء النازيين وذمهم، في «نكون أو لا نكون» و «ذات مرة في شهر للعسل»، وكلاهما ظهرا العام 1942) غير أن النازيين كانوا عدوا من القوة والبطش بحيث لم يكن من الممكن أن يعالج بخفة؛ ولقد بين شابلن كيف يمكن معالجته في فيلم «الديكتاتور العظيم»، ومع ذلك فقد قال بنفسه فيما بعد إنه لو كان يعرف ما يقوم به النازيون بالفعل لما حاول معالجته التي طرحها الفيلم. وحتى أفلام الكارتون الدعائية التي أظهرت باجز باني BUGS BUNNY والبطة دونالد Donald Duck، يتلقيان النداء لمحاربة هتلر حتى تلك الأفلام عالجت مثل هذا الموضوع الجاد بعصبية.

وحالما أنشئ مكتب الاستعلامات الحربية في شهر يونيو العام 1942، أصدرت الحكومة الأمريكية دليلا موجها إلى هوليوود يضم أنواع الموضوعات التي يمكن أن تخدم المجهود القومي، وإذ صنفت صناعة الأفلام على أنها «صناعة حربية رئيسية» فقد أكد الرئيس روزفلت: «لا أريد فرض أي قيود

يمكن أن تسفر عن تعريض منافع الفيلم للخطر إلا تلك القيود البالغة الضرورة التي يجعلها الأمان واجبة».

وحددت خمسة موضوعات تتمتع بالأولوية هي: (1) توضيح وتفسير: لماذا يحارب الأمريكيون؟ (2) تشجيع العمل والإنتاج. (3) رفع المعنويات في الجبهة الداخلية. (4) وصف الأمم المتحدة وشعوبها. (5) تصوير بطولات القوات المسلحة. وعلى رغم غيرة صناعة السينما الأمريكية على استقلالها وحرصها على حماية هذا الاستقلال، فإنها التزمت بأمانة بصنع أفلام عن حرب «الشعب» مثل «مسز مينيفير» العام 1942 (الذي حظي بالشعبية في الولايات المتحدة، ولكنه كان هدفا للسخرية في بريطانيا بسبب نظرته الهوليوودية الوردية للحرب الخاطفة والغارات)، وعن المقاومة البطولية في بلدان من مثل النرويج وفرنسا، مثل «جان باريس» العام 1942 و «حافة الظلام» العام 1943. وتضمنت الموضوعات الأخرى بطولات ومعاناة حلفاء أمريكا بما فيهم الاتحاد السوفييتي، كما نرى في أفلام من نوع «أغنية إلى روسيا» العام 1943 و«نجم الشمال» العام 1943 و«مهمة إلى موسكو» العام 1943 و«أيام المجد» العام 1944. ومثل الصين، في أفلام من نوع «الصين» العام 1943 و«سماء الصين» العام 1945. وتطلب موضوع حرب الشعب أيضا معالجة تلك الموضوعات الصعبة، مثل دور السود والعداء للسامية، وهو ما حدث بوضوح في أفلام من نوع «الجندي الزنجي» العام 1944 و«مستر سكيفينجتون» العام 1943. غير أن الجوانب المتداخلة والغامضة في العديد من أفلام سنوات الحرب التي تعالج مثل تلك الموضوعات جعلت «بوتقة التذويب والصهر» الأمريكي تغلي إلى درجة الفوران، ومن الواضح أنه أصبح من الضروري القيام بحملة توعية وتربية عامة. ولم تكن ثمة وسيلة للوصول إلى الجمهور أفضل من الفيلم السينمائي. ولكن هذا تطلب اتباع أسلوب تسجيلي وهو ما كان حراما بالنسبة للكثير من استوديوهات هوليوود. ومع ذلك، فلو أن الاستوديوهات لم تكن مستعدة للإبحار - ضالة عن طريقها - في تلك المياه التي يبدو أنها غير تجارية، فإن الكثيرين من رجالها المبدعين كانوا مستعدين تماما للتعاون مع الحكومة، ومن بينهم جون فورد الذي أخرج فيلمي: «السابع من ديسمبر» العام 1943 و«معركة ميداوي» العام 1942. وجون هستون الذي قدم: «تقرير من ركاب أليوتيا» العام 1943 و«معركة

سان بيترو» العام 1945. وويليام وايلر الذي قدم: «جميلة ممفيس» العام 1944 و«عاصفة الرعد» العام 1945؛ ثم الأكثر شهرة من الجميع، فرانك كابرا.

لقد صنع كل هؤلاء الرجال أفلاما للقوات المسلحة الأمريكية التي كانت تملك وحدات تصويرها وإنتاجها السينمائية الخاصة لخدمة أهداف التدريب والتعبئة العقائدية. وفي البداية ركز مكتب الاستعلامات الحربية على الجبهة المدنية، ولكن على رغم أن «مكتب الصور المتحركة» التابع له (وهو المناظر لقسم الأفلام في وزارة الإعلام البريطانية) قد أنتج بالفعل عددا من الأفلام المعلوماتية القصيرة لخدمة الأهداف المحلية (مثل توزيع اللحوم بالبطاقات، على سبيل المثال). على رغم ذلك فإن هذه الأفلام كان عليها أن تعبر وهي تجر أقدامها ذعرا تحت عيون الكونجرس المحدقة بالحرص والشك. أما هوليوود فكان عليها أن تعتني بالمعنويات الداخلية مع القليل من التوجيه من جانب مكتب الاستعلامات الحربية. غير أن الحاجة كانت ماتزال قائمة لحث الأمريكيين على الانضمام إلى القوات المسلحة، فعلى سبيل المثال أنفقت وزارة الحرب الأمريكية أكثر من 50 مليون دولار سنويا على إنتاج الأفلام بهدف صهر وإدماج وتدريب جيش قادر على إنزال الهزيمة بآلة العدو الحربية. ولقد تحرك فرانك كابرا، الحائز على جوائز الأكاديمية قبل الحرب عن أفلام روائية من مثل: «حدث ذات ليلة» العام 1934 أو «ستريدز يذهب إلى المدينة» العام 1936 أو «مستر سميث يذهب إلى واشنطون» العام 1939، تحول إلى الميجور (الرائد) فرانك كابرا، وكلفه شخصيا رئيس أركان الجيش جورج مارشال بأن يصنع السلسلة الفيلمية المشهورة «لماذا نحارب؟». وتقول الحكاية «إن كابرا احتج لدى مارشال بأنه لم يصنع من قبل قط أي فيلم تسجيلي» فأجابه الجنرال قائلا: «وأنا لم أكن قط رئيسا لهيئة الأركان من قبل. والأولاد الذين يقودون اليوم السفن لم يكونوا قد رأوا المحيط قط منذ سنة واحدة». فرد كابرا قائلا: «آسف يا سيدي. لسوف أصنع لك أفضل أفلام تسجيلية (ملعونة) صنعت حتى الآن». ولن يختلف إلا القليلون حول أن الأفلام السبعة التي أعقبت هذا الحوار «افتتاحية للحرب» «ضربة النازي» «فرق تسد» «معركة بريطانيا» «معركة روسيا» «معركة الصين» و«الحرب تأتي إلى أمريكا» كانت - بالتأكيد - من

روائع الدعاية السينمائية. وقد وصف الفيلم الأول من هذه السلسلة، الذي استهدف توضيح خلفية المشاركة الأمريكية في الحرب، وصف بأنه «أعظم فيلم عصابات ظهر على الإطلاق». ولقد بلغ من سرور وزارة الحرب بالسلسلة أن أصبحت مشاهدتها إجبارية على كل المجندين. وابتهج الرئيس روزفلت بالطريقة التي لمست بها الأفلام بقايا ورواسب المشاعر الانعزالية حتى أنه أمر بأن تعرض هذه الأفلام عرضا تجاريا على الجمهور الأمريكي الواسع. وصور تشرشل مقدمة سينمائية خاصة لعرضها في بريطانيا، وسمح ستالين بعرض فيلم «معركة روسيا» في بعض أجزاء الاتحاد السوفييتي.

وكان روزفلت، مثل تشرشل، متحدثا في المذياع رفيع المهارة؛ حتى حققت «أحاديث بجانب المدفأة» التي كان يذيعها، الكثير في سبيل جعل الجمهور الأمريكي يصدق أن رئيسهم يتبع وينفذ سياسات تهم كل مواطن. ومع استئصال نزعة العزلة عمليا في سنة 1943 وجد مكتب الاستعلامات الحربية أن ميزانيته المحلية قد خفضت تخفيضا حادا. ومنذ ذلك الحين أصبح تركيزه الأساسي على الدعاية فيما وراء البحار. ولهذا الغرض قام المكتب بإنتاج سلسلة «جرائده السينمائية» باسم «الجريدة السينمائية المتحدة» وأصدرها في ستة عشر لغة كما أصدر «الدورية» نصف الشهرية «مجلة الشاشة للجيش والبحرية» لكي تعرض على وحدات القوات المسلحة التي تؤدي خدمتها خارج البلاد. وفي العام 1942 شكل الجنرال أيزنهاور فرعا للحرب النفسية في قواته لغزو شمال أفريقيا، لكي تتعامل في المنشورات وأشكال الدعاية الأخرى التي وضعت للمعاونة في دعم مسار العمليات العسكرية. ولقد تم تطوير هذه الوحدة - التي سيطر عليها الأمريكيون إلى حد كبير - من أجل غزو فرنسا لكي تصبح «فرقة الحرب النفسية» التابعة للقيادة العليا لحملة الحلفاء التي أصبحت ذات مشاركة بريطانية أكبر، وشكلت لجنة خاصة تضم ممثلين لكل من مكتب الاستعلامات الحربية الأمريكية، واللجنة التنفيذية للحرب السياسية - البريطانية ـ ومقرها في لندن لكي تضمن أن يتوافق ما يقوله العسكريون مع الدعاية المدنية. وحينما استولى الحلفاء على جهاز البث الإذاعي القوي في لوكسمبورج، بدأ الحلفاء في إطلاق أشعة دعايتهم إلى قلب ألمانيا، غير أنه مع الوصول إلى هذه الفترة الزمنية أصبح رجال الدعاية بحاجة إلى المزيد من التوجيه حول ما

يعتزمه واضعو السياسات إزاء ألمانيا بعد الحرب، هذا إذا كان لدعايتهم أن تكون مؤثرة حقا. غير أن هذا التوجيه لم يصل في موعد مبكر، فقد أحجم تشرشل وروزفلت عن إصدار أي تصريحات أو وعود قد تصرف الأذهان عن سياسة الاستسلام غير المشروط. ونتيجة لذلك، تعرضت نداءات الدعاة الموجهة إلى السكان الألمان لقدر كبير من التعويق طوال الشهور الثمانية الأخيرة من الحرب؛ وبدلا من تلك النداءات، تعين على هؤلاء الدعاة أن يلجأوا إلى تكرار كلامهم عن هزيمة ألمانيا المحتمة، وعن إطالة أمد العذاب الألماني بسبب مواصلة المقاومة، وعن فساد النظام النازي في تعارض مع الحلفاء الديموقراطيين والذين يتصاعد انتصارهم ويزداد وضوحا.

واقتفى الأمريكيون أثر البريطانيين فاستحدثوا «استراتيجية الحقيقة» الخاصة بهم باعتبارها مبدأ أساسيا لدعايتهم؛ ولكن بعد أن يقال كل شيء وبعد أن يتحقق ـ عمليا ـ كل شيء حتى في حربهم النفسية، فقد عوق دعايتهم ومنعها من التأثير غياب كل أنواع السياسات التي يمكن أن تقدم للشعب الألماني أملا في أن يعاملوا بشكل مختلف عن معاملة مجرمي الحرب النازيين. وقد اتضح تأثير سنوات من الدعاية ضد الألمان في فيلمين يعالجان موضوع ألمانيا بعد الهزيمة، أحدهما بريطاني والآخر أمريكي. أما الفيلم البريطاني، واسمه «شعب مهزوم» العام 1946 وأخرجه همفري جينينجز لوحدة أفلام التاج فقد بدأ بعبارة «لقد طلبوها وسعوا إليها بأرجلهم فحصلوا عليها»، غير أن الفيلم يمضي لكي يطرح فكرة ضرورة «إعادة تربية الألمان» بحيث (ينشأ الجيل القادم بوصفهم شعبا عاقلا ومسيحيا).

ومع ذلك فقد كان هذا أكثر ودية ورغبة في المصالحة بكثير من الفيلم الأمريكي «مهمتك في ألمانيا» العام 1945 الذي صنعه فريق كابرا الذي صنع سلسلة «لماذا نحارب» والذي طرح فكرة «عدم التآخي» بقوله «لسوف تمتد نحوك يد الصداقة، فلا تصافح تلك اليد: إنها اليد التي ارتفعت بالتحية لهتلر!».

ولكن هذا النوع من النزعة الانتقامية لا يعد شيئا مذكورا بالمقارنة مع المعاملة التي كان السوفييت يعدونها لألمانيا المهزومة. وإذا كان لدى الشعب الألماني أسبابه القوية التي تدفعه إلى الخوف من الحلفاء الغربيين، فإنهم كانوا مرتعبين من السوفييت. فبعد خمسة عشر عاما أو أكثر من الدعاية

المعادية للشيوعية، والتي توقفت بشكل مؤقت خلال فترة توقيع الميثاق النازي السوفييتي (1939 ـ 1941)، فإن تصور الألمان عن السوفييت كان تصورا شيطاني الأبعاد. ولم تكن تلك السمعة نتيجة لما روجته الدعاية النازية المحلية وحدها، ولكنها حظيت بالتشجيع من جانب دعاية السوفييت أنفسهم. فمنذ البداية أشاعت دعاية السلطات السوفييتية روحا من الكراهية بالشكل الذي نراه في الأقوال التالية التي جاءت في إحدى الجرائد السينمائية:

> «إن غضبنا لعاتٍ ومرعب. وفي مقابل ما نزفناه من دماء سوف نسدد ضربات ساحقة بلا رحمة... إن عصابات الفاشيست الألمان لا تملك ما يمكنها من التغلب على الشعب السوفييتي المحب للحرية، الذي لا يمكن قهره.
> إننا نكرس كل ما نملك من قوة ومشاعر ودماء، والحياة نفسها، لتنفيذ أوامر حكومتنا الحكيمة وستالين العظيم، دفاعا عن بلادنا العزيزة. فبهذا وبه وحده سوف نعيش. فالجيش السوفييتي والعمال والمثقفون ملتزمون بسحق اللصوص وقطاع الطرق الفاشيين».

وبينما كان الألمان يتقدمون نحو موسكو، كانت الجرائد السينمائية تصيح معربة عن تحدي السوفييت «إنها 1917 ثانية... حسنا... تعالوا... اقتربوا... ففي مقابل كل جرح في موسكو سوف نرد بالملايين من القذائف والحراب». ومع نهاية الحرب، وقد قتل 20 مليون روسي، والجيش الأحمر يتقدم نحو برلين، كان الألمان على وشك أن يكتشفوا ما إذا كان لمثل تلك الادعاءات ما يؤكدها.

ومن أكبر الأسئلة التي لم تطرح أي إجابة عليها في الحرب، هو السؤال: لماذا فوجئ السوفييت بهذا القدر، بالغزو الألماني لروسيا في يونيو العام 1941؟ فقد كان لديهم منذ أغسطس العام 1939، ميثاق عدم اعتداء مع النازيين، الأمر الذي تطلب منهم أن يقوموا بانقلاب كبير في سياستهم الدعائية السابقة. وكان كل من الطرفين قد برر الميثاق بأنه يستهدف الحفاظ على السلام في أوروبا. غير أنه حينما قام الألمان بغزو بولندا في الأول من سبتمبر العام 1939، واقتفى السوفييت آثارهم بعد أسبوعين

ونصف الأسبوع، تنفيذا لبعض البنود السرية في الاتفاق، فإن ذلك التفسير لم يكن مقنعا لأحد. وفي روسيا توقفت ـ فجأة ـ كل أنواع الدعاية المعادية للألمان. وسحب فجأة من دور العرض، فيلم «ألكساندر نيفسكي» من إخراج آيزنشتاين[14]، والذي أنتج العام 1939 لكي يصور النضال التاريخي بين التيوتون والسلافيين، مثلما سحبت بالطبع جميع الأفلام التي تهاجم نظام هتلر. أما الغزو الروسي لفنلندا في نهاية نوفمبر العام 1939 وما تلاه من «حرب شتوية»، فكان ـ بتعبيرات ستالين ـ عملا دفاعيا استهدف إيجاد أكبر مساحة ممكنة من الأرض ـ بين روسيا وألمانيا ـ حينما يحدث الهجوم الحتمي. وفي الوقت نفسه استعدت روسيا، بينما راحت الديموقراطيات الغربية تتبادل اللكمات المجهدة مع الفاشيين في الغرب. وكان هناك الكثير الذي ينبغي إعداده. فقد كان أكثر من 90 في المائة من القيادة السوفييتية العليا قد قضي عليهم في عمليات التطهير التي أجريت في الثلاثينيات، وكان اليابانيون يهددون حدود روسيا الشرقية باستمرار. غير أنه يظل من قبيل الألغاز الغامضة، أن ستالين وقع فريسة للمفاجأة: عسكريا ونفسيا في يونيو من العام 1941، ومع ذلك، فإننا نعرف ما هو أكثر عن الحرب الدعائية السوفييتية.

وقد ظل السوفييت حتى النهاية يطلقون على الحرب العالمية الثانية اسم «الحرب الوطنية العظمى» ومن جوانب عدة، كانت النزعة الوطنية أكثر أهمية من الدعاية، ومما لا شك فيه أن الدعاية وجهت إلى فكرة المقاومة الوطنية بدلا من توجيهها إلى مبدأ التغيير الثوري أو الأيديولوجي. وقد حظي إعلان تشرشل الفوري عن التضامن مع السوفييت بالترحيب، خاصة أنه جاء من جانب الرجل الذي فعل الكثير لدعم التدخل المضاد للثورة في أثناء الحرب الأهلية. غير أن روسيا ظلت تعتمد على نفسها اعتمادا فعليا إلى أن تجلى ذلك الدعم في صورة العون الفعلي والذي كان ستالين يعني به فتح جبهة ثانية (ومع ذلك فقد سحبت الأفلام المعادية لبريطانيا). ووقعت معاهدة عدم اعتداء مع اليابان لكي تتجنب روسيا أن تخوض الحرب على جبهتين (وهو ميثاق ظل معمولا به على الرغم من الهجوم الياباني على بيرل هاربور في ديسمبر العام 1941، على رغم وقوف الولايات المتحدة في صف بريطانيا وروسيا). وبدلا من ذلك فقد ركز

ستالين همه في الدفاع عن روسيا نفسها فوجه القسط الأكبر من الدعاية الرسمية إلى السكان الروس. وكان لينين ـ قبل كل شيء ـ قد قال: «إن الثورة لا تستحق اسمها إلا حين تستطيع الدفاع عن نفسها». وفي خطاب «روسيا المقدسة» الذي ألقاه ستالين في نوفمبر العام 1941، استحضر ستالين الأشخاص البارزين من ماضي روسيا المجيد، ذوي الاهتمامات العسكرية والثقافية وقارن بين ألمانيا النازية وروسيا القيصرية، ومن الواضح أنه كان يغالب صعوبات آثار دعايته ـ هو نفسه ـ التي كان يمارسها في أثناء فترة الميثاق النازي السوفييتي، غير أن الأكثر أهمية هو أنه ميز بين النازيين والشعب الألماني. وعلى العكس من حلفائه الجدد، شعر ستالين بأنه لا يجب أن يخسر إمكانات الدعاية في التفرقة بين الشعب الألماني وقادته النازيين، وأن تلك الإمكانات أكبر وأعظم من أن يقامر بخسارتها، ولكنه كان متناقضا في هذه النقطة أيضا مع آلته الدعائية السوفييتية الخاصة. ومن المحتمل أن ستالين ـ داخل عقله المليء بالمخاوف والأوهام ـ كان ما يزال خائفا من اتفاق الدول الغربية مع نظام ألماني قادم للقيام بحملة صليبية ضد الشيوعية؛ وبقيامه بالتمييز بين الألمان والنازيين، فقد أقسم أن يدمر الأخيرين وأمل في أن يكسب الأولين.

وكانت الدعاية السوفييتية تقر من خلال مجلس قوميسيري الشعب والمكتب السياسي للحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي، وتشرف عليها إدارة الدعاية والإثارة التابعة للجنة المركزية برئاسة أ. س. تشيشرياكوف ويديرها مكتب الاستعلامات السوفييتي الحديث التأسيس. وقد فوجئت هذه الهيئات كلها أيضا حينما بدأ الألمان الغزو في شهر يونيو العام 1941 ولم يكن قد مضى سوى أسبوع واحد على قيام وكالة تاس السوفييتية للأنباء بنفي أنباء تحركات القوات الألمانية في الشرق، ووصفها بأنها «ليست سوى دعاية غليظة تطلقها القوى المعادية للاتحاد السوفييتي وألمانيا والتي يهمها امتداد نطاق الحرب». وقد أكد التقدم السريع الذي حققه الألمان، والذي حظي بالترحيب الحماسي في أماكن عدة، مثل استونيا ولاتفيا وليتوانيا، بالإضافة إلى سهولة استسلام القوات الروسية ذات المعنويات المنهارة (كان هناك نحو 5 ملايين أسير حرب روسي بنهاية العام 1941)، أكد كل هذا ضرورة القيام بالكثير في مجال المعنويات وتدعيمها. ومن هنا جاء

نداء ستالين إلى شن نضال وطني عظيم في الذكرى الرابعة والعشرين لقيام الثورة، والسماح بعرض الأفلام المعادية للألمان، مثل ألكساندر نيفسكي وتعبئة وسائل الإعلام الجماهيري السوفييتية لخوض الحرب الشاملة. وذلك على حد ما أعلنته جريدة «برافدا» في قولها:

> فليمجد كتاب المسرح والموسيقيون والشعراء والروائيون والفنانون الجهد البطولي الذي يبذله الجيش الأحمر والشعب السوفييتي بأسره، لأن أعمالهم في أيام الحرب الوطنية هذه ومن أجل الجيش الأحمر سوف تساعد على تقريب يوم انتصارنا على العدو.

وكانت المشكلة هي أن التقدم الألماني قد جعل قدرة الحكومة على إنجاز كل هذا عرضة للخطر، فعلى سبيل المثال، انخفض عدد الصحف من 8806 في العام 1940 إلى 4561 في العام 1942، بينما انخفض عدد دور السينما من 28 ألفا في العام 1940 (مع جمهور من المتفرجين يبلغ 17 مليونا كل أسبوع) إلى نحو ثلث ذلك الرقم (مع انخفاض عدد المتفرجين إلى نحو 8 ملايين).

وعلى رغم ذلك فقد تمكن المصورون السينمائيون السوفييت العاملون للجرائد السينمائية من إنتاج مواد وموضوعات خلال أسبوعين من بدء الغزو. وقبل أن يمضي وقت طويل كان هناك نحو 250 فردا منهم يقومون بالتصوير في الجبهات المختلفة. وفيما بين العامين 1941 و1945 صنعت من المواد التي صوروها أكثر من 500 جريدة سينمائية إضافة إلى 120 فيلما تسجيليا، وكان أكثر هذه الأفلام من حيث عدد المتفرجين، هو فيلم «هزيمة الجيوش الألمانية بالقرب من موسكو» العام 1942 والذي عرض في أمريكا بعنوان «موسكو ترد الضربة». وكانت «مجموعات الأفلام القتالية» أو الكينوسبورينيك Kinosborinik رائجة وسط الناس بسبب تجميعها لأفلام قصيرة يقوم كل منها على قصة منفصلة. وتوقف إنتاج الأفلام الترفيهية، ذات القصص الترويحية، وبدأ ظهور الأفلام الروائية المرتبطة باهتمامات زمن الحرب في أواخر العام 1942. ولم يكن ثمة دور للأفلام السينمائية بوصفها ترويحا هروبيا في الحرب الروسية. وخلال سنوات الحرب أنتج نحو 28 فيلما روائيا طويلا ـ كل عام ـ كان أكثرها تميزا فيلم «سكرتير

الحزب في الحي» العام 1942 و«دافعت عن وطنها» العام 1943 و«زويا» العام 1944 و«قوس قزح» العام 1944 و«غزو» العام 1945 و «الفتاة رقم 217» العام 1945. وقد كان هذا إنجازا ملحوظا إذا تذكرنا قرار الحكومة السوفييتية في الشتاء الأول للحرب بنقل جميع استوديوهات إنتاج الأفلام إلى الشرق، حينما كان الألمان يطبقون على موسكو. وقد اكتملت عملية النقل في 24 ساعة (وبقيت استوديوهات الجرائد السينمائية والأفلام التسجيلية في مكانها)، وبذلك بعثرت استوديوهات إنتاج الأفلام الطويلة والروائية في أنحاء الاتحاد السوفييتي؛ فأعيد تسكين استوديو «موسفيلم» و«لينفيلم» في ألماآتا، وتسكين استوديو كييف في أشتقابا وطشقند. ومن هذه المراكز البعيدة واصلت صناعة السينما السوفييتية «صب» الأفلام التي أثارت خواطر الجماهير وقامت بتنظيمها. وعرضت الحرب باعتبارها صراعا بين أيديولوجيتين. ولم يحدث أبدا أن تجنب أحد الأفلام التعرض لوحشية الغزاة النازيين. ولقد كانت حقيقة الحرب الجهنمية سمة مميزة لسينما أيام الحرب السوفييتية، وبشكل خاص في الأفلام التسجيلية التي تضاهي الأفلام الروائية في طولها؛ ولم يحجم صناع الأفلام السوفييت ـ بعكس نظرائهم الغربيين ـ عن إظهار الموت على الشاشة بكل ما يحيط به أو يحتويه من أنواع الرعب والفزع.

وكانت الأفلام ذات الموضوعات التاريخية ثمينة بشكل خاص. وقد استخدم جميع الأطراف المتحاربين التاريخ بوصفه أداة لحمل الدعاية السينمائية، ولكن لم يفعل أحد ذلك بقدر ما فعله الروس. ولقد كان أول فيلم روائي كبير في أثناء الحرب هو فيلم «الدفاع عن تساريتسين» العام 1942، الذي دار حول فترة الحرب الأهلية، ومثلما فعل ستالين حين استحضر إلى اللحظة الراهنة أبطال المقاومة وأبطال الحرب العظام من الماضي، كذلك فعلت صناعة الأفلام السينمائية، مثلما نرى في فيلم آيزنشتاين «إيفان الرهيب» في الفترة من 1942 ـ 1946. غير أن سجلات الجرائد السينمائية، والأفلام التسجيلية التي «وثقت» للأعمال القتالية هي ما قدر لها أن تكون صاحبة أكبر تأثير في الوصول بالحرب إلى السكان المدنيين المقيمين خارج مناطق الخطر. وكان فيلم «ستالينجراد»، الذي عرض بعد أقل من ستة أسابيع من الاستسلام الألماني واحدا من تلك الأفلام، ذات

السبع «بكرات» المحملة بالصور المذهلة للأعمال القتالية والتجسيد الواقعي لقتال الشوارع، والخرائط والرسوم البيانية، واستسلام القائد الألماني فون باولوس. وبتحقيق هذه النقطة الحاسمة للتحول في الحرب، أصبح للدعاية السوفييتية المزيد مما ترفع صوتها به، غير أن الفيلم السينمائي ظل ظاهرة مرتبطة بالمدينة أو المناطق الحضرية. وعلى ذلك فلقد قامت قطارات التوعية والإثارة - مرة أخرى - بتوصيل الرسالة إلى الفلاحين قاطني المناطق الزراعية والقروية. وفي المدن الصغيرة حصلت اللافتات على حياة جديدة. وأعيدت من جديد إطارات ونوافذ الحرب الأهلية القديمة، التي كانت تسمى «روستا»، وتسمى الآن «تاس»، حافلة بالرسوم ذات القصص والأخبار، والرسوم التهكمية التي كانت واسعة الجماهيرية والتأثير معا. وأعيد ترميم العلاقات مع الكنيسة الروسية الأورثوذوكسية للمساعدة في دعم الحملة المحلية ولتزويد القضية الوطنية بموضوع «مقدس»، بينما واصلت محطات الإذاعة التي تسيطر عليها الدولة ضخ تيار المعلومات والمواعظ التي تسيطر عليها الدولة أيضا. ومن أجل تلطيف العلاقات الخارجية، أغلق الكومينترن[15] على رغم استمرار تدعيم الجماعات المعادية للنازية وحركات المقاومة بواسطة الراديو. وبعبارة موجزة أثبتت الدعاية السوفييتية في زمن الحرب، قدرتها بشكل بارز وملحوظ في الارتجال والمرونة ولكن هذا كان ضروريا، إذ كان محتما أن تحل المشكلة الصعبة المتمثلة في دفع القوميات الخاضعة لأن تتراص معا لمصلحة المقاومة الوطنية. ولذلك فقد أخضعت كل من الأيديولوجيا والانشقاقات الداخلية للأعمال الرامية إلى البقاء القومي؛ ولكن حالما تغير اتجاه التيار، وبدأ رسم خطوط معارك الصراع الذي تلا الحرب، حتى تعين على الآلة الدعائية السوفييتية - مرة أخرى - أن تغير اتجاهها بالقدر نفسه وفي الوقت ذاته، الأمر الذي سيجعل الفترة من 1939 إلى 1941 تبدو فترة هادئة رتيبة إذا قورنت بما تلاها.

وقد أعلن الروس الحرب على اليابان بعد إلقاء القنبلة النووية الأمريكية الأولى على هيروشيما. فمع انتهاء الحرب في أوروبا كان الوقت قد أزف لضمان أن يتواجد السوفييت في لحظة القتل النهائية، في أي تسوية في الشرق الأقصى، وذلك على رغم أن قرار الحكومة اليابانية قبل ذلك بمهاجمة

الولايات المتحدة في العام 1941 بدلا من مهاجمة الاتحاد السوفييتي، لم يؤد فقط إلى مساعدة الروس على التركيز على الدفاع عن حدودهم الغربية وحدها، وإن سمح لهم أيضا بتركيز جهودهم على الدعاية ضد التهديد الهتلري. وقد جاء الهجوم على اليابان كالمفاجأة بالنسبة لغالبية السكان الروس؛ فلم يكونوا مهيئين له من الناحية النفسية. ومن جانب آخر، لابد أن اليابانيين قد ظنوا أن مخاوفهم السابقة على بيرل هاربور من التهديد الشيوعي، قد أصبح لها ما يبررها؛ غير أنه كان قد مر وقت طويل منذ حظي التهديد الشيوعي بالأولوية؛ وبدلا من ذلك كان اليابانيون يركزون جهودهم الدعائية ـ منذ العام 1941 ـ ضد الإمبراطورية البريطانية والأمريكيين. وكان الميثاق النازي السوفييتي قد صدم الحكومة اليابانية التي شعرت بأن هتلر قد خانها بعد ثلاث سنوات من التحالف الألماني ـ الياباني بناء على الميثاق المضاد للكومينترن. وفجأة، أعاد اليابانيون تحديد وتوجيه سياستهم الخارجية في اتجاه العداء لأمريكا، وعدلوا مع تلك السياسة من اتجاه ضرباتهم الدعائية. واستسلمت هونغ كونغ بعد الهجوم على بيرل هاربور الذي تزامنت معه هجمات مماثلة على هاواي والملايو البريطانية. وفي يناير 1942 قام اليابانيون بغزو بورما وجزر الهند الشرقية ـ الهولندية، وفي الشهر التالي سقطت سنغافورة في أيديهم. ولم يتسن إيقاف نجاح اليابان الباهر ـ الأولي ـ إلا عندما استطاع الأمريكيون طرد اليابانيين من «جزر» جود الكانال في يناير العام 1943، وهو الشهر ذاته الذي استسلم فيه الألمان في ستالينجراد.

ويرجع سقوط الأمريكيين فريسة للمفاجأة في بيرل هاربور إلى حملة المعلومات الإعلامية المضللة التي قام بها اليابانيون فيما بين 1939 و1941. وقد نفذت الدعاية اليابانية أو «حرب الأفكار» كما يفضل اليابانيون أن يسموها، بواسطة منظمات عدة (فلم تختلف عما كان قائما في بريطانيا وروسيا والولايات المتحدة). وقد وجد «مكتب الإشراف على الفكر» في وزارة التعليم منذ العام 1932، غير أن مكتب الاستعلامات الحكومي، الكامل النفوذ والسطوة «نايكاكوجوهو - بو» لم يؤسس إلا في العام 1941، في اليوم السابق على هجوم بيرل هاربور. وقامت لجنة استشارية على خدمة هذه الهيئة، وتتكون من عشرة أشخاص من القوات المسلحة ووسائل الإعلام،

مثل: رئيس وكالة الأنباء اليابانية (دومي Domei) ورئيس هيئة الإذاعة القومية «ن. هـ. ك». وفضلا عن ذلك كانت هناك «وزارة شرق آسيا الأعظم» للتعامل مع البلدان التي أخضعتها اليابان «منشوريا والصين وجزر المحيط الهادي»، إضافة إلى الدول المجاورة «الهند الصينية وتايلاند» التي كانت مجالا للدعاية العلنية والخفية. وكان للمقر الإمبراطوري في طوكيو بدوره فروعا للدعاية الموجهة إلى الجيش والأسطول والسلاح الجوي. وكان معنى الامتداد الجغرافي المحض لـ «دائرة الرخاء المشترك لشرق آسيا الأعظم» الياباني والذي امتد من بورما إلى وسط المحيط الهادي، هو أنه على الراديو أن يكون أداة رئيسية لـ «حرب الأفكار» اليابانية.

ومنعت أجهزة الراديو ذات الموجة القصيرة في اليابان نفسها. ومع هذا، فعلى الرغم من حرمان السكان المدنيين في الوطن ـ بهذا الشكل ـ من أي وسيلة للاستماع إلى الإذاعات الأجنبية، فإن الآماد الأطول للإذاعات العاملة على الموجة القصيرة أثبتت أنها وسيلة مثالية لكي تنشر الحكومة بها رسالتها عبر المنطقة التي تريد أن تسيطر عليها، ولكن هذا لم يحدث إلا حين تم تعديل أجهزة اللاسلكي حتى لا تستقبل سوى البث الياباني... وكان الاستماع إلى الدعايات الأجنبية المذاعة بالراديو محظورا، وكان اليابانيون أنفسهم يبثون إذاعاتهم بأكثر من اثنتين وعشرين لغة من أجهزة إرسال أقيمت في باتافيا، وسنغافورة وسايجون، مع اعتبار أستراليا والهند أهدافا أولى لاهتمام تلك الإذاعات. وكانت «وردة طوكيو» هي أكثر المذيعين اليابانيين شهرة؛ وهي امرأة يابانية المولد، أمريكية التعليم، لعبت على وتر الحنين إلى الوطن لدى الجنود الأمريكيين الذين يخدمون في المحيط الهادي، بواسطة صوتها الموحي واختيارها لموسيقى «السوينج» الأمريكية. غير أن الوسيلة الأكثر تحديدا ووضوحا كانت الصور الشخصية الجنسية الفاضحة والمنشورات الموجهة إلى الجنود الأستراليين تصور زوجاتهم وحبيباتهم في أوضاع عناق مختلفة مع جنود سكارى من البريطانيين والأمريكيين المتمركزين في أستراليا، واستخدم اليابانيون أيضا أسلوبا كان الروس يفضلونه، وهو إذاعة كلام لأحد أسرى الحرب حيث يدلي الأسير بتصريحات غير محددة الموعد ولا التوقيت، فيذاع على الهواء كلامه حول المعاملة الطيبة التي يلقاها، فيرغم أقارب الأسرى ـ بهذا الشكل ـ على الاستماع إلى البرنامج

بأكمله أملا في أن يظهر ابنهم أو زوج إحداهن فجأة أمام الميكروفون في لحظة ما. ومع ذلك فليس من المحتمل أن يكون لمثل هذه الأساليب تأثير حقيقي؛ فقد كانت حقيقة الأمر هي أن اليابانيين قد بدأوا الحرب في الباسيفيك (المحيط الهادي) بمهاجمتهم بيرل هاربور، ولا يمكن لأي قدر من التبرير أو التوضيح أن يمحو تلك الذكرى.

وكانت السينما مثل الإذاعة تحت السيطرة الصارمة للسلطات اليابانية؛ فقد فرضت - في هذا المجال أيضا - قيودا رقابية صارمة منعت رسم أي صور، أو تكوين أي رسالة قد تكون انتقادية أو ذات تأثير ضار بالنسبة للنظام الحاكم أو إمبراطوره، ثم ازدادت السيطرة إحكاما بواسطة قانون الصور المتحركة الذي صدر العام 1939 الذي فرض تقديم «مخطوط» الفيلم «السيناريو والحوار» قبل التصوير إلى الرقابة؛ كما سيطرت على الإنتاج مجموعتان: شركة توشيكو (التي تنتج نحو 85٪ من مجموع الأفلام اليابانية)، وشركة توهو. أما الجرائد السينمائية فكانت - أساسا - من إنتاج نيبون إيجاشا التي بلغت ميزانيتها 7 ملايين ين في ميزانية العام 1943. وكانت الجرائد السينمائية تنتج لكي تصور النجاحات اليابانية، وكثيرا ما تضمنت أجزاء مما صوره الحلفاء واستولى عليه اليابانيون مثل فيلم «الاستيلاء على بورما» أو «احتلال سومطرة». أما فيما يتعلق بالأفلام الروائية، فقد استخدمت الموضوعات التاريخية لنشر مشاعر العداء لبريطانيا مثل «يوم سقطت إنجلترا» العام 1942 ويدور حول الاتجاهات العنصرية الوحشية لدى البريطانيين في هونغ كونغ، وفيلم «حرب الأفيون» العام 1943، الذي يزعم أن البريطانيين أخضعوا الصينيين بتحويلهم إلى مدمنين للمخدرات. وقد أدى تمرد قصير المدى قام به صناع الأفلام ضد درجة التحكم الحكومي، إلى انخفاض الإنتاج في العام 1943، غير أنه سرعان ما أعيد الوضع إلى طبيعته؛ وقبل أن يمضي وقت طويل عرضت أفلام عدة مثل «مقاتلات جنرال كاتوما الفالكون» العام 1943 الذي أخرجه أكبر مخرجي السينما اليابانية إبان الحرب «كاجيرو ياماماتو»، وفيلم «وداعا يا علم الاستقلال» العام 1943 الذي استهدف تشجيع استقلال الهند عن بريطانيا. غير أن أعداد القاذفات الأمريكية من طراز «ب ـ 29» المتزايدة في العام 1944 أجبرت الكثير من دور العرض السينمائي اليابانية على أن تغلق أبوابها؛

فقد أثبتت حمولات تلك القاذفات أنها أقوى أثرا بكثير من آلات تصوير السينما اليابانية.

وكان معنى المنافسة بين الجيش والأسطول اليابانيين أن تكون لكل من السلاحين منظماته الدعائية؛ وكان معنى سيطرة العسكريين على الحكومة أيضا أن تخضع جميع وسائل الدعاية القومية للسيطرة ذاتها، فأصبحت ـ بالتالي ـ ضحية للمنافسة ذاتها. وقد تعثرت الدعاية اليابانية الموجهة لما وراء البحار ـ أيضا ـ بسبب نقص المذيعين ذوي اللكنات المناسبة في النطق أو الفهم الصحيح للحضارة الغربية، فلجأت إلى اختراع انتصارات مستحيلة وأعمال وحشية غير محتملة الوقوع وهي التي ـ عندما يكشف أنها مزيفة ومتحولة ـ أدت إلى انخفاض تأثير الجهود الدعائية التالية إلى درجة حرجة. وقد كان غياب أي فلسفة واضحة تعتمد «استراتيجية تقوم على الحقيقة» أو «الدعاية اعتمادا على الحقائق»، كان هذا الغياب يمثل نقطة ضعف كبرى، وهو ما تبينه أحد الكتاب اليابانيين فيما بعد فكتب يقول:

> لقد هزمت اليابان هزيمة مؤسفة في الحرب النفسية ليس بسبب أي نوع من البراعة الخاصة أو الخدمة المتميزة تمتع بها الحلفاء، وإنما لأن الحلفاء أقاموا دعايتهم على الحقائق. بينما لم تكن اليابان مستعدة لأن تتعامل بالحقيقة منذ البداية تقريبا.

ولكن على رغم ذلك، فقد كانت المبادرة العسكرية في يد اليابانيين ومعها المبادرة الدعائية خلال الثمانية عشر شهرا الأولى من القتال. وقد لا تستطيع الكلمات كسب الحروب ولكنها تستطيع تمهيد الطريق إلى النصر؛ كما أنها لا تستطيع إخفاء الهزيمة. فبعد معركة «ميدواي» كان التيار ينقلب بوضوح لمصلحة الأمريكيين على رغم أن الرقابة الصارمة من جانب سلطات الحكومة العسكرية اليابانية قد أخفت هذه الحقيقة عن غالبية الجنود والمدنيين. ولقد كان الانتصار الوحيد الذي حققته الدعاية اليابانية هو ما وصل إليه الشعب الياباني من تعصب، وهو معزول إلى حد كبير عن أي مؤثرات خارجية، إلى أن بدأ الأمريكيون في إسقاط المنشورات ـ ولا داعي لذكر القنابل ـ على المدن اليابانية.

ولقد استلزمت هزيمة اليابان قنبلتين نوويتين، غير أنه من الأمور ذات

المغزى المهم أن المعنويات لم يصبها الانهيار إثر إسقاط القنبلة الأولى، فمن الواضح أن الدعاية اليابانية المحلية كانت فعالة. ويصدق الوضع نفسه في ألمانيا النازية حيث كان السكان المدنيون قد خضعوا لأكثر حملة دعائية شمولا وعمقا شهدها العالم على الإطلاق، وهي الحملة التي وصفت بأنها «الحرب التي كسبها هتلر». ومع ذلك فمن الصعب ـ كما في حالة اليابان ـ التمييز بين دور النزعة الوطنية وبين دور الرعاية في دفع الناس إلى القتال حتى النهاية المريرة. فلا شك أن أولئك المراهقين من أعضاء «الشبيبة الهتلرية» الذين دافعوا عن شوارع برلين ضد الجنود السوفييت المدربين على الاشتباك في إبريل العام 1945، لا شك في أنهم كانوا معبئين عقائديا بالأفكار النازية إلى درجة لا يمكن معها إلغاء تأثير الدعاية. ولقد كان الشباب هدفا رئيسيا لإخصائيي الدعاية في جميع الدول الشمولية، وبوجه خاص في دولة كانت تعتزم أن تبقى ألف عام.

ولا بد أن نضيف أن الشباب في الأنظمة الديموقراطية كانوا هدفا ـ أيضا ـ لكل أشكال الدعاية؛ ففي دور السينما البريطانية أيام الحرب، كان الأطفال يهللون في أثناء مشاهدة الجرائد السينمائية، لدى رؤيتهم لتشرشل وروزفلت وستالين، ويصوتون أو يصفرون حين يظهر هتلر أو موسوليني على الشاشة). وكان النازيون قد سعوا إلى إغواء الشباب الألماني في العشرينيات. فلما تولى هتلر السلطة العام 1933 قام نظام نازي للتعليم بتربيتهم وتنظيمهم وتدريبهم وتعبئتهم في كتائب، وهو النظام الذي أخضع البحث العلمي والدراسة للأيديولوجية. وحصل أعضاء «الشبيبة الهتلرية» و«عصبة الفتيات الألمانية» على تربية عسكرية مكثفة، حيث أثرت الأزياء الموحدة والشارات والاستعراضات والمسيرات والأفلام تأثيرا مباشرا في مشاعرهم وانفعالاتهم بدلا من تربية أذهانهم ـ وتكوينهم الثقافي ـ وتنميتها، ولم يكن المراهقون الذين دافعوا عن شوارع برلين في العام 1945 يعرفون شيئا آخر؛ لقد كانوا بالتأكيد؛ «أطفال هتلر».

وكان هتلر قد أعلن في العام 1923 بعد فشل «انقلاب» ميونيخ الذي حاول القيام به، قائلا: «الدعاية، الدعاية، الدعاية. إن الدعاية هي كل شيء». ومنذ ذلك الحين وجهت طاقات الدعاية النازية إلى أحط غرائز الإنسان وأكثرها دونية. وكان قد كتب في كتابه: «كفاحي» يقول:

لا تستجيب نفسية الجماهير لأي شيء ضعيف. إنهم مثل المرأة التي لا تتحدد حالتها النفسية بالعقل المجرد بقدر ما تتحدد من خلال الاشتياق الوجداني إلى قوة عاتية ترضي طبيعتها. وبالمثل، تعشق الجماهير القائد الآمر، وتحتقر المتوسل المستعطف.

ولذلك، فقد تكونت الدعاية من «اجتذاب الحشد، وليس من تعليم أولئك الذين تعلموا بالفعل». وكان الحشد عند هتلر، وحشيا قاسيا، عنيفا انفعاليا فاسدا وقابلا للإفساد. وقد خططت الدعاية لكي تجتذب الأتباع من وسط تلك الكتلة العريضة من السكان، أما التنظيم فقد استهدف اجتذاب أعضاء الحزب. غير أنه لا ينبغي للحزب أن يكبر أكثر من اللازم وإلا ماعت قوته وتلاشت، فقد كان دوره عبر الدعاية هو ـ بالأحرى ـ «اغتصاب الجماهير». وحالما تحقق هذا من خلال انتخاب هتلر وتوليه للسلطة في العام 1933، أصبح دور الحزب أكثر أهمية. وأصبحت كلمات البساطة والتكرار والطاعة العمياء هي كلمات السر لدولة الدعاية المطلقة والكاملة. وكان «العبقري الشرير» الكامن وراء كل هذا هو بالطبع الدكتور «بول جوزيف جوبلز». كان شخصا كلبيا شكاكا، تافها ومزهوا بنفسه، مثاليا وممتلئا بالمرارة ومدعي ثقافة، أخلص كل الإخلاص لهتلر الذي شاركه احتقارا أساسيا ولا حد له للجماهير. وربما كان هتلر هو الإنسان الوحيد الذي اعتبره جويلز غير قابل للإفساد، فخلق أسطورة «مبدأ الزعيم Fuhlrer Prinzip» ونسجها حول الرجل الذي قال عنه: «إن كلمة واحدة كاذبة مضللة أو قذرة لم تعبر شفتيه». ولم يحدث إلا قرب نهاية الحرب أن بدأت الشكوك تراود عقله بشأن احتمال خطأ خرافة الزعيم التي خلقها بنفسه.

في مارس العام 1933 أصبح جوبلز المسؤول الأول عن الوزارة الجديدة لشؤون الدعاية والتنوير العام (R.M.V.P)، وطوال الأعوام الستة التالية قام بتنظيم وتنسيق حملة دعائية استهدفت الشعب الألماني لإعداده لتحقيق هدف وحيد هو: استعادة مكان ألمانيا «الصحيح والمشروع» في العالم. ومن أجل الوصول إلى هذه الغاية امتدت فروع الوزارة الجديدة إلى كل جوانب الحياة الألمانية، بالاستعانة باثنتي عشرة إدارة تعالج شؤون الصحافة والإذاعة والسينما والثقافة والتعليم والمسرح وما إلى ذلك، بهدف الإشراف على «كل

مهام التوجه الروحي للأمة» ووضعت وسائل الإعلام الجماهيرية تحت سيطرة الدولة، غير أن هذا كله لم يكن موحدا في كتلة واحدة كما يبدو من الخارج. فقد كان «يواقيم فون ريبنتروب»، وزير خارجية هتلر في أيام الحرب مهتما ـ هو الآخر ـ بالدعاية، بل إنه حصل في العام 1939 على قرار من هتلر (الذي كان مبدأ «فرق تسد» من سياساته على رغم كل شيء) بمد مسؤولياته لتشمل الدعاية الخارجية. وكان الأمر الأكثر خطورة وجدية من وجهة نظر جوبلز، وخاصة في أثناء الحرب، هو وجود «المتحدث الصحفي الرسمي باسم الرايخ» أوتو ديتريش، الذي كان يتحدث من مكتب هتلر نفسه. ولكن على رغم هذا التقسيم فإن السيطرة على الدعاية في ألمانيا النازية كانت أكثر مركزية بكثير مما كانت عليه في أي من الدول المتحاربة.

وقبل أن ننتقل إلى الدعاية النازية في زمن الحرب، لابد أن نتعرض باختصار لواحدة من أكثر وسائل الدعاية الألمانية السابقة على الحرب إبهارا، وهي بالتحديد Parteitag أو «المسيرة الجماهيرية». فلقد توجهت كل عناصر الدعاية السابقة على الحرب ـ بمعنى ما ـ وحشدت نحو إعادة التسلح النفسي للشعب الألماني، غير أن المسيرات التي كانت تقام في نورمبرج احتلت مكانا خاصا في التقويم السنوي للحزب نفسه، وبمعونة من «ألبرت سبير» المهندس المفضل لدى هتلر والذي أصبح فيما بعد وزيرا للإنتاج الحربي وإنتاج الأسلحة؛ بمعونة من هذا الرجل، هيأت هذه الأحداث ذات الإخراج المسرحي المبهر طقسا سنويا للمخلصين من أبناء الحزب لكي يعيدوا تكريس أنفسهم للفوهرر (الزعيم). ففي تلك المناسبة كان يتجمع نصف مليون عضو أو أكثر، من كل أنحاء ألمانيا، لكي يبارك الفوهور أعلامهم، ولكي يذكروا بالتوقير شهداء الحزب (مثل هورست فيزل) ولكي يستمعوا إلى الخطب والكلمات في إطار عسكري التنظيم وإن كان مشحونا بشحنة انفعالية عالية في الهواء الطلق يزداد عمقا في الليل بواسطة الأنوار الكاشفة المتحركة الموجهة رأسيا إلى السماء، مما جعل أحد المراقبين يشبهها بـ «كاتدرائية من الثلج». وقد سجلت السينما الطبيعة المفعمة بالرهبة لتلك المناسبات، وذلك في الفيلم الذي أخرجته «ليني رايفنستاهل» بعنوان «انتصار الإرادة» العام 1935، وصورت فيه مسيرة العام 1934. ولقد تمتعت تلك المسيرة بأهمية خاصة لدى هتلر، بالنظر إلى أنه كان قد قضى أخيرا على

فصائل جنود العاصفة ذوي القمصان البنية التابعين له في: «ليلة السكاكين الطويلة»[16]. ولا يعد «السجل» الذي أعدته رايفنستاهل مجرد شهادة على ألمعية وسائل الدعاية النازية وبراعتها، وإنما تعد أيضا شهادة على المدى الذي وصلت إليه سيطرة هتلر على ألمانيا في خلال عامين فقط من وصوله إلى السلطة. فكان الأمر كما صرح به نائبه، رودلف هيس، في المسيرة «الحزب هو هتلر وهتلر هو ألمانيا وألمانيا هي هتلر».

وعلى الرغم من ستة أعوام من الإعداد والاستعداد فقد دخلت وزارة الدعاية والتنوير العام الحرب في فوضى وارتباك. كان جوبلز قد فقد مكانته لدى هتلر بسبب دخوله في علاقة مع إحدى الممثلات، ولم يكن الشعب الألماني متحمسا إلا بصعوبة للحرب، فمن المؤكد، وطبقا لما قاله سبير، أنهم قد بدا عليهم «الاكتئاب». غير أن هذا سرعان ما تغير عندما أعقب الانتصار في بولندا سلسلة بارقة السرعة من الانتصارات على بلجيكا وهولندا والدنمارك والنرويج وفرنسا؛ فلا شيء ينجح مثل النجاح، ولا شيء يستفيد من النجاح أكثر من الدعاية. وقد قامت الدعاية بـ «تشحيم» عجلات النصر وتليين دورانها، وخاصة في إقناع أي من المتبقين من المنشقين الألمان، بأن الله والقدر قد أرسلا الفوهرر الزعيم لإنقاذ الشعب الألماني من أعدائه؛ ثم لا بأس بالميثاق النازي السوفييتي، ولا داعي للقلق منه، وهو الذي قدم باعتباره ميثاقا للسلام ثم سرعان ما نسيه جهاز الدعاية النازي. لقد كان ذلك الميثاق وسيلة لغاية. ولا بأس أيضا بعدم دخول اليابان وإيطاليا الحرب ضد بولندا في سبتمبر العام 1939 على رغم أنهما الشريكتان لألمانيا في الميثاق المعادي للكومينترن في العام 1936 ـ 1937. تلك الحرب، كانت حربا ألمانية عادلة استهدفت تصحيح مظالم تسوية فرساي العام 1919؛ ولا بأس من أن بريطانيا وفرنسا قد أعلنتا الحرب على ألمانيا، فقد فعلتا هذا بسبب عدائهما الفطري للاشتراكية القومية [17]، وبسبب تحللهما وفسادهما الإمبريالي. ولا بأس بسنوات المسالمة والمهادنة، فلقد تسبب فيها الخوف والضعف. ولقد استقر القدر في يد الفوهرر. ولابد أن يصبح النصر من نصيب ألمانيا!

ومن بين جميع وسائل الاتصال الجماهيرية كانت أفلام السينما هي محور اهتمام هتلر وجوبلز؛ ولقد كانت الجرائد السينمائية هي التي تولت

عملية إقناع الناس بعدالة القضية الألمانية، وبأمجاد التفوق العسكري الألماني في سنوات الحرب الأولى، وتمتعت الجريدة السينمائية المعروفة باسم «الجريدة السينمائية الألمانية الأسبوعية» بأهمية خاصة، إذ كانت مشاهدتها إجبارية على جميع رواد دور السينما الألمان. وقام المصورون بتصوير مشاهد القتال بعد أن تولت تنظيمهم وحدات السينما العسكرية إثر تعيينهم من قبل وزارة الدعاية والتنوير العام. ولكنهم كانوا يعملون بأوامر مباشرة من القيادة الألمانية العليا؛ وكانت المواد التي يحصلون عليها ترسل أولا إلى برلين، ولأن المصورين كانوا عادة يتواجدون في مناطق القتال الساخنة فقد كانت تسجيلاتهم واقعية للغاية - في العادة - حتى أنها كانت تحتاج إلى الكثير من «التحرير» ومن الإعداد والتعديلات الماهرة لكي تتلاءم مع الأهداف الدعائية البناءة، وقد اتضح نجاح هذا المزيج المكون من التصوير الواقعي لأحداث فعلية وبين الإعداد الدعائي في منتجات باكرة للجرائد السينمائية، مثل تلك التي عرضت العام 1940 بعنوان «التعميد بالنار» وشقيقتها التي عرضت في العام 1941 بعنوان «الانتصار في الغرب». وقد تميز هذان الفيلمان بأنهما كانا بمنزلة تهنئة يقدمها الألمان لأنفسهم، فعرضا الانتصارات الألمانية بعبارات من يصف مباريات رياضية. وقد كتب روجر مانفيل يقول: «لم تكن الجرائد السينمائية النازية إعلامية، وإنما كانت انطباعية وانفعالية كاسحة - هجوما خاطفا - بالصوت والصورة». وكانت الرسالة التي تتضمنها واضحة: إن التفوق العسكري الألماني واضح لكل ذي عينين تبصران، وسهولة تحقيق الانتصار شهادة على تفوق العرق الألماني وقوة إرادة الفوهرر. وفي الخارج لم تكن هذه العروض الأسبوعية Wochenschau تسعى إلا إلى إثبات أنه لا معنى لمقاومة الآلة الحربية الألمانية.

إن الأفلام التي تصور الحرب مثيرة تؤدي إلى تصريف الانفعالات المحبوسة. وقد استخدم النازيون الجرائد المصورة والأفلام التسجيلية لإشراك الشعب الألماني في المجهود الحربي ولإرهاب الخصوم المحتملين. ويبدو أن هذا قد أثمر النتيجة المطلوبة. وقد رصد جهاز «الجستابو»[18] الرأي العام، وردود أفعاله إزاء كل فيلم. وعقب عرض جريدة سينمائية تصور النجاحات الألمانية في الدنمارك والنرويج ذكرت قوات الأمن في تقرير لها «إن الجريدة لا شك قد زادت من الثقة في الانتصار... صمت

مطبق يسود دور السينما، ويتعين على الناس أن يلملموا نفوسهم المذهولة بعد المشاهدة...». وقد أدمجت الجرائد السينمائية الأربع التي صدرت قبل الحرب في عمل واحد، ويبدو أن مصداقية الوسيط السينمائي، وارتباط الموضوع بأحداث الساعة كانا من الأسباب الكبرى لازدياد أعداد المتفرجين الألمان في زمن الحرب. فمع حلول العام 1940 كان عدد رواد دور السينما قد تضاعف تقريبا، وعرضت الجرائد السينمائية في المدارس بالمناطق الريفية، وإذ كانت الجريدة السينمائية تستغرق نحو أربعين دقيقة فقد استخدمت الموسيقى بنجاح عظيم واقتصر التعليق على أقل قدر ممكن. غير أنها مالت بعد 1941 إلى فقدان شعبيتها، كما بدأت تفقد علاقتها المباشرة بحقائق (أحداث) الحرب؛ إضافة إلى أنه إثر ستالينجراد، كان المصورون التابعون لوحدات السينما الحربية يصورون المزيد من التراجعات والانسحابات الألمانية ويصورون قدرا يتناقص من أعمال الزحف والتقدم الألمانية أيضا. وبتعبير آخر بسبب من ارتباط هذه الجرائد السينمائية بالنجاحات العسكرية الألمانية المبكرة، فقد عانت شعبية العروض الأسبوعية بالقدر نفسه حين أصبحت الهزائم أكثر شيوعا. وعندما حلت نهاية الحرب كان التأكيد قد تحول تماما إلى الشعار القائل: «الانتصار في الموت».

وكانت الموضوعات الكبرى للحملات الدعائية الأولى قد وجهت ضد أعداء ألمانيا العسكريين وبوجه خاص إلى بريطانيا. وبذلت المحاولات لبذر بذور الشقاق والخلاف بين الحلفاء، مع إشاعة اتهامات من نوع «إن بريطانيا سوف تحارب حتى آخر رجل فرنسي». وفي خلال العام 1940 تركت إذاعات «لورد هاو - هاو» قدرا من التأثير في المستمعين البريطانيين. وإن لم تترك أثرا فعليا حقيقيا. وأنتجت أفلام روائية معادية لبريطانيا مثل «تمرد في دمشق» Aufruhr in Damascus العام 1939، الذي يعالج موضوع تخليص بعض الألمان من طغيان لورانس العرب في الأردن؛ أو فيلم «حياتي من أجل إيرلندا Mein leben fur Irland» العام 1941 عن القمع التاريخي البريطاني أو «العم كروجر Ohmkruger» العام 1941 عن حرب البوير. وفي الملصقات ومقالات الصحف والإذاعات كان تشرشل موضوعا للاستهزاء والسخرية بوصفه سكيرا. والعائلة المالكة بوصفها عائلة منحلة، والنخبة الحاكمة البريطانية بوصفها مجموعة من الإمبرياليين العجائز المرهقين الذين فات عصرهم.

وفي هذه الدعاية بدت بريطانيا وقد استولى عليها اليهود، وكان هذا واحدا من التفسيرات الكثيرة للأحياء القذرة والبطالة وعدم المساواة الاجتماعية التي سببتها طبقة حاكمة فاسدة مثقلة باليهود. بل إن اسم جريدة التايمز «The Times» عكس نطقه لكي يصبح سيمايت Semitce (أي سامي: أي ينتمي إلى الجنس السامي) للبرهنة على سيطرة اليهود، وقد تراوحت نغمة هذه الدعاية صعودا وهبوطا تبعا لمستوى آمال ألمانيا في عقد تسوية سلمية مبكرة مع بريطانيا. غير أن الدعاية المعادية للبريطانيين عانت من ضربة قوية وهزيمة كبرى عندما هبط رودلف هيس[19] بمظلته الواقية في إسكتلندا في مايو العام 1941؛ ومهما كانت أسباب مهمته فإنها أوقعت جوبلز في ورطة مربكة. فبدا لأول مرة تائها يتخبط بحثا عن الكلمات وعن الخط الدعائي المناسب الذي قال: إن هيس مريض عقليا والذي كان قد تولى صياغته منافسا جوبلز: ديتريش وبورمان بموافقة هتلر.

ومع غزو روسيا بدأت الأفلام المعادية للروس تظهر من جديد، وبدأ أولا في فيلم «ج. ب. ي» G.P.U العام 1942 وهي الحروف التي ترمز إلى جهاز الأمن السري السوفييتي، حتى وصل موضوع العداء للشيوعية إلى ذروته بفيلم «الملك العظيم» العام 1942، عن أداء فريدريك الأكبر المتفوق ضد الروس في حرب السنوات السبع. ومع ذلك فعقب ستالينجراد انخفض الإنتاج الرسمي الألماني من الأفلام الروائية انخفاضا حادا، فلم تنتج سوى أربعة أفلام العام 1943، وثلاثة في العام 1944، وفيلم واحد «الهراوة Kolberg». عن فضائل المقاومة، في العام 1945. غير أن العروض الأسبوعية واصلت رسم الروس في صورة وحوش شيطانية، على رغم أن النازيين فشلوا في استغلال الجماعات القومية الساعية إلى الانفصال التي عرضت أن تقاتل من أجل الألمان ضد البلاشفة؛ فإن هتلر الذي أعمته أيديولوجيته ما كان ليسمح بفكرة أن يقاتل الألمان إلى جانب تلك «القاذورات الدون ـ بشرية» و«الفئران»، وبينما راح الألمان يستأصلون شأفتهم بشكل منتظم ركزت الدعاية النازية على أعمال السوفييت الوحشية وما يقوم به جهاز الأمن السوفييتي السري من أعمال التعذيب. وقد كانت لجوبلز تحفظات قوية على التصريحات المتعلقة بالاستغلال الألماني للأراضي المترامية في الشرق خوفا من ألا تؤدي تلك التصريحات إلا إلى ازدياد تصلب المقاومة. ولم تحتو

دعاية وزارته للإعلام والتنوير العام إلا على القليل من الكلام «السلافيين الدون ـ بشرية»... وركزت دعايته بدلا من ذلك على «نظام القتل البلشفي ـ اليهودي». غير أن هذا الاختلاف يعكس تعدد الأصوات الصادرة عن الرايخ الثالث. فعلى سبيل المثال قام روبرت لاي (رئيس جبهة العمال الألمان) بتنفيذ الكثير من الأعمال التدريبية والتربوية حتى يستطيع دعاته أن يحملوا أيديولوجية الحرب إلى داخل المصانع. أما ألفريد روزنبرج، الذي كان قد عين في العام 1934 بوصفه «المبعوث المكلف من الفوهرر للإشراف على جميع أعمال الحزب القومي الاشتراكي المتعلقة بالتعليم والتدريب العقائدي والثقافي»، فقد عين في العام 1941 وزيرا للأقاليم الشرقية المحتلة. وقد قدم روزنبرج ما يسمى بالتبرير الثقافي المزعوم للدعاية المناهضة للسامية، ولكنه لم يستطع أن يتماشى مع جوبلز ولا مع ريبتروب في هذا الشأن؛ وكان هذا الأخير أيضا يحتقر جوبلز. ثم إنه كان هناك ديتريش في مكتب الفوهرر، وهو الذي كان جوبلز مشتبكا معه في صراع دائم طوال الحرب، والذي كان يشرف على فرع الدعاية في الجيش (الذي كان يصدر مجلة «ساينال Signal» أو الإشارة؛ أوسع المجلات الألمانية توزيعا وانتشارا خلال الحرب)، إضافة إلى أخصائي الدعاية في قوات الأمن الخاصة (الـ S.S)، ولقد شعر كل من هؤلاء الرجال بأن الأنشطة الدعائية التي يقوم بها الآخرون تتطفل على الإقليم الخاص به وحده.

أما بالنسبة لجوبلز، فقد كان الراديو هو أكثر أدوات الدعاية النازية في زمن الحرب أهمية، فمارس سيطرة مباشرة على إذاعات أكثر من سيطرته على الصحافة (على رغم أنها لم تكن بقدر سيطرته على العروض السينمائية الإخبارية الأسبوعية). ولقد كان الراديو عند جوبلز «أول وأكثر وسيط تأثيرا بين الحركة والأمة، وبين الفكرة والإنسان». وكانت شبكة الإذاعة الألمانية تتكون من 26 محطة تديرها جمعية إذاعة الرايخ؛ وبعد العام 1942 تولى الإشراف عليها هانس فريتش الذي كان أكثر المذيعين الألمان أهمية في زمن الحرب. وكانت الإذاعات الأجنبية ترصد حتى يمكن الرد على الإشاعات. وكان على جميع المذيعين ومحرري الأخبار الإذاعية أن يحضروا مؤتمرات فريتش الوزارية المنتظمة حتى يتمكنوا من أن يتفهموا بوضوح الخط الدعائي الذي لا يسمح لهم أبدا بالابتعاد عنه. وكان من الملامح

الدراماتيكية المثيرة للإذاعة الألمانية طريقة تقديم؛ «البيان الخاص» أو الـ Sondermeldung الـذي كان يقطع أي برنامج بانفجار من أصوات الأبواق لكي يذيع آخر بيان عن انتصار عسكري جديد آخر. ولأسباب واضحة كانت هذه العملية شائعة كثيرة التكرار في العامين 1940 - 1941، وكان يعقب البيان نشيد عسكري، كثيرا ما كان هو نشيد «إننا نزحف ضد إنجلترا». أما الهجوم على روسيا فكانت الموسيقى العسكرية تصاحبها أصوات طلقات المدفعية وزئير مقاتلات الشتوكا. (وقد تبين البريطانيون مقدار أهمية الموسيقى لدى النازيين حينما زعموا أن الألحان الافتتاحية للسيمفونية الخامسة لبيتهوفن تعود إليهم).

وفي 18 فبراير العام 1943 ألقى جوبلز أعظم خطاب له في حياته، وواحدا من أكثر الخطابات التي ألقاها أحد قادة الحرب في أي مكان أهمية؛ وهو خطاب «الحرب الشاملة» الشهير الذي ألقاه في «قصر الرياضة» في برلين. وكانت ألمانيا قد حققت نجاحاتها العسكرية فيما بين 1939 و1941 دون اللجوء إلى نوع التعبئة التي تقتضيها الحرب الشاملة، والتي كان البريطانيون قد لجأوا إليها سعيا إلى النجاة في تلك الفترة. وكان تكتيك «الحرب الخاطفة» العسكري قد أثمر إلى درجة تجاوزت أكثر أحلام أصحابه جنوحا. فعلى سبيل المثال لم تكن ثمة حاجة إلى إرسال النساء الألمانيات إلى المصانع. غير أنه بعد ستالينجراد، ومع اشتراك الأمريكيين بقوة في الحرب؛ وإيطاليا بسبيلها إلى الخروج منها، ومع تزايد أعداد الغارات الجوية للحلفاء على المدن الألمانية، فقد دعا جوبلز الشعب لأن يقدم تضحيات أكبر، وإلى أن يعمل أكثر، وإلى زيادة الإنتاج؛ وقد كمنت مهارته في عرض هذه الإجراءات باعتبارها ضرورية لتحقيق الانتصار وليس بوصفها إجراءات يائسة يبذلها المشرف على الهزيمة. وأنهى جوبلز خطابه قائلا: «والآن؛ أيتها الأمة؛ انهضي وأطلقي العاصفة من عقالها!».

وقد كانت هذه هي أعظم الساعات في حياة جوبلز، وجعلته زياراته للمدن الألمانية التي تعرضت للقصف الجوي ولضحاياها، جعلته أكثر الشخصيات الألمانية شعبية لمدة من الزمن، فتناقض ظهوره البارز والمتحدي تناقضا ملحوظا مع استمرار انسحاب هتلر مبتعدا عن الحياة العامة. ولكن على الرغم من زيادة الإنتاج الألماني، بالغا ذروته في زمن الحرب في العام

1944، فقد كان نجاح حملة الحرب الشاملة يعتمد اعتمادا مطلقا على استعداد هتلر لأن يمنح جوبلز سلطات أوسع. وعلى رغم أن جوبلز كان قد أصبح مستشارا في شؤون التعبئة للحرب الشاملة، فإنه لم يمنح أي سلطات محددة تمكنه من النفاذ بين شراك منافسيه أو التخلص منهم، ومن التحرك بكفاءة وسط البيروقراطية التي كانت من السمات المميزة للرايخ الثالث. وحينما فوض جوبلز بسلطات مطلقة لشن الحرب الشاملة في يوليو العام 1944، كانت الفرصة قد فاتت. ففي ذلك الحين ومع نزول الحلفاء في نورماندي، وغزو أوروبا في الغرب، وما كان الروس يحرزونه من نجاحات في الشرق، وتدمير المدن الألمانية بواسطة غارات الحلفاء الجوية، ومحاولة اغتيال هتلر، فقد غرقت حملة جوبلز لشن الحرب الشاملة ودفنتها أطلال الخرائب. بل إن آخر حملاته الدعائية الكبرى التي أعلنها بإطلاق صيحته «لقد حانت ساعة الردع» بدت جوفاء فارغة من المعنى؛ فكيف تستطيع القذائف الصاروخية «ف ـ 1» و«ف ـ 2» أن تدمر بريطانيا بينما تطبق قوات الحلفاء على برلين؟

لقد دخل الشعب الألماني الحرب العالمية الثانية دون أن يهتم ـ فيما يبدو ـ بما يتضمنه الهجوم على بولندا، وما سيترتب على هذا الهجوم؛ ولقد صدموا حين أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب عليهم. وقد دعم رفض بريطانيا التالي لعروض «السلام» الألمانية رأي جوبلز القائل بأن ألمانيا تخوض حربا دفاعية ضد حكومات معتدية ـ تمثل أقليات ثرية مسيطرة - تحاول تطويق الشعب الألماني وتدميره. ويبدو أن هذه الفكرة قد أثمرت ثمارها على رغم أن النصر ـ في البداية ـ في الغرب قد لعب ـ دون شك ـ دورا أساسيا ـ في ازدياد الحماس للحرب. ولكن لم يكن الشعب الألماني ولا الحكومة النازية مستعدين لحرب طويلة؛ فقد أدى نقص بعض الاحتياجات، والغارات الجوية البريطانية المبكرة بالإضافة إلى الفشل في كسب معركة بريطانيا، أدى كل هذا إلى عودة الشكوك التي بلغت ذروتها حينما طار «هيس» إلى بريطانيا في مايو العام 1941. ثم عادت المعنويات إلى الارتفاع ثانية مع النجاحات الأولية للجيوش الألمانية في روسيا في صيف العام 1941، ولكن هذه المعنويات عادت فانهارت مع دخول الشتاء الروسي، وإيقاف الزحف على كل من لينينجراد وموسكو وستالينجراد. غير أن الحملة الروسية - من نواح عدة -

هيأت للدعاية النازية أعظم فرصة أتيحت لها في سنوات الحرب. فلأول مرة، وجهت الدعوة إلى «الشعب» الألماني لتقديم التضحيات دعما للجيش ومساعدة له. فلقد ضاقت الفجوة بين الجيش والأمة بقدر ملحوظ بعد العام 1942، وكانت فجوة واسعة للغاية في الفترة بين 1939 و1941، فأصبحت الأمة الألمانية بأسرها مشاركة في حرب شاملة، وبدأ المدنيون يعانون بدورهم بسبب الغارات الجوية للحلفاء. وكانت تلك الأحداث هي الفرصة التي أتيحت للنازيين لكي يوحدوا الأمة. أما الحلفاء، فإنهم بدعوتهم للاستسلام غير المشروط فقد طابقوا بين الشعب الألماني والحزب النازي وجعلوهما شيئا واحدا إلى درجة لم يكن جوبلز قادرا على تحقيقها، فأصبح الاثنان (الشعب والحزب) في قارب واحد وهو نفس ما أكدته الدعوة إلى الحرب الشاملة. ولقد كانت هذه النزعة القومية هي ما خلط الناس بينها وبين الدعاية. أما الدعاية النازية فقد جعلت من النزهة الوطنية والدعاية شيئا واحدا إلى الدرجة التي جعلت الحلفاء حينما وصلوا برلين، يعرفون أنه لا بد لهم من وضع وتنفيذ برنامج شامل لفترة ما بعد الحرب، يستهدف «تصفية النازية».

24 الدعاية والحرب الباردة وعصر التليفزيون

لم تكن « إعادة التربية السياسية » لألمانيا سوى عنصر واحد من عناصر الصراع بين الغرب والشرق. فمع هزيمة دول المحور، تحلل «الإسمنت» الذي كان يربط حلفاء زمن الحرب بعضهم ببعض. وسرعان ماتحول العداء المتبادل بين الدولتين العظميين إلى «الحرب الباردة»: حرب بين أيديولوجيات، حيث أصبحت الأسلحة فيها أقل أهمية من الكلمات، وعادت إلى السطح الخلافات الأيديولوجية الجذرية العميقة بسبب التخلص من العدو المشترك، وبسبب احتلال الجيش الأحمر لأوروبا الشرقية وقمعه لها، وبسبب عملية «أمركة» أوروبا الغربية بواسطة مشروع مارشال[1]. وأصبحت العلاقات السوفييتية ـ الأمريكية هي المركز المحوري الذي تدور حوله أفكار مابعد الحرب العالمية المتعلقة بالحرب والسلام، وذلك لأن تلك العلاقات ظلت تهدد ـ بشكل دوري ـ بأن تنفجر في شكل حرب ساخنة مثلما حدث العام 1948 مع حصار برلين أو في العام 1963 مع أزمة الصواريخ الكوبية. ومع ذلك، فعلى الرغم من الصدامات الإقليمية

الخطيرة التي انتشرت حول العالم وبخاصة في كوريا (من 1950 إلى 1953) وفي الشرق الأوسط (1967 و1973) وفيتنام (1963 ـ 1975)، فقد تجنبت القوتان العظميان شن حرب عالمية ثالثة يمكن أن تهدد بدمار الكوكب بأسره. فقد أسفرت الأسلحة النووية عن نشوء موقف جديد تماما لم تعد معه مخاطر شن الحرب مساوية بوضوح للمكاسب المحتملة؛ ففي صراع نووي لا يحتمل أن يخرج أحد الأطراف منتصرا فائزا بشكل واضح. وتعبر الحروف الأولى للكلمات (الإنجليزية) التي سميت بها نظرية «الدمار المؤكد المتبادل ـ Mutual assured Dertsuction» أي «Mad» (التي تعني: مجنون) تعبر عما أسفرت عنه تلك الأسلحة النووية. وعلى الرغم من الصدام والاحتكاك المتكرر بين الدولتين العظميين من أجل السيطرة والمكانة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، فإن واحدة منهما لم تخاطر ببدء صراع جديد إلا إذا كانت على استعداد ـ ببدئها ـ أن تعمل على فنائها هي. وتشير نظريات الشتاء النووي إلى أن جزءا واحدا من ترسانة الأسلحة النووية الموجودة في العالم يكفي لتدمير الغلاف الجوي للكوكب ومناخه، حتى أنه لو قيض لأحد الطرفين أن «يفوز» في الصراع فإنه سيخسر كل شيء فيما بعد.

وفي مثل هذه الظروف برزت الدعاية بوصفها بديلا للحرب الحقيقية؛ إذن أليس من المؤكد أنه من المقبول أكثر أن تصيح كل من الدولتين العظميين وتصرخ في وجه الأخرى بدلا من أن تتبادلا التراشق بالصواريخ النووية؟ ومع هذا فإن الدعاية ذاتها تعتبر تهديدا للسلام. فكيف إذن ترتبط الظروف الجديدة للعصر النووي بالنظرية القديمة القائلة بأن الدعاية هي أحد الأسباب المؤدية إلى الحرب؟ في العام 1964 كلف «المركز العالمي لحكم القانون» كلا من جون هويتون John Whitton وآرثر لارسون Arthur Larson أن يدرسا ذلك السؤال، فبدأ البحث الذي شمل تقريرهما بالعبارة التالية: «الدعاية من الأسباب المؤدية إلى الحرب». وأضافا بعد ذلك يقولان: «إن القول بأن الدعاية في حد ذاتها تزيد من مخاطر الحرب ليس من قبيل الكلام النظري أو الإنشاء المنسق. وهناك دليل تاريخي مقنع يدل على التعجيل الفعلي بنشوب الحرب بواسطة وسائل دعائية متعمدة».

ويمضي هويتون ولارسون للإشارة إلى العديد من الأمثلة التي حدث فيها مثل ذلك، في محاولة لتكريس فكرة « نزع السلاح في حرب الكلمات».

فمن إذن يمكن أن يشك فيما حاول هذا الكتاب أن يبينه من أن الدعاية كانت أحد العوامل المكونة لأصول الحروب ـ عبر التاريخ ـ وأسبابها وأساليب إدارتها؟ غير أن هذا يتجاوز الهدف ويبتعد عنه بمعنى ما. فالدعاية لاتتسبب وحدها في الحرب، ولا هي حتى أحد أسبابها الرئيسية؛ إنما يتسبب فيها أصحاب السلطة الذين يوازنون بين المخاطر الممكنة والمكاسب المحتملة، حتى يحققوا أهدافهم بوسائل مختلفة عن الوسائل السلبية. لقد قال كلوزفيتز [2]: إن الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل مختلفة. إن السياسيين هم من يشنون الحرب وسياساتهم هي التي تسببها؛ وصنعتهم هي فن الممكن. والدعاية لاتعمل في فراغ منفصل عن الحقائق الاجتماعية أو السياسة. إنها وسيلة أساسية يحاول القادة بواسطتها أن يكسبوا التأييد العام من الجمهور لسياساتهم أو أن يتجنبوا بواسطتها المعارضة لتلك السياسات. ويتوقف نجاحهم ـ أو ما يخالف ذلك ـ في إنجاز هذا الهدف، على مقدار مهارتهم في استغلال فن الدعاية. ولكن مجرد ازدياد الدعاية زيادة حادة كبرى في القرن العشرين لا يجعل نشوب الحروب أكثر احتمالا؛ وإنما يعني أن الدعاية قد جعلت من فن السياسة ممكنا أكثر مما كان.

وفي الحرب الباردة أصبحت الدعاية استمرارا للسياسة بوسائل أخرى. وفي العصر النووي، عندما أصبحت الأولوية لدى الدولتين العظميين هي المحافظة على «التوازن النووي» بهدف ردع الطرف الآخر عن بدء الحرب، أصبحت الدعاية وسيلة أساسية تحارب الدولتان العظميان إحداهما الأخرى بها بواسطة الكلمات بدلا من الحرب المادية. ودائما ما بث هذا الخوف في القلوب الواهنة. فعلى سبيل المثال لا يستطيع إلا المجنون أن يستنتج أن المكاسب المحتملة الناتجة من توجيه «ضربة أولى» سوف تفوق مخاطر الإبادة النووية. ومع هذا فإن «القدرة على توجيه الضربة الأولى» تظل عنصرا مهما في الحرب النفسية التي تصاحب سباق التسلح النووي. ولو سئل أحد الطرفين إن كان يفضل أن يسدد هو الضربة الأولى، فلابد أن يستبقي لنفسه خيار أن يقول: «أجل» خوفا من أن يستفيد الطرف الآخر من قول:«لا». إنها مباراة في الشطرنج بين القوتين العظميين، حيث ينبغي أن تقابل كل حركة بحركة مضادة. وبعد ما يقرب من نصف قرن من الممارسة، أصبح من الممكن أن يقال إن دور الدعاية في دفع الطرف الآخر

إلى التخمين ـ هو حتى الآن[3] ـ المساعدة في حفظ السلام.

وفي هذا الجدل النووي ترتفع حدة الانفعالات؛ مع تزعم جماعات الضغط المناهضة ـ بالكلام ـ للتسلح النووي والطاقة النووية، حملة دعائية تلعب على أوتار المخاوف والهموم الحقيقية التي يتقاسمها كل من يعيشون في العصر النووي. وفي هذا، كما في مجالات عدة أخرى، تمتع المتخصصون السوفييت في الدعاية بميزات كبيرة بالمقارنة مع نظرائهم الغربيين. فهم يستغلون الاختلاف الديموقراطي الصحي، لكي يضغطوا بشكل مستمر على الحكومات الغربية حتى تنزع سلاحها، محتمين بما يعرفونه من عدم وجود أو إتاحة متنفسات مشابهة فيما وراء الستار الحديدي. وقد أنجز انتصار كبير في السبعينيات، حينما وقف الرأي العام الغربي ضد فكرة إنتاج قنبلة نيوترونية، بوصفها «سلاحا رأسماليا غير إنساني» لأنه يقضي على البشر ولكنه يترك المباني والأشياء سليمة. وترد الحكومات الغربية بتأكيد الحاجة إلى «رادع» ضد ماثبت أنه نظام ديكتاتوري عدواني، فتشير إلى ما حدث في المجر العام 1956 وفي تشيكوسلوفاكيا العام 1968 وفي أفغانستان فيما بين 1979و 1988. ويظل الاتحاد السوفييتي هو « العدو» الذي ينبغي أن يستعد الغرب للدفاع عن نفسه ضده تطبيقا للعقيدة القائلة: «إن من يستحق السلام يجب أن يكون مستعدا للحرب». كان الكاتب الروماني فيجينيوس هو الذي كتب تلك الكلمات في القرن الرابع، ولكنها اكتسبت المزيد من الأهمية والمغزى في ضوء تجربة الثلاثينيات، حين وجدت الدول الديموقراطية غير المسلحة نفسها مضطرة لأن تقبل مطالب الديكتاتوريين الطغاة. ولا يعد هذا المزج من التبرير التاريخي والنظري للحفاظ على التوازن النووي في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية سوى منطقة واحدة من المناطق التي ستزدهر فيها معركة الدعاية، سعيا إلى كسب قلوب الناخبين المحبين للسلام ودافعي الضرائب، وعقولهم.

إن الخوف هو أصل هذه المعركة وجذرها. فلا شك في أن الخوف من «القنبلة» يغذي العقلية الانهزامية ـ السلامية ـ التي تدحض نصيحة فيجينيوس وتكذبها. ولذلك لابد من تصنع الخوف من «العدو». فمادام «العدو» امتلك «القنبلة» فإن محبي السلام سوف يخشونه على الدوام، سواء كانوا من السوفييت أو من الأمريكيين. وتستغل الدعاية تلك المخاوف

في كل من المعسكرين لتبرير الإنفاق على التسلح. ولا بد أن ترسم صورة الطرف الآخر بحيث يبدو عدوانيا عسكري النزعة وقمعيا، وباعتباره تهديدا حقيقيا لنوايا موسكو أو واشنطون. إنه صراع من أجل الاستيلاء على المراكز الحيوية المؤثرة في المنازعات الدولية حتى يضمن من يفوز بها التأييد الداخلي، وتأييد الرأي العام في بلاد حلفائه. وقد قال الرئيس نيكسون ذات مرة: « قد يبدو تعبيرا ميلودراميا القول إن الولايات المتحدة وروسيا يمثلان الخير والشر. ولكننا لو فكرنا في الأمر بهذه الطريقة لأعاننا هذا على توضيح منظورنا الذي ننظر من خلاله إلى الصراع العالمي». إن مواقف من هذا النوع هي التي تنتج الدعاية التي تساعد بدورها على التسبب في الحرب. ولذلك فإن القضية هي كيفية النزول بصورة الخصوم المحتملين لإبعادها عن موضع «العدو» الذي يحتلونه في العقلية العامة[4].

ويمدنا مثال الولايات المتحدة في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات حين كانت خطوط القتال في الحرب الباردة قد تحددت، يمدنا بصورة ممتازة لأخطار الدعاية التي تحركها الكراهية وتدفعها. لقد خلقت الحملة المعادية للسوفييت التي تخللت جميع جوانب الحياة الأمريكية، والتي تمثل رأس حربتها في لجنة النشاط المعادي لأمريكا في مجلس النواب وتوجتها عملية مطاردة للخصوم أشبه بمطاردة السحرة[5] تحت تأثير النزعة الماكارثية في أوائل الخمسينيات، خلقت مناخا من الخوف لم يكن من الممكن في ظله التسامح مع أي تعاطف مع «العدو» . وغذيت عملية تحول حليف سابق في زمن الحرب إلى عدو في زمن السلم، عن طريق عرض أحداث ما بعد الحرب بأسلوب وفي ضوء عدائيين بصورة حادة. ولم يكن «التهديد الأحمر» وقفا على أوروبا وجنوب شرق آسيا، وإنما كان يهدد «أسلوب الحياة الأمريكية» ذاته. وتولت الكتب والمجلات وجماعات المراقبة والمتابعة الساهرة ـ ككلاب الحراسة ـ والتي غالبا ما كان يمولها ويشجعها مكتب التحقيقات الفيدرالي (F.B.I)، تولت تغذية وإلهاب مناخ لم يكن ليسمح بأي رأي في الروس سوى أنهم «الأعداء». لقد كانت تلك حملة جعلت حملات الحرب العالمية الثانية عن وجود «طابور خامس» نازي تبدو باهتة بلا قيمة. وأصبح العدو «الكامن في الداخل» الجديد هو جميع أبناء المجتمع الأمريكي الذين أبدوا ـ في أي وقت من حياتهم ـ أي نوع من التعاطف مع

قضايا الشيوعية أو الاشتراكية أو الليبرالية، حتى لو كان ذلك قد حدث في أثناء فترة الحرب نفسها. ولكن ما هو أكثر شؤما وما أنذر بالسوء، هو وصم كل من احتج على أي إجراء حكومي بأنه « مخرب» فصار الأمر كما يبدو مما ذكرته إحدى الجرائد السينمائية في تغطيتها لأعمال الاحتجاج العامة في نيويورك العام 1949، بقولها: « لقد كان ميدان اليونيون (الاتحاد) في نيويورك مسرحا لهذه المشاهد من العنف الأحمر. فمن بين صفوفهم سوف يأتي المخربون والجواسيس والهدامون إذا ما فرضت الحرب العالمية الثالثة على أمريكا». وجاء التليفزيون ـ هذا الوسيط الإعلامي الجديد ـ بالتهديد ذاته إلى غرف معيشة الأمريكيين العاديين الذين لم يكونوا يهتمون من قبل بالشؤون السياسية. وامتلأت الصحافة والتليفزيون بالجواسيس السوڤييت والعناصر الهدامة من الأمريكيين؛ واستغلت هوليوود بدورها هذا المزاج الهيستيري بأفلام من نوع «امرأة على الرصيف، الرقم 13»، وكان اسمه في الأصل «تزوجت شيوعيا». بل ظهر فيلم من نوع الخيال العلمي يدعى : «هُم!» الذي دار حول نمل « أحمر» ـ وهو اللون ذو المغزى المهم والموحي ـ يطير فيستقر في شبكة الصرف الصحي لمدينة لوس أنجلوس ويستولي عليها. وحينما قام الروس بتجربة أول قنبلة ذرية لهم العام 1949 اتخذ التهديد أبعادا وبائية في وسائل الإعلام الجماهيرية، خاصة مع انتشار الاعتقاد بأن السر النووي قد سرقه الجواسيس من أمريكا.

وما كان للمعركة أن تقتصر على الأمريكيين وحدهم، فقد حرص مقاتلو الحرب الباردة على أن يحملوا المعركة إلى الاتحاد السوڤييتي. وفي أحد البرامج التليفزيونية ـ وكان يدعى «مرصد لونجينوس: جريدة تليفزيونية عن قضايا الساعة المهمة» ـ قال إيمانويل سبللير، عضو الكونجرس بمجلس النواب:

> لا شك في أن روسيا تكسب الآن معركة الدعاية. ولو سمح لي لقلت إنني أود أن تستخدم «قنبلة حرف الحاء» أي قنبلة الحقيقة، وأن أفجرها فوق أوروبا بأسرها وخاصة حيث يسيطر الشيوعيون... إنني أفضل الاقتصاد ، ولكن حين تصل الأمور إلى شن الحرب، شنها بدلا من السلام، فلن يكفي ما ننفقه مهما كان حجمه.

هكذا شنت «الحرب الصليبية من أجل الحرية» بدافع ظاهري هو تدعيم قدرة شعوب شرق أوروبا المحبة للحرية على التخلص من النير العسكري السوفييتي، وذلك عن طريق إمدادهم بالأخبار « الموضوعية» والمعلومات من خلال إذاعة «راديو أوروبا الحرة» الجديدة، ثم إذاعة «راديو التحرير» التي تغير اسمها إلى «راديو الحرية» فيما بعد.

وعلى حد ما قاله المغني الشعبي المحبوب بينج كروسبي في أحد الأفلام حينما كان يدعو في دور السينما إلى مساهمة الجماهير في التمويل:

> أريد أن أخبركم بما اكتشفته في أوروبا . إن لنا أصدقاء كثيرين ممتازين وراء الستار الحديدي، وربما بلغ عددهم 50 أو 60 مليونا . وهم بالطبع ليسوا من الروس وليسوا شيوعيين. إنهم أناس محبون للحرية يعيشون في البلدان الأسيرة، ويرفضون أن يصدقوا الأكاذيب الحمراء الكبيرة التي يرويها لهم الشيوعيون. وهل تعرفون لماذا لا يصدق هؤلاء الناس تلك الأكاذيب ؟ لأننا ، أجل، لأننا ، أنت وأنا وملايين غيرنا من الأفراد الأمريكيين، قد وجدنا طريقة لاختراق الستار الحديدي بواسطة الحقيقة؛ وتلك هي إذاعة «راديو أوروبا الحرة» أقوى سلاح في الحملة الصليبية من أجل الحرية. وأنتم تعرفون أننا نساعد في منع الحرب العالمية الثالثة. ولكنها طريقة تتطلب دولارات... وهذا ما نستطيع أن نقدمه : دولارات الحقيقة.

ولم تكن المساهمات العامة كافية للإنفاق على هذه الحملة الدعائية التي تدعمها وكالة الاستخبارات المركزية بشكل سري. وحاول رونالد ريجان أن يضيف تأييده الخاص، بقوله: « إن الحملة الصليبية من أجل الحرية هي فرصتك وفرصتي لمحاربة الشيوعية. فانضم إلينا الآن بإرسال مساهمتك... أو انضم إلى الجماعة المحلية حيث تقيم».

وقد أصبح استدعاء ورفع الدعم الجماهيري العام أمرا أساسيا، بالنظر إلى الاعتقاد الذي انتشر في أمريكا عن أن الروس قد اختلسوا لأنفسهم قصب السبق في الصراع الدولي الدعائي الذي أعقب الحرب. وفي العام 1948 صدر قانون «سميث ـ موندت» لكي يعيد إلى الحياة من جديد إدارات

الاستعلامات الأمريكية لما بعد الحرب « من أجل ترويج فهم أفضل للولايات المتحدة في البلاد الأخرى، ولزيادة الفهم المتبادل بين شعب الولايات المتحدة وشعوب البلاد الأخرى». ويعد هذا تعريفا تقليديا عريقا لـ «الدعاية الثقافية»، أو الدبلوماسية الثقافية ـ مثلما يفضل البريطانيون والفرنسيون أن يدعوها ـ غير أن هدفها كان سياسيا بشكل واضح في مناخ الحرب الباردة. وقد وضح هذا كل الوضوح حين شن الرئيس ترومان حملته «من أجل الحقيقة» ضد الشيوعية عقب انفجار الحرب الكورية، مع رصد الكونجرس لميزانية ـ لهذه الحملة ـ تبلغ 121 مليون دولار. وفي العام 1951 أنشأ الرئيس الأمريكي «هيئة للإستراتيجية النفسية» من أجل تقديم المشورة لمجلس الأمن القومي. وفي العام 1953 كان هناك مستشار شخصي في الحرب النفسية يعمل في البيت الأبيض لمعاونة الرئيس آيزنهاور. إن الدرجة التي بلغها التعاون يدا بيد بين كل من الدعاية والحرب النفسية ـ من جانب ـ والسياسة الأمريكية في أعلى المستويات، إن هذه الدرجة يعكسها اعتقاد آيزنهاور الذي تعبر عنه كلماته ، حيث يقول:

> إننا نخوض الآن حربا باردة. ولابد لهذه الحرب الباردة من هدف ما، وإلا لكانت بلا معنى. إننا نخوضها ـ ونقودها ـ على أساس الاعتقاد بأنه إذا لم تكن هناك حرب، وإذا سمح لنظامين مختلفين من الحكومات أن يعيشا جنبا إلى جنب، فإن نظامنا نحن هو من سيفوز في المدى الطويل لأنه صاحب الجاذبية الأعظم للناس في كل مكان وللبشرية كلها؛ وإن نظامنا نحن هو من سينزل الهزيمة بكل أنواع الحكومات الديكتاتورية لأنه صاحب الجاذبية الأعظم للنفس الإنسانية، وللقلب الإنساني وللعقل الإنساني...

وفي سبيل هذا الهدف، راحت إذاعة : «صوت أمريكا» (Voice of America أو : V.O.A ـ الإذاعة الخارجية الأمريكية الرسمية)، تبث برنامجا يوميا مدته 28 ساعة في 34 لغة مختلفة حول العالم. وفي العام 1955 أصبحت هذه الإذاعة تبث 850 ساعة أسبوعيا، كجزء من حملة دعائية دولية شاملة تديرها إدارة خدمات الاستعلامات الأمريكية.

ولقد سعت هذه الجهود إلى تحويل أمريكا إلى وضع الهجوم بوصفها

بطلا للحرية وللديموقراطية. ومع ذلك، فلا يسع المرء إلا أن يخرج بالانطباع ـ الذي يقوم على الوثائق المعاصرة المتاحة ـ والذي يؤكد أن السوفييت هم الذين امتلكوا ـ في الحقيقة ـ المبادرة طوال العقد الذي أعقب الحرب العالمية الثانية. أما الهجوم الدعائي الساحق للاتحاد السوفييتي، والذي قامت بتنسيقه وقيادته إدارة لجنة الإثارة و الدعاية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي، والكومينفورم (الذي أسس العام 1947 لكي يحل محل الكومينترن المنحل)... أما هذا الهجوم فقد تراوح بين الكتب والكتيبات والنشرات والإذاعات والأفلام. واعتمادا على خبرة السنين ونظام الرقابة الشمولي الصارم والدعاية النشطة في الداخل، كانت الدعاية السوفييتية أيضا قادرة على استغلال الحرية النسبية التي تتمتع بها وسائل الإعلام الغربية لكي تنقل أنباء الشؤون السوفييتية، على رغم أن جميع الأخبار التي تخرج من الكتلة الشرقية كانت تعالج وتصاغ بيقظة صارمة قبل خروجها. ولسوف تكون هذه العوامل كافية دائما لكي تمد نظاما شموليا، «مغلقا» بميزة دعائية يتفوق بها على الأنظمة الديموقراطية. فلم يحصل المواطنون السوفييت إلا على نظرة أحادية الجانب إلى القمع الروسي للانتفاضة المجرية في العام 1956. وكان السبيل الوحيد الذي يستطيعون بواسطته أن يحصلوا على وجهة نظر بديلة ـ بالنظر إلى أن السفر إلى الخارج كان محدودا بصرامة شديدة ـ هو أن يستمعوا إلى الإذاعات المحظورة التي تبثها إذاعات: صوت أمريكا وراديو أوروبا الحرة والإذاعة العالمية التي تبثها ال:«بي. بي. سي». وفي الداخل شدد الحزب الشيوعي سيطرته على وسائل الإعلام المحلية بشكل أكثر قوة في العام 1957، حينما وضع الراديو والتليفزيون تحت إشراف لجنة الدولة للبث الإذاعي والتليفزيوني. وحينما أقيم سور برلين في العام 1961 اكتملت تقريبا قدر ة النظام السوفييتي على تصوير الولايات المتحدة في صورة المعتدي، وتقديمها بهذه الصورة لجمهور دعايته في أزمة الصواريخ الكوبية في العام التالي، حتى عندما أحجمت الولايات المتحدة عن تصعيد الأزمة.

وفي ذلك الحين كانت جبهة القتال قد انتقلت إلى منطقتين جديدتين: العالم الثالث والفضاء الخارجي، فبينما راحت عملية تصفية الاستعمار تتقدم بخطو متسارع في الخمسينيات، مع انسحاب الإمبراطوريات الأوروبية

القديمة من مناطق فتوحاتها التاريخية، حاول السوفييت أن يملأوا الفراغ الذي نشأ ـ بذلك الانسحاب ـ في كل من أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وقد كان الأمريكيون مستعدين للوصول إلى حافة الإبادة النووية بسبب كوبا لكي يثبتوا أنهم لايزالون يعتبرون أمريكا الوسطى والجنوبية «فناءهم الخلفي»، حيث لاينبغي أن يتجاسر شيوعي، حتى على الرغم من أن أسوأ مبالغات العهد المكارثي كانت قد ولت. ولذلك فقد اعتمد السوفييت ـ منذ ذلك الحين ـ على التسلل والدعاية. وفي العام 1962 كان الراديو السوفييتي يبث 1200 ساعة أسبوعيا للبلدان الأجنبية، ولم يكن موجها منها إلى أوروبا الغربية سوى 250 ساعة فقط. ثم أصبح لراديو موسكو منافس يتمثل في راديو بكين، ولكن العداء الروسي ـ الصيني كان عند الأمريكيين ثانويا بالنسبة للزيادة الكثيفة في الدعاية الشيوعية الدولية. وإذ كانوا قد رسموا الخط بأنفسهم في أمريكا اللاتينية: عند كوبا، فإنهم كانوا سوف يرسمون الخط بأنفسهم أيضا ـ في آسيا ـ عند ڤيتنام.

وقد برهن الرئيس كينيدي أنه أستاذ في استخدام الوسيط التليفزيوني الجديد. فلقد بلغت مهارته بوصفه «سياسيا يعتمد على وسائل الإعلام»، وأكثر السياسيين في هذا المجال كفاءة منذ روزفلت، حتى أن الكثير من الأساطير التي تحاك عن إدارته ماتزال تتحدى السجل التاريخي الفعلي. لقد ساعده شبابه وصورته النشطة، إضافة إلى قدرته على العثور على العبارة الموجزة النافذة المناسبة أمام آلات التصوير، ساعده كل هذا في تقديم نفسه في صورة زعيم جذاب للعالم الغربي فيما كان هذا العالم يسعى إلى وقف تقدم الشيوعية. وسرعان ما أدرك كينيدي أن سباق الفضاء سوف ينظر الناس إليه باعتباره مجالا لتأكيد المكانة والقوة من خلال الإنجاز التكنولوجي، فأطلق البرنامج الفضائي الأمريكي حتى يسرق الدوي الذي صنعه واحتكره السوفييت إثر إطلاقهم للقمر الصناعي «سبوتنيك» في العام 1957. غير أنه لم يقدر له أن يرى فوز أمريكا بهذا السباق إثر النزول الأمريكي على القمر العام 1969؛ كما لم يقدر له ـ بسبب اغتياله في دالاس في العام 1963 ـ أن يرى النتيجة المفجعة للحرب التي بذل الكثير لكي يزيدها اشتعالا في جنوب شرق آسيا.

ولم يزحف الصراع الڤيتنامي على شاشات التليفزيون الأمريكي إلا

بالتدريج، وبشكل يعكس خطوات التورط الأمريكي في الحرب. في العام 1963 كان هناك في فيتنام 16 ألف جندي أمريكي ونحو عشرين مراسلا حربيا خارجيا. وعندما حل العام 1968 كانت هذه الأرقام قد بلغت نصف مليون رجل و 637 صحافيا. كانت تلك هي أول حرب تدور أمام آلات تصوير التليفزيون، وكان تأثيرها في الرأي العام الأمريكي (والعالمي) وفي الحكومات ـ على السواء ـ تأثيرا عميقا. لقد ظهرت الصور التليفزيونية للرهبان المحترقين والأطفال المقتولين بالنابالم ومقاتلي الفيتكونج في أثناء إعدامهم وطائرات القتال المروحية... ظهرت كل هذه الصور ـ وغيرها ـ كل ليلة في غرف المعيشة في منازل المدنيين البعيدة بعدا قصيا عن جبهة القتال، فجعلت الحرب الفيتنامية أكثر حرب «مرئية» في التاريخ. فهل كان يمكن أن تستمر الحرب العالمية الأولى طوال المدة التي استمرتها لو أن التليفزيون كان متاحا آنذاك؟ ومع ذلك فقد استمرت الحرب الفيتنامية مدة أطول بكثير من تلك التي دامها ذلك الصراع، على الرغم من التليفزيون. ومع ذلك فإنه لن يكون إسرافا في الخيال أن نقول إن التليفزيون لعب دورا كبيرا في التسبب في أول وأكبر هزيمة عسكرية بالغة ودائمة الأثر في التاريخ الأمريكي.

ومن وجهة النظر الدعائية يمكن تقسيم هذا الصراع إلى ثلاث مراحل أساسية: المرحلة الأولى من 1941 إلى 1963 حيث لم يلعب الأمريكيون سوى دور ثانوي من خلال عدد قليل من المستشارين العسكريين، وهو دور لم يحظ إلا بالقليل النادر من الاهتمام الإعلامي. والمرحلة الثانية من 1963 إلى 1968 التي شهدت تصعيدا كثيفا في التورط الأمريكي على يدي إدارتي الرئيس كينيدي والرئيس جونسون وزيادة مماثلة في التغطية الإعلامية. وفي خلال تلك المرحلة أسس «المكتب المشترك للشؤون العامة للولايات المتحدة الأمريكية: Joint United States Public Affairs Office» أو (JUSPAO)، لتلبية احتياجات رجال الصحافة والإعلام الذين أيدت غالبيتهم الحرب. فقد كان من السهل أن يتعامل المكتب المذكور مع ـ وأن يسيطر على ـ جماعات من الصحافيين عديمي الخبرة الذين كانوا يحاولون أن يحققوا لأنفسهم الشهرة، واستغل المكتب اعتمادهم على الأخبار الواردة من جبهات القتال في الشمال. ولم يكن ظهور الرقابة العسكرية محسوسا، على رغم

اتساع فجوة التصديق حين بدأ عدد قليل من الصحافيين في مراجعة وفحص «الحقائق» التي كانت المصادر الرسمية تصدرها في سايجون؛ فوجدوا تضاربا كبيرا بين الروايات الرسمية عن المعارك التي يصدرها المكتب وأرقام الخسائر البشرية ما لاحظوه بأنفسهم، واستغلت هانوي تلك الثغرة في قابلية الروايات الأمريكية الرسمية للتصديق، وراحت هانوي تسمح للصحافيين بأن يروا ماتريدهم هي أن يروه فقط. وتبين للشمال، أنه على الرغم من تدني مستوى معداته وتكنولوجيته العسكرية فإن تراث الدعاية الحربية الشيوعي يستطيع أن يستغل الحريات الديموقراطية العزيزة والمقدسة. فلو استطاعت هانوي أن تكسب الصحافيين إلى صفها، أو أن تجعلهم ـ على الأقل ـ يشكون في قدرة أمريكا على كسب الحرب، إذن لكسبت هانوي الحرب في نيويورك وشيكاغو ولوس أنجلوس وسان فرانسيسكو.

وقدر للهجوم الڤيتنامي الذي عرف باسم «هجوم تيت The Tet Offehisive» في العام 1968 أن يكون نقطة تحول حاسمة[6]، وعكست التغطية الإعلامية تصاعد عداء الصحافيين الأمريكيين للتورط الأمريكي. وأكد الجنرال ويستمورلاند، القائد الأمريكي في العام 1979:

> لقد أساءت وسائل الإعلام الأمريكية توجيه الشعب الأمريكي وضللته بشأن «هجوم تيت»، وحين تبينوا أنهم أساؤوا الحكم على الموقف ـ وأنه كان في الحقيقة انتصارا أمريكيا ـ فإنهم لم يملكوا الشجاعة ولا الأمانة لكي يعترفوا بذلك.

غير أن الصور التليفزيونية في ذلك الوقت رسمت شيئا مختلفا كل الاختلاف... لقد راح وولتر كرونكايت ـ المذيع الرئيسي البارز والمحترم لمحطة «سي.بي.إس C.B.S» الإخبارية ـ راح يراقب الشاشة بفزع بينما مقاتلو الفيتكونج يجتاحون السفارة الأمريكية في سايجون، ثم يصيح:«ماذا يحدث بحق الجحيم؟ لقد كنت أظن أننا نكسب الحرب!»... كانت ثغرة المصداقية قد وصلت إلى أمريكا نفسها. وكان الرئيس ليندون جونسون قد فقد تأييد الأمريكيين متوسطي الأعمار، بينما نزل الأمريكيون الشبان والفتيات إلى الشوارع يحتجون، فقرر ألا يدخل انتخابات الرئاسة للعام 1968. وحاول الرئيس الجديد ريتشارد نيكسون أن يكسب الحرب بأن يمدها

إلى لاوس وكمبوديا وبواسطة القصف الجوي المكثف للشمال. وخفض عدد القوات الأمريكية المشاركة في الحرب بالتدريج كتنازل للرأي العام بينما قدم القصف الجوي الأمل في النصر، مثلما فعل في الأعوام من 1940 إلى 1943. ومع ذلك فإن القصف الجوي ـ مثلما ثبت في الحرب العالمية الثانية، وحتى إذا بلغ المدى الذي كان الأمريكيون مستعدين لبلوغه في الأعوام من 1969 إلى 1973 ـ لم يدمر معنويات العدو؛ بل ربما الحقيقة هي أن العكس هو ماحدث. إن محاولة ترمي إلى أن يثبت للرأي العام أن العسكريين قادرون على ضرب العدو فيما كانوا يخسرون المعركة الدعائية. غير أن قلوب الأمريكيين ومشاعرهم كانت قد انصرفت عن الحرب. وانحنى نيكسون للنتيجة الحتمية، وفي 1975 سحب آخر الجنود الأمريكيين من سايجون. ولا تزال الولايات المتحدة تحاول استيعاب هزيمتها في ڤيتنام، وهو مايعكسه طوفان الأفلام التي تنتجها هوليوود حول هذا الموضوع، عقب خمس سنوات من الصمت الفعلي إزاء القضية. ولكن ما الدرس الذي ينبغي استخلاصه من تجربة أول حرب تليفزيونية في التاريخ؟ لقد كتب ويليام سمول، مدير القناة التليفزيونية الإخبارية « سي. بي. إس» C.B.S في واشنطون يقول:

> حينما قام التليفزيون بتغطية أول حروبه في ڤيتنام، فقد أظهر للحرب حقيقة مرعبة بدرجة وأسلوب لم تألفهما كتلة المتفرجين الكبيرة. ولقد قامت بذلك حالة جديدة؛ لابد من دراستها بكل تأكيد، وهي أن هذه التغطية وما كشفته من حقيقة الحرب المرعبة كانت حاسمة في دفع الأمريكيين إلى رفض هذه الحرب، وفي غرس الشك في أمريكا في صدور الكثيرين من الشباب، وفي تدمير أسس بقاء ليندون جونسون رئيسا للبلاد.

لاشك ـ إذن ـ في أن عرض حرب حقيقية كل يوم طوال عشر سنوات، بالألوان الطبيعية على مائة مليون جهاز تليفزيون ـ في طول أمريكا وعرضها ـ لابد أن يكون سببا في كارثة فيما يتعلق بالمعنويات الداخلية. ومع ذلك فلقد تشكك الكثيرون في هذه المقولة. وتكشف استطلاعات الرأي أن أغلبية المشاهدين قبل العام 1968 كانوا متحمسين ـ بفضل التغطية الإعلامية ـ لتأييد جهود أبنائهم «هناك»؛ ولكن الكثيرين ـ بعد ذلك، وبعد التعرض

لمدة طويلة لمشاهدة البشاعات المختلفة ـ أصبحوا معرضين عن المشاهدة مشبعين ضدها، يتحولون بأذهانهم بعيدا عن أجهزة التليفزيون. ولكن هل يمكن أن نصرف النظر بهذه السهولة عن دور التليفزيون مع وجود كل هذه الصور للصراع المغروسة بقوة في قلب ووعي القرن العشرين؟

إن «ڤيتنام» تكشف بالتأكيد أخطار الحرب على التليفزيون، لقد كان المراسلون الصحافيون والمصورون عاجزين عن تقديم صورة «صادقة» للحرب بسبب الظروف التي كانوا يعملون في ظلها. فإذ كانوا يحملون بسرعة بالطائرات المروحية إلى داخل أو خارج مناطق القتال، فإنهم كانوا يبحثون عن الصور، وعن اللحظات المثيرة التي يطلبها رؤساء تحريرهم دون سعي إلى السياق الذي ينبغي رؤية تلك اللحظات في إطاره. والتأثير البصري من خلال شاشة صغيرة لايؤدي دائما إلى إعلام (صحافي) دقيق أو كاف، خاصة مع تنافس شركات التليفزيون ـ هناك في الوطن ـ على توسيع التغطية الإخبارية في «نشرات» سريعة مختصرة نافذة وحادة. ومن الطبيعي تماما أن يؤثر التحيز على ماتم تصويره من خلال كيفية معالجته (بالمونتاج) وكيفية عرضه، وماعرض منه بالفعل. وعلى رغم ضآلة القيود الرقابية ـ نسبيا ـ على ما كان بوسع الصحافيين تغطيته، فإنهم تصرفوا دائما كما لو كانوا رقباء على أنفسهم بالامتناع عن إدخال مواد ـ على نشراتهم ـ قد تثير امتعاض جمهورهم ونفوره. ومع ذلك فإن صورة قتل محارب من الفيتكونج بيد لووان رئيس شرطة سايجون في أثناء هجوم تيت؛ أو صورة فتاة صغيرة عارية تصرخ من آلام حروق النابالم التي أصابتها لهي المادة ذاتها التي تصنع منها الدعاية عن الأعمال الوحشية في أثناء الحرب. وكانت المشكلة هي أن الأمريكيين وحليفهم هم من كانوا يرتكبون هذه الأعمال الوحشية وليس الأعداء مثلما أثبتت مذبحة ماي لاي. وكان معنى النقص النسبي للمادة الموازية عن الطرف الآخر هو أن الأمريكيين قد بدأوا يتقاتلون فيما بينهم حول الفضائل النسبية للحرب وحسناتها؛ ولم يكن بوسع الأكثرية إلا أن تخرج باستنتاج واحد. ويمكن القول بإيجاز إن التليفزيون ساعد على تبسيط حرب معقدة، لأنه اعتمد ـ بحكم طبيعته ذاتها ـ على الإثارة والتعميم والانتقاء؛ فأكد بذلك الخرافة القائلة بأن «الكاميرا لاتكذب أبدا»

لقد أكد روبين داي، المذيع البريطاني المرموق في العام 1970 قائلا:

> ينطوي التليفزيون على نوع فطري من التحيز كامن داخله إزاء تصوير أي صراع فيما يتعلق بالوحشية التي يمكن إبصارها. ويمكنك بالطبع أن تقول إن هذه هي الحرب ـ الوحشية والصراع والتجويع والاقتتال ـ ولكن كل ماأود قوله هو إن ثمة قضايا أخرى تؤدي إلى ظهور تلك الأعمال وتتسبب فيها، وإن التلفيزيون لايعالجها (تلك الأسباب) المعالجة الكافية، وإن المرء ليتساءل إن كان سيصبح في المستقبل في وسع أي دولة ديموقراطية لم تكبح التغطية التليفزيونية ـ في كل منزل ـ أن تخوض أي حرب، مهما كانت حربا عادلة..

وقد استطاعت مرجريت تاتشر أن تجيب على هذا السؤال في العام 1982. فقد أتاح الصراع الذي نشب في جنوب المحيط الأطلنطي عقب غزو الأرجنتين لجزر فوكلاند، أتاح نموذجا لأي حكومة ديموقراطية ترغب في القيام بدعاية للحرب في عصر التليفزيون... ولم يكن ذلك دون مشاكل، ولكنه أصبح نجاحا مقررا، وخاصة في الولايات المتحدة.

فبينما كان الدبلوماسيون البريطانيون يعملون بجد في كل من واشنطون ونيويورك لكي يضمنوا تمرير الأمم المتحدة للقرار رقم 502 (الذي يدعو إلى انسحاب القوات الأرجنتينية قبل إجراء المزيد من المفاوضات حول مسألة السيادة) عُبئت وحشدت بسرعة حملة عسكرية من الأسطول الملكي (البريطاني) وأرسلت إلى جنوب الأطلنطي. وكان من المهم للبريطانيين أن تسمح الأمم المتحدة لبريطانيا بالتصرف ـ على أساس أن الأمم المتحدة هي الهيئة المعبرة عن الرأي العام العالمي ـ إذا كان لحكومة تاتشر أن تدير، في وطنها، حربا عادلة. وقدم الأرجنتينيون بوصفهم غزاة انتهكوا القانون الدولي وتخلوا عن عملية المفاوضات؛ وأنه لايمكن أن تكون ثمة مهادنة مع الديكتاتوريين الطغاة؛ وأنه ليس للأرجنتينيين ادعاءات تاريخية في جورجيا الجنوبية، ولكن هذا لم يمنعهم من الغزو، فكان ذلك برهانا على التصرفات العدوانية من جانب نظام شمولي يميني ينتهك حقوق الإنسان. ومنذ أن شن الرئيس كارتر حملته المناهضة للسوفييت في السبعينيات، والتي ركزت على موضوع «حقوق الإنسان» فإن هذا الموضوع صار قضية من قضايا الدعاية الدولية. ومنذ احتلال الإيرانيين للسفارة الأمريكية في طهران

واحتجازهم للرهائن الأمريكيين فيها، فقد أصبح السياسيون الأمريكيون متيقظين متنبهين للأنظمة التي تلجأ إلى هذا النوع الجديد من الإرهاب. ألم يكن الأرجنتينيون يحتجزون الآن 1800 من أهالي جزر فوكلاند ضد رغبتهم؟ ولم تترك للأمريكيين فرصة للشك في أنه ينبغي لتعاطفهم أن يكون مع شركائهم في حلف الأطلنطي، وهذا الحليف نظام ديموقراطي يكافح تجاوزات ديكتاتورية، وهو حليف تربطهم بهم ـ بالأمريكيين ـ صلات تاريخية في هذا الصدد. وكان التعاون الأمريكي بالنسبة للبريطانيين أمرا حيويا، وخاصة في مجال المخابرات، حتى ولو كان ذلك على حساب المخاطرة بحملة الرئيس ريجان ضد الشيوعية في أمريكا اللاتينية والتي كان يفترض أن تكون الأرجنتين هي طليعتها. ولذلك فلم يكن إقناع الأمريكيين بأن يتخذوا جانب البريطانيين عملا مباشرا؛ فكانت الحملة (الدعائية) البريطانية في الولايات المتحدة في إبريل العام 1982 ناجحة بالقدر نفسه لنجاح الحملتين المظفرتين فيما بين 1914 و 1917 أو فيما بين 1939 و1941.

ومع مرور القرار رقم 502 بأمان من الأمم المتحدة بتأييد أمريكي، تعين على حكومة تاتشر أن تواجه مسألة المعنويات في حرب حقيقية تدور على بعد ثمانية آلاف ميل من البلاد. وكان من الضروري ألا يكون هناك «تأثير فيتنامي» في هذا الصراع. فحينما حاولت الـ «بي. بي. سي» معاملة وجهة نظر العدو بأسلوب متكافئ (مع معاملة وجهة النظر البريطانية) انتقدتها الحكومة لأنها «متوازنة بدرجة غير مقبولة». وقالت السيدة تاتشر للبرلمان:

> إنني لأعلم مدى قوة شعور الكثيرين من الناس بأن القضية التي يحارب من أجلها أولادنا لم تطرح بما يكفي من القوة في بعض ـ ولا أقول في كل ـ برامج الـ «بي. بي. سي». وقد أكد لنا رئيس الـ «بي. بي. سي» وشدد بقوة على أن الـ «بي. بي. سي» ليست محايدة فيما يتعلق بهذه المسألة. وأنا آمل أن ينتبه إلى كلماته الكثيرون من المسؤولين عند الحديث حول قواتنا العاملة، حول أولادنا، حول شعبنا، وقضية الديموقراطية.

ولاشك في أن تشرشل ـ لو كان حيا ـ لامتلأ زهوا وفخرا بها. وكانت الحكومة أكثر سعادة بالموقف الذي اتخذته الصحافة الشعبية التي ألقت

بثقلها وراء الحكومة، على الرغم من أن تجاوزاتها (مثل العنوان الرئيسي الذي تصدر صحيفة «ذاصن» مرحبا بإغراق الطراد الأرجنتيني بلجرانو، والذي قال في كلمة واحدة: قفشتك! Gotcha») كانت أقرب إلى طبيعة صفحات الفضائح التي كانت تطبع في القرن الثامن عشر، منها إلى التقاليد الصحافية البريطانية الحديثة.

وقد ساعد قصر المدة التي استغرقتها الحرب - إذ لم تدم سوى شهرين فحسب - على الحفاظ على المزاج الوطني الذي اجتاح البلاد. غير أن الحكومة حظيت ببعض المميزات فيما يتعلق بترتيباتها للتغطية الإعلامية للحرب. إذ لم يسمح إلا لعدد محدود من الصحافيين بمصاحبة القوة القتالية المتوجهة إلى الحرب، وأدت بعض القيود الفنية إلى استحالة إرسالهم الصور مباشرة من السفن إلى المملكة المتحدة. وفيما كان الأسطول يبحر جنوبا أصبح واضحا أن الصحافيين أصبحوا جزءا طبيعيا من القوات التي يسافرون معها. وأدي هذا التطابق أو هذه الوحدة - في المخاطر والاهتمامات المشتركة - إلى أن اصبحت الرقابة غير ضرورية في البداية، على رغم وجود سبعة من الرقباء لفحص مايكتبه الصحافيون الثمانية والعشرون، فضلا عن أن الوقت الذي كانت تستغرقه الأفلام للوصول إلى لندن على السفن أو على الطائرات العائدة، أتاح للحكومة متنفسا مريحا من الوقت يضمن أن تصدر وزارة الدفاع مايمكن تسميته بـ «الرأي الصواب» عن الأحداث. وقيدت الأحكام الأمنية تقارير كل من الإذاعة والصحافة، إضافة إلى رغبة الصحافيين في عدم الإفصاح للعدو عن مكان تواجد وحدات القوة القتالية التي كانوا يعملون من فوقها. ونتج عن هذا أن اضطرت وسائل الإعلام في الوطن إلى استخدام صور تأتي من مصارد في أمريكا الجنوبية. وبما أن هذه بدورها كانت تحت سيطرة الدول المعنية، ودعائية بشكل فاضح، فإنها أدت إلى استثارة غضب الحكومة وخاصة إذا ما استخدمت هذه المواد بأسلوب غير انتقادي في النشرات الإخبارية السريعة؛ فأصبحت البرامج التحليلية فقط - بجمهورها الأقل عددا - هي القادرة على مواجهة تأثير دعاية العدو الصادرة عن الشاشات البريطانية الصغيرة. غير أن الحالة المزاجية المرحة التي تميزت بها الرسائل الواردة من الأسطول إضافة إلى أن النزعة الوطنية المتعصبة التي غلبت على الصحف الصغيرة

الشعبية (قال أحدالعناوين الرئيسية في «صن»: ابتهجوا؛ مذبحة!») ساعدت في رفع معنويات المدنيين.

وحالما بدأ إطلاق النار الفعلي في أوائل مايو أدى الاهتمام الحقيقي بسلامة القوات البريطانية، وخاصة بعد خسارة الطراد البريطاني «شيفيلد» إلى المزيد من الاتهامات الأكبر ضخامة والإدانات الأكثر حدة. فبينما وجه الاتهام إلى الـ «بي. بي. سي» بابتلاع الدعاية القادمة من الأرجنتين، ووجهت الاتهامات إلى الصحف الشعبية بأنها تبالغ في إثارة التعصب الوطني والتعطش إلى الدماء، فقد اتهمت وزارة الدفاع بأنها لاتصرح بما يكفي من المعلومات للصحافة. ويكشف هذا عن الجدل الخلافي الأبدي بين العسكريين ووسائل الإعلام في زمن الحرب: السرية ضد العلانية. وقد جسد المتحدث باسم وزارة الدفاع إيان ماكدونالد السرية التي يفضلها العسكريون بشكل تقليدي (وكان أسلوبه البطيء الموجه والخالي من التعبير، في ظهوره كل ليلة ـ في التليفزيون ـ قد جعله شخصية مشهورة على الصعيد القومي، وأكسبه اسم الشهرة الذي أطلق عليه: آلة الكلام حسب الوزن، أو: كل واحد «تكلم حسب وزنه» Speak Your Weight Machine!) ولكن سياسته كانت تتلخص في قاعدة: لا تكذب عامدا أبدا، ولكن لاتعرض سلامة القوات للخطر أبدا. وكان يعرف أيضا أن الأرجنتينيين يشاهدونه، فإذا ماساعده الإنكار على خداع العدو فأهلا ومرحبا. وزادت الرقابة المصاحبة للقوة القتالية، وحينما وقع غزو الجزر وضع القادة احتياجات الصحافيين في آخر قائمة أولوياتهم، وهو أمر ليس شاذا أو غير طبيعي. وكانت النتيجة أن حصل الجمهور البريطاني على القليل من المعلومات عما كان يدور حينما كان يدور بالفعل. وعلى الرغم من تقارير صوتية عدة عن العمليات فلم يكن هناك سوى القليل جدا ـ بشكل ملحوظ ـ من صور الحرب إلى أن انتهى كل شيء.

وبمعنى ما، كان رد فعل الحكومة إزاء التجربة الأمريكية في فيتنام مبالغا فيه، بالنظر إلى أن غالبية وسائل الإعلام البريطانية كانت مؤيدة للحرب. وعلى حد ما جاء في تعليق هنري كيسينجر وزير الخارجية الأمريكية الأسبق بقوله:«لو أننا تمكنا من أن تحظى سياستنا في فيتنام بما حظيت به رئيسة الوزراء من تأييد لسياستها في جزر فوكلاند، لكنت قد أصبحت

أسعد رجل في العالم». ولكن لم تكن السيدة تاتشر لتتقبل شيئا أقل من التأييد الكامل التام الخالي من أي نقد؛ فوقعت في الخطأ ذاته الذي وقع فيه بطلها السياسي وينستون تشرشل من حيث عدم الثقة في وسائل الإعلام الديموقراطية في زمن الحرب. فليس هناك صحافي وطني، خاصة ذلك الذي يعمل إلى جانب الجنود المقاتلين، يريد أن يكشف معلومات قد تكون ذات قيمة للعدو. غير أنه في دولة ديموقراطية يريد (هذا الصحافي) أن يحتفظ لنفسه بحقه في إبداء رأيه النقدي. وهو يعرف منذ زمن «راسل» في حرب القرم وماتلاها أن لأنبائه تأثيرا مهما في معنويات المدنيين، ومع ذلك فهو يحتفظ بالحق في أن ينتقد. والحكومات التي تحاول أن تراقب وأن تحظر الرأي، كشيء متميز عن الأخبار ومختلف عنها، هي أعداؤه الطبيعيون. وفي الصراع حول جزر فوكلاند خلطت حكومة تاتشر بين المصالح القومية والمصالح السياسية وجمعت بينهما فجعلتهما واحدا، فيما تتطلب الدولة الديموقراطية الصحية السليمة أن تفصل بينهما. والأسهل، وربما الأكثر قبولا، هو القيام بذلك الفصل في زمن الحرب، حين تعمل وسائل الإعلام كأنها السلاح الرابع من أسلحة الدفاع القومي. أما أخطار التضييق على التدفق الطبيعي للرأي ـ نقديا كان أو غير نقدي ـ في زمن السلم فهو التحدي الذي ينبغي للديموقراطية أن تقاومه.

إن التليفزيون بطبيعته ذاتها وسيط قادر على الإقناع. وتكمن قوته في أنه يسبك الرأي ويقولبه حسب صياغة خاصة، فيستثير النقد الذي تخشاه الحكومات. وفي الأنظمة الشمولية، تسيطر الدولة على هذه القوة؛ ولا شك في أن هذا يقيم قضية خاسرة لايمكن الدفاع عنها. فالتضييق على تدفق الآراء يعكس خوفا من الشعب؛ وهو مايمثل أحد الأسباب التي تجعل من سياسة المكاشفة والمصارحة Glasnost[7] مهما كانت محدودة، ماتزال تمثل تغيرا جذريا للنظام السوفييتي الذي اعتمد في الحفاظ على نفسه على قيادته للرأي العام وليس على اتباعه له. أما السياسيون الديموقراطيون فلا يحتاجون إلى الخوف من الرأي العام، على رغم أنهم دائما مايفعلون. أما الزعم بأن الرأي العام ساذج سهل الانخداع والتأثر بمختلف المؤثرات، فيكذبه تزايد استخدام السياسيين للعلاقات العامة والوكالات والوكلاء الصحافيين ووكالات الإعلان. أما السياسيون المهرة،

مثل كينيدي وريجان وتاتشر وجورباتشوف، فيعرفون أن السياسة الحديثة تعتمد على الصورة (*) بقدر ماتعتمد على الجوهر والمضمون. فإذا جمعت بين الاثنين بنجاح فسوف يكون لديك سياسي ناجح. والسياسة، مثل السلع والمنتجات الأخرى، ينبغي أن تباع لجمهور المستهلكين.

والتعايش السلمي منتج يحتاج لأن يباع للرأي العام العالمي. والخلافات في الرأي بين الأفراد وبين الأمم هي أمر حتمي ولايمكن تجنبه، غير أنه لايمكن أن يظل جانبا صحيا من جوانب المجتمع المتحضر إلا إذا أمكن تجنب العنف والحرب. إن الخوف والجهل هما العدوان الرئيسيان للسلام وللتعايش السلمي. ولقد كانت الوظيفة الرئيسية للدعاية هي إمداد ذلك الخوف وذلك الجهل بالوقود الذي يزيدهما اشتعالا، فاكتسبت لنفسها ـ بهذا ـ سمعة سيئة. ولكنها تستطيع أن تكون أداة لتحقيق هدف بناء وسلمي ومتحضر. وربما تكون بحاجة إلى اسم آخر، على رغم أن كلمات «العلانية» أو «الإعلان» Publicity أو «التنوير العام Public enlightenment» أو «إعادة التربية Re-education» وما إلى ذلك، قد استخدمت في العادة ـ لذلك الغرض ـ لكي تكون وسيلة لإخفاء النوايا الحقيقية. ولقد بدأ هذا الكتاب بالإشارة إلى أن ماتحتاج إلى الفحص والتدقيق حقا هي النوايا الكامنة وراء الدعاية، وليست الدعاية ذاتها. إن النوايا هي ماتسببت في الحروب وهي التي أطالت أمدها؛ والنوايا هي ماتستطيع منعها.

ومهما كان المصطلح الذي نستخدمه، فإن عصرنا هذا هو عصر الدعاية. وليس في هذا مايخيف الدول الديموقراطية، إذا ماكان للمرء أن يتقبل فكرة أن الدعاية ليست إلا عملية إقناع. إننا نحتاج إلى المزيد من الدعاية لا إلى التقليل منها، ونحن نحتاج إلى المزيد من محاولات التأثير في آرائنا، وإلى استثارة مشاركتنا النشطة في العملية الديموقراطية التي تعتمد على الرأي العام لكي تظل باقية. وفضلا عن ذلك فإننا ـ في العصر النووي ـ نحتاج إلى متخصصين في الدعاية للسلام وليس إلى متخصصين في الدعاية للحرب: أناس وظيفتهم هي زيادة التواصل والتفهم والحوار بين الناس المختلفين وبين العقائد المختلفة. ومع ذلك فثمة خصيصتان مهمتان: فلابد أن يصحب المزيد من الدعاية المزيد من التعليم؛ ولابد أن يصحبها

(*) صورة السياسي وسياساته في عيون الجمهور ـ المترجم.

أيضا المزيد من فرص الوصول إلى المعلومات التي يمكن أن يتشكل الرأي العام المتعلم على أساسها. فليس من المقبول أن نسمح بأن يتعرض الرأي العام للقصف بالأخبار والآراء الصادرة عن عدد محدد من المصادر المحكومة. فذلك كان هو الطريق الذي سارت عليه النزعة العسكرية الرومانية، والملكيات الاستبدادية التي اعتمدت الحكم المطلق، والشمولية الستالينية والديكتاتورية النازية. أما الرأي العام الحديث فيحتاج إلى فرص أعظم للحصول على الوسائل التي يستطيع بواسطتها أن يتعلم اتخاذ قراره، بدلا من أن يتخذ هذا القرار له. ولابد أن نتخلص من خرافة «القادرين على الوسوسة في العقول من مخابئهم» حتى نستطيع أن نتبين مقدار تأثيرهم في مدركاتنا ومفاهيمنا. ولابد أن نركز على الرسالة، لاعلى الوسيط الذي ينقلها، ولكي نفعل هذا فإننا بحاجة إلى تعليم أكثر وأفضل عن كيفية عمل الوسيط وماذا تعنية الرسالة. ونحتاج إلى المزيد من فرص التعرف على المجتمعات الأخرى حتى نتخلص من أنواع الخوف والجهل والتعصب(*1) التي تسببت في الحروب طوال التاريخ.

ولابد أن يكون السياسيون مسؤولين عن أعمالهم، وأن يساءلوا فيحكم عليهم ـ أو لهم ـ في ساحة الرأي العام الذي يعملون باسمه. ولابد أن يتبينوا أن الدعاية هي عملية إقناع، وأن الإقناع وسيلة ضرورية، وموضع ترحيب لصياغة الاتفاق الديموقراطي في عالم متحضر تهدده الإبادة النووية الممكنة بالفعل. فإذا اختلفوا مع الجمهور كان عليهم أن يقنعوا الجمهور بمزايا موقفهم. غير أنه لابد أن تتاح للجمهور فرص معرفة آرائهم وحق أن يكون موضع ثقة في أن يستجيب بأسلوب مسؤول. والتعليم (التربية Education) هو الشرط الأساسي في هذا السبيل؛ وليس إلا بواسطته نستطيع أن نقيم بأنفسنا ميزات أي رسالة بعينها بالمقارنة مع رسالة أخرى. فلا نتيجة تتحقق ولامعنى لمحاكاة الملك كانيوت[8] فنحاول إيقاف المد المتزايد للمعلومات والإقناع. إن وسائل الاتصالات بعيدة المدى، وتكنولوجيا الأقمار الصناعية تمدنا بالفعل بالمزيد من الأنباء والآراء بدرجة تفوق أي عصر سابق، وسوف تستمر هذه العملية في القرن القادم. فوسائل الإعلام أداة قوية من أدوات الحرية والديموقراطية. ويكمن التحدي في أن نضمن ألا

(*1) في الأصل: التسامح tolerance ـ وهو خطأ واضح وغير مقصود ـ المترجم.

يحتكر مصدر واحد للدعاية المعلومات والصور التي تشكل أفكارنا. فإذا حدث هذا، فسوف يعود المتخصص في الدعاية للحرب إلى العمل مرة أخرى.

ملاحظة حول المصادر

بما أنه لايوجد أي تاريخ عام للدعاية للحرب فقد اعتمدت على عدد كبير متنوع من الأعمال لايمكنني حصرها هنا لكثرتها الشديدة. وحيث كان ذلك ممكنا فقد اعتمدت على مواد المصادر الأصلية (في ترجماتها حينما كان ذلك متاحا) مثل النقوش الرومانية وأعمال المؤرخين الكلاسيكيين، والأغاني والتواريخ التسجيلية التي تعود إلى العصور الوسطى، والدعاية الحديثة المطبوعة والأفلام والأدلة الوثائقية. ومع ذلك فمن المحتم أن محض المجال الواسع الذي يغطيه هذا الكتاب يجعلني مدينا لأعمال عدد من المؤرخين المحدثين. وقد كانت بعض الأعمال العامة - بعينها - نافعة بشكل خاص، مثل كتاب «تاريخ فن الحرب» لمؤلفه H.W.KOCH (1987) وكتاب «الحرب في التاريخ الأوروبي» لمؤلفه مايكل هوارد (1973) وكتاب «الإقناع الجماهيري في التاريخ» لمؤلفه أولفير تومسون (1977) وكتاب «الدعاية وفن الحرب النفسية» لمؤلفه ت.هـ كوالتر (1962)، وكتابه أيضا «التحكم في الرأي العام في الدول الديموقراطية» (1985). وقد أمدتني أعمال أخرى باستبصارات ثمينة مثل كتاب مايكل والزر «حروب عادلة وحروب غير عادلة» العام 1977 وكتاب جيوفري بست: «الإنسانية في الأعمال الحربية» (1980) وكتاب إلياس كانيتي «الحشود والسلطة» العام 1963 وكتاب «وجه العدو» لمؤلفه سام كين (1986) وكتاب «المحافظة على العدو» لمؤلفه ف. هـ. هارثمان (1982) وكتاب «الدعاية والإقناع» لمؤلفيه: ج. جويت و: ف. دونيل (1986) وكتاب «الأعمال الحربية النفسية» لمؤلفه سي. رويتر (1974) وكتاب «الدعاية» لمؤلفه أنتوني رودس (1976). وربما كان أنفع كتاب لي ـ في مجلد واحد - رجعت إليه كمقدمة هو كتاب «الدعاية والاتصال في تاريخ العالم» صدر العام 1979 وأشرف عليه كل من: هـ. د. لاسويل؛ د. ليرنر؛ هانس سبير.

ولقد ظل المؤرخون العسكريون - حتى وقت قريب نسبيا - غير مهتمين بالجوانب النفسية من الحرب، قدر اهتمامهم بجوانب الخطط الجزئية والتعبوية والقيادة وما إلى ذلك. وعلى رغم ذلك فثمة عدد من الكتب احتوت جميعها على معلومات أساسية لدراسة الدعاية في الحرب، منها: كتاب «أصول الحرب» لمؤلفه أرثر فيريل (1985) وكتاب «الدولة الإغريقية في أثناء الحرب» (في مجلدين) لمؤلفه و.ل.برينشيت (1971-1974) و«الإسكندر الأكبر» لمؤلفه د. و. كارن (1948) و «الثورة الرومانية» لمؤلفه سير رونالد سايم (1939) و«القيادة وعبادة الشخصية» لمؤلفه: ج. ف. جاردنر (1974).

ويعد كتاب مايكل ماكوريك «الانتصار الأبدي: فن الحكم الاحتفالي في أواخر العصر القديم وبيزنطة وأوائل العصور الوسطى في الغرب» (1986)، على رغم أنه شديد التخصص، فإنه يساهم مساهمة مهمة في معرفتنا بالجوانب الاحتفالية والطقسية في العصور المظلمة.

أما بالنسبة للعصور الوسطى فيعد كتاب «فن الحرب في أوروبا الغربية خلال العصور الوسطى» لمؤلفه ك. ج. ف. فيربروجت (1977) كتابا لايقدر، إذ يحاول أن يدرس الجوانب النفسية للأعمال الحربية، وخاصة في أواخر العصور الوسطى. ويقدم فيليب كوثاميني في كتابه «الحرب في العصور الوسطى» الذي كان أول مانشر في فرنسا العام 1980، نظرة أكثر عمومية من سابقه.

ويعد كتاب «فن الحرب في أوروبا الإقطاعية (730 ـ 1200)» لمؤلفه جون بيلي كتابا تمهيديا. ويعد كتاب «الغزو النورماندي» الذي يضم وثائق هذا الغزو من إعداد و. آملين براون، كتابا أساسيا في هذا الموضوع. ولدراسة الحروب الصليبية، فإن دراسة ت. ب. مورفي لأوراق هذه الحروب في كتابه «الحرب المقدسة» (1976) تعد عملا لايمكن تقديره. ومن الكتب النافعة أيضا وخاصة عن القرن الخامس عشر كتاب مالكولم فيل «الحرب والفروسية» العام 1981. وثمة مجموعتان من الوثائق تقدمان نظرات مهنية في الآراء المعاصرة، وأولاهما مجموعة لويز وجوناثان وايلي سميث «الحروب الصليبية: الفكرة والحقيقة» (1095 - 1274) والصادر العام 1981؛ والثانية، وهي الأقوم «الحروب الصليبية: مسح وثائقي» والذي أشرف عليه جيبس أ. بروندیج (1962).
ومن مراجع بواكير المرحلة الحديثة كتاب «الحرب والمجتمع في أوروبا عصر النهضة» لمؤلفه ج. ر. هالي(1985) وهو يعد مقدمة ممتازة للموضوع . ولايزال الكتاب الرائع - في مجلدين - الذي وضعته إليزابيث آيزنشتاين هو أهم كتاب عن الطباعة صدر حتى الآن، وعنوانه «المطبعة كعامل للتغيير» وصدر العام 1979. وحول دعاية أسرة تيودور الباكرة يظل كتاب «الإبهار والاستعراض الفروسي وسياسات أسرة التيودور الأولى» وصدر العام 1978 كتابا نافعا إلى درجة لايمكن تقديرها مثل كتاب سي. إي. تشاليس « عملات أسرة التيودور» العام 1978. ويحتوي كتاب «السياسة والشرطة» لمؤلفه جيوفري التون (1972) على فصل حول نشاطات توماس كرومويل الدعائية؛ وقدم روى سترونج أنفع دراسة حول الدعاية الإليزابيثية في كتابه «عبادة إليزابيث» العام 1977 الذي يجب أن يقرأ مرتبطا بأعماله الباكرة «صور الملكة إليزابيث» العام 1963 و «الأيقونة الإنجليزية» صور الشخصيات الإليزابيثية واليعقوبية العام 1969 و «أسرة تيودور وصور الشخصيات اليعقوبية» الصادر العام 1969. وانظر أيضا كتاب «عصر الملوك والحاشيات» العام 1976 لمؤلفه ب. إير لانجر.
وحول شؤون إليزابيث العسكرية انظر كتاب جي كرويكشانك «جيش إليزابيث» العام 1946. وأفضل كتابين عالجا حرب الثلاثين عاما أولهما كتاب هربرت لانجر الذي صدر العام 1978 بهذا العنوان، والكتاب الأقدم الذي ألفه إي. أ. بيللر «الدعاية في ألمانيا خلال حرب الثلاثين عاما» (1940).
ويقدم كتاب «المجتمع الأوروبي من 1500 إلى 1700» والصادر العام 1984 لمولفه هنري كامينه يقدم خلفية نافعة واستبصارات مفيدة في هذه الفترة بشكل عام. وأفضل كتاب عن فرنسا في هذه الفترة هو كتاب «الدعاية المطبوعة في عصر لويس الرابع عشر» (1976) من تأليف جوزيف كليتس. وقام ج. بويس وبج كوران وب. وينجنيت بالإشراف على تحرير مجموعة نافعة من الوثائق حول أصول وتطور المطبعة، بعنوان «تاريخ الصحيفة من القرن السابع عشر حتى اليوم» العام 1978، ويحتوي على قائمة ثمينة بأسماء المطبوعات. ويعد كتاب هاريس عن «جماهير لندن في عهد تشارلس الثاني» العام 1987 يعد نموذجا للدراسات المعنية بالظواهر الصغرى في أوائل العصر الحديث؛ ويعد كتاب «الحشود في التاريخ» العام 1964 من تأليف جورج روديس مرجعا أصليا صغيرا.
وحول الثورة الأمريكية انظر كتاب «النشرات وحراب البنادق: حرب الدعاية في الثورة الأمريكية» (1961) من تأليف كارل بيرجر وكتاب سولومون لوتنيشي «الثورة الأمريكية والصحافة البريطانية 1775 - 1783» والصادر العام 1976، وكتاب كينيث سيلفرمان: تاريخ ثقافي للثورة الأمريكية» صادر العام 1976 وكتاب ر. م. كلارك «الرأي العام البريطاني والثورة الأمريكية» (1930).
ومايزال نافعا كتاب فيليب دافيدسون: «الدعاية والثورة الأمريكية» (1941) وكتاب آرثر شليزنجر «مقدمة الاستقلال: حرب الصحف حول بريطانيا» العام 1958. وحول فترة الثورة الفرنسية

يجذب الانتباه كتاب روبرت هولنان «الدعاية النابوليونية» العام 1950 وكتاب: م. أجولون «ماربان تدخل المعركة» العام 1981، وكتاب كليف أمزلي «المجتمع البريطاني والحروب الفرنسية» العام 1979.

وحول القرن التاسع عشر يظل كتاب « الخسارة الأولى» الصادر العام 1975 هو أفضل نقطة انطلاق وخاصة حول المراسل الحربي. أما كتاب جون ماكينزي «الدعاية والإمبراطورية» 1880 - 1960 فيلقي الكثير من الضوء على المشهد البريطاني. أما عن القرن العشرين، فثمة ثروة حقيقية من الأعمال المنشورة التي تبدو أكثر عددا من أن نؤكد هنا مايعالج موضوع الدعاية. ومع ذلك فلا يمكن تجاهل أعمال بعينها، وأكثرها أهمية كتاب «الدعاية البريطانية في الحرب العالمية الأولى» من تأليف م. ل. ساندرز وفيليب تايلور وصدر العام 1982؛ وكتاب ن. ريفر «الدعاية السينمائية الرسمية البريطانية في الحرب العالمية الأولى» وصدر العام 1986 وكتاب م. بالفور «الدعاية في الحرب 1939 - 1945» وصدر العام 1978؛ وكتاب ن. بروني و: د. و. سبرينج «السياسة والدعاية والفيلم: 1918 - 1945»، وصدر العام 1982 وكتاب «الدعاية السينمائية والإذاعية في الحرب العالمية الثانية» أشرف على تحريره ك. ر. م. شورت وصدر العام 1983؛ وكتاب ر. تايلور «الدعاية السينمائية» وصدر العام 1979، وكتاب ر. إي. هيرشتاين «الحرب التي كسبها هتلر» وصدرالعام 1979، وكتاب «هوليوود تذهب إلى الحرب» من تأليف س. ر. كوبس و ج. د. بلاك وصدر العام 1987؛ وكتاب ج. ليدر: كينو «السينما» وصدر العام 1960؛ وكتاب ب. كينيز «مولد دولة الدعاية» وصدر العام 1985 وكتاب أ. الدجيت و: ج. ريتشاردز «تستطيع بريطانيا ابتلاعها» العام 1986. وماتزال الحرب الباردة تنتظر مؤرخيها. ولكن الدراسات المتعلقة بفترة ما بعد الحرب تتضمن دراسة أ. هوبر «العسكريون ووسائل الإعلام» العام 1982؛ وكتاب الصنداي تايمز «نظرات الفريق العميق» حول حرب فوكلاند وصدر العام 1982. وحول المعنويات القتالية بشكل عام ينبغي للقراء أن يرجعوا إلى كتاب «وجه المعركة» من تأليف ج. كيجان وصدر العام 1976 وكتاب «الروح القتالية» من تأليف ف. م. ريتشاردسون وصدر العام 1978 وكتاب «خط إطلاق النار» من تأليف ريتشارد هولمز وصدر العام 1985.

لم تكن تلك الكتب سوى جزء صغير من الأعمال التي رجعت إليها طوال الأعوام الثلاثة الأخيرة، ولاحاجة إلى ذكر الكميات الضخمة من المواد الوثائقية، المنشورة وغير المنشورة والموجودة في أماكن عدة؛ فلجميع هؤلاء المؤلفين، أصحاب الأعمال الرئيسية أو الثانوية، الموتى أو الأحياء، شكري... وامتناني.

هوامش المترجم

المقدمة

(١) ـ ١ ـ ألبرت آينشتاين Albert Einstien (1879 ـ 1955) عالم الفيزياء (الطبيعة) المعاصر الكبير، واضع نظرية النسبية الخاصة ثم العامة (1905 ـ 1915) والمعادلة الشهيرة: (الطاقة = الكتلة * مربع سرعة الضوء) ومؤسس علم الفيزياء الحديث مع مواطنه ماكس بلانك. فاز بجائزة نوبل في الفيزياء العام 1922. ولد في ألمانيا وهاجر إلى سويسرا ثم إلى الولايات المتحدة ـ هربا من النازية ـ حيث أصبح مواطنا أمريكيا.

(١) ـ 2 ـ جوليوس روبرت أوبنهايمر Julius R. Oppenheimer (1904 ـ 1967) عالم الفيزياء النووية الأمريكي الشهير، مدير مشروع: «لوس ألاموس» للبحوث والتطوير الذي أسفر عن صنع وتفجير أول قنبلة ذرية. ورأس اللجان والهيئات الاستشارية الأمريكية العليا المسؤولة عن كل من التسلح النووي وحظره ومراقبة انتشاره. عارض صنع القنبلة الهيدروجينية ففقد حظوته لدى المؤسسة العسكرية الأمريكية وتعرض لكثير من المتاعب قبل إعادة اعتباره ومنحه إحدى أكبر جوائز العلم الأمريكية (جائزة فيرمي) العام 1963.

(١) ـ 3 ـ فرويد Sigmund Froud (1856 ـ 1939) عالم النفس والطب العصبي والمحلل النفسي النمساوي الشهير، وأول من لفت الأنظار إلى أهمية كل من «عمليات اللاوعي» الإنساني وتأثيره في أفكار البشر وسلوكهم. وهو أول من أسس مدرسة التحليل النفسي (أو: علم النفس التحليلي) سواء بوصفها نظرية أو أسلوبا في العلاج النفسي، وقال بأن «اللاوعي» عنصر من عناصر تكوين العقل الإنساني يتصارع مع الوعي، ويمتلئ أيضا بصراعاته الخاصة وكوابحه ومكبوتاته التي كبتها الوعي وتطور المجتمع والقيم الاجتماعية.

(١) ـ 4 ـ يونج Carl Jung (1875 ـ 1961) عالم النفس السويسري الكبير، تعاون مع فرويد في تطوير نظرية التحليل النفسي لتفسير الشخصية الإنسانية، ولكنه انفصل عن فرويد بعد ذلك بسبب تركيز فرويد على الجنس والدافع الجنسي كعامل حاسم في تحديد نوع الشخصية وتوجهاتها. وقام يونج باستحداث نظرية تقسيم الوظائف النفسية إلى أربع: الإحساس والحدس والتفكير والحس، وأكد وجود «لا وعي جمعي» يعتمد على الثقافة السائدة أساسا ومواريثها، وأكد أيضا انقسامه إلى أنماط عدة كبرى تتمايز فيما بينها بسبب نوع العقيدة الدينية.

(2) توماس مالتوس Thomas Maltus (1766 ـ 1834) عالم اقتصاد إنجليزي، وضع نظرية مهمة في «النمو» الاجتماعي/السكاني، قال فيها إن الموارد تزيد بمتوالية حسابية (١, 2, 3, 4... إلخ) ويتزايد السكان بمتوالية هندسية (2, 4, 6, 8, 16... إلخ)، وقال إن هذا يجعل الحرب ضرورية فقد تساهم في إنقاص أعداد السكان مع الكوارث الطبيعية. أهملت نظريته واعتبرت من قبيل التشاؤم غير العلمي، ولكن يعاد النظر فيها خلال العقود الأخيرة بسبب الانفجار السكاني في العالم الثالث وتزايد الطلب على الموارد بسبب تضاعف معدلات الاستهلاك في العالم الصناعي والتطور، ونضوب الكثير من هذه الموارد أو التهديد بنضوبها... والبديل للحرب الآن هو: تنظيم الزيادة السكانية.

(3) ألبير كامي Albert Camus (1913 ـ 1960)، كاتب روائي وفيلسوف فرنسي معاصر ـ ولد في الجزائر، من أشهر أعماله وأكثرها تأثيرا في «وجدان القرن العشرين»: المتمرد، الطاعون، أسطورة سيزيف، الغريب، العادلون... شارك في المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي ولكنه لم يقترب من اليسار ـ مثل زملائه المثقفين الفرنسيين، ورفض الطغيان الستاليني الشيوعي... نال جائزة نوبل في الأدب العام 1957، والعبارات الموجودة هنا، من خطابه عند تسلمه الجائزة.

الفصل الأول

(1) إنسان كرومانيون Cro-Magnon Man: ع ـ أو عرق ـ مبكر من الإنسان الحديث أي أنه ينتمي إلى الفصيلة الإنسانية التي أنجبت البشر الحاليين. وجدت آثاره للمرة الأولى في كهف عرف باسم «كرومانيون» بالقرب من قرية دوردوني بجنوب غرب فرنسا.

(2) على رغم معرفة المؤلف الواسعة فسوف نلاحظ أحيانا أنه يخضع ظواهر أو أشياء بعينها لتفسيرات بعيدة جدا عن طبيعتها. فالأهرام وأبو الهول في مصر لم تكن أبدا ـ عند أي مؤرخ للحضارة المصرية القديمة ـ من قبيل «الدعاية الحربية». ومع التفاصيل المفيدة التي يوردها المؤلف عن النصب التذكارية لملوك سومر أو بابل أو آشور؛ فإنه لايتحدث بكلمة عن «لوحة نارمر» الشهيرة ولا عن سابقتها «لوحة الملك العقرب» في صعيد مصر (وهي أقدم بنحو ألف سنة من أولى اللوحات السومرية).

(3) يصعب أن نصدق أن اللوحات الجدارية التي تصور ـ على جدران المعابد المصرية القديمة ـ انتصارات سنوسرت أو تحتمس أو رمسيس الثاني أو الثالث... إلخ، كانت تستهدف «تخويف المحكومين» الذين كانوا يشكلون قوام الجيوش التي قادها هؤلاء الملوك في انتصاراتهم. وحسبما يقول المؤرخون المتخصصون (مثل بيتري وموري وبادج وحسن...إلخ)، فإن هذه اللوحات كانت نوعا من «القرابين» الدينية من ناحية، ونوعا من الدعاية الحربية النفسية التي ترمي إلى «تخليد» الانتصار ورفع معنويات «المحكومين».

الفصل الثاني

(1) حصان طروادة ـ وعلاقته بالإلياذة

تؤكد الدراسات الهومرية أن إلياذة هومير تنتهي بمشهد تحريق جثمان أخيل بطل الملحمة عقب قتله غيلة بسهم باريس البطل الطروادي، بعد أن كشفت له أفروديت ـ إلهة الحب ـ عن سر «كعب» أخيل. أما واقعة الحصان الخشبي ـ الذي عرف باسم: «حصان طروادة» التي أدت إلى سقوط المدينة في أيدي الإغريق بعد عشر سنوات من الحصار ـ فقد رواها شعراء متأخرون في أناشيد استكملوا بها أحداث الملحمة، وربما كان ذلك في أنطاكية أو في الإسكندرية في العصر الهيلليني.

(2) الكتابة التصويرية الخطية (ب) Linear. B

نوع من الكتابة ـ تجمع بين الصور المختزلة والحروف. ترجع إلى ما بين القرنين 14 و12 قبل الميلاد وعثر على نماذجها الأولى (القرن 14 ق.م) في جزيرة كنوسوس. غير أن أكثر النماذج عثر عليها في بيلوس وميسينيا وتعتبر أصدق تعبير عن الفرع الميسيني للحضارة الإغريقية الباكرة، ويعتقد أن هذه الكتابة (أو: هذا الخط) جاء تطويرا لخط أقدم من القرن الـ 15 ق.م، عثر عليه في جزيرة كريت ـ وثيقة الصلة بمصر ـ وأطلق عليه Linear. A.

(3) بلوتارخ وبيركليس Plutarch & Pericles، الأول المؤرخ وكاتب التراجم والفيلسوف اليوناني الذي اشتهر بكتابه عن: سير الحياة المتقابلة Parallel Lives، الذي كتب فيه عن «أزواج» عدة من مشاهير الإغريق والرومان وعاش ـ غالبا ـ فيما بين القرنين الأول والثاني للميلاد، وبيركليس، الذي كتب عنه بلوتارخ، أحد أشهر القادة الإغريق، في القرن الخامس إلى الرابع ق.م، تحول إلى طاغية مستنير وعادل وقاد بلاده ـ أثينا ـ بنجاح في حرب البليبونيز، حتى وفاته.

(4) الأكروبوليس والبارثينون Acropolis & Parthenon: الأول هو قلعة أثينا القديمة (وكان لكل مدينة إغريقية قديمة الأكروبوليس الخاص بها ـ والكلمة الإغريقية معناها: قلعة المدينة)، وفي أثينا شيد البارثينون معبدا للربة أثينا فوق الأكروبوليس، وهو أكبر معابد أثينا القديمة ويعد ـ إلى الآن ـ أجمل نماذج العمارة الدورية الإغريقية.

(5) ديموثينيز: Demothenes (384 ـ 322 ق.م) زعيم سياسي ورجل دولة أثيني اشتهر بقدراته الخطابية وبلاغته، وبمواقفه المدافعة عن «ديموقراطية» عصره وبعدائه لسيطرة مقدونيا على بلاد الإغريق.

(6) بروبيليا Propylaea (جمع Propylaeum) مداخل المعابد (الطريق المؤدي إلى البوابة، والبوابة نفسها وما يليها) الإغريقية، حيث اعتقد الإغريق أنها بداية مكان التقديس والتطهير.

(7) داريوس Darius الأول (أو الأكبر)، وعرف أيضا باسم «هيستاسبيس»: ملك فارس وموسع إمبراطوريتها (550 ـ 486 ق.م) بسحقه مدن الإغريق الأيونيين في آسيا الصغرى، قبل هزيمته وفراره في موقعة ماراثون (490 ق.م).

(8) هيرودوتس Herodotus: المدعو أبو التاريخ (485 ـ 425 ق.م)، اشتهر بكتاباته عن حروب الإغريق والفرس وأسبابها وأحداثها، وبكتابه المشهور عن رحلته في بلاد الشرق.

(9) دلفي Delph (i)، مدينة صغيرة جميلة على السفح الجنوبي لجبل بارناسوس في اليونان، اشتهرت في ملاحم هومير ومسرحيات شعراء الدراما الإغريق بأنها موطن أشهر عرافات أبوللو (فويبوس)، كاشفات المستقبل والأسرار.

(10) شيشرون Cicero (Marcus Tulieus) ـ خطيب روما وقنصلها وأحد أشهر ساستها ومشرعيها في أواخر عصر الجمهورية. عاش بين 106 و43 ق.م، قتله عملاء مارك أنتوني لتنديده به ولخيانته وطغيانه، في رسالته «عن الإدانة ـ Phillipics».

(11) معركة العمالقة: يشير المؤلف إلى واحدة من الأساطير اليونانية (الإغريقية) التي أوردها هومير في الأوديسة، وهزيودوس في «الأعمال والأيام» عن حرب نشبت بين كبير الأرباب، زيوس وأشقائه معه (بلوتو أو هاديز وبروسيدون أو نبتيون... إلخ) وبين إخوته وأعمامه العمالقة Titans، انتهت بهزيمتهم وسجنهم في أعماق الجحيم، عدا بروميثيوس الذي أعطى النار للبشر، فسجن موثقا بالأغلال على جبل في القوقاز ينهش نسر كبده إلى الأبد، ولكن خلصه هرقل وقتل النسر... ولا تحكي الأسطورة مصيره بعدها. أما مشاجرات الآلهة والأبطال، فلا تنتهي عند هومير، في ملحمتي الإلياذة والأوديسة، وهي ما جعل كهنة مصر (أون ـ عين شمس) يقولون لأفلاطون إنها حكايات أطفال.

الفصل الثالث

(1) طروادة Troy ـ يروي الشاعر الروماني فرجيل في ملحمة «الإينيادة» أن البطل الطروادي إينياس ـ ابن ربة الحب أفروديت (فينوس الرومانية) ـ حمل أهله وغادر طروادة وهي تسقط في

أيدي الإغريق، واصطحب آخر جنوده في أسطول صغير أبحر به في رحلة صعبة تشبه رحلة أوديسيوس الإغريقي بطل ملحمة الأوديسة، قبل أن يصل إلى الساحل الإيطالي لكي يؤسس روما.

(2) هانيبال Hannibal ـ القائد القرطاجني الشهير، قاد جيوش بلاده في الحرب البونية الثانية ضد روما، وعبر جبال الألب مصطحبا الفيلة لكي يحاصر المدينة، وعلى رغم انتصاراته الأولى فإنه عاد لكي ينقذ قرطاجنة من جيش روماني يقوده سيبيو الأفريقي الذي هزم هانيبال في معركة زاما (202 ق.م)، واضطر هانيبال أن ينفي نفسه ثم ينتحر لكي يفلت من الأسر.

(3) قوات الجوركا Gurkha ـ وحدات عسكرية اشتهرت بالصرامة والانضباط كونها البريطانيون في الهند من قبائل الجوركا الهندوسية التي كانت تعيش في نيبال بعد أن طردها المغول المسلمون من الهند قبل مجيء البريطانيين.

(4) الحروب البونية Punic Wars ـ سلسلة الحروب (ثلاثة) التي نشبت في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد بين روما وقرطاجنة، بسبب التنافس على السيادة في غرب البحر المتوسط وأسبانيا وشمال أفريقيا ـ انتهت الحروب (46) ق.م بهزيمة قرطاجنة وإحراقها. من أشهر قادتها ـ في الحرب الثانية ـ هانيبال القرطاجني، وسيبيو الروماني (الأكبر) الذي عرف بـ «الأفريقي Africanus» لانتصاره على أعدائه على الساحل الأفريقي.

(5) صولا Sulla (178 ـ 138 ق.م Lecius Cornilus Felix) قائد ثم ديكتاتور روماني، على رغم إصلاحاته الرامية إلى تقوية سلطة مجلس الشيوخ فقد أدت صراعاته مع منافسيه إلى بدء سلسلة الحروب الأهلية التي انتهت باغتيال يوليوس قيصر وهزيمة قتلته وسقوط الجمهورية وقيام الإمبراطورية القيصرية (30 ق.م).

(6) البارثيون Parthians ـ نسبة إلى بارثيا Parthia ـ الإمبراطورية الفارسية الثالثة (نشأت بعد أن دمر الإسكندر إمبراطورية فارس الثانية)، وسيطرت على جنوب غرب آسيا والأناضول في القرن الثالث والثاني ق.م. اصطدمت بالسلوقيين ـ خلفاء الإسكندر في سوريا ـ فأضعفوها، ولكنها نافست روما على السيادة في سوريا والأناضول وأنزلت بالرومان هزائم فادحة إلى أن هزمت ولزمت حدود فارس والرافدين في القرن الميلادي الأول.

(7) تراجان (53 ـ 117م) Trajan ـ إمبراطور روماني (98 ـ 117) ـ اشتهر بحملاته العسكرية الناجحة، خاصة في الشرق وأقام سلسلة من الطرق والجسور والمعابد في سوريا والأناضول.

(8) ماركوس أوريليوس Marcus Aurilios Antonious (121 ـ 180م) إمبراطور روماني وفيلسوف (كتب تأملات تنسب إلى المدرسة الروائية) ومحارب أيضا، هزم قبائل البرابرة في وسط أوروبا، وبدأ ما سمي بعد ذلك عصر السلام الروماني.

(9) فرجيل 70 ـ 19 ق.م) Virgil ـ شاعر روماني اشتهر بتأليفه ملحمة الإينيادة (نسبة إلى بطلها إينياس ـ مؤسسة روما؟!) بتكليف من أغسطس أوكتافيوس ـ أول الأباطرة الرومان.

(10) هوراس (65 ـ 8 ق.م) شاعر روماني وكاتب ساخر ـ على رغم اشتهاره بكتابه: فن الشعر، عن «قواعد» كتابة الدراما المسرحية الشعرية والقصائد الغنائية، فقد قامت شهرته في زمنه على مدائحه في روما وأخلاق الرومان... الخ.

(11) بليني Pliny ـ المقصود هنا هو بليني الأصغر (عاش من 52 إلى 113م تقريبا)، وكان كاتبا وحاكما في عصر الإمبراطور تراجان واشتهر بـ «الرسائل»: وهو ابن بليني الأكبر، مؤلف: «التاريخ الطبيعي» وعاش فيما بين 23 و79 ميلادية.

الفصل الرابع

(1) أبوللو ـ الاسم الروماني (اللاتيني) للإله اليوناني فويبوس هيليوس، وفي الميثولوجيا الخاصة بكل من الثقافتين الإغريقية واللاتينية ـ هو إله الشمس والفنون الإبداعية العقلية ـ بعيدا عن السحر ـ الشعر والموسيقى والدراما والرسم والنحت والتاريخ والعرافة (كشف المخبأ والمستقبل). تتبعه عرائس الفنون (muses). (وهو أحد أبناء كبير الآلهة جوف اليوناني أوجوبيتر، وزيوس الروماني) من زوجته لاتونا، شقيقته ديانا ربة القمر والعذارى والصيد.

(2) لا يتفق كثيرون من مؤرخي الحضارة مع رؤية المؤلف هنا، بل إن آرنولد توينبي يعتقد أن انتصار شارل مارتل على العرب في بواتييه كان أكبر نكبة حضارية أصابت أوروبا وتركتها فريسة للعصور المظلمة طوال القرون الثمانية التالية. ويشارك في هذا الاعتقاد كثيرون، من جوته في ألمانيا إلى بروديل ولوفيفر في فرنسا.

الفصل الخامس

(1) أو: Domesday Book ـ وهو سجل تضمن نتيجة مسح أراضي إنجلترا: خصائصها ومنتجاتها ومن يزرعونها أو يستغلونها، الذي قام به ويليام الفاتح العام 1086؛ وذلك تمهيدا لتقدير الضرائب عليها. وقد أطلق الفلاحون الإنجليز على الكتاب هذا الاسم (الذي يعني حرفيا: كتاب يوم الدينونة) لأنه لم يكن ثمة مجال لاستئناف أحكامه وما يقضي به تماما مثل أحكام الدينونة.

الفصل السابع

(1) جريجوري (السابع) ـ بابا الفاتيكان ـ روما ـ والكنيسة الكاثوليكية الغربية فيما بين 1073 ـ 1085 اشتهر بنجاحه في فرض سلطة البابا العليا على أمور الكنيسة ضد رغبات عدد من الملوك وعلى رأسهم هنري الرابع ملك ألمانيا الذي خاض صراعا عنيفا مع جريجوري ـ على دفعتين: في الدفعة الأولى انتصر البابا الذي جاءه هنري حافيا وسط ثلوج الشتاء يطلب الغفران، وفي المرة الثانية تمكن هنري من الفوز وتعيين بابا آخر (كليمنت الثالث) ونفي جريجوري الذي مات في منفاه، ولكن إصلاحاته وسلطات البابا عاشت حتى القرن السابع عشر.

(2) هذه رواية واضحة الاختلاق لم يحاول المؤلف نقدها أو التثبت منها، فليس لدى المسلمين من أهل السنة والجماعة (الأغلبية الساحقة) صور للرسول صلوات الله وسلامه عليه، ولا يرفعونها بالتالي في أي مناسبة حربية أو سلمية. أما حكاية ضرب الصليب المقدس وتحطيمه فقد نفاها نفيا قاطعا كل من ابن كثير وابن منقذ، والقاضي الفاضل وكانوا يعرفون أن الصليبيين يروجون لها.

الفصل الثامن

(1) حروب الهوسيين (الحروب الهوسية) نسبة إلى كل من جون هاس Huss J الزعيم الإصلاحي الديني التشيكي (1369 ـ 1415) الذي أثار انشقاقا عنيفا وعميقا في حركة الإصلاح الديني (البروتستانتية) ومع الكنيسة الكاثوليكية في الوقت نفسه، وانتقد صكوك الغفران وتحكم البابا

في الكنيسة، واستدعي لكي يدافع عن أفكاره أمام مجلس كنسي أعلى في كونستانس. وعلى رغم أن الملك سيجسموند ـ ملك بوهيميا والمجر ـ كان يضمن سلامته فقد ألقي القبض عليه وأدين بالهرطقة وأحرق، فثار أتباعه الهوسيون الذين كانوا يتحصنون في جبال الهوسيناك ـ ومنها يحصلون على المصدر الثاني لاسمهم، وأشعلوا الحروب الهوسية (من 1424 إلى 1437).

(2) فيليب الطيب Philip the Good (1396 ـ 1467) دوق بورجوندي (من 1419) والذي جعل دوقيته ـ وهي جزء من فرنسا ـ واحدة من أقوى دول أوروبا الغربية وأكثرها عدوانية.

(3) شارل الجسور Charles the Bold (1433 ـ 1477) دوق بورجوندي وابن فيليب الطيب، تولى الحكم في مرض أبيه الأخير واصطدم على الفور بلويس الحادي عشر ملك فرنسا، وحاول أن يبسط سلطانه على الشمال حتى نهر الراين فاصطدم بالإمبراطور الألماني فريدريك الثالث، وبالسويسريين الذين قتلوه في معركة قرب مدينة نانسي العام 1477، فانتهت بذلك آمال بورجوندي في التحول إلى دولة مستقلة.

(4) معركة بواتييه Poitiess، إحدى المعارك الحاسمة خلال حرب المائة عام ـ في مرحلتها الأولى، وأسفرت عن انتصار ساحق للإنجليز واضطرار الفرنسيين إلى التوقيع على معاهدة بريتيني (1360)، التي أعطت لإنجلترا السيطرة على طول ساحل فرنسا الغربي والشمالي.

(5) دون كيشوت دي لامانشا Don Quixote De Lamancha بطل الرواية الفذة التي أبدعها الإسباني العظيم سرِڤانتِس (وظهرت مطبوعة في مدريد فيما بين 1605 و1615) وفيها يقدم المؤلف «وثيقة فكاهية» مريرة وتهكمية معا للعصر الفروسي وتقاليد النبالة والشهامة القاسية والظالمة أحيانا، وظهور عصر نهازي الفرص الجبناء والأنذال... وما تزال الرواية تعد واحدة من أجمل ما أبدعه الخيال الأدبي الغربي في كل العصور.

(6) نسبة إلى مدينة مونز Monze في بلجيكا حاليا، واشتهرت في القرن الخامس عشر بصب المدافع الحديدية الكبيرة التي استخدم بعضها في حصار غرناطة (1492).

الفصل التاسع

(1) معركة بوزوورث Bosworth ـ المعركة التي أنهت حرب الوردتين بين عائلتي لانكاستر وتيودور المتنافستين على عرش إنجلترا. في هذه المعركة قتل ريتشارد الثالث وبعدها توج هنري تيودور ملكا على إنجلترا باسم: هنري السابع.

(2) يقصد غزو تشارلس الثامن لإيطاليا الذي أدى إلى الحروب الإيطالية، وإعادة تشكيل ملكيات ـ وأراضي ـ كل من النمسا وإسبانيا وألمانيا وفرنسا ـ والملكيات الصغرى ـ في صقلية وأراجون والتمهيد لظهور: «المدن الدول» في إيطاليا: ميلان وفلورنسا وفينيسيا، وعصر النهضة كله بالتالي.

الفصل العاشر

(1) ميديتشي Medici: أسرة حاكمة إيطالية، من أشهر جماعات الحكم في عصر النهضة (فلورنسا وتوسكانيا) فيما بين القرنين الـ 14 والـ 16، اشتهر أبناؤها مثل كوزيمو ولورينزو ـ حكام فلورنسا ـ بكل من الطغيان والفساد والولع بالفنون والعلوم الحديثة، والأفكار التحررية الجديدة وبعدائهم ـ في الوقت نفسه ـ للحرية الإبداعية والسياسية. ومن أشهر بناتها كاترين، التي أصبحت ملكة لفرنسا وأما لثلاثة، من ملوكها وأثارت فيها حربا دينية طاحنة فقدت فيها أو بسببها أبناءها

الثلاثة بعد أن تسببت في مذبحة سان بارثلوميو التي أبادت فيها البروتستانت الفرنسيين.
(2) ألبريخت دورر Albrecht Durer (1471 ـ 1528): زعيم ورائد المدرسة الألمانية في الفنون التشكيلية في عصر النهضة. أبدع في فنون التصوير (الرسم) والحفر على الحجر والنحاس والخشب، واستفاد من رحلة له إلى إيطاليا ـ مهد النهضة الأوروبية. من أشهر أعماله لوحة «الفارس والموت والشيطان» ـ حفر، وكتب واحدا من أشهر كتب الفن الكلاسيكية: «عن مقاييس جسم الإنسان»... وكتب أيضا دراسة عن بناء الحصون!
(3) ماكيافيللي Niccolo Machiavelli (1469 ـ 1527): السياسي الإيطالي (من فلورنسا) الأشهر من عصر النهضة، صاحب كتاب: «الأمير» (العام 1513) الذي استخدم اسمه طويلا كرمز للنفعية الانتهازية واللاأخلاقية في السياسة، حتى أصبحت كلمة: ماكيافيللية رمزا لأسلوب الحكم والإدارة يجمع بين القسوة والنعومة، والخداع والقمع والعنف ودبلوماسية النهب المنظم، حتى يحافظ الحاكم على سلطته الشخصية المطلقة (رمزا للسياسي الوغد الشيطاني). ولكن في القرن العشرين أعاد الفكر السياسي الأوروبي تفسير كتابات ماكيافيللي بأنه سياسي مثالي أراد توحيد بلاده ـ إيطاليا ـ عن طريق حاكم قومي قوي. ولماكيافيللي غير «الأمير» مسرحية كوميدية (الراهب) ومقالات عدة عن الحرب.
(4) تيسيان Tiziano Vecelli Titian (1477 ـ 1570): واحد من أعظم المصورين (الرسامين) في التاريخ، رائد مدرسة البندقية لفن التصوير في عصر النهضة ومن أغزر فناني هذا العصر إنتاجا، أصبح رسام البلاط للملك الفرنسي تشارلس الثامن. اشتهر بألوانه الزاهية الطازجة وسخونة تعبيره عن بشرة أو «لحم» الجسد الإنساني وعنايته بإطار هذا الجسد من الملابس أو غيرها، حتى أن «الأحمر التيسياني» أصبح اسما للون الشبيه بلون الدم المتجمد ـ تعلوه صفرة لامعة تميل للسواد... في تركيبة لونية لم يبدعها أحد قبله.
(5) الإنسيون Humanists: مجموعة (أو ـ مجموعات) المفكرين والأدباء والفنانين الأوروبيين من مختلف المجالات والتخصصات، الذين ظهروا في أوائل عصر النهضة ـ في إيطاليا وألمانيا وهولندا ثم في بريطانيا وفرنسا ـ وانشغلوا بهموم «الإنسان الفرد» وقضاياه ورؤيته للعالم ووضعه في العالم الدنيوي، وركزوا على ما يحقق لهذا الفرد الحرية والسعادة، بدلا من التركيز على «حقوق» المجتمع الإقطاعي والكنيسة وواجبات الناس ليضمنوا موقعهم في العالم الآخر. من أشهرهم في إيطاليا: بترارك وبوكاشيو ولورنزو وفاملا وبيترو وأرتينو، ومن أشهرهم في شمال أوروبا: إرازموس وتوماس مور ووبليام بودي وفيليب ميلانشتون وجون كوليه وجون روشلات.
(6) هنري الخامس Henry V (مسرحية لشيكسبير): لا نفهم إشارة المؤلف هنا إلى ازدياد جماهيرية وشعبية هذه المسرحية في القرن السادس عشر، فالمسرحية كتبها شيكسبير وعرضت لأول مرة في العام 1599، أي في آخر أعوام ذلك القرن، وربما يقصد المؤلف أن مسرحيات مشابهة هي التي أصبحت شعبية ونالت جماهيرية واسعة، ولكنه لم يذكر اسم إحدى هذه المسرحيات التي ربما تكون قد عرضت في توقيت مناسب من القرن ويصلح لتوضيح فكرة المؤلف.

الفصل الحادي عشر

(1) فرانسيس بيكون (1561 ـ 1626): أحد أشهر رجالات النهضة الإنجليزية، وتجلت شهرته في مجالي الفلسفة والسياسة. أشهر كتبه الفلسفية «تقدم المعرفة» (1605) و«الأورجانون الجديد»

(1620) و «أطلانطيس الجديدة» (1624)... سعى بيكون إلى تنظيم منهج التفكير والبحث العلميين وتأسيسه على التجربة المبنية على انتظام الظروف والمكونات ثم على الاستنتاج واستخلاص «قواعد» تكون هي القوانين العلمية، لكل من الطبيعة والعمل المنتج بحيث يتحقق للإنسان السيطرة على الطبيعة، ودعا إلى «الملاحظة وتطوير ملكات العقل النقدية».

(2) مارتين لوثر Martin Luther (1483 ـ 1546): الراهب والزعيم الألماني لحركة الإصلاح الديني و«الاحتجاج» أو «البروتستانتية»، التي أصبح رمزا لها وقائدا للمذهب الانشقاقي الأول ـ على العقيدة والكنيسة الكاثوليكيتين في العالم المسيحي. في 31 أكتوبر العام 1546 قام بتثبيت ورقة طويلة تحتوي على 95 سؤالا تشكك في قيمة صكوك الغفران التي كان بابوات وأساقفة الكاثوليكية يبيحون بها «الجنة» للمسيحيين في العالم الآخر، ويتشكك في أن البابا «معصوم» منزه عن الخطأ، أو في أنه فوق مستوى المساءلة كالبشر. أصدر البابا قرارا بحرمانه من الكنيسة، وأحرقت كتبه، فرد بحرق قرار الحرمان، ومثل أمام دايت (مجلس أمراء وحكام ولايات ألمانيا) وورمز الذي أدانه فأصبح عدو الإمبراطورية، كما أنه مطرود من الكنيسة، ولكن أمراء ڤيتمبرج تكفلوا بحمايته وإخفائه حتى كتب «حول نذور الرهبنة» وترجم العهد الجديد إلى الألمانية العام 1521، وتلاه بالعهد القديم العام 1532، وبذلك أسست الألمانية كلغة أدبية وفلسفية مستقلة عن اللاتينية وجامعة لكل اللهجات الألمانية، وكرس نفسه بعد ذلك لتأسيس وتنظيم الكنيسة الجديدة.

الفصل الثاني عشر

(1) ميثاق كيللوج ـ بريان Kellog - Briand pact ويعرف أيضا باسم: ميثاق باريس. ميثاق على شكل معاهدة لاستنكار وإدانة الحرب كوسيلة لإنهاء أو حسم المنازعات الدولية، وقعتها خمس عشرة دولة أوروبية في العام 1928 (بينها إيطاليا وفرنسا وبريطانيا وهولندا وبلجيكا وألمانيا، ثم انضم إليهم خمس وأربعون دولة أخرى بينها اليابان والولايات المتحدة وجنوب أفريقيا). ونصت مادتها الأولى على أن الدول الموقعة تدين اللجوء إلى الحرب لحل المنازعات الدولية، وتشجيع الحرب كوسيلة لتحقيق أو تنفيذ السياسات القومية في علاقاتهم الواحدة بالأخرى... ولكن في غضون عامين كانت اليابان تغزو الصين، والولايات المتحدة تعيد احتلال الفيليبين وهولندا تجتاح بورنيو وبريطانيا تغزو أفغانستان وشمال إيران، وخلال سنتين أخريين، كانت إيطاليا تغزو الحبشة ـ بعد ليبيا ـ وفرنسا تحرق وهران، وبلجيكا تغزو منطقة البحيرات الأفريقية، وجنوب أفريقيا تحتل الترانسفال!

(2) ويليام تيندل William Tyndale (1492 ـ 1536) مصلح ديني إنجليزي بروتستانتي ومفكر من «الإنسيين» (انظر الهامش رقم (5) للفصل العاشر) قام بترجمة العهد الجديد إلى الإنجليزية العام 1525، ثم ترجم الأسفار الخمسة الأولى (التوراة) من العهد القديم (The Pentateuch) العام 1530، وفي العام 1531 ترجم سفر الرؤية، وكان يرسل ترجماته مطبوعة من كولونيا بألمانيا حيث كان يقيم إلى إنجلترا. وأحرقته الكنيسة الكاثوليكية بعد أن أدانته محكمة التفتيش بتهمة الهرطقة في مدينة أنتورب ببلجيكا، وكان قد كتب كتيبات عدة رأى فيها سلطة الكتاب المقدس والملك على الكنيسة والبابا.

(3) توماس مور Thomas More (1478 ـ 1535) المفكر والسياسي الإنجليزي الشهير، كان صديقا لأشهر فلاسفة الإنسيين في عصره وخاصة إرازموس وكولين اللذين تراسل معهما كثيرا. اشتهر بروايته الفلسفية الاجتماعية السياسية: «يوتوبيا ـ Utopia» أو «المدينة الفاضلة» العام 1516،

وكتاب «ابتهالات النفس» العام 1529، وتأريخه للملك ريتشارد الثالث كأنموذج للطاغية الدموي. كان كاثوليكيا متشددا، ورجل دولة بارزا في عصر الملك هنري الثامن وصديقا له، وعمل له سفيرا ومستشارا، وخلف الكاردينال وولزي في منصب اللورد ـ المستشار (كبير الوزراء)... ولكنه رفض البروتستانتية التي تحول إليها هنري، ورفض أن يقسم له يمين الولاء والسيادة على الكنيسة فحاكمه هنري بتهمة الخيانة وقطع رأسه.

(4) ستيفن جاردينر Stephin Gardiner (1483 ـ 1555) أسقف وسياسي إنجليزي، وتولى منصب كبير الوزراء (اللورد ـ المستشار) للملك هنري الثامن في العامين الأخيرين من حياته حينما تحول عن الكاثوليكية إلى البروتستانتية ـ التي هاجمها طويلا وهاجم هنري الثامن معها إلى أن اقتنع بفساد كنيسة روما في عصره.

الفصل الثالث عشر

(1) جون كالفين John Calvin (الأصل الفرنسي Jean Couvin) 1509 ـ 1564: زعيم حركة الإصلاح الديني، والاحتجاج (البروتستانتية) في فرنسا، الذي قيض لمذهبه أن يستأصل تماما تقريبا في وطنه وأن ينتشر أولا في إنجلترا (في صورة المذهب التطهري Puritan) ثم في الولايات المتحدة. كان دارسا لليونانية واللاتينية، قارئا للفلسفة (أفلاطون وأرسطو وسينيكا)، ثم تحول لدراسة اللاهوت، وكتب أول كتاب لاهوت يصدر بالفرنسية (أسس العقيدة المسيحية) العام 1536. وفي افتتاح جامعة باريس العام 1533 ألقى خطابا ناريا معبرا عن موقف البروتستانتية، فاضطر بعدها إلى الفرار واستقر في جنيف التي سيطر عليها، وتحول فيها إلى ديكتاتور طاغية فرض أفكاره على أهلها. وتقوم عقيدته على اعتبار الكتاب المقدس المصدر الوحيد الصحيح لأي معرفة، واعتبار الإنسانية «منحطة» للأبد بسبب خطيئة آدم وسمو إرادة الرب ومشيئته على كل شيء وتفضيل العبادة على أي عمل آخر، والخلاص لا يتحقق إلا بكرم من الرب، لا بأي اجتهاد من الإنسان.

(2) الإصلاح المضاد Counter Reformation: المقصود هو حركة الإصلاح داخل الكنيسة الكاثوليكية لتصحيح سلوكيات قياداتها وكهنتها ومؤسساتها دون تبديل لعقيدتها. تفضل الكنيسة الكاثوليكية نفسها تسمية هذه الحركة: الإصلاح الكاثوليكي أو الصحوة الكاثوليكية. وعلى رغم أن الدعوة إلى هذا الإصلاح بدأت قبل حركة الإصلاح البرتستانتية التي أقامت كنيسة ـ ثم كنائس ـ مستقلة (كما نعرف في تحركات الراهب سافونا رولا في إيطاليا وخيمينيس في إسبانيا)، وأن الإصلاح الكاثوليكي (المضاد) لم يبدأ فعلا وعمليا إلا بعد أن رفض البروتستانت سلطة البابوات والأساقفة الفاسدين وأهواءهم. يقول البابا أوربان الخامس أحد زعماء الإصلاح المضاد: «نحن نعترف بأن الله سمح باضطهاد الكنيسة بسبب آثام الناس، خاصة البابا والأساقفة»... ومع تأسيس حركة اليسوعيين (الجزويت) أصبح الإصلاح حقيقة واقعة، ثم أصبح تيارا رسميا مسيطرا بعد مجمع ترنت، الذي عقد من العام 1545 إلى العام 1563 الذي وضع قواعد تطهير سلوكيات الكهنة الكاثوليك من الشوائب.

الفصل الرابع عشر

(1) قاعة النجوم Star Chamber: مجلس استشاري بريطاني خاص للملك في عهد أسرة تيودور

(أسسه الملك هنري السابع). تحول إلى محكمة خاصة للنبلاء ورجال الدولة تعمل بإيحاء من الملك ولحسابه (كان وراء إعدام توماس مور أيام هنري الثامن ولورا إسكس أيام إليزابيث الأولى... إلخ) وتم حله في العام 1641، ثم أصبح اسمه يرمز ـ في الأدبيات الأوروبية عموما والأنجلو/أميريكية خصوصا ـ إلى كل هيئة قضائية تصدر أحكاما سريعة وحسب الطلب واعتباطية.

(2) المشيخيون Presbyrerians ـ إحدى الكنائس البروتستانتية الكثيرة التي ظهرت في القرنين الخامس عشر، والسادس عشر في غمار حركة الإصلاح الديني والتمذهب النصراني في أوروبا الغربية انتقاضا على الكنيسة الكاثوليكية. والكنيسة المشيخية أخذت أفكارها الرئيسية من جون كالفين (انظر الهامش الأول في الفصل الثالث عشر)، وأجبرها التطهريون عقب استيلائهم على السلطة في إنجلترا على الرحيل إلى العالم الجديد. وأخذوا اسم كنيستهم من تقاليد الكنائس المسيحية الأولى (قبل عصر بولس وتأسيس الفاتيكان) حين كان الشيوخ (كبار السن) Presbyters هم الذين يرسمون سياسات جماعاتهم ويتخذون القرارات نيابة عنها.

(3) جون ميلتون John Milton (1608 ـ 1664): الشاعر والكاتب الإنجليزي الكبير، وأحد أبرز الأسماء في التراث الأدبي الإنجليزي (لا يضاهيه في مكانته سوى تشوسر وشيكسبير). اشتهر أساسا بملحمته الشعرية الهائلة: الفردوس المفقود Paradise Lost (العام 1667)، ثم: الفردوس المستعاد Pdradise regaing (العام 1671). تحول إلى المذهب التطهري وصار من أكبر المعبرين عنه، وشارك في حكومة الثورة (تحت رئاسة كرومويل) وزيرا للشؤون اللاتينية، وكان قد أصيب بالعمى العام1651.

(4) أوليفر كرومويل Oliver Cromwell (1599 ـ 1658): القائد العسكري ثم السياسي للثورة الدينية/السياسية التي نشبت في إنجلترا ضد فساد تشارلس الأول وكنيسته «السامية High Church». كون السلطة من البرلمان الطويل وصار «اللورد الحامي» لكومنولث إنجلترا وأيرلندا واسكتلندا. تميز عصره بالتسامح الديني وازدهار التجارة والصناعة والتوسع البحري الاستعماري والقسوة الوحشية في معاملة المتمردين (أباد الحاميات الأيرلندية في دروجيدا وويسكفورد، والاسكتلنديين في أكثر من مدينة...إلخ) وخاض حروبا ناجحة عدة ضد فرنسا وهولندا، عقد بعدها معاهدات تجارية أفادت إنجلترا كثيرا فيما بعد، ولكن نظامه لم يدم بعده غير مدة قصيرة.

(5) أندرو مارفيل Andrew Marvell (1621 ـ 1678): شاعر إنجليزي من أواخر «الشعراء الميتافيزيقيين»، وعرف بجمعه بين التأملات الفكرية والفلسفية العميقة و رشاقة الأسلوب الغنائي وقوته (ربما كالمتنبي في الشعر العربي). كان مساعدا لجون ميلتون في أثناء حكم كرومويل، وانتخبه للبرلمان حيث ظل عضوا حتى موته. لم تشتهر أعماله بعد رحيله إلى أن أعاد الشاعر العظيم «إليوت» الاهتمام به في القرن العشرين، وخاصة قصائده الفلسفية الباكرة: الحديقة، السيدة الخجول و برمودا!

(6) لم تكن العودة إلى النظام السابق على كرومويل هادئة كما يوحي المؤلف، فعلى سبيل المثال، طارد العائدون إلى الحكم، قضاة تشارلس الأول ـ الذين حكموا بإعدامه والمعروفين باسم Regicides وكانوا 84 قاضيا ـ فسجنوا خمسة وعشرين مدى الحياة، وأعدموا عشرة، وهرب الباقون إلى «المستعمرات» الأمريكية. ومايزال يطلق على أحد الكهوف في جبل وسن روك بولاية كونيكتكت اسم «كهف القضاة» لأن اثنين منهم (ويليام جون وإدوارد واللي) اختبآ فيه إلى أن قبض عليهما، وشنقا أمام الكهف دون محاكمة!

الفصل الخامس عشر

(1) جماعة الفروند - Frondeurs: جماعة سياسية فرنسية ظهرت في فترة طفولة لويس الرابع عشر، وأثناء تولي الكاردينال مازاران مسؤولية الحكم التنفيذية، وعرفت الجماعة بمعارضتها لحزب الملك والكاردينال. وأخذت اسمها من Frond أي «النبلة» ـ الأداة اليدوية المطاطية لقذف الأحجار ـ لأنهم شبهوا بالصبية الذين يقذفون المارة بأحجار نبالهم ويختفون حالما يظهر من يمثل السلطة ـ وذلك على رغم أنهم كانوا يطالبون بإطلاق حرية التعبير الفكري والسياسي.

(2) الهيجونو Huguenots: طائفة البروتستانت الفرنسيين في القرنين (الـ 16 والـ 17)، يعود أصلهم إلى أتباع الإصلاحي الفرنسي ــ المهاجر إلى جنيف ـ جون كالفين، وحملوا أفكاره (انظر الهامش الأول في الفصل الثالث عشر)، وقد تعود تسميتهم إلى كلمة ألمانية تعني «الانفصاليين»، وقد شن ريشيليو ومازاران عليهم حربا أسفرت عن إبادتهم ـ تقريبا ـ بعد محاصرتهم في مدينتي ليل وكاليه في شمال فرنسا.

(3) جان راسين Jean Racine (1639 ـ 1699): شاعر درامي فرنسي ـ لعله أعظم من كتب المسرحية الشعرية بالفرنسية، إلى جانب زميله كورني corneille. اشتهر بأسلوبه الشعري السهل وتصويره المتعدد الأبعاد لتكوين شخصياته النفسي ولانفعالاتها. من أشهر أعماله: الإسكندر 1665، وأندرو ماك 1667، وبايزيد 1972، وإيفجيفيا 1674، وفيدرا 1677.

(4) جاك بوسويه Jacues-Benigne Bossuet (1627 ـ 1704): قسيس فرنسي، تولى تعليم لويس الرابع عشر في أثناء ولايته للعهد، ثم أصبح مرشدا ومستشارا له، كان له تأثير عميق على مناهج التعليم في عصر ملكه، واشتهر بكتابه «مقال حول تاريخ العالم» العام 1679، الذي اعتبر أنموذجا للتصور «السلطوي» و «الديني» لكتابة التاريخ في أوروبا، قبل عصر التنوير، كما اشتهر بوسويه بمجادلاته العميقة، بأسلوب إنشائي فخيم، مع البروتستانت، وضد كل المنشقين على الكنيسة الكاثوليكية في عصره.

الفصل السادس عشر

(1) الثورة المجيدة Glorious Revolution: يقصد المؤلف، ماعرف باسم: الثورة البيضاء في إنجلترا، حيث أجاز البرلمان الإنجليزي (مجلس العموم) ـ في دورتين متتاليتين (1688 ـ 1689) الوثيقة التي أسست الديموقراطية البريطانية الحديثة (وثيقة الحقوق) التي منحت البرلمان سلطات تنظيم وراثة العرش، وتحديد سلطات الملك، وإقرار الميزانية وفرض الضرائب وإعلان الحرب. ومنحت للطبقات ضمانات تكفل حقوقها السياسية والاجتماعية. وحددت سلطات الملوك. ومنعت أن يعتلي عرش إنجلترا ملك كاثوليكي، فسقط جيمس الثاني، وتم استدعاء ويليام أورانج حاكم هولندا وزوج ابنة جيمس ـ ماري البروتستانتية ـ ليكون ملكا بدلا منه.

(2) جوناثان سويفت (1667 ـ 1745): أحد أشهر الكتاب الساخرين البريطانيين ومن أكبرهم في القرنين السابع عشر والثامن عشر، كتب الرواية والبحث السياسي والمقال والشعر، وعلى رغم منصبه الديني (وهو أيرلندي بروتستانتي من أسرة متواضعة فقيرة) فقد عرف بآرائه العقلانية المستنيرة ونقده اللاذع لكل أنواع الادعاء والجهالة والحماقة والسطحية وهو النقد الذي انعكس في رواياته المشهورة رحلات جالليفر. كان صديقا للشعراء «الكساندر بوب وزويسون وستيل»، ولكنه انغمس في السياسة حتى قربته الملكة آن وعينته رئيسا لكاتدرائية سانت باتريك (دبلن)...

اشتهر في القرن العشرين حيث استوحى منه الروائي الأشهر جيمس جويس شخصية رئيسية في روايته الهائلة «جنازة (ويقظة) فينيجان».

(3) روبرت والبول Robert Walpole(1676 ـ 1745): يحمل لقب سير Sir (فارس) وهو أول من حمل لقب لورد أورفورد. وزير الحربية والخزانة، ثم رئيس وزراء بريطانيا مرتين (من حزب الأحرار ـ الويج Whig). أيد السلام بين إنجلترا وإسبانيا وفرنسا، وعارض الإصلاحات الديموقراطية ولكنه اضطر إلى التسليم بها والتحايل عليها.

(4) دانييل ديفو Daniel Defoe (1659 ـ 1731): أحد أشهر كتاب الإنجليزية في زمنه ومن أوائل من كتبوا الرواية والمقال الصحافي الحديث في لغته. اشتهر بروايته «روبنسن كروزوو» التي كرست قيم وأسس الحضارة البورجوازية للرجل الأبيض كما اشتهر في زمانه بمقالات عن وباء الطاعون التي ظهرت في كتابه «يوميات عام الطاعون» العام 1722. كان وراء حملة إصلاح التعليم، ثم البنوك، ثم حياة البحارة في أسطول بريطانيا، ولكنه تورط في علاقة «عمالة» للملك ويليام الثالث ثم لحزب التوري (المحافظين).

(5) إدموند بيرك Edmund Burke (1729 ـ 1797): سياسي ومفكر بريطاني متعدد الاهتمامات. أيد الثورة الأمريكية، ووقف بعنف ضد الثورة الفرنسية، وكتب عن دستورية فرض الضرائب، وله أشهر دراسة في الفكر الحديث عن «الجميل والجليل». ودراسته عن «المجتمع الطبيعي» تضعه في مصاف التنويريين الكبار. ولكن مقالاته التي أثرت في الاقتصاديين الألمان في القرن التاسع عشر تجعله من أركان الفكر الرأسمالي التقليدي القديم.

(6) ويليام كامدين William Camden (1551 ـ 1623): أثري ومؤرخ بريطاني. أشهر كتبه «بريطانيا» المنشور في العام 1586 (كان يعد أبرز كتاب عن الآثار البريطانية حتى القرن الـ 19)، وله كتاب باللاتينية عن إليزابيث الأولى، ولكنه دفاع حار عن البروتستانتية.

(7) توماس ماكولي (1800 ـ 1859) سياسي وشاعر ومؤرخ وكاتب بريطاني. اشتهر بكتابه «تاريخ إنجلترا» الذي يعد من أجمل الأساليب الإنجليزية، حتى كتب تشرشل مذكراته في الأربعينيات والخمسينيات. وكتابه عن نبلاء روما القديمة، نموذج في كتابة التراجم وسير الحياة من منظور أخلاقي تقليدي غير رومانتيكي، ولهذا كثيرا ما يقارن النقاد بينه وبين كارلايل صاحب كتاب «الأبطال» وماثيو آرنولد وجون راسكين، نقاد العصر الفيكتوري، الذي كان ماكولي من أشد المتحمسين له، شغل مناصب رسمية مهمة منها وزارة الحرب ومستشار المجلس الحاكم للهند.

الفصل السابع عشر

(1) ماجناكارتا Magna Carta: وثيقة «دستورية» وقّعها الملك الإنجليزي جون لاكلاند (شقيق ريتشارد قلب الأسد ووارثه) في العام 1215، مع نبلائه الذين كانوا يطالبون بتحديد سلطات الملك وإشراك النبلاء في اتخاذ القرارات الخاصة بمصادرة الأراضي والثروات وفرض الضرائب وشن الحرب. وكان النبلاء يتحركون تحت زعامة ستيفن لانجتون (الذي اغتصب لنفسه منصب ــ أسقف كانتربري ومرتباته)، وويليام مارشال دوق لانكستر. تكونت الوثيقة في شكلها الأصلي من 63 مادة حذف منها في العام 1217 ـ أي بعد عامين من توقيعها ـ أهم موادها (المادة رقم 61) التي كانت تنص على إلزام الملك، إذا انتهك القانون، بالمثول أمام محكمة من نظرائه النبلاء. وفي العام 1225 حذفت منها كل المواد التي تمنع الملك من الاستيلاء بغير حق على منتجات أراضي جيرانه. ومع

ذلك تعتبر الماجناكارتا «رمزا» لبدايات النصوص الدستورية والفكر الديموقراطي وحكم القانون في الغرب.

(2) توم (توماس) بين Tom (Thomas) Paine (1737 ـ 1809) أحد كتاب ومفكري الثورة الأمريكية. كتب في الاقتصاد والقانون الدستوري وحكم القانون؛ غير أنه اشتهر بأنه صاحب صياغة عبارة: «حقوق الإنسان» في كتابه بهذا العنوان العام 1791، وصاحب صياغة عبارة: «عصر العقل» في كتابه بهذا العنوان أيضا في العام 1794. شارك في الكتابة للثورة، وباسمها في المستعمرات (الولايات المتحدة بعد ذلك) وفي فرنسا، وكان محرضا على الثورة والاستقلال، رافضا للتصالح والبقاء في إطار الإمبراطورية، ولكن تطرفه الشديد (بعد الاستقلال) جعل الحكومة الأمريكية تتنكر له، فرحل إلى بريطانيا حيث اتهم بالتطرف والمروق والخيانة، فرحل إلى فرنسا وشارك في أحداث الثورة الفرنسية الكبرى، غير أن استيلاء اليعاقبة الأكثر تطرفا على السلطة جعله موضع شك، فسجن وتم ترحيله إلى الولايات المتحدة، حيث مات فقيرا ومنبوذا. وفي السنوات الأخيرة (منذ 1980) أعيد اعتباره كأحد أوائل المطالبين بحقوق الإنسان والديموقراطية.

(3) جون لوك John Locke (1632 ـ 1704): الفيلسوف الإنجليزي، الذي عرف بأنه «والد النزعة التجريبية الإنجليزية». تركزت اهتماماته في العلوم الطبيعية والمعرفية والفلسفية العقلية مبتعدا عن ترديد الشروح الأرسطية. وفي الوقت نفسه، أصبح فكره السياسي هو الأساس لليبرالية الديموقراطية الحديثة. اشتهر من أعماله: في الفلسفة «مقال يتعلق بالفهم الإنساني»، وفي الفكر السياسي «مقالات عن الحكومة»، ونشرا في العام 1690. ومن كتبه المهمة «رسالة في التسامح» العام 1669 و «أفكار عن التعليم» العام 1693. ويعد أحد أكبر الأسماء التي ساهمت في بناء العقلانية العلمية الحديثة والتحرر الاجتماعي القانوني والسياسي.

(4) ريتشارد برايس Ritchard Price (1723 ـ 1791): قسيس بريطاني (من ويلز)، يعد من أبرز الفلاسفة الأخلاقيين المحدثين، دافع عن مبدأ: الواجب والحق وتوازنهما في الوجود والسلوك الاجتماعيين للإنسان في مقاله «عرض للأسئلة والصعوبات الأساسية المتعلقة بمسألة الأخلاق» العام 1758، ورأى أن هذا التقابل «بديهية قبْلية a Priori».

(5) الهيسيانيون Hessians ـ فرقة من الجنود المرتزقة الألمان، راج استخدامهم في الحروب الأوروبية منذ القرن الخامس عشر، وأخذوا اسمهم من مقاطعة «هيسيين» في وسط ألمانيا وعاصمتها التي تحمل الاسم نفسه.

(6) بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin (1706 ـ 1790) أحد أشهر «آباء» الثورة والجمهورية الأمريكية؛ وأحد مؤسسي «عصر العقل» في القرن الثامن عشر؛ الذي قيل عنه إنه «اخترع المنطق الاحتجاجي ومانعة الصواعق والجمهورية»، إضافة إلى اختراعه «عدسات النظارات مزدوجة البؤرة». اهتم بالبحث في علوم الكهرباء والكيمياء والأخلاق والاقتصاد والسياسة، وله مساهمات كبرى في كل منها. شارك في كتابة «إعلان الاستقلال»، على رغم ما يقال من أن توماس جيفرسون كتبه بمفرده، «وميثاق حقوق الإنسان والدستور الأمريكي»؛ وكتب سيرة ذاتية ـ عن حياته ـ تعتبر أنموذجا في نوعها صدقا وبلاغة.

(7) الربوبيون Deistic Society: جماعة دينية فلسفية نشأت في فرنسا القرن الـ 17، اعتقدت بأن الله خلق العالم وأخضعه لقوانين الأشياء، ثم تركه يعمل بطبيعته لكي يحاسبه في يوم الدينونة.

الفصل الثامن عشر

(1) الجانسنيون Jansenists ـ نسبة إلى كورنيلوس جانسين: قسيس فرنسي من القرنين السادس عشر والسابع عشر. أقام كنيسة منشقة داخل الكنيسة الكاثوليكية على أساس فكرته من أن الرب، قد حدد منذ البدء أولئك الذين يستحقون «الخلاص» فيحصلون على الخلود في الفردوس، وأن الباقين جميعا ـ مهما كانت أعمالهم ـ مآلهم الجحيم الأبدي. واعتمد كورنيلوس على فكرة القديس أوغسطين عن «الجبر والقدرية»... وقد قضي عمليا في فرنسا على هذه الطائفة في أثناء وبعد الحروب النابوليونية؛ ولكنها ازدهرت ـ ولا تزال ـ في هولندا.

(2) فولتير Voltaire والاسم الأصلي: فرانسوا ماري آرويه Francois Marie Arouet (1694 ـ 1778): أحد أكبر عقول حركة التنوير، الفرنسية والأوروبية في القرن الثامن عشر، ولكنه عمل لحساب لويس الرابع عشر، وفريدريك الأكبر. شاعر وفيلسوف وكاتب روائي ودرامي وناقد اجتماعي وسياسي ومؤرخ. من أهم أعماله: قرن لويس الرابع عشر؛ تاريخ تشارلس الثامن عشر؛ مقالة في القيم وروح الأمم، كانديد، وهي الرواية التي تعد أشهر أعماله؛ القاموس الفلسفي... تميز بالتعصب الفكري والعرقي على رغم أنه هاجم الأديان ـ والإسلام خاصة ـ بتهمة التعصب؛ كما تميز بدفاعه عن الاستبداد السياسي على رغم دعوته للحرية الفكرية والاعتقادية.

(3) باروخ سبينوزا Baruch Spinoza (1632 ـ 1677): فيلسوف هولندي، من أصل برتغالي؛ ولد يهوديا واعتنق الكاثوليكية. يعتبر الآن أفضل من عبر في الغرب عن مبدأ «وحدة الوجود»، وبأن الفكرة والمادة شيء واحد وأن الروح والجماد وجهان لحقيقة واحدة.

(4) مونتسكيو Montesquieu (1699 ـ 1755): الفيلسوف وفيلسوف القانون والمفكر الاجتماعي الفرنسي الكبير. وأحد أكبر عقول حركة التنوير ومن أكثر رجالها وضوحا وأقلهم تناقضا مع أنفسهم. اشتهر بكتابه المهم روح القوانين (1748) الذي ناقش فيه وأكد العلاقة بين القوانين الطبيعية والقوانين الاجتماعية (العقلانية)، وهو ما كان له أثر هائل في الفكر التشريعي والسياسي في العالم بأسره حتى الآن.

(5) إيمانويل جوزيف سييس Emanuel Joseph Sieyes (1748 ـ 1836) سياسي ومفكر فرنسي ، ورجل دين. اشتهر وبرز في عصر الثورة الفرنسية الكبرى إثر نشر كتابه الصغير: «ما هي الدولة القائمة؟» العام 1789 ولكنه لعب دورا مهما في الإتيان بنابوليون إلى السلطة في العام 1799 ـ إثر عودته من مصر ـ فقضى بذلك على الثورة؛ وإن كان هدفه هو القضاء على الفوضى والإرهاب.

(6) القلنسوة الفريجية: نسبة إلى «فريجيا» في اليونان القديمة ـ كانت غطاء رأس الفقراء فيها، ثم أصبحت غطاء رأس فقراء البحارة الإسبان والبرتغاليين قبل أن يقتبسها فقراء باريس؛ أصبحت رمزا للحرية والمساواة أثناء الثورة الكبرى.

(7) جان بول مارا Jean Paul Marat (1743 ـ 1793): محام وصحافي وثوري فرنسي أصبح أحد زعماء الثورة الكبرى. لعب دورا مهما في الإطاحة بالجيروند Gironde المعتدلين؛ ولكن روبسبير اتهمه بالاعتدال والتنازل، فقتلته شارلوت كوردي طعنا بسكين وهو يستحم.

(8) روبسبير Maxmillian Francois Robespiere (1758 ـ 1794): الثوري الفرنسي وقائد حكم الإرهاب برئاسته للجنة الأمن العام، وسيطرته بحزبه المتطرف (اليعاقبة) على الجمعية الوطنية. أعدم الكثيرين من زملائه (كارنو ودانتون وغيرهما) كما أعدم الملك لويس السادس عشر وزوجته الملكة ماري أنتوانيت... ولكنه أعدم أيضا بالمقصلة ضمن أحداث انقلاب ثرميدور العسكري العام 1794.

(9) لافاييت Lafayette (1757 ـ 1834): نبيل فرنسي (حمل لقب ماركيز) وقائد عسكري وسياسي، قاد قوات من فرنسا ليحارب إلى جانب الثوار الأمريكيين في حرب الاستقلال الأمريكية، وآمن بأفكار التنوير والحرية (كان صديقا لمونتسكيو وديدرو) فعينه الثوار الفرنسيون قائدا للحرس الوطني، الذي لعب على رأسه دورا مهما في حماية الثورة ثم في أحداث ثورة 1830.

(10) جورج جاك دانتون George Jack - Danton (1759 ـ 1794): ثوري فرنسي متطرف؛ أسس «حكومة لجنة الأمن العام» التي أقامت حكم الإرهاب، وتولى وزارة العدل فيها ولكن أطاح به زميله روبسبير وأعدمه بالمقصلة.

(11) ويليام بيت (الأصغر) William Pit (Younger) (1708 ـ 1778): رئيس الوزراء البريطاني الشهير الذي قاد بلاده إبان الحروب مع الثورة الفرنسية ثم مع نابوليون، وكان أبوه (الأكبر) هو رئيس الوزراء الذي أنزل الهزيمة بلويس الرابع عشر في حرب السنوات السبع.

(12) ويليام ووردزورث William Wordsworth (1770 ـ 1850): شاعر الرومانتيكية الإنجليزية الأشهر؛ صديق «ناقدها» ومفكرها الأكبر صامويل كولريدج... خلد الطبيعة الإنجليزية، خاصة في منطقة البحيرات حيث عاش غالبية عمره، واحتفل بالقومية البريطانية.

(13) جون بول John Bull: شخصية رمزية اخترعها المؤرخ الإنجليزي جون أربثوت John Arbuthnot، لتكون تعبيرا عن «الشعب الإنجليزي» في مقدمة كتابه «تاريخ جون بول» العام 1712؛ ولكنها تحولت في الصحافة ورسوم الكاريكاتير إلى ما قصده المؤرخ تماما: تعبيرا عن الشعب الإنجليزي وشخصيته مثل: ماري الفرنسية؛ العم سام الأمريكية، ودَرّش المصري... إلخ)... وذلك في أثناء الحروب ضد لويس الرابع عشر (حرب السنوات السبع).

(14) فيكتور هيجو Victor Hugo (1802 ـ 1885): زعيم الحركة الرومانتيكية الفرنسية. كتب الشعر والرواية والمسرحية والمقال، اشتهر بروايته الهائلة: البؤساء، التي صور فيها سوء أوضاع فقراء وسجناء فرنسا في القرن الـ 19، وأحداث ثورة 1848 التي عاصرها، ورواية: أحدب نوتردام؛ ومسرحية: هرناني.

الفصل التاسع عشر

(1) نسبة إلى الملكة فيكتوريا التي حكمت بريطانيا فيما بين 1837 و1901، ويقصد المؤلف أن الاستقرار النسبي الذي تمتعت به أوروبا طوال هذا العصر (نصف قرن) يرجع إلى تفوق بريطانيا الساحق على غيرها من الدول، مع استقرار الملكية البريطانية وغيرها من الأسر الملكية الحاكمة (خاصة في بروسيا ثم ألمانيا، والنمسا وروسيا والدول الإسكندنافية وإسبانيا)، فعلى رغم ثورات العام 1848 وحرب الوحدة الإيطالية والألمانية، ظل النظام العام مستقرا وثابتا، ظاهريا على الأقل.

(2) المشارطون Chartrists: نسبة إلى وثيقة «ميثاق الشعب: People's Charter» التي وقعها آلاف عدة من أعضاء البرلمان الإنجليزي والمجالس البلدية والسياسيين، فأسسوا بها حركة إصلاحية سياسية وقانونية بريطانية دامت بين 1848 و1858 واستهدفت إصلاح قوانين التمثيل التجاري: أزالت شرط الملكية للترشيح ولعضوية البرلمان (مجلس العموم)، وقررت حق الانتخاب لكل مواطن (دافع ضرائب) وأقرت الانتخاب بالاقتراع السري المباشر، وأزاحت الفروق البرلمانية بين المقاطعات والأقاليم المختلفة... إلخ.

(3) يبالغ المؤلف هنا بوضوح ـــ ربما قاصدا ـــ بذكره أن «ذروة ثورة الاتصالات» كانت في أواخر

القرن الـ 19: وربما يقصد أنها الذروة بالنسبة للقرن الـ 19 نفسه بسبب اختراع الكاميرا والسينما، فهذه لا تقارن بذروة القرن العشرين: من التليفون إلى التليفزيون إلى أقمار الاتصالات الصناعية إلى شبكات الاتصال العالمية... إلخ.

(4) جلادستون William Ewart :Gladstone (1809 ـ 1898): السياسي ورئيس الوزراء البريطاني (أربع مرات) في القرن التاسع عشر وزعيم حزب الأحرار. وعلى رغم اشتهاره في الداخل بعدائه للكنيسة الإيرلندية (الكاثوليكية) وإصلاح التعليم، فإنه اشتهر في العالم بأنه أحد أبرز وجوه «الإمبراطورية الاستعمارية» البريطانية.

(5) دزرائيلي Denjamin Disraeli (1804 ـ 1881): زعيم حزب الأحرار البريطاني، ورئيس وزراء بريطانيا، وأحد «بناة الإمبراطورية»، الذي عُرف بإخلاصه الشديد لسياسة الحماية الاقتصادية والحرب والتوسع الاستعماري. اشتهر في التاريخ العربي بأنه رئيس الوزراء الذي خدع الخديو إسماعيل في مصر، وفرنسا، واشترى لبريطانيا نصيب مصر في أسهم شركة قناة السويس، الذي به سيطرت بريطانيا على السياسة المصرية قبل الاحتلال.

(6) بالمرستون Henry Temple Palmerstone (1828 ـ 1885): وزير الخارجية، ثم رئيس الوزراء البريطاني مرتين الذي غير انتماءه من الأحرار إلى المحافظين (الويج) ومرتين أيضا. مؤسس سياسة «الزوارق المسلحة» في السياسة الدولية الاستعمارية. اشتهر بتعصبه الوطني الشديد وترسيخه لسياسة التوسع الاستعماري بوصفها «عقيدة» وطنية سياسية.

(7) البيان الشيوعي Communist Manifesto: الكتيب الصغير الذي كتبه كارل ماركس وفريدريك إنجلز معا، وأصدراه العام 1848 في لندن فأصبح أول «وثيقة» فكرية سياسية تتحدث عن مبادئ الحركة الشيوعية العالمية. ولكن الإشارة إليه هنا من جانب المؤلف تبين بعدا مهما في فكر المؤلف ذاته ومفهومه عن «الحرب». فالبيان الشيوعي يقيم مفهومه السياسي الرئيسي على فكرة «الصراع الطبقي»... ويبدو أن المؤلف يعتبر هذا الصراع نوعا من «الحرب» أو إنذارا بها.

(8) فلورانس نايتنجيل Florence Nightengale (1820 ــ 1910): سيدة المصباح (أو: حاملة المصباح) البريطانية التي أسست أول هيئة مدنية مسؤولة عن تمريض مرضى الحرب (في حرب القرم) والعناية بهم، وأنشأت أول مدرسة لتدريب الممرضات في العالم في لندن العام 1860.

(9) تينيسون (Lord) Alfred Tennyson 1809 ــ 1892: الشاعر الإنجليزي الرومانتيكي الكبير، وأحد القلائل «المتوجين» أميرا للشعراء الإنجليز (منذ 1850 حتى وفاته)... اشتهر بغنائياته الملونة القوية وإيقاعاته الموسيقية الرنانة وولعه بالموضوعات الإنسانية أكثر من ولعه بالطبيعة، مثل قصيدة «وادي الموت» التي يشير إليها المؤلف هنا.

(10) يقلب المؤلف التاريخ هنا. فالحقيقة أن بريطانيا هي التي دخلت حلبة الصراع على المستعمرات ــ في آسيا وأفريقيا والعالم الجديد ــ مزاحمة للدول التي سبقتها، وهي بالترتيب: البرتغال ثم إسبانيا ثم هولندا ثم فرنسا، ونجحت معهم جميعا في تكوين تحالفات قوية ضد كل واحدة منهم لهزيمتها وانتزاع جزء من ممتلكاتها فيما وراء البحار أو كل ممتلكاتها، وهو ما حدث مع فرنسا... فهل يمكن أن ننظر إلى كلام المؤلف هنا باعتباره نوعا من «الدعاية» المضادة لبلاده ضد «غرمائها» القدامى، وهو أستاذ في التاريخ «الدولي»؟

(11) لينكولن Abraham Lincoln (1809 ـ 1865) رئيس الولايات المتحدة (السادس عشر) الجمهوري... والذي يعتبر بطل حرب تحرير العبيد (الحرب الأهلية) والذي أنقذ الاتحاد من التمزق بإصراره على الوحدة وتحرير العبيد في آن واحد. اغتيل برصاص متعصب جنوبي بعد انتهاء الحرب.

(12) بيسمارك Otto Von Bismarck (Prince) 1815 ـ 1898: مستشار بروسيا، ثم ألمانيا الموحدة (المستشار الحديدي) الذي خطط للوحدة الألمانية في سلسلة حروب متتالية (ضد الدنمارك ثم النمسا ثم فرنسا (فيما بين 1865 و1871)، وخطط أيضا لكل من استكمال الثورة الصناعية/ العلمية لألمانيا وتوسعها الاستعماري ـ البحري ـ فيما وراء البحار.
(13) كافور Camillo Benso - Cavour (1810 ـ 1861): السياسي الإيطالي ورئيس وزراء مملكة بيدمونت وسارادينيا في شمال إيطاليا، الذي تزعم الجناح السياسي لحركة الوحدة الإيطالية.
(14) غاريبالدي Guissipie Garibaldi (1807 ـ 1882): قائد الجناح العسكري لحركة الوحدة الإيطالية. أنشأ جيش المتطوعين وقاده ضد النمساويين والفرنسيين، فاستولى على كل من نابولي وصقلية لتنضما إلى مملكة إيطاليا الناشئة.

الفصل العشرون

(1) كليمينصو Georges Benyamin Clemencea (1841 ـ 1924) رئيس وزراء فرنسا مرتين، أخطرهما المرة الثانية في أثناء وبعد الحرب العالمية الأولى (1917 ـ 1920)، كان صاحب وزعيم الاتجاه المتشدد ضد ألمانيا المهزومة، وصاغ معاهدة فرساي للصلح التي أوقعت بالألمان عقوبات بالغة القسوة.
(2) حرب البوير Boer War: هي الصراع المسلح الذي نشب مرتين بين بريطانيا والمستوطنين الأوروبيين في جنوب أفريقيا (كانت غالبيتهم من أصول هولندية وبلجيكية وبرتغالية). المرة الأولى حين سحبت بريطانيا اعترافها باستقلالهم العام 1880، وكانت قد منحتهم الاستقلال مقابل مساعدتهم لقواتها المحاصرة في الحرب ضد مملكة وقبائل الزولو الأفريقية. واستمرت الحرب حتى نهاية 1881، وفي المرة الثانية نشبت الحرب (بين 1899 و 1902) حين هاجمت دولة أورانج وترانسفال المستقلة المستعمرة البريطانية في جوهانسبرج.

الفصل الواحد والعشرون

(1) خطة شلايفين Schlieffen plan: هي الخطة الألمانية التنفيذية للحرب في الغرب ـ تجاه فرنسا وهولندا وبلجيكا ولوكسمبورج ـ التي وضعها الجنرال الكونت ألفريد فون شلايفين (1833 ـ 1913) رئيس أركان الجيش الألماني في ديسمبر العام 1905. وكانت تراجع ويتم تجديدها كل عام حتى أصبحت أساسا للهجوم الألماني الفعلي على الجبهة الغربية في العام 1914، وكانت ترمي إلى إنزال الهزيمة بسرعة بفرنسا عن طريق تطويق جيوشها باختراق بلجيكا وهولندا ولوكسمبورج؛ وإيقاف الجيوش الروسية في الشرق بسلسلة من العمليات الدفاعية لحين الانتهاء من القوة الفرنسية وما قد ترسله إليها بريطانيا من قوات مساعدة. غير أن الخطة فشلت لأسباب عدة أهمها قوة المقاومة البلجيكية، وقوة الهجوم الروسي في الجبهة الشرقية الذي أرغم مولتكه ــ رئيس الأركان الألماني وخليفة شلايفين ــ على نقل قوات كبيرة من الغرب إلى الشرق، وأخيرا لأن الفرنسيين نجحوا في صد الهجوم الألماني في سلسلة من المعارك الناجحة بالاستعانة بالبريطانيين فتحولت الحرب من هجوم خاطف متحرك إلى استنزاف متبادل بين خطوط الخنادق الثابتة.
(2) الهون The Huns: شعب همجي هبط على أوروبا الجنوبية والغربية في القرن الخامس الميلادي، ودمروا تقريبا الإمبراطوريتين الرومانيتين الشرقية والغربية تحت قيادة زعيمهم المشهور أتيلا،

واشتهروا بوحشيتهم الشديدة ـ مثل التتار فيما بعد ـ في معاملتهم لخصومهم. وعلى رغم أنهم لا علاقة مباشرة لهم بالألمان الذين انحدروا من سلالات جرمانية مختلفة (الفرانك والقوط والفندال والنورمان... إلخ) فإن الدعاية الغربية الحديثة ربطت بينهم وبين الهون القدامى الذين ذابوا عمليا في السلالات المختلفة القوية في أوروبا، أو التي وفدت عليها بعدهم.

(3) حرب الغواصات: المقصود هو استخدام الألمان لسلاح الغواصات (قليل التكلفة نسبيا والذي كان يسهل صنعه وإخفاؤه) لمقاتلة الأسطول البريطاني ـ المتفوق في سفن السطح بنسبة كبيرة ـ والأساطيل الحليفة ولمحاصرة الجزر البريطانية وموانئ حلفائها في زمن الحرب.

(4) دول الوسط: المقصود (في الحرب العالمية الأولى) دولة ألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر (ومعهما السلطنة العثمانية التركية) اللتين كانتا تقعان في الوسط بين جبهتي الحلفاء: روسيا في الشرق والشمال، وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا في الجنوب والغرب.

(5) ماتاهاري: Mata Hari: الاسم الفني لجاسوسة فرنسية عملت لحساب الألمان وأعدمها الفرنسيون عقب اكتشاف أمرها العام 1917. اسمها الحقيقي جيرترود مارجرت زيل Gerterude M.zelle ـ ويبدو أنها من أصل ألماني ـ كانت راقصة عملت أمها في مستعمرة فرنسية في جنوب شرق آسيا ومن هناك أخذت اسمها الفني... من إحدى اللغات في الملايو (ماليزيا) ومعناه: الشمس.

(6) تيوتوني Tutonic: نسبة إلى التيوتون Teuton(s) من أوائل القبائل الجرمانية التي هددت الإمبراطورية الرومانية الغربية. هبطوا من جزيرة جرينلاند إلى شمال أوروبا ووسطها، ثم نزلوا جنوبا متحالفين مع بني عمومتهم: الإمبرونيين والسيمبريين واستولوا أولا على بلاد الغال (فرنسا حاليا) ثم زحفوا شمالا نحو الراين وبروسيا الغربية وبلجيكا. وأصبح اسمهم دالا على كل القبائل الجرمانية ولغاتها التي سكنت ألمانيا واسكندنافيا وهولندا وبلجيكا. وقد تكونت في العصور الوسطى منظمات قتالية من الفرسان الصليبيين حملت اسم الفرسان التيوتون، واشتهرت بوحشيتها في فرض النصرانية على شعوب شرق أوروبا الوثنية إلى أن صدهم الروس وأبادوهم تقريبا في معركة بحيرة بايبوس العام 1242.

(7) البوش Boche: كلمة فرنسية مجهولة الأصل؛ صاغها العامة الفرنسيون منذ أواسط القرن الماضي لكي يصفوا بها الألمان، وتعني: البرابرة الغلاظ الهمج وغير المتحضرين.

(8) آلامو Alamo: موقع معركة مهمة في كنيسة وإرسالية أمريكية قرب سان أنطونيو بولاية تكساس، هاجم فيها الجيش المكسيكي بقيادة سانتا آنا مجموعة من المستوطنين البيض كانوا يطالبوا باستقلال تكساس عن المكسيك فأبادهم الجنود المكسيكيون العام 1836، وأدت المذبحة إلى الحرب الأمريكية المكسيكية التي أدت إلى ضم تكساس إلى الولايات المتحدة.

(9) القيصر Keiser: لقب ملك بروسيا (منذ استقلال بروسيا التي أسسها الفرسان التيوتون عن بولندا) حيث كان ملوك بروسيا يطمحون إلى تجديد الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

(10) لودندورف Eerich von Ludendorf (1865 ـ 1939): أحد كبار الجنرالات الألمان في الحرب العالمية الأولى. حقق انتصارات عدة على الروس في الجبهة الشرقية، ولكنه لقي أكثر من هزيمة على أيدي القادة البريطانيين والفرنسيين في الجبهة الغربية، وكان الساعد الأيمن للقائد الألماني الميداني الأكبر، هندنبرج.

(11) معاهدة بريست ليتوفسك Brest Litovsk treaty: معاهدة الصلح التي عقدتها الحكومة السوفييتية البلشفية ـ بزعامة لينين ـ مع ألمانيا القيصرية وإمبراطورية النمسا والمجر في 3 مارس العام 1918، والتي خرجت روسيا بمقتضاها وحدها من الحرب العالمية الأولى. وبهذه المعاهدة سلمت روسيا

لألمانيا كلا من: أوكرانيا وفنلندا وجمهوريات البلطيق والقوقاز وروسيا البيضاء وبولندا، وذلك بسبب استئناف الألمان لهجومهم شرقا لقطع الطرق على مناورات تروتسكي في المفاوضات (وكان يرأس الوفد السوفييتي) فأمره لينين بقبول جميع الشروط الألمانية، وتوقيع المعاهدة بدلا من انتظار قيام ثورة اشتراكية في ألمانيا!!

(12) المقصود هنا الجنود في الجيوش النمساوية من البلاد التي تسكنها أغلبيات تنتمي إلى العرق السلافي Slavic كالتشيك والسلوفاك والسلوفينيين والبولنديين والكروات وغيرهم.

الفصل الثاني والعشرون

(1) بليخانوف Georgi Valentinovich, plekhanov (1856 ـ 1918): أحد أوائل الماركسيين الروس ومن أكبرهم. اشتهر بأنه صاحب أول ترجمة للروسية للبيان الشيوعي؛ ومؤسس أول تنظيم شيوعي (اشتراكي ديموقراطي) في روسيا القيصرية، وأحد أكبر زعماء الكتلة التي عارضت لينين ـــ أو المنشفيك ـــ داخل الحزب الشيوعي الروسي فيما بعد، ولكنه ـ فكريا ـ اشتهر بكتابه المهم: تطور النظرة الأحادية للتاريخ، وكتابه في النظرية الثقافية بعنوان «مقالات في تاريخ المادية» وكتابه الثالث «دور الفرد في التاريخ».

(2) البلشفيك Bolsheviks ـ أي: الأغلبية و: المنشفيك Menshviks ـ أي: الأقلية. كلمتان روسيتان؛ أصبحت الأولى اسما للكتلة التي تزعمها لينين داخل الحزب الاشتراكي الديموقراطي الروسي في مؤتمره في لندن العام 1903، وهي الكتلة الأغلبية التي وافقت على «برنامج» إشعال الثورة الاشتراكية واستيلاء الشيوعيين على السلطة. بينما رأت الكتلة الأخرى (الأقلية)، التي تزعمها بليخانوف وبعض زملائه، رأت أن البرنامج الصحيح ينبغي ألا يستهدف الاستيلاء على السلطة بالثورة وإنما المساعدة على إسقاط النظام القيصري وعلى قيام نظام ديموقراطي. وبعد العام 1903 أصبح «البلشفيك» هم «الحزب الشيوعي الروسي» كما أصبحت كلمة «البلاشفة» في الغرب وخارج روسيا علامة على الشيوعيين الذين يعملون بوحي من موسكو أو بالتنسيق معها.

(3) تروتسكي Leon Trotsky (1877 ـ1940): أحد أكبر قادة الشيوعيين البلاشفة الروس، مع لينين، وهو المنظم الحقيقي للحزب وواضع برنامجه «الثوري» بناء على أفكار لينين المتعلقة بتحليل أوضاع روسيا الاجتماعية والاقتصادية. وبعد الثورة ـ التي كان هو منظمها الرئيسي ـ تولى المفاوضات مع ألمانيا لعقد الصلح وخروج روسيا من الحرب العالمية الأولى ثم أصبح قوميسارا (أو: وزيرا) للشؤون الخارجية في حكومة لينين. ولكن بعد موت لينين تمكن ستالين من السيطرة على الحزب وطرد تروتسكي العام 1927 ثم نفيه من روسيا. ورحل تروتسكي إلى المكسيك (العام 1929) حيث اغتالته فرقة من القتلة الروس بأمر من ستالين لأنه كان ما يزال يناوئ الديكتاتور السوفييتي داخل المنظمة الشيوعية الدولية (الكومينترن).

(4) السوفييت Soviets: الكلمة الروسية التي تعني المجالس الشعبية؛ وهي المجالس التي تكونت ـ بشكل تلقائي تقريبا في غمار أحداث الثورة (العام 1917 وما قبله بقليل) والتي سيطر الشيوعيون البلاشفة على معظمها فسيطروا من خلالها على كل من قيادة الجيش (عن طريق سوفييتات الجنود) والإدارة المدنية والإنتاجية (عن طريق سوفييتات العمال والفلاحين).

(5) يقصد المؤلف أن توظيف «الأيقونات» المرسومة للسيد المسيح والعذراء والقديسين في الكنيسة الأورثوذكسية الروسية طوال نحو 1800 سنة، وتحميل الأيقونات ـ كرموز ـ العديد من المعاني التي

اعتاد الروسيون المسيحيون أن يتلقوها وأن يدركوها بوضوح... ساعد هذا التوظيف الموروث للأيقونة في اعتماد الدعاة السياسيين على «صور مرسومة» في توصيل ما أرادوه من المعاني للجماهير الأمية بالأسلوب نفسه.

6ـ ماياكوفسكي Vladimir Mayakovsky (1894 ـ 1930): أحد أكبر شعراء روسيا الثوريين. ارتبط بالحركة المستقبلية الطليعية. والتي سبقت إلى استقطاب الجيل المتمرد في روسيا القيصرية قبل أن يستولي الشيوعيون على الثورة وعلى حركة التقدم فيها. ولكن ماياكوفسكي وضع شعره في خدمة الثورة و«تغنى بقوة إيفان الجماعي» أي الشعب الروسي في مجمله؛ ولكنه ظل مؤمنا بالحرية الفردية وبالتمرد، الأمر الذي جعل الجهاز الرسمي لدولة ستالين يستبعده فانتحر بالرصاص.

(7) مورمانسك Mormansk: أهم ميناء لروسيا على المحيط المتجمد الشمالي وأكبر مدينة في العالم شمال الدائرة القطبية الشمالية، ولكن مياه الميناء تخلو من الجليد طوال العام بفضل مياه تيار الخليج الدافئة. أُسست العام 1915 ميناء تجاريا يخدم عمليات صيد الأسماك، وحولتها الدولة السوفييتية إلى أكبر قاعدة لأسطولها البحري الحربي، وبخاصة لأسطول الغواصات بعد العام 1930.

(8) الآرشانجل Archangel: الإقليم الشمالي الغربي الأقصى من روسيا، يقع بأسره في الدائرة القطبية، ويلتف حول مصب نهر دفينا وسهله الخصب في الربيع والصيف. ويعد الإقليم قاعدة السيطرة الروسية على شمال بحر البلطيق وشمال المحيط الأطلنطي واسكندنافيا.

(9) أيزنشتاين Sergi Eisenstein (1898 ـ 1948): أشهر مخرجي السينما الروس ومن أشهرهم في المرحلة الأولى لتطور فن الفيلم السينمائي، وخاصة في اتجاه الواقعية الملحمية والتعبيرية بأفلامه: المدرعة بوتمكين، ألكسندر نيفسكي، إيفان الرهيب.

(10) الموسكوات الصغيرة Little Moscows: إشارة إلى التجمعات السكانية التي حاولت الجماعات الشيوعية في الغرب إنشاءها في أواخر العشرينيات خارج المدن الكبرى، كنماذج لمجتمعات تحاكي الصورة الدعائية التي رسمتها الدعاية الشيوعية أيامها للمجتمع السوفييتي. وقد اختفت هذه التجمعات نهائيا مع تصاعد حدة الأزمة الاقتصادية والتوترات السياسية التي صاحبتها في أوائل الثلاثينيات.

(11) كلايد الحمراء Redclyde:ـ إشارة إلى بعض الأحداث التي قام بها الشيوعيون الإنجليز في لندن ومدن شمال شرق إنجلترا الصناعية في أثناء إضرابات العام 1919، وإعلان إحدى الضواحي (كلايد) استقلالها الاجتماعي والاقتصادي عن بقية إنجلترا.

(12) بيرد John Logie Biard (1888 ـ 1946): المهندس البريطاني مخترع أول نظام (ميكانيكي) لنقل الصور (تليفزيونيا). ولكن هذا النظام استبدل وحل محله النظام الكهربائي العام 1941.

الفصل الثالث والعشرون

(1) يبدو أن المؤلف - البريطاني الجنسية - من المعجبين بشكل خاص، برئيس الوزراء نيفيل تشمبرلين، كما يبدو المؤلف - في هذا الفصل ـ قليل الإعجاب بخليفة تشمبرلين وينستون تشرشل، مع أن تشمبرلين هو الذي يعده المؤرخون ـ بالإجماع تقريبا - مسؤولا عن «خيانة تشيكوسلوفاكيا» وتسليمها لهتلر لقمة سائغة في الاتفاقية التي وقعها الرجلان في ميونيخ في

صيف العام 1938. ويصف المؤرخ الأمريكي ويليام شيرر (في صعود وسقوط الرايخ الثالث كريست بوكسس 1959 ص 485 - 578 وما بعدها) كيف كان هتلر «يبلف» وكيف كان بالإمكان وقف هتلر عند حده لو أن تشمبرلين قبل التنسيق مع روسيا، الذي عرضه ستالين، ولو أن رئيس الوزراء البريطاني كان أقل سذاجة. والمؤلف يلتمس الأعذار لتشمبرلين ـ بعد قليل ـ على رغم أن هتلر انتهك اتفاقه معه قبل مرور 6 أشهر واحتل بقية تشيكوسلوفاكيا.

(2) أنشلوس Anschluss: كلمة في الألمانية الجنوبية (العالية القديمة) تعني: الوحدة بين ألمانيا والنمسا. ويوحي كلام المؤلف هنا أن «ضم» النازيين الألمان للنمسا كان تطبيقا لمبدأ «حق تقرير المصير» الذي يحدده أي شعب عن طريق استفتاء عام أو الانتخابات. ولكن المعروف والمؤكد أنه لم تجر في النمسا - ولا في ألمانيا طبعا - أي استفتاءات ولا انتخابات بشأن «التوحيد»... وإنما تم الضم عن طريق انقلاب سياسي شبه عسكري دبره النازيون في النمسا، وكانوا أقلية ضئيلة، ثم عن طريق الاحتلال العسكري الألماني الصريح للنمسا التي اختار شعبها بوضوح، الاستقلال بعد الحرب.

(3) يستخدم المؤلف هنا كلمة «أرماجيدو Armageddon»، أو المعركة التي ورد ذكرها في الإنجيل (رؤيا يوحنا 16:12) على أنها ستنشب عند انتهاء العالم بين قوى الخير والشر؛ وبعد انتصار الخير، تقوم القيامة.

(4) ليلة كسر الكؤوس: يقصد بها ليلة 10 نوفمبر 1938، التي نظم فيها الحزب النازي بأوامر مباشرة من جوبلز، سلسلة من المظاهرات التي قامت بمهاجمة جميع ممتلكات اليهود في ألمانيا، وأحرقت أكثر من عشرة آلاف محل لهم، وعشرات عدة من آلاف المساكن، وقتلت مئات عدة منهم؛ وقاد هذه العملية راينهارد هايدريش نائب هيلمر في قيادة قوات العاصفة الحزبية، وقائد كل من الجستابو (جهاز الأمن السري) ووحدة «الخدمات الأمنية الخاصة» التابعة لمكتب هتلر. وكان جوبلز قد أمر بهذه المظاهرات ردا على قتل سكرتير ثالث ألماني «يدعى إرنست فون راث» في سفارة ألمانيا بباريس يوم 7 نوفمبر 1938 على يد يهودي ألماني هارب يدعى هيرشيل جرينسبال كانت أسرته قد رحلت قسرا إلى بولندا (شيرر - ص580).

(5) بوهيميا ومورافيا: أكبر مقاطعتين في تشيكوسلوفاكيا، الأولى هي موطن التشيك وعاصمتها براغ، والثانية موطن السلوفاك وعاصمتها براتيسلافا. ولم يكن إقليم «السوديت» يشكل أكثر من 12٪ من مساحة البلاد.

(6) الحرب المزيفة: تعبير تسمى به الفترة من انتهاء الهجوم على بولندا حتى بداية الهجوم الألماني على الجبهة الغربية واحتلال كل من الدنمارك وهولندا قبل مهاجمة بلجيكا وفرنسا في الغرب. وهي الفترة التي اتسمت بتوقف العمليات الحربية حين كان الألمان يحشدون قواتهم في الغرب ويأملون في ألا ترسل بريطانيا ولا فرنسا قوات لمحاربتهم بسبب غزو بولندا؛ فيما كانت بريطانيا تحشد قواتها لإرسالها إلى بلجيكا لمساعدتها ومساعدة فرنسا على مواجهة الهجوم الألماني المتوقع.

(7) لا يبدو لهذه العبارة معنى محدد، فالحرب لم تبدأ بهجوم للفرسان (مما قد يعني أن بولندا هي التي بدأت الحرب، فقد كان جيشها العتيق ما يزال يضم كتائب خيالة تقاتل بالسيوف والبنادق)، ولكن الحرب بدأت بهجوم ألماني مدبر على محطة إذاعة ألمانية قرب الحدود بواسطة مجموعة من «بلطجية» الحزب النازي الألماني ارتدوا ملابس الجيش البولندي وقادهم سكورزكي، الذي اشتهر بعمليات عدة مشابهة في أثناء الحرب.

(8) العنقاء: المقصود هو الطائر الأسطوري (مشهور في الأساطير الفينيقية) الذي ينهض حيا من رماد سلفه المحترق.
(9) أشهر معارك الجبهة الشرقية، وربما أشهر معارك الحرب العالمية الثانية (مع معركتي كورسك في روسيا ـ أيضا ـ والأردين في ألمانيا) دامت شهورا عدة من خريف وشتاء العام 1942، حتى استسلم ما بقي من الجيش الألماني بقيادة فون بولوس «نحو مائة ألف مقاتل» وتمثل نقطة التحول الحاسمة في الحرب العالمية الثانية لمصلحة الحلفاء في أوروبا.
(10) همفري جيننجز Humphrey Jennings (1907 - 1950): الرسام والشاعر والروائي البريطاني الذي تحول إلى مخرج سينمائي كبير قبيل الحرب العالمية الثانية، ويعد من مؤسسي «فن» الأفلام السينمائية التسجيلية في الغرب.
(11) ويعد لورد فانسيتارت أيضا من أنصار مدرسة «الديبلوماسية السياسية» أي أن يكون الديبلوماسي «واضع سياسة» لا مجرد منفذ لسياسة يضعها غيره؛ كما أنه عرف بعدائه الشديد للشيوعية بقدر لا يقل عن عدائه للنازية.
(12) نويل كوارد Noel Coward (1889 - 1973): الممثل والمخرج والكاتب الدرامي المسرحي، والسينمائي البريطاني. اشتهر في المسرح بأعماله الاجتماعية الخفيفة - في موضوعها - والمركبة في معالجاتها خلال الأربعينيات والخمسينيات، قبل أن يظهر «الغاضبون» فيحتلون مركز الصدارة في المسرح البريطاني.
(13) بيلسين Belsen: من معسكرات الاعتقال والتعذيب والتصفية النازية المشهورة في جنوب شرق ألمانيا؛ ولكن تفوقه شهرة معسكرات: داخاو وأوشفيتز وغيرها.
(14) ألكساندر نيفسكي: اسم أمير سلافي روسي عاش في القرن الثالث عشر (1220 - 1263) وأصبح البطل القومي للروس في العصور الوسطى لتجميعه قبائلهم في معاركهم ضد السويديين وهزيمته لهم على نهر نيفا العام 1240، ثم سحقه للفرسان التيوتون الألمان في المعركة الشهيرة فوق ثلوج بحيرة بابيوس المتجمدة، وإبادتهم في البحيرة العام 1242. أخرج المخرج الروسي السينمائي الشهير سيرجي آيزنشتاين فيلما عنه وعن انتصاره على التيوتون العام 1938.
(15) كومينترن Comintern: اختصار الشيوعية الدولية Communist Internatioal، وهي التنظيم الدولي الذي أوجده لينين العام 1919، ليضمن سيطرته وسيطرة الحزب الشيوعي الروسي على الحركة الشيوعية وأحزابها في أوروبا والعالم.
(16) ليلة السكاكين الطويلة: المقصود ليلة يوم 30 يونيو (وفجر الأول من يوليو) العام 1934، التي أطلق فيها هتلر مجموعات خاصة من القتلة، لا تنتمي إلى أي جهاز أمني أو مؤسسة، وتولى هو بنفسه قيادة إحداها فاغتالوا في تلك الليلة نحو 150 من قادة الحزب النازي المتطرفين (على رأسهم نائبه وقائد فرق العاصفة، «روهم» الذي قتلته المجموعة التي قادها هتلر) ونحو ألف من أعوانهم أعدموا بالرصاص دون محاكمة، في عملية «تطهير» مشهورة للتخلص منهم لأنهم أرادوا أن يقوم الحزب بثورة ثانية للتخلص من قوى اليمين مثلما تم التخلص قبل ذلك من اليسار؛ ولكن الجيش الألماني دعم هتلر، الأمر الذي أتاح له تصفية مناوئيه في «ليلة السكاكين الطويلة».
(17) المقصود هو اسم حزب هتلر: الحزب القومي الاشتراكي الألماني (وكلمة نازي، هي الحروف الأولى من كلمة قومي Nazional).
(18) الجستابو ـ G.E.S.T.A.P.O: الحروف المأخوذة من كلمتي Geheime Staatspolizie (أو: شرطة الدولة السرية)، وهو أكثر أجهزة الأمن النازية السرية شرا وشهرة وخطورة والمسؤول عن اغتيال

أو تدمير حياة ملايين عدة طوال سنوات حكم النازي.

(19) هيس Rudolf Hess (1894 - 1987): أحد كبار قادة النازيين مع هتلر وروهم وهيملر وجوبلز. عينه هتلر نائبا له بعد قتل روهم؛ ولكنه فاجأ العالم بقيادته طائرة ذات محرك واحد ويهبط بها في اسكتلندا في صيف العام 1941 - على رغم الحرب وعلى رغم منصبه الرسمي - قائلا إنه يريد أن يفاوض تشرشل للتوصل إلى السلام، ولكن تشرشل أمر باعتقاله وقدمه للمحاكمة في نورمبرج بعد الحرب، حيث حكم عليه بالسجن مدى الحياة وانتحر في النهاية وعمره نحو 93 سنة!

الفصل الرابع والعشرون

(1) مشروع مارشال Marshal Plan: المشروع الاقتصادي لإعادة تعمير أوروبا بعد الحرب الذي وضعه الجنرال جورج مارشال، رئيس هيئة أركان الجيش الأمريكي في أثناء الحرب العالمية الثانية، ووزير الخارجية - منذ يناير 1947 - والذي أعلنه بنفسه في الخامس من يونية 1947 في خطابه المشهور في جامعة هارفارد. وكانت الهيئة التي أقامتها حكومات أوروبا الغربية لتنفيذ المشروع باسم «منظمة التعاون الاقتصادي الأوروبي» منذ إبريل العام 1946 هي التي أشرفت على توزيع وإنفاق 17 مليار دولار، قدمتها الولايات المتحدة حتى العام 1952 لإعادة إعمار أوروبا وتشغيل مصانعها ومرافقها التي دمرتها الحرب.

(2) كلوزفيتز Karl von Glausevitz (1780 - 1831): جنرال بروسي شارك في حروب عدة، واشتهر بكتاباته عن الإستراتيجية التي استرشد بها قادة ألمانيا وروسيا فيما بعد، ويعد من رواد علم الجيوستراتيجي.

(3) علينا أن نتذكر أن الكتاب صدر لأول مرة العام 1990، أي قبل الانهيار السوفييتي وانتهاء الحرب الباردة بعامين فقط.

(4) لابد أن تلفت هذه الدعوة نظر مؤرخي الإستراتيجية والسياسة العالمية المعاصرة؛ فالكاتب ـ وهو صاحب مكانة تتيح له أن يدرك الكثير من غوامض وأسرار السياسة الدولية في بلاده (بريطانيا) ـ يدعو إلى العمل الدعائي لإزالة معنى «العدو» عن الاتحاد السوفييتي في العام 1990، قبل انهيار ذلك الاتحاد نفسه وتفككه بعامين. فهل كانت هناك مؤشرات (لم تعلن في حينها) تدل على قرب زوال تلك الدولة من الوجود؛أم أن المؤلف كان يعرف مالم يعرفه العالم - ومالا يسمح له بمعرفته ـ مما يدعو إلى توقع زوال أسباب العداء؟!

(5) مطاردة السحرة Witch - Hunts: إشارة إلى حركة شاملة (اجتماعية ـ ثقافية ـ سياسية) قادتها «محاكم التفتيش» التي أقامتها الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر، لمطاردة ومحاكمة وإعدام من تتهمهم بالهرطقة والسحر، كان كثيرون من ضحاياها علماء ومفكرون وبسطاء أبرياء لا علاقة لهم بشيء. ودامت هذه الحركة حتى نهاية القرن السابع عشر، واشتدت في دول ومجتمعات وسط أوروبا بشكل خاص (حيث زادها اشتعالا الخوف من حركة الإصلاح البروتستانتي والتعصب الديني الذي ولدته) ويقال إن ضحاياها زاد عددهم على أربعة ملايين شخص (أكثرهم من النساء) أعدموا حرقا.

(6) هجوم تيت Tet Offensive: هجوم شنته قوات الثوار الڤيتناميين (الفيت كونج) بتخطيط الجنرال جياب وقيادته فيما بين 29 يناير و 25 فبراير العام 1968، واستمد اسمه من اسم الاحتفالات الڤيتنامية ببداية السنة القمرية حسب التقويم المحلي هناك... اكتسح فيه المهاجمون أكثر من

تسعين موقعا ومركزا للقوات الأمريكية وقوات ڤيتنام الجنوبية، وأوقعوا فيها خسائر جسيمة، كما لقوا خسائر أكثر جسامة. غير أن الهجوم دفع القيادة الأمريكية إلى تبني سياسة واستراتيجية «ڤتنمت» الحرب أو الانسحاب التدريجي للقوات الأمريكية وترك الحرب لأصحابها الڤيتناميين، الأمر الذي كان له أثره الحاسم في نتيجة الحرب ككل.

(7) التعبير الذي صاغه ميخائيل جورباتشوف - آخر رؤساء الاتحاد السوڤييتي، وأطلقه اسما على سياسته التي أقامها على الشفافية ومكاشفة الرأي العام بحقيقة الأوضاع والأحداث، بدلا من التعتيم الذي كانت تتبعه الحكومات السوڤييتية السابقة.

(8) الملك كانيوت King Canute: ملك أسطوري في التراث الشعبي للكلتبيين - أوائل من سكنوا الجزر البريطانية - تحكي الأسطورة أنه كان يأمر الرياح فتوقف ارتفاع مياه المد في المحيط وفي بحر الشمال حتى تتهيأ له الفرصة لكي يعبر البحر بجنوده في أثناء غروه للدنمارك.!

المؤلف في سطور:

فيليب تايلور

* أستاذ التاريخ الدولي الحديث في جامعة ليدز البريطانية منذ العام 1978.

* يشغل أيضا ـ في الجامعة ذاتها ـ منصب نائب مدير معهد دراسات علوم الاتصالات الذي أنشئ هناك حديثا.

* أصدر مؤلفات عدة، من البحوث والكتب في: التاريخ الدولي (السياسي والحربي)، وفي تطور وتأثير وسائل الاتصال الجماهيري الحديثة.

* أشرف على تحرير مجلة «التاريخ» لمدة طويلة، وكتب وأخرج فيلم «النداء لحمل السلاح: الدعاية وإعادة التسلح في الثلاثينيات»، الذي أنتجه اتحاد الجامعات البريطانية للأفلام التاريخية، وهو الاتحاد الذي يشغل تايلور منصب سكرتيره التنفيذي.

المترجم في سطور:

سامي خشبة

* نائب رئيس تحرير جريدة «الأهرام» القاهرية، والمشرف على الباب الثقافي في ملحقها الأسبوعي منذ 15 سنة.

* يعمل الآن ـ أيضا ـ رئيسا لهيئة المسرح بوزارة الثقافة المصرية.

* درس الصحافة والإعلام بجامعة القاهرة، وفي معهد الصحافة الدولي في بودابست.

* نشر العديد من البحوث والمقالات في النقد الثقافي والتحليل السياسي



النظام الاقتصادي الدولي المعاصر

من نهاية الحرب العالمية الثانية إلى نهاية الحرب الباردة

تأليف: د. حازم الببلاوي

والاجتماعي وفي النقد الأدبي والمسرحي في دوريات القاهرة والعواصم العربية الأخرى. وله أعمال مؤلفة عدة من أحدثها: «مصطلحات فكرية» الذي نشر في القاهرة العام 1992، وقضايا المسرح المعاصر». وكذلك له أعمال مترجمة: من أهمها: «نظريات الدراما الأوروبية»، «المسرح في مفترق الطرق»، «معنى الفن».

هذا الكتاب

يكشف هذا الكتاب الفريد في نوعه عن العلاقة العميقة بين علم التاريخ ـ وهو من أقدم ما ابتكره العقل البشري وما احتاج إليه المجتمع الإنساني من علوم ـ وكل من فنون الحرب وعلوم وممارسات السياسة، وبين فنون «الاتصال» وعلم الاتصالات ـ بالتالي ـ وهو من أحدث المبتكرات العلمية والاحتياجات العملية لكل من عقل الإنسان وبنائه الاجتماعي، و«المنظومة» السياسية الدولية التي تتعايش في إطارها كل المجتمعات والدول، أو تتناحر. وإذ يتتبع الكتاب تطور الدعاية للحرب التي ترتبط فيها أهداف العمل السياسي والممارسة الفعلية للأعمال القتالية، فإنه يمزج بين ما يخطط له السياسي، وما يستهدفه ـ فيحققه أو يعجز عنه ـ العسكري، وصولا إلى ما يوجهه رجل الدعاية (الإقناع في جانب أو الحرب النفسية في جانب آخر) من رسائل إلى شعبه أو إلى جنوده لإقناعهم، أو إلى الشعب الخصم وجنوده لتحطيمهم نفسيا.

إن الكتاب يلبي حاجة معرفية وعملية/ نفسية بالغة الأهمية للقارئ العربي، في هذه المرحلة من تاريخ المنطقة والعالم التي تتصاعد فيها موجات «الدعاية» من كل اتجاه ونوع، هابطة علينا من فضاء الأقمار، وعلى موجات الأثير، وشبكات المعلومات الكونية، بينما تتزايد احتمالات اشتعال صراعات يسعى فيها كل مجتمع إلى أن يضمن لشعبه مكانا في مستقبل لم تتحدد معالمه بعد.